الوصف في الشعر العربي

تأليف

عبد العظيم علي قناوي

الجزء الأول

الوصف في العصر الجاهلي

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الإهداء

إلى النهضة الأدبية ، وإلى الطموح العلمي

إلى من ألهمني الإسهام في عرض طرف من تراثنا الأدبي الخالد ، وإلى من أولاني القدرة على إبراز ذلك التراث شائقاً جذاباً في ثوب من التحليل والنقد رائق رائع

إلى هذا وذاك أهدي ذلك الكتاب الذي أرجو أن يأخذ مكانه من مكتبة الأدب الرفيع ، وأن ينال عناية وتقديراً من أدباء الجيل ، وأن يكون باكورة لجهد أدبي كبير ، أقدمه للأدباء والمتأدبين من أبناء العروبة الأماثل ، مطمئناً له ، معتزاً به ، معتمداً على الله فيه .

المؤلف

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين .

و بعد : فهذا هو الجزء الأول من كتاب «الوصف فى الشعر العربى» وهو كتاب تضم أجزاؤه الأربعة التى ستصدر تباعا إن شاء الله فن الوصف ، ناظمة شتات هذا الفن ، جامعة أطرافه من العصر الجاهلى إلى هذا العصر ، فالجزء الأول يبحث الوصف فى العصر الجاهلى ، و يناقش بعض نظريات الأدب نقاشا مدعوما بالحجة، والثانى يبحث الوصف فى العصر الإسلامى والأموى ، والثالث يبحثه فى العصر العباسى والأندلسى ، والرابع يبحثه فى العصر الحاضر . ولا أزعم أنى سأستقصى كل ماقيل فى الوصف ، فتلك غاية لاتبلغ ، على أن جدواها لاتتجاوز مارسمناه لأنفسنا من عرض صور كاملة لأجزاء هذا الفن ، ثم تحليل هذه الصور تحليلا دقيقا وافيا ، و بيان ماتنتظمه من اتفاق فى النظرة أو اختلاف ، ورسم خطوط واضحة لما نراه فيها من طرافة وجدة وابتداع ، أو لما نلمحه فيها من تقليد ومحاكاة واتباع .

و إنما اخترت هذا الضرب من ضروب الشعر ؛ لأنه أغناها بعناصر الجمال ، وأحفلها بأسباب الحسن ، ولأنه ينبعث حين تتفجر به قرائح الشعراء عن صادق الشعور ، ووحى الإحساس .

والحق أن الوصف هو الشعر ، و بقية الأبواب الأخرى على جلال بعضها ، وانصراف الشعراء إليها فى بعض عصور الأدب تجىء تابعة له ، متفرعة عنه ، نابعة من منابعه ، و إن بدا الأمر غير ذلك

والشاعر الحق هو الذى يتملكه مافى السكون من مناظر تبهر النواظر، فيستطيع وصفها ، وتصوير أثرها فى نفسه ، وهو الذى يبهره مافى الحياة من ظواهر تملك الحواس ، فيستطيع رسمها ، ووصف مايخالج الأفكار عند مرآها ، فهو يعبر عما لايستطيع غيره التعبير عنه من وصف لمعنى من معانى الجمال ، ولا يقف هذا التعبير عند ناحية بذاتها من نواحى الجمال ، وإنما تختلف هذه المناحى ، وتتعدد الزوايا التى ينظر منها الشعراء ، فتتعدد عناصر الجمال .

يرى شاعر البدر فيصور استدارته فى القبة الزرقاء ، ويصور آخر وضاءته بين سواطع النجوم التى يذهب بسطوعها ، ويصور ثالث أثره فى المحبين ، وأنه عون العاذلين والرقباء ، وفى كل من هذه الفكر حسن وروعة وجمال ، يرضى عنه شاعر ، ولا يرضى عنه آخر ، وكلاهما يصف شعوره ، فيجيد التعبير عن وصف ذلك الشعور .

وكلما اشتد الشاعر تأثرا بهذا المنظر أو بذاك وجد عناصر الإجادة لديه مواتية مدانية ، واستطاع أن يصوره على حقيقته دون مبالغة أو تزيد ؛ لأن المبالغة يُلجأ إليها عندما يريد الأديب أن يزيد على الحقيقة ؛ ليلبسها ثوبا غير ثوبها ، ويكسوها إهابا أضفى من إهابها ، وهذا معناه أن نقصا يعتورها يريد أن يغطيه ، لكنه إذا أفعم ذلك المنظر حسه ، وملأ نفسه ، تصوره كاملا لايحتاج إلى تزيد أو مغالاة .

وبعد . فإن نهجنا فى هذا الكتاب نهج بديع لم نسبق إليه فى أى فن من فنون الشعر، ولم يعالجه أديب كما نعالجه نحن ، ولم نقتبسه من سوانا . ولا اعتمدنا فى أحكامنا على غيرنا من شيوخ الأدب ، قد نتفق معهم ؛ لأننا ننظر مثل نظرتهم، وقد نختلف معهم ؛ لأن لنا رأيا نقيم الدليل على سداده ، ونسوق الحجة على صوابه ، ولا يضيرنا الخلاف؛ بل إننا به نسعد ، لأنه الرأى الحر .

نهجُنا فى هذا الكتاب نهج شاق عنيف ؛ لأنه جمع لهذا الفن من جميع مظانه ، وتخليصه من الأغراض الأخرى التى تتصل به، ثم تفسير مفردات النماذج حتى نزود القارئ بالزاد الذى يعينه على متابعة السير فى هذه الدارة التى لايقدر على السير فيها إلا من تزود بذلك الزاد ، ثم تحليل هذه النماذج تحليلا يكشف دقائق معانيها ، وطرائف جزيئاتها ،

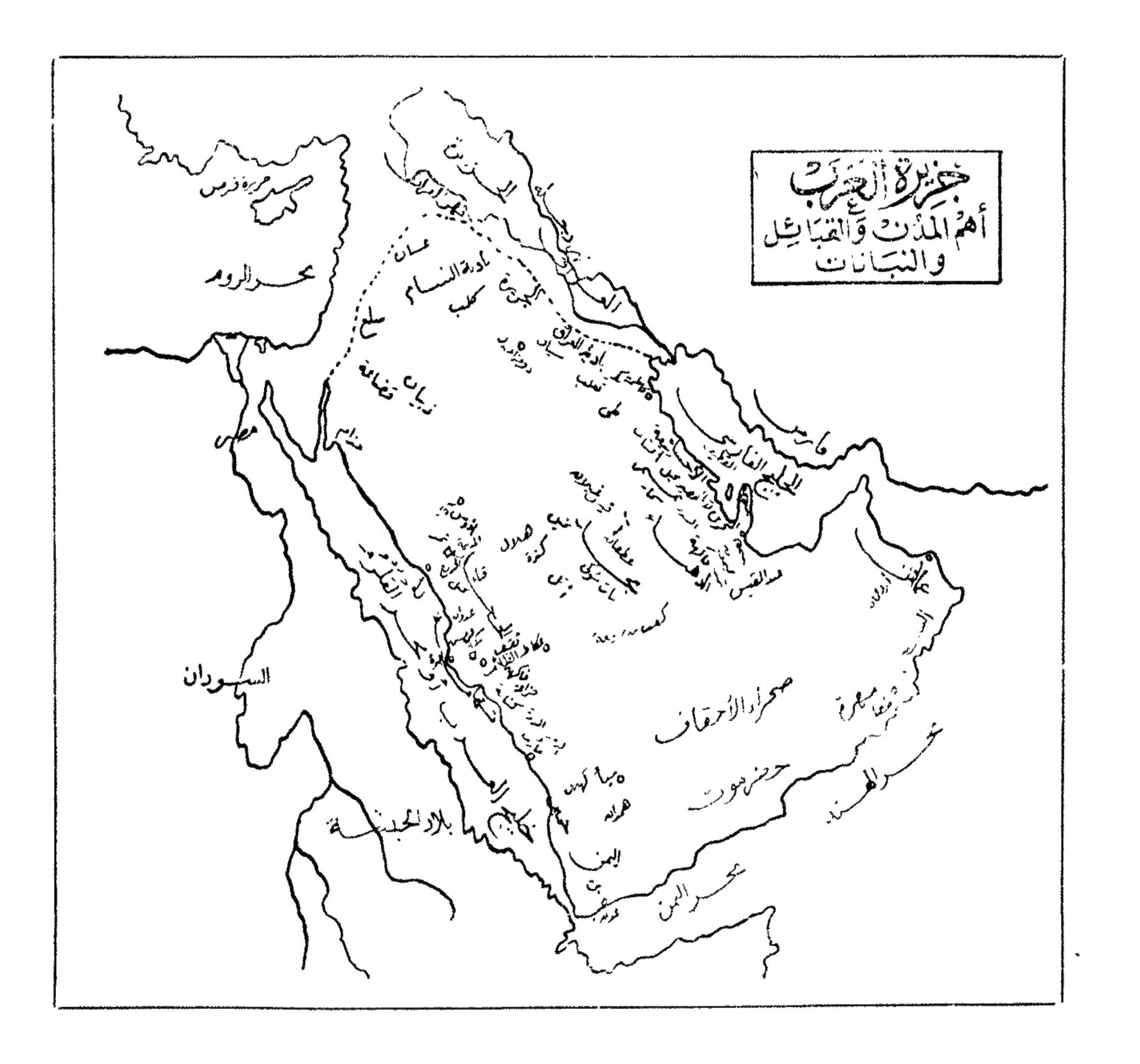
وإبراز محاسنها . ثم النظر فى معانى هؤلاء الشعراء الذين اتفقوا فى الموضوع ؛ لنبين عناصر الحسن ومعانى الجمال ، ولنحصى الطريف البديع ، ولننسب كل معنى إلى صاحبه ؛ إذا كان هذا المعنى طريفا بديعا ، وسبيلنا فى هذا هو الترجمة الموجزة الوافية لكل شاعر ، ونسبته إلى إقليمه وقبيله ؛ ليظهر أثر هذين فى اتجاهه وتفكيره ، وفى أسلوبه وألفاظه . وفى حياته : بداوتها أو حضارتها .

وقد سايرتُ العصور الأدبية ؛ لأن المعانى تتطور بتطورها ؛ ولأن الأدب يختلف باختلاف عوامل الحياة فيها ، فرأيت أن من الخير أن أربط كل عصر بأدبه . أو كل أدب بعصره ؛ فالنابغة إذ يصف الليل ليس مثلَه ابن خفاجة ، والحطيئة إذ يصور البخيل ليس مثلَه بشار .

ثم إن هناك شيئا آخر دفعنى إلى مراعاة ذلك الترتيب هو ربط الشعراء المتعاصرين بعضهم ببعض ، ووزنهم بميزان واحد ؛ لأنهم يحيون حياة واحدة ، ويعيشون فى عصر واحد .

هذا ، وقد قدمت بين يدى الوصف فصولا لابد منها : هى وصف جزيرة العرب لأنها المعين الذى يستقى منه أولئك الشعراء ، ثم عرض حقائق أدبية جليناها تجلية تدفع عنها شبهات المشككين ، ثم عرضنا لتقسيم الشعر عند الإفرنج وعند العرب ، وأثبتنا أن العرب فى عصورهم السحيقة كان لهم شعر قصصى . ثم انتقلت إلى تقسيم الشعر الغنائى عند العرب ، ثم عرضت للوصف فقسمته ، ثم أبرزت قيمته العالية فى الآداب العالمية ، وأرجو أن أكون بلغت بعض ما إليه قصدت ، فعلى الله قصد السبيل ؟

المؤلف


جزيرة العرب
أهم المدن والقبائل
والنباتات
بحر الروم
جزيرة قبرص
مصر
السودان
بلاد الحبشة
بادية الشام
كلب
طيء
تهامة
الخليج الفارسي
فارس
صحراء الأحقاف
حضرموت
اليمن
بحر اليمن
بحر الهند

الفصل الأول

بلاد العرب

بلاد العرب أو الجزيرة العربية كما كان القدماء من أهلها يسمونها تقع فى الجنوب الشرقى من القارة الأسيوية ، وهى تحد شمالا بالبحر الأبيض وجبال طرسوس ، وجنوبا ببحر اليمن ، وشرقا بالخليج الفارسى وبحر عمان ، وغربا بالبحر الأحمر .

وإذا كانت بلاد العرب تضم شعبا واحدا ، فإنها ليست ذات طبيعة واحدة ؛ إذ أنها تختلف اختلافا عظيما فى كثير من الظواهر الطبيعية ، فهذا الجزء حار الجو ، وذاك قاريه ، وذلك بارده ، وهذا إقليم خصب غنى بأسباب الحياة ، وذاك جدب قاحل تبسط الصحارى عليه أجنحتها ، وغيرهما ساحلى يشتغل أهله بالغوص على اللؤلؤ والمرجان ، وعليهما يعتمدون فى حياتهم .

واختلاف الظواهر الطبيعية فى بلاد العرب جعلهم يختلفون طبائع وصناعات ومهنا ؛ كما يختلفون حضارة وبداوة ، فهؤلاء هادئون إلى حد ، وأولئك ثائرون إلى غير حد ، وهؤلاء يصطنعون التجارة ، وأولئك يزاولون الزراعة ، وقد تجد منهم من له حظ من الصناعة ، وكل هذا التباين كان له أثره فى أدبهم بوجه عام ، وفى شعرهم بوجه خاص .

لذلك كان لزاما علينا أن نتناول وصفها بالتفصيل ؛ حتى تكون الأحكام التى نصدرها على شعرهم قائمة على أساس من العلم قوى سليم .

ونستطيع أن نقسمها إلى سبعة أقسام هى أهم أقطارها فى العصر القديم ، وأعظم أقاليمها فى الأيام الأولى ، وإلى هذه الأقاليم ينتسب الشعراء جميعا ، وفيها الأماكن والعيون ، والجبال والصحارى ، والقرى والمدن التى ترد أسماؤها فى أشعارهم ؛ كما أن فيها أسماء الحيوانات والنباتات التى تفيض بها أشعارهم فى أوصافهم أو تشبيهاتهم « انظر المصور » .

وتلك الأقاليم هى : الحجاز ، واليمن ، وحضرموت ، وعمان ، والبحرين ، والصحارى ، ونجد .

وأعظم هذه الأقسام فى القديم والحديث الحجاز واليمن ونجد .

١ — فأما الحجاز فيقتبس مكانته الرفيعة ، ومنزلته الشماء ، من قدسيته ومقامه الدينى؛ ففيه مكة المكرمة أم القرى ، وبها بيت الله الحرام الذى قام على بنائه نبيان كريمان : إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام فى واد ضيق ، وصفه الله سبحانه على لسان رسوله إبراهيم داعياً ضارعاً : « رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ » .

وقد جعل الله سبحانه هذا البيت مجتمعا للحجيج ، وأمنا للائذين: «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ، وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ، مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ . وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » .

وفيه يثرب التى سميت بعد الإسلام مدينة الرسول ، وهى حاضرة الإسلام فى عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعهد خلفائه الراشدين أبى بكر وعمر وعثمان .

وفيه الطائف ، وهى مدينة حصينة منيعة ، كانت مصيف السراة . قال النمرى يتحدث عن فاطمة أخت الحجاج ، ويصفها بالرفاهية والنعماء :

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف

وقد ضرب بمناعتها المثل ، فقال الشاعر :

منعنا أرضنا من كل حى كما امتنعت بطائفها ثقيف

وفيها خيبر ، وهى مدينة حصينة كذلك ، كان يسكنها اليهود قبل الإسلام ، ولقى

المسلمون من كيدهم وحربهم عنتا ، وهى على عكس الطائف ؛ إذ كانت وخمة الهواء ، كثيرة الوباء ، قال الشاعر :

٣ : وقفت بها أبكى ، وأشعر سخنة كما اعتاد محموما بخيبر صالب

والحجاز كما ترى يختلف فى هوائه ، ويتباين فى جوه ؛ فمكة مشتى لأن جوها أميل إلى الحرارة ، والطائف مصيف ؛ لأن جوه جميل ، وهواءه عليل ، وخيبر وبيئة وخيمة .

ويعيش أهله على بعض مايزرعون وما يستوردون من الأقاليم الأخرى ، وشرابهم من العيون المنبثقة ، والسيول المنهمرة ، ومن حيوانه الخيل السكرائم ، والإبل الهجان ، ومن وحوشه الغزلان والذئاب، والأسود والضباع، ومن طيوره العقبان والغربان، والنعام والحمام . ومن زروعه النخيل والأعناب .

٢ — أما اليمن فيستمد مجده من عظمته التالدة ، ويقتبس عظمته من مجده الخالد ، فقد كان مقرا لملك عظيم ، وموطنا لسلطان كبير ، وعاصمته صنعاء ، وكان فى ظاهرها قصر غمدان ، ومن مدنها ظفار التى اتخذها بعض ملوك حمير حاضرة لدولته ، ومن مرافئها عدن ، كانت ـ ولا تزال ـ من أهم الموانئ على المحيط الهندى .

وهذا الإقليم ينقسم طبيعيا إلى ثلاثة أقسام :

(ا) السهل الساحلى ويعرف بتهامة .

(ب) المرتفعات الجبلية ، وهى موازية للساحل . (حـ) الصحراء الشرقية .

وستقرأ فى الفصل الثالث من هذا الكتاب الكثير من مظاهر مجد اليمن وعزته فى العصور الجاهلية الأولى .

٣ — وفى الجنوب الشرقى لليمن إقليم حضرموت ، وكان فى العصور الأولى إقليما قويا ذا مملكة عظيمة ، بلغ من قوته أن حاصر ملكه مملكة سبإ ، فارتفع نجم ذلك الإقليم ، وكان ذا صلات تجارية مع جاراته .

٤ — وعمان فى الجنوب الشرقى لحضرموت ، وهى ذات ساحل طويل على الخليج الفارسى، ويستمد أهلها ثروتهم من الغوص على اللآلئ واستخراجها، والتجارة فيها .

٥ — وإقليم البحرين ، ويمتد من عمان إلى حدود العراق ، ومن بلاده هجر وقطر ، وأهله كأهل عمان يغوصون على اللآلئ ، ثم يتجرون فيها .

وجوّه الساحلى معتدل جميل الهواء ، أما الجزء الداخلى فحارّ ، ومن محصولاته البلح والتمر؛ حتى ضرب المثل بهجر فى جودة التمر ، فقيل « كناقل التمر إلى هجر » والبن والحبوب والفواكه، ومن حيوانه الخيل والإبل والبقر، والحمير والبغال ، ومن وحوشه الأسود والذئاب والضباع ، والزراف والقرود ، والنعام .

٦ — أما وسط الجزيرة فصحارى مترامية الأطراف ، لا يكاد النظر يدرك نهاياتها ، ولا يوشك الطرف أن يبلغ غاياتها ، يجرى فيها السراب جريان الماء فى الأنهار ، وتظهر فيها الوحوش الكاسرة ظهور الحيوانات الآنسة فى الحقول الناضرة .

فمن هذه الصحارى : « صحراء الدهناء ، والنفود ، والأحقاف » وبعض أجزاء هذه الصحارى خصب، وإن تكن رملية ، فإنها تصير بسقوط الأمطار من أجود المراعى، وليست التربة فى الدهناء والنفود متجانسة، فهناك بعض جهات لا يرى فيها غير آكام الرمال ؛ تكاد تبتلع السابلة لنعومتها وعدم تماسكها ، فيتجنبها الجوابون ابتغاء السلامة لأرواحهم وأرزاقهم .

وتتألف فى بعض أجزائها دارات يكثر فيها النخيل ، كما أن بها مناطق خصبة كجبل شمر فى جنوب النفود ، إذ تنحدر إليه المياه من جبلى طيئ « أجا وسلمى » الممتدين من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، ولهذه الصحارى فى الشعر العربى ، وفى الوصف بالذات الأثر العظيم .

٧ — أما نجد فيقع فى الشمال لهذه الصحارى ، وهو قطر خصب ، والمناطق الخصبة منه تطوقها الدهناء شرقا وجنوبا ، كما تطوقه النفود من الشمال ، وتتسع المنطقة الخصبة على الجانب الشاطئ للبحر الأحمر .

وحاضرة نجد الآن هى « الرياض » وتقع فى إيالة العارض ، وهى المعروفة قديما بالجو والعروض واليمامة ، وتقع بين سدير شمالا ، والخرق والحريق جنوبا .

ومن مدن نجد الصغيرة الآن اليمامة ، وتقع على مجرى عين فرزان ، وكانت قديما تطلق على منطقة واسعة .

وقد تغنى الشعراء قديما بجو نجد ، وبجمال هوائها ، حتى من لم يسكن نجدا ، ولا عرف جوها ، ولا استنشق هواءها ، وليس كل الإقليم معتدل الهواء ، لكنه يختلف باختلاف المنطقة ، فالحريق ووادى الدواسر حاران مثلا .

وبنجد من الحيوان الحبارى والنعام ، وابن آوى وبقر الوحش وحماره .

ويطول بنا مجال القول لو حاولنا حصر جميع البلاد التى ورد ذكرها فى الشعر العربى ، على أننا سنحدد فى تفسير الأبيات كل مدينة ، أو قرية ، أو جبل ، أو برقة ، أو عين ترد فيما نقدمه من نماذج ، وحسبنا هذا الذى قدمناه فى تخطيط جزيرة العرب .

جو بلاد العرب وأثره فى شعرهم

هذا العرض الموجز لأهم أجزاء بلاد العرب ، ولطبيعتها يهيئ لنا أن نحكم حكما صالحا مبسوطا على جوها ، فجوها له أثر عظيم فى شاعرية أهلها ، فهى فى أكبر مناطقها قارية الجو ، ماعدا بعض المناطق الساحلية ، وقد أجملنا ذلك قبل ، فنفصل هنا هذا الإجمال :

١ — تظهر الحرارة المنطوية على « الرطوبة » فى السهول الساحلية ، وبخاصة فى نهاية بلاد اليمن وإمارة البحرين ، ومن القبائل التى كانت تسكنها بكر وأسد وتميم وأزد وغيرها .

٢ — تشتد الحرارة الخالصة فى الوهاد التى تتوسط الجزيرة ، وفى الوديان الواطئة ، ويعتدل الهواء فى المرتفعات والنجاد .

ومن القبائل التى كانت تسكن هذه الأقاليم : بنو حنيفة وبنو قشير ، وجعدة ويربوع ونمير وكلاب ، وغيرها .

٣ — ويتميز البحر الأحمر بجوه الحار ، فيمد الأقاليم المتاخمة له بالدفء فى الشتاء ، ويلطف من رمضاء الصحارى التى على شاطئيه صيفا .

٤ — ونجد – كما قدمنا – من أجمل بلاد العرب جوا ، لذلك تغنى بصَبَاها الشعراء ، وقالوا عنها : إنها تهب من مطلع الشمس ، كما قال ابن الدمينة :

ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد ؟ لقد زادنى مسراك وجدا على وجد

وتقابل هذه الريح الجميلة ريح الدبور ، وهى تهب من مغرب الشمس ، ومن ذكر الأعشى لها واصفا مسير ناقته قولُه :

لها زجل كحفيف الحصا صادف بالليل ريحا دبورا

وقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فى حديث ، فقال : « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور» ومازال الشعراء يتحدثون بعرارها ، و يلهجون برياها ، فيقول قائلهم :

تمتع من شميم عَرَار نجد فما بعد العشية من عرار

ألا يا حبذا نفحات نجد وريا روضه بعد القطار

وقال غيره :

قفا ودعا نجدا ومن حل بالحمى وقلّ لنجد عندنا أن يودعا

بنفسى تلك الأرض ماأطيب الربا وما أحسن المصطاف والمتربعا !

ولم تكن بلادهم تجرى من تحتها الأنهار ، أو تسعد جميع أقسامها بالأمطار ، فأحبوا المطر وعشقوه ، فجعلوا منه دعاء لأحبابهم ، وأمانى لأعزائهم ، بل دعوا بالسقيا للأيام ، وقلدهم شعراء ؛ الأنهارُ من طرقهم ؛ والماء بعض سبلهم ، قال ابن زيدون الأندلسى :

ليسق عهدكم عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

وقال أحمد بك شوقى :

١١ : سقيا لعهد كأكناف الربا رفة أنى ذهبنا وأعطاف الصبا لينا

ولفقرهم إلى الماء ، كانت غلاتهم محدودة ، ومحصولاتهم محصورة ، فلا تكاد تجد من هذه الغلات غير ماقدمنا شيئا ، والذى قدمناه لايستغنى به شعب ، لذلك كانت لهم رحلتان تجاريتان : إحداها إلى اليمن زمن الشتاء ، والأخرى إلى الشام زمن الصيف ، وكأنهم بهاتين الرحلتين كانوا يتقون الأجواء عند اجتلاب الأرزاق .

تقسيم القبائل العربية على أجزاء بلاد العرب

١ — كانت قبيلة قريش « واسمه فهر » تسكن مكة ، وقد تفرع إلى بطون كثيرة ، منها : الحارث ، ومحارب ، وتيم ، وعامر ، وخزيمة ، وسعد ، وعدى ، ومخزوم ؛ وكانت لقريش و بطونها الزعامة الدينية فى العصر الجاهلى ، ثم ثبتت ببعثة الرسول الكريم من قريش ، و بسط فى رقعتها ، فجعلها تشمل العالم الإنسانى .

٢ — وكانت قبيلة ثقيف وهى حى من هوازن تسكن الطائف ، ولها به حصانة ومناعة ، وغنى وثروة ، وكان يسكن الطائف مع ثقيف بنو عدوان و بنو الحارث و بنو سعيد .

٣ — وكانت المدينة وطنا لقبيلتى الأوس والخزرج القحطانيتين ، وهما على ما بينهما من صلات الرحم كانتا متعاديتين ، فالعداوة مستحكمة ، والحرب بينهما متصلة ؛ حتى ألف الله بين قلوبهم بالإسلام .

٤ — وكانت هذيل تسكن جبالا بين مكة والطائف ، وقد اشتهر الهذليون بشعرهم الرقيق ، ونسيبهم العذب الجميل .

٥ — وعذرة إحدى القبائل الحميرية النازحة إلى بادية الحجاز ، وقد اشتهر أبناؤها بالغزل العفيف ، وفتياتها بالجمال الرائع .

٦ — وكان يسكن اليمن أبناء قحطان ، وهؤلاء كان لهم فرعان : فرع كهلان وفرع حمير ، وقد تعددت رحلات أولئك وهؤلاء ؛ حتى سكن بعض القحطانيين من أبناء كهلان الحجاز ، كالأوس والخزرج ؛ ومن فروع كهلان : طيئ ولخم وجذام ومراد وكندة وهمدان ومذحج والأزد .

٧ — وكان يسكن حضرموت بطون من كندة تسمى تجيب ، وفى حدودها من الشمال الأحقاف ، وكانت مسكنا لعاد قوم هود عليه السلام .

٨ — وكان يسكن عمان بعض قوم طيئ ، ومن أشهرهم بنو نبهان ، كما كان يسكن البحرين قبائل من تميم ، وهم عدنانيون مضريون .

أثر البيئة فى الشعر العربى

البيئة أعظم العوامل المؤثرة فى الأدب ، بل هى فى واقع أمرها ، وقوة وقعها تعتبر الخالقة لبعض فنونه ، المكونة لأكثر عناصره ، فإنها تخلع عليه جميع ألوانها ، وتهب له كل مظاهرها ، بل هى تحرمه ماحرمته ؛ وتمنعه ما مُنعته ؛ ليس ذلك شأنها مع الأديب أو مع الإنسان فحسب ؛ بل هو شأنها مع الحيوان ؛ فالحيوان يتلون بلون بيئته التى يعيش فيها ؛ و يتكون بتكوينها ؛ فيبدو مثلا أصفر اللون ؛ صلب الأعضاء ؛ ضامر الجسم ؛ شرس الطمع ؛ إذا كان يعيش فى الصحراء ؛ فهى التى خلعت عليه صفرة رملها ؛ وصلابة صخرها ؛ وقلة الغذاء فيها ؛ طعاما وشرابا حملته ضامر الجسم ؛ وقلة الخلاط بها جعلته شرس الطمع ؛ فإذا تركت الصحراء إلى إقليم ساحلى خصب وجدت لونا أبيض ؛ وجسما ريان ممتلئا ؛ وطبعا لينا هادئا ؛ و إذا كان هذا هو تأثير البيئة فى الحيوان ؛ فما بالنا بتأثيرها فى الإنسان ؟

إنها تطبعه بطابعها ، وتسمه بسمتها ؛ فالرجل الذى يعيش فى الصحراء يألف مناظرها ؛ و يأنس إلى كواسرها ، وقد يعشق بعض حيواناتها ، فيتخذ منها أصدقاءه ، يستدنيها بصوته الذى يشبه أصواتها ، و يتألفها بلونه الذى يقارب ألوانها ، و يجد فيها سلوانته ، و يلقى فيها هو يته :

١٢ : عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى   وصوّت إنسان فكدت أطير

لذلك نجد الشعراء الذين يعيشون فى الصحارى أجزل لفظا ، وأوضح معنى ، جزالةُ ألفاظهم قوامها حبهم لكل صلب ، وشغفهم بكل غليظ ، ووضاحةُ معانيهم أساسها تلك السماء الصافية التى منحت قلوبهم صفاءها ، وأخيلتهم ساطتها ، فإذا جاوزت الصحراء إلى إقليم حضرى يكسو الخصب حقوله ثيابا من الأشجار الباسقة ، والأزهار الناضرة والأثمار اليانعة رأيت فى ألفاظهم رقة ، وفى معانيهم خيالا مركبا ، فمن ذلك الذى يستطيع أن يحكم أن هذه الأبيات لشاعر جاهلى دون أن يكون عالما ذلك من قبل ؟

قال المنخل اليشكرى نديم النعمان وسميره ، والنعمان كان ملكا على الحيرة من قبل الفرس :

ولقد دخلت على الفتا	ة الخدر فى يوم مطير
الكاعب الحسناء تر	فل فى الدمقس وفى الحرير
فدفعتها فتدافعت	مشى القطاة إلى الغدير
ولثمتها فتنفست	كتنفس الظبى الغرير

إن الحضارة التى كان يحيا فيها ، والبيئة التى عاش بها هى التى رققت شعره ؛ حتى لكأنه الماء القراح سلاسة وعذوبة ، وهى التى أوحت إليه بتلك المعانى الرائعة الغزلة ، ثم من يحكم بعد ذلك بأن قائل الأبيات السابقة كان يعيش فى عصر واحد مع قائل هذه الأبيات ؟

مهفهفة بيضاء غير مفاضة	ترائبها مصقولة كالسجنجل
تصد وتبدى عن أسيل وتتقى	بناظرة من وحش وجرة مطفل
وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش	إذا هى نصته ولا بمعطل
وفرع يزين المتن أسود فاحم	أثيث كقنو النخلة المتعثكل
غدائره مستشزرات إلى العلا	تضل المقاص فى مثنى ومرسل

٢١ :

إنه ستشتد غرابته حين يعلم أن قائل هذه الأبيات ملك ابن ملك ، ولكنه سيزول عجبه حين يعلم أن البيئة التى عاش فيها كل منهما هى الموحية إليه بألفاظه ومعانيه .

الفصل الثاني

حقائق أدبيـــة

شاعرية الأمم :

الشعر في جميع الآداب العالمية هو سفير الشعور ، ورسول الوجدان ، وترجمان العاطفة ، ذلك شأنه في جميع الشعوب ، لا ينفرد بهذا شعب دون شعب ، ولا تتميز به أمة دون أمة ، وإنما تتفاضل الشعوب بمقادير ما وهب لها من رقة في العاطفة ، وتوفز في الحس ، وتتمايز كذلك بتيقظ الوجدان ، وانفساح الخيال ، فمتى وهب الله للأمة من هذه المعاني قسطا أوفر بلغت في الشاعرية درجة أعلى ، وإذن فمن الغلو في التعبير أن نقول :

« في الأمم الشاعرة وغير الشاعرة ، والمطبوعة على الفن والآخذة فيه بضروب المحاكاة والتقليد » .

وإنما القصد في التعبير أن نقول : في الأمم من أوتيت استعداداً طبيعيا للشاعرية على مدى واسع ، ومن أوتيت من هذا الاستعداد حظا ضئيلا ، لايقوم بشيء إلى جانب تلك ، ومن هنا تفاوتت القوى الأدبية بين الأمم ، واختلفت المعايير ، فرجحت في هذا الشعب ، وشالت في ذاك ، وكانت بينَ بينَ في ثالثهما .

وهذا ملحوظ مشاهد في القديم والحديث ، فإننا لانستطيع أن نحكم على شعب بموت الحس ، وخمود العاطفة ، فلكل الأمم فنونٌ ، الشعرُ أحدها ، كان للأمة الرومانية أدب وشعر ، ولا ينفي هذا السكون أنه أقل من الأدب اليوناني والشعر اليوناني درجة ، وما يقال عن الرومان يقال عن الفرس ، ويحكم به على غير الرومان والفرس .

اختلاف مدى الشاعرية في الشعب الواحد :

بل قد يختلف الشعب الواحد في مدى استعداده الطبيعي ، وتهيئه الفطري ، ولعل

أبناء جنوب مصر أوفر استعداداً للشاعرية من أهل شماله ، وإن كانا جميعا ذوى استعداد ، يبدو لنا هذا فى غير المثقفين من أبناء الوادى ، إذ تكثر الأغانى الشعبية فى صعيد مصر ، وتقل فى دالها ، وهذا الغناء الشعبى هو اللبنة الأولى فى الأدب الرفيع ، والفن الجميل .

وهذا هو الشأن فى الأمة العربية ، فإننا نرى القحطانيين أقل حظا فى نظم الشعر وإنشائه من العدنانيين ، وأولئك الذين نبغوا فيه منهم لم ينبغوا إلا فى أحضان العدنانيين ، وبين أبنائهم .

أثر البيئة فى الاستعداد الطبيعى :

والاستعداد الطبيعى — فيما نرى — أثر من آثار البيئة فى الشعوب ، وعنصر من عناصر تأثير الأجواء والأحياء ، يعلو على جميع الآثار ، ويسمو على كل العناصر ذات الأثر فى رقى الشعر بخاصة ، والأدب بعامة ، وفى انحطاطه ؛ فالفطرة الإنسانية من أقوى مكوّناتها الجو الذى يحيا فيه صاحبها ، والطبيعة الجغرافية التى تخلق ذلك الجو .

وعلى أىٍّ فالإنسان ابن بيئته ، وهو فى بُداءته وبداوته أسير عاطفته ، تبسط عليه ظلها ، وتنشر فوقه لواءها ، تتحكم فيه فيثور ويفور ، أو يسكن ويهدأ ، وينبسط وينشرح ، أو ينقبض وينكمش ، يفعل ذلك للتوافه من الأمور ، والصغائر من الشئون ، فكم من كلمة عابرة أثارت حربا ضروسا ، وكم من نظرة عابثة استولت على قلب جادٍّ صارم .

شأن الإنسان فى فطرته وسذاجته كشأن الطفل فى نشأته وطفولته سواء بسواء ، ولم لا ؟ إنه فى معرفة كنه الحياة ، والبصر بأحوالها ، والنظر فى أسرارها ومعانيها ما يزال طفلا ، وإن جاوز طور الكهولة ، بل وإن بلغ مرحلة الشيخوخة .

فإذا ما أخذ من الحضارة بعوامل التفكير والتأمل ، والتقليد والمحاكاة بدأ يحكم عقله فى بعض الأمور ، ويرسل فكره وراء القليل من الشئون ، وهكذا يتدرج فى التأمل والتدبر ، حتى يصل إلى مستوى من المدنية والحضارة يتيح له أن يبتكر وينشئ ، وأن يتخذ من هذا الذى يبتكره وينشئه أسبابا للكتابة .

اعتماد النثر على العقل :

يصبح العقل حينئذ المادى إلى الإنشاء والاختراع ، وعليه يعتمد النثر فى تسجيل ما ينشئ ، فى حين ينبعث الشعر كما قدمنا من نبعة بعيدة كل البعد عن هذه السبيل ، تلك النبعة هى العاطفة ، وهى الشعور .

ولذلك تجد الشعر الفلسفى أو المعتمد على المنطق متأخرا فى نشأته عن الشعر العاطفى ، لأنه يتخذ العقل رائداً له ، ولا يعول على العقل ذلك التعويل إلا الشعب المتمدين ، انظر إلى الشعر الجاهلى تجده خاليا من المعانى الفلسفية ومن النظرات العميقة ؛ إلا للقليل من الشعراء الذين نظروا فى الكون ، وتأملوا فى الوجود ، فجاءوا بمعان لايقام لها وزن إذا قيست إلى معانى شاعر عاش فى حضارة ، هى إحدى آثار العقول والأفكار .

سبق الشعر للنثر :

وعلى هذا نقول : إن الشعر يسبق النثر فى الوجود سبق تحكم العاطفة فى الإنسان دون العقل ؛ ونحن لانقصد بالشعر الشعر الكامل فى جميع عناصره ، وإنما نقصد المحاولات الأولى لقوله ، دون نظر إلى نشأته وطريقة هذه النشأة فيما عدا أنه مصور للعواطف ، معبر عن الإحساسات ، مثير للذة تقدير الجمال .

وإذا كان قد ورد عن العرب غير هذا فلأنهم عَنوا بالنثر نحوا غير الذى نعنيه نحن الآن ، عَنوا به نثر الحديث فى شئون الحياة الهينة التى لا يحتاج المتحدث فيها إلى إعمال الفكر ، وإمعان النظر ، أليس هذا هو مايدل عليه قول قائلهم :

« وكان الكلام كله منثورا ، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأمجاد ، وسمحائها الأجواد ؛ لتهز نفوسها إلى الكرم ، وتدل أبناءها على حسن الشيم ، فتوهموا أعاريض ، فعملوها موازين للكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً لأنهم شعروا به » .

فوق أن فى هذا التصوير وهما كثيرا ؛ إذ ظنوا علم الأوزان سابقا لقول الشعر ، فإنهم

لم يقصدوا إلى النثر الفنى ، وإنما قصدوا إلى النثر الخطابى الذى يتناول مختلفَ شئون الحياة اليومية من بيع وشراء ، وطعام وشراب ، وصيد ورعى ، ونوم ويقظة ؛ إلى غير هذه الأمور التى تقوم عليها الحياة الإنسانية الساذجة .

أما النثر الفنى الذى يعبرون به عن رأى خطير ، أو يرمون من ورائه إلى أمر عظيم ، أو يعبرون به عن فكرة عميقة يعمدون إلى تصويرها به ؛ لتقتنع بها العقول ، وتؤمن بها الأفكار ، فهم يريدون فرض الرأى ، أو الإقناع بالفكرة ، فلم يسمدوا بالوصول إليه .

وها نحن أولاء نرى فى ريفنا شعراء ، لاينقص شعرهم خيال ، ولا تعوزه عاطفة ، ولا يحتاج إلى حسن تصور ، وإنما ينقصه اللفظ الصحيح ، ويعوزه الميزان السليم ، ويحتاج إلى دقة التصوير ، وليس كل ذلك بسالب إياه معنى الشاعرية ، فعذره أنه ينطق هذه اللغة ، ولو عرف غيرها لنطق بها ، وأن موازينه وإن لم تكن سليمة فهى أقرب إلى السلامة ، ودقة تصويره طريقها التأمل والتأنق ، وكم من الشعراء المطبوعين تنقصهم دقة التصوير .

الشعر بذرة النثر الجاهلى :

والنثر الفنى الجاهلى الذى يثير اللذة ، ويبعث على الإعجاب نادر ، وهو فى مقداره إذا قيس إلى الشعر ليس شيئا مذكورا ، وإذا نظرنا إليه على اعتبار أنه معبر عن العقل لم نجد له وجوداً ، وإذا أغفلنا ناحية الوزن حق لنا أن نقول : إن الشعر هو البذرة الأولى للنثر ؛ لأنه كلَّه أوجله خطب ، والخطب قوامها العاطفة ؛ على أنها فيما نعتقد قليلة لا تكاد تذكر ، وما وصل إلينا من النثر غير الخطب لايعدو أن يكون حكما متفرقة ، أو أمثالا منتثرة أملتها مناسباتها ، وخلقتها أسبابها ، يعتورها من الشك فى نسبتها إلى قائليها مايعتور الخطب والقصص .

أكان للمضريين نثر راق ؟

إنى أخالف جمهرة من زعماء الأدب يرون : « أن تاريخ الأدب العربى يدل على أن قد كان للمضريين نثر ما ، بل يدل على أن قد كان لهم قبل الإسلام نثر وصل إلى حد الرقى لا بأس به» فإن النثر يحتاج ــ أول مايحتاج ــ إلى الحضارة ، ومن مظاهرها الـكتابة ، وقل فيهم الـكاتب ، أو قل انعدم فيهم الـكاتب ، ولم تكن لهم حضارة تستأهل استخدام العقل فى تصوير مظاهرها ، أو وصف آثارها ، وإن تـكن فقد كانت تصور شعراً لسهولته ، وجمال نغمه ، وإذا قلنا مع أولئك القائلين : إن العرب كان لهم فى الجاهلية نثر فنى ، فإننا سنفترض أنه نثر عاطفى ، وهو ماانفق على تسميته فى العصور الأدبية المتأخرة بالشعر المنثور .

نزول القرآن نثراً :

فإذا قيل : لمـاذا إذن نزل القرآن نثراً ولم ينزل شعراً ليكون التحدى به أقوى ؟ قلنا : إنه جاء نثرا ليكون التحدى أقوى وأقوى ، فدرجة النثر أقل من درجة الشعر عندهم، فإذا جاء نثرٌ أقوى من الشعر كان ذلك برهانا قويا على أنه أرقى من أى نثر آخر .

وحينما وصف العرب القرآن الـكريم بأنه شعر ، ووصفوا الرسول عليه الصلاة والسلام بأنه شاعر كانوا على يقين بأن القرآن ليس شعراً ، وبأن الرسول ليس شاعراً ، فليست للقرآن سمة واحدة من سمات الشعر ليست له معانيه القائمة على الخيال المحض ؛ وليست له أغراضه المتعارفة بينهم ؛ وليست له أوزانه المرسومة عندهم ، فالقرآن لايشارك الشعر فى غير اللفظ ؛ وهى شركة محتمة فى كل كلام .

ولم يقل الرسول ــ وقد عاش بين ظهرانيهم ؛ وعرفوا جميع أطوار حياته كل المعرفة ــ بيتا من الشعر ، وإن جاء بعض كلامه منظوما كالذى روى عنه :

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

وإنما ادعوا هذه الدعوى ؛ لأنه أرقى من النثر ، فيجوز أن يعد من الشعر، أو يجب ألا يعتبر من النثر .

التوسع فى معنى الشعر :

وإذا صح لنا أن نتوسع فى معنى الشعر ولم نقيده بما قيده به العرب من أنه الكلام الموزون المقفى ، وجعلناه الكلام المنبعث عن العاطفة ، والذى يقصد به صاحبه إثارة لذة السامع استطعنا أن نحكم بأنه أقدم من النثر دون أن يخالفنا فى هذا الحكم من يزعم أن النثر أقدم ، لأننا سندخل فى نطاق الشعر عندئذ الخطبة والقصة ، وهما تعتمدان على إثارة الشعور ، وتوافر الخيال ، على أن من العرب من وصف الشعر بأنه «شىء تجيش به صدورنا فنقذفه على ألسنتنا» .

صفوة القول فى سبق الشعر للنثر :

بعد كل هذا البسط نستطيع أن نقول : إن الشعر أسبق من النثر بجميع فنونه ، أسبق من القصة والخطبة ، والحكمة والمثل والمقالة ، فقد اتخذه الناس منذ إدراكهم لمعنى الحياة المعبر عما يكنون ، والناطق بما يحسون ، والمصور لما تجيش به قلوبهم من انفعالات ، وما تختلج به أفئدتهم من خواطر وإحساسات ، فولجوا بابه ، واستخلصوا لبابه ، فى حين أحكم النثر الفنى دونهم رتاجه ، وبالغ فى إيصاد مغالقه ؛ لأن هذا — كما سبق — عماده العقل والتأمل ، ومعينه الفهم والتفهم .

وأنى للأمم فى بداءتها وبداوتها كل أولئك ؟ إن أبناءها — ولا نستثنى — يتيهون فى مجاهل من الجهالة ، ويسيحون فى صحارى من البداوة ، ولن يكون علم مكتسب مع جهالة مطبقة ، ولن يتفق فهم دقيق مع بداوة مغرقة ، وهاهم أولاء بعض سكان المجاهل الإفريقية ممن لم تغزهم الحضارة ، ولم تفتح عقولهم المدنية لهم أغانيهم المعبرة عن آمالهم ، وأناشيدهم المصورة لأشجانهم ، وهى دون شك شعر بمعناه الأعم الأفسح .

فلا علينا أن نقول بعد هذا العرض الواضح ، والبسط الضافى : إن الشعر ليس أسبق من النثر فحسب ، بل هو أسبق منه بآماد بعيدة ، تستوى فى هذا الحكم جميع الآداب العالمية ،

ولا يضيرنا فى حكمنا أن يكون الشعر سطحى الخيال أو عميقه ، ضيق الآفاق أو واسعها ، متعدد الأغراض أو محصورها ، ضعيف الأسلوب أو قويه ، مختلط التركيب أو منسقه ، مختل الوزن أو مستقيمه ، فكل تلك تتبلور مع الزمن ، وتستقيم مع الحياة ؛ فإن كل موجود فى هذا الوجود تعتوره أطوار الحياة المتعاقبة ، وتتداوله تقلبات الزمن وتغيراته ، كل موجود ينجم ثم يحبو ، ثم يدرج ... حتى يشارف الكمال ، ولا نقول حتى يصل إلى قمة الكمال ، ثم تدول دولته ، وتخبو شعلته ، فيعود كما كان .

حال النثر الأولى :

ليس أمر النثر مغايراً لأمر الشعر ، فلا بد أنه كان فى أول أمره سقيم الفكرة ، وإن يكن وليدها ، قليل الجدوى ، وإن يكن صادرا عن عقل وتدبر ، والناظر فى النثر الجاهلى لا يستطيع أن يحكم دون أن يرمى بالهوى بأنه رفيع المكانة خطير المنزلة : من الناحية التفكيرية أو الأسلوبية أو الموضوعية ، مع أن ما وصل إلينا ـ على فرض صحته ـ هو أفضل ماقيل ، وأبلغ ما ارتجل ، وأحكم ماسجل ، وإلا لما حفظته الحوافظ ، وتحدث بجماله الرواة ، واعتنى بتسجيله المؤدبون والشداة .

على أنى أكاد أوقن أن هذا النثر الذى يروى بعضه شيوخ الأدب — كصاحب الأغانى وصاحب الأمالى وأضرابهما — وهو منسوب إلى بعض الجاهليين ، وفى بعضه قصص وجمال تصوير ، أوحكمة وتأنق فى التعبير— من وضع الرواة والمحدثين الذين رغبوا فى أن يرفهوا عن الخلفاء ، أو أن يشيدوا بعقول القدماء ، وحسبنا هذا الذى قدمناه .

فضل الشعر على النثر :

اتفق الأدباء ـ إلا القلة الضئيلة ـ على أن الشعر جملةً أفضل من النثر جملة ، ونحن ممن ترى هذا الرأى ، ونقيم الأدلة على سداده وصوابه فنقول :

١ — فضل القرآن على الشعر :

إن العرب طرا حينما بهرهم القرآن ، وأخذتهم بلاغته زعموه شعرا إيمانا منهم بأن الشعر أفضل من النثر ، وهذا الكلام الذى يحاجهم به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويتحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله أجود من نثرهم ، وإذن فلا عليهم أن يدعوا أنه شعر ، وإن فقد مقوماته من خيال ووزن وقافية وموضوع وأسلوب .

٢ — فضل الشعر على الفنون الجميلة :

الشعر أحد الفنون الجميلة ، ولكنه منها واسطة عقدها ، وبدر فراقدها ، فأين منه النقش والتصوير ، والنحت والموسيقا ؟ إن فيه إلى نظمه ورصفه صورا تبهر مهرة المصورين، وجمالا يسحر نوابغ الرسامين ، والموسيقا لاتسمو إلا به ، والغناء لايحلو إلا فيه .

إنه يتألق بين الفنون فيفيض عليها حسنا ، ويمنحها وضاءة ولألاء ، فأى فن جميل ليس للشعر فيه الأثر الرائع الجميل ؟

٣ — سمو موضوعات الشعر :

موضوع الشعرأعلق بالقلب ، وأقرب إلىالنفس من موضوع النثر ، بل من موضوعات الفنون الجميلة التى لاتعتمد عليه ، والنثر إذا تجاوز موضوعه ، وحل فى غير أفقه ، واعتدى على موضوعات الشعر عد متطفلا ، وقيل عنه إعلاء لشأنه مع هذا التطفل : إنه شعر منثور؛ لأنه يحمل موضوع الشعر وأخيلته ، ويقتبس ألفاظه وموسيقاه ، وإن لم تسم إلى موسيقا الشعر .

٤ — رأى ابن رشيق القيروانى :

ولا نلجأ فى حججنا إلى ماذكره ابن رشيق فى كتاب العمدة من أن الشعر يفضل النثر لأسباب فنية ، « وأن كلام العرب نوعان : منظوم ومنثور ، ولكل منهما ثلاث طبقات : جيدة ومتوسطة ورديئة ، وأنه إذا اتفقت الطبقتان فى القدر وتساوتا فى القيمة

ولم يكن لإحداهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهرا فى التسمية ؛ لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه ؛ فالدُّر و به يشبه اللفظ إذا كان منثوراً لم يؤمن عليه ، ولم ينتفع به فى الباب الذى كسب له ، وانتخب من أجله ، وكذلك اللفظ إذا كان منثورا تبدد فى الأسماع ، فإذا أخذه سلك الوزن وعقد القافية تألفت أشتاته ، وازدوجت فرائده ».

فمن أدبائنا من يصف هذا القول بأنه كلام ضعيف ، و إن يكن بيان ذلك الأديب أضعف من بيان ابن رشيق ، وليس هذا مجال تفصيل نقده .

٥ — خطر موضوعات الشعر :

وأولئك الذين يقولون إن موضوعات النثر أخطر من موضوعات الشعر جد واهمين ؛ فالشعر يتناول الكون بأجمعه ، وموضوعه كما قال غيرنا : الله والإنسان والطبيعة ، فهو كل مافى هذا الوجود ، على أنه يستطيع أن يتناول جميع موضوعات النثر ، بل هو الآن يتناول أعنف موضوعاته كالمباحث الفلسفية ، و يعتبر الشاعر الذى لا فلسفة فى شعره شاعراً سطحيا ، لا : بل قد يبلغ به إذا فلسفه ما لايبلغه بالنثر ، وهذه لزوميات أبى العلاء تجمع بين قوة العقل والمنطق ؛ و بين قوة التصوير وحسن الفن ، والشعر السياسى كان — ولا يزال — أقوى دعائم الدعاية السياسية ، و يكفى للدلالة على ذلك أن معاوية حين أراد أن يعهد للبيعة لابنه يزيد استعان لها بشعر مسكين الدارمى ، ذلك الذى يقول فيه :

ألا ليت شعرى مايقول ابن عامر … ومروان أم ماذا يقول سعيد ؟

بنى خلفاء الله مهلا فإنما … يبوئها الرحمن حيث يريد

إذا المنبر الغربى خلاّه ربه … فإن أمير المؤمنين يزيد

وأن بيت مروان بن أبى حفصة فى الاحتجاج للعباسيين على العلويين ، وهو :

٢٤ : أنى يكون — وليس ذاك بكائن — … لبنى البنات وراثة الأعمام ؟

كان أشد على آل على رضى الله عنه من ظبات السيوف ، وأسنة الرماح ، بل كان هذا البيت دعامة من دعائم الدولة العباسية

وإنك لتجد الحكمة وحقها أن يكون النثر معينها مسجلة شعرا ونثرا ، فتحكم لأول وهلة بأنها شعراً أفضل منها نثراً ، وها هو ذا المثال الذى نؤيد به رأينا .

موازنة بين نثر وشعر :

(ا) قال عبد الله بن الزبير حينما قتل عبد الملك بن مروان أخاه مصعبا من خطبة ينعى فيها أخاه ويؤبنه ، وتكاد هذه الخطبة تكون أروع خطبه ، والخطبة أقرب النثر إلى الشعر : « إنما التجلد والسلوة لحزماء الرجال ، وإن الهلع والجزع لربات الحجال » .

وتناول أبو تمام الطائى هذا المعنى فى تعزيته مالك بن طوق عن أخيه القاسم ، فقال :

٢٥ : خلقنا رجالا للتجلد والأسى ✽ وتلك الغوانى للبكا والمآتم

فكان البيت خيراً من الفقرة لأسباب كثيرة منها :

١ — لنظمه وجرسه الموسيقى ، وهذا فضل لاينكره إلا معاند مكابر ، وإلا من لا تطربه الموسيقا ، ولا يملك سمعيه الجرس والغناء .

٢ — لقلة كلماته عن كلمات النثر مع أن الشاعر مقيد بالوزن الذى قد يستدعى منه أن يزيد ألفاظا ، حتى يفى المعنى حقه ، وحتى لايوصف شعره بالغموض والتعقيد ، فللوزن من الأحكام ماليس للنثر ، فلهذا الحريةُ المطلقة ، ولذاك القيدُ المحكم .

٣ — لدقة المعنى ، فقد وصف الشاعر قومه ونفسه بأنهم خلقوا رجالا ، وفى الجملة قصر جميل ملحوظ ، فكأن أعداءهم ليست لهم هذه الصفة ، وفيها فخر نبيل واضح فى حين ترك الخطيب هذا المعنى ، وقال إن التجلد والصبر والأسى المكتوم خليق بالرجال ، أو خليق به الرجال ، فجمع بين الصفتين الجديرتين بخلق الرجال عند فداحة الخطب وجلال الرزء ، أما الخطيب فجمع بين التجلد والسلوة ، وما أدرى كيف يسلو الأخ أخاه ، وبخاصة إذا كان هذا الأخ هو البطل العظيم ، والرجل الكامل مصعب بن الزبير ؟ والفرق عظيم بين الأسى والبكاء ، فالأسى للرجال ، والبكاء للنساء ، أما السلوة التى قرنها عبد الله بالتجلد فلا موقع لها هنا ، فى حين أن المآتم وقد عطفت على البكاء أدت المعنى أسد أداء ؛ فالمآتم تقام للنساء يبكين فيها ويندبن ، ليثرن الرجال للأخذ بالثأر ، ولغسل

العار ، وخص الشاعر الغوانى بالبكاء ليدل على فداحة النازلة ، وشدة الكارثة ، ومن تبكيه الغوانى خليق أن يبكيه غيرهن .

أما فقرة عبد الله فلا تشتمل على قليل من ذلك الكثير من المعنى ، كما أن الفقرة على الرغم من أنها مسجوعة لم تتم نغمة وجرسا وموسيقا ، وقول الخطيب ربات الحجال كناية دفعه إليها التكلف والسجع ، وأجمل منها دون ريب الغوانى ، والهلع والجزع معناهما واحد ، فلم يأت الخطيب بجديد سوى التطويل الذى لا يدعو إليه داع غير رصف الجملة ، وإقامة السجعة .

٤ — وهناك فوق ما قدمنا فروق تحس بها وتدركها دون أن تستطيع لها تعليلا ، ففى الإشارة إلى الغوانى بتلك جمال ، ولكن كيف نعلله ؟ أنقول : إنه أراد تعظيمهن بالإشارة البعيدة إليهن ؟ ولم لا ؟ ألسن غوانى ؟ أم نقول : إن المآتم كانت منه قريبة بعيدة ؟ أم نقول : إنه كان بين صفين من الرجال والنساء ، فحدث الرجال بقوله : خلقنا رجالا ... والتفت إلى النساء فأشار إليهن قائلا : وتلك الغوانى ... ؟

(ب) موازنة أخرى :

وهذا مثل اختلف فيه النقاد ، فهناك من فضل النثر ، وهناك من فضل الشعر ، وإننا من أصحاب الرأى الأخير ، وسنورد الرأى الأول ، ثم نرد عليه ونفنده ، وللقارئ الحكم بعدئذ .

قال عمر العتبى : العقل عقلان عقل تفرد الله بصنعه وهو الأصل ، وعقل يستفيده المرء بأدبه وهو الفرع ، فإذا اجتمعا قوّى كل منهما صاحبه تقوية النار فى الظلمة للبصر

وقال أحد الشعراء :

رأيت العقل عقلين ... فمطبوع ومصنوع

ولا ينفع مصنوع ... إذا لم يك مطبوع

كما لا تنفع الشمس ... وضوء العين ممنوع

٢٨ :

زعم صاحب الرأى الأول أن الشاعر « كرر كلمتى مصنوع ومطبوع على غير داع ، وقد سلمت الأولى من ذلك التكرار ، وكلمة مصنوع فى الشعر تقابل كلمة مكتسب فى النثر، ومكتسب أليق بموضعها ، وأدق فى الدلالة على مايراد منها ؛ فالعتبى أدق عبارة ، وأحكم تأليفا ، وأسلم من التكرار » ثم قال : « قسم كل منهما العقل قسمين ، وفاضل بينهما ، ولكنهما اختلفا فى طريق المفاضلة ، فالأول ذكر أن القسمين يتعاونان إذا اجتمعا ، ومثل لهما بضوء النار يقوى البصر فى الظلمة ، وذكر الآخر أنهما إذا افترقا لم يغن المكتسب شيئا ، ومثل بنور الشمس لمن لايبصر ، فقد اختلفا فى أجزاء المعنى ، والأول بين حالة اجتماع العقلين، والآخر بين حالة افتراقهما، والحالة التى ذكرها العتبى أقرب إلى الواقع ، وآلف عند الناس ، فإنهم يبتغون دائما تقوية العقل الموهوب بما يكتسب من تجارب و يستفاد من علم ، ولا يطمع أحد أن يفيد غير العاقل بالتعلم شيئا » فإذا ناقشنا هذا الرأى لنبين ضعفه قلنا :

١ — كان الشاعر أقدر من ناحية التأليف والصياغة من الكاتب ، فقد أوجز دون إخلال بالمعنى فى حين أورد الأول فى عبارته مايمكن أن يسمى حشوا ؛ إذ يقول : « عقل تفرد الله بصنعه » كأن هناك عقلا اشترك فيه مع الله سواه ، هذا إلى أن الفرع جزء من الأصل وليس قسيما له كما يقول .

٢ — عندى أن تكرار مصنوع ومطبوع فوق أنه أكسب البيت جرسا جميلا ، وموسيقا عذبة ، ومطابقة مستساغة فيه معنى التوكيد ، و إذن فليس من التكرار المعيب .

٣ — تشبيه الشاعر أدق وأظهر فى بيان فضل العقل المطبوع على المصنوع ، على أن الأول وقع فى خطإ فكرى ، فالنار لاتزيد قوة البصر ، و إنما تخفف شدة الحلكة ، وتدفع إسراف الظلام .

٤ — كلمة مصنوع أفضل من مكتسب التى يطلبها صاحب الرأى الأول ؛ أفضل ليطابق بها كلمة مطبوع ، على أنها من ألفاظ الأدب والشعر ، فيقال : شاعر مطبوع ، وشاعر مصنوع .

٥ — هذا إلى أن ألفاظ الشعر أقل من كلمات النثر ، و إلى أن لموسيقا الشعر رنينا يسمع الأذن رنين الجمال .

أسباب رجاحة الشعر للنثر :

و بعد فليس كل شعر خيرا من كل نثر ، بل لابد من اجتماع عدة عوامل مرجحة للشعر فوق الخيال والوزن، وأوجه الموازنة كثيرة متنوعة منها : الأسلوب ، ومطابقة الكلام للواقع ، وائتلاف الألفاظ واتساقها ، ومناسبتها للموضوع ، والإقلال من الزخارف بجميع أنواعها ، فإنها قد تحجب المعنى ، أو تسىء إلى الفكرة ؛ فالمجال فى المفاضلة فسيح ، وعناصر الموازنة كثيرة .

نثر يفضل الشعر :

من النثر الذى يفضل الشعر تلك الحكمة الجاهلية : « المرء بأصغريه » وأكتفى بهذا الجزء منها ، فهى أفضل من قول الشاعر :

٢٩ : لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

أما أوجه التفضيل فكثيرة منها : الإيجاز ، فالحكمة كلمتان، والشطر الأول من البيت، ـ وهو فى الحق موطن المفاضلة ـ خمس كلمات ، والحكمة أكثر صدقا ؛ لأن المرء يظهر علمه أو جهله ، وحلمه أو حمقه بأصغريه ، و إن لم يكونا نصفيه ، ولتلك الكناية اللطيفة الدالة على علم بأعضاء الإنسان ، فأصغر الأعضاء القلب واللسان ، ولعدم التكرار كما ترى فى الشطر إذ كرر كلمة « نصف » وكدقة كلمة المرء ؛ لأنها أشمل من كلمة الفتى ، ولعدم الغلو فى المبالغة التى زادها الشاعر بروزا بشطره الأخير .

الفصل الثالث

فى تقسيم الشعر

أقسام الشعر عند الإفرنج :

يقسم الإفرنج الشعر إلى ثلاثة أقسام : الشعر القصصى والتمثيلى والغنائى ، والقصصى كان فى غالب أمره دينيا ، يتعلق بالآلهة وأنصاف الآلهة ، وما قدموا لبنى الإنسان من أياد وصنائع ، وما حكموا لبعضهم على بعض من ظفر وانتصار ، وما أصاب غير هؤلاء من ويلات وهزائم ، ثم أثر هذه الأحكام فى حياة الناس ، كما نرى فى الإلياذة والأوديسة المنسوبتين إلى هوميروس الشاعر اليونانى .

ولم يكن الشعر القصصى مستقيم الأوزان دائما ، بل قد يستعصى الوزن على الشاعر فلا يأبه له ، وإنما الواجب الحتم هو أن يظهر فيه أثر الخيال ، فإن الشاعر وإن لم يكن فى ملحمته معبراً عن أحاسيسه ، ناطقا بما يختلج به قلبه ، وتضطرم فيه عواطفه ، فإنه معبر عن إحساسات الناس ، ناطق بما تختلج به قلوبهم ، وتضطرم فيه عواطفهم ، فعليه أن يتصور كل هذا ، ويصوره لقارئيه أو سامعيه كأنه حقيقة واقعة ، فعبئه لذلك ثقيل ، وفى مثله تظهر البراعة الفنية ، فليس كل شاعر بمستطيع تخيل ما تجول به خواطر الناس وأوهامهم ، ولا بمقتدر على تصور ماتصوره لهم نفوسهم من أمان وآمال .

الشعر التمثيلى :

أما الشعر التمثيلى فيخالف القصصى من وجوه ، فهو يؤثر فى القلوب من نواح : ناحية السمع حينما ينطق الممثل به ، وناحية البصر حينما يرى الممثل أمامه يعبر عما يريد التعبير عنه ، لا بلسانه فحسب ، بل بحواسه الأخرى وبأعضاء من جسمه إذا استدعى التمثيل ذلك ، ثم

ناحية التصوير الدقيق الذى يحاول به أن ينسى جمهرة الرائين والسامعين أنه أمام تمثيل ، ثم تصوير الجو المهيئ لتخييل التمثيل حقيقة لا ريب فيها .

والشعر التمثيلى قوامه الفنى هو الشعر القصصى الدينى ، فمنه نشأ ، وعليه اعتمد ، ثم أخذ يخطو نحو الكمال ، ويستقل عن أصله الذى منه نشأ وعليه اعتمد ؛ حتى بلغ الغاية ، فصار ذا أساسين : الشعر القصصى والغنائى ، ثم تطور بعدئذ من الشعر إلى النثر ، ومن الخيال إلى الحقيقة ، ومن الغرض الدينى إلى أغراض أخر .

اعتمد التمثيل على النثر ؛ لأن هذا أداة طيعة سهلة للتمثيل والحوار ، فالحوار بالنثر أيسر من الحوار بالشعر ، والتمثيل أغلب أمره حوار ومحادثة ، والأغراض الأخر التى عناها التمثيل سواء أكانت أغراضا اجتماعية أم سياسية أم فكاهية لا يغنى فيها الشعر القائم على الخيال ؟ وإنما يجدى فيها النثر المعتمد على الفكرة السديدة والرأى الرشيد .

الشعر الغنائى :

أما الشعر الغنائى فهو الشعر الذاتى ، المعبر عن عواطف قائله ، والمصور لمشاعره ، وقد سمى بهذا الاسم لأن قائليه كانوا يتغنون به فى جميع الأمم ، وبجميع فنونه ، فهو ينغمه راثيا ، ويشدو به مفتخرا ، ويرجعه ناسبا ، كما كان ذلك شأن الشعر القصصى فى أول عهده .

أقسام الشعر الغنائى :

كل شعر ذاتى فهو من الغنائى ، فالشاعر الذى يأخذه جمال الزهرة أو عطرها ، أو تكوينها ، فيصفها ، كان هذا الوصف صادرا عن ذاته ، والشاعر الذى يستثيره إنسان ، فيتحمس ويفخر عليه ، ويعد مناقبه . . . كان هذا الفخر صادرا عن ذاته ، وهكذا يقال عن جميع الأغراض المعروفة فى الشعر العربى القديم : كالغزل والرثاء والهجاء والمدح والحكمة .

العرب وتقسيم الشعر عند الفرنجة :

يقول الباحثون فى الآداب العربية : إن العرب لم يكن لهم حظ من الشعر القصصى والتمثيلى ، ويكادون يتفقون على هذا الرأى ، وإن اختلفوا فى أوجه الاتفاق ، ومن تردّد منهم اعتبر بعض مقطوعات الفخر التصويرى من الشعر القصصى كمعلقة عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة من الشعر القصصى القصير ، ولنا فى هذا الحكم نقاش طويل نرجو منه أن نزعزع أسسه ، ونزلزل أركانه ، فينقض أولئك الباحثون حكمهم الذى أبرموه ، وليس يعنينا أن ننسب إلى العرب فنًّا لم يطرقوه ، أو أن ندعى لهم أدبا لم يتناولوه ، ولكنه الرأى نقتنع به ، فندافع عنه .

قول مؤرخى الأدب عن الشعر اليونانى :

يقولون : إن الشعر اليونانى القديم كان فى أول أمره مقصوراً على القصص القصير ، ثم ضم هذا القصص بعضه إلى بعض بعد أن خطت الأمة اليونانية فى الحضارة خطوات ، وصعدت فى سلم المدنية درجات ، واستطاع من قام بهذا الجمع والضم أن ينظر فيه ؛ ليجعل منه وحدة متماسكة الحلقات ؛ لأنه لايمكن روايته وهو آلاف الأبيات إلا إذا تماسك بعضه مع بعض ، وائتلفت حوادثه تمام الائتلاف .

الكتابة والشعر القصصى :

ومما لاشك فيه أن الكتابة ـ وإن تكن قد عرفت ـ لم يكن قد يُسِّرَ أمرها ، وسهلت وسائلها ، وهان على الناس استخدامها فى تسجيل هذه القصص الطويلة .

وعلى هذا فالإلياذة والأوديسة لم تظهرا فى ثوبهما الفضفاض الضافى إلا بعد أن نالت الأمة اليونانية من الحضارة والمدنية حظا أقدرها على أن تحافظ على هذا التراث المجيد تلك الأجيال الطويلة من حقب التاريخ الأولى .

ومايقال عن الإلياذة والأوديسة يقال عن المهابهاراتا والرامياتا الهنديتين ، وعن سنوحى والبحار الغريق المصريتين ، وعن غير هذه وتلك من قصص الأولين .

لماذا لم يكن للعرب شعر قصصى ؟

و بعد هـذا أليس من حقنا أن نتساءل ؟ لماذا لم يكن للعرب شعر قصصى ، وقد آمن الجميع بأنهم ذوو فطرة أدبية سليمة ، وذوق فنى قويم ، وأنهم يُسامون اليونانيين فى تلك الفطرة ، وفى ذلك الذوق ؟ أليس الشعر القصصى ينبع من النبعة التى ينبع منها الشعر الغنائى ؟ ولا يغير هذا الحكم اختلاف الزمان والمكان ، ثم أليس معقولا أن الشعر القصصى ـ ودافعاه الدين والحرب ، ولكليهما عند العرب المكانة التى هى لهما عند غيرهم إن لم تفقها ـ قد ظهر قصصا قصيراً عند العرب ، ثم ضم بعضه إلى بعض ، أو لم يتح له من يفكر فى ضمه حتى طواه الزمان فيما طوى من أخبار وآثار ؟ أما أنا فأقول : بلى . لقد كان لهم شعر قصصى لما مضى ولما يلى .

أدلتنا على أن العرب كان لهم شعر قصصى :

١ — اهتدى العلماء المنقبون من الأوربيين عن أطلال الدولة السبئية فى اليمن إلى بعض الآثار ، وذكروا أن دولة سبا بدأت فى نحو القرن الثامن قبل الميلاد (أى حين ظهور هوميروس) وأن أسماء ملوكهم التى سجلوها على آثارهم قد بلغت أكثر من ثلاثين ملكا .

٢ — من المؤرخين من ذكر أن سيل العرم الذى اجتاح هذا الملك الطويل العريض : الطويل فى أمده ، العريض فى سلطانه كان قبل ميلاد المسيح عليه السلام بنحو قرن من الزمان .

٣ — تحدث المسعودى فى كتابه «مروج الذهب» كما تحدث غيره من ثقات المؤرخين « أن أرض سبا كانت من أخصب أرض اليمن وأثراها وأغدقها ، وأكثرها جنانا وغياضا ، وأفسحها مروجا مع بنيان حسن وشجر مصفوف ، ومساكب للماء متكاثفة ، وأنهار وأزهار متفرقة ، وكانت مسيرة أكثر من شهر للراكب المجدّ على هذه الحالة ، وفى العرض مثل ذلك .

وأن الراكب والمار كان يسير فى تلك البلاد من أولها إلى أن ينتهى إلى آخرها لاتواجهه الشمس ولا تعارضه ، لاستئثار الأرض بالعمارة الشجرية ، واستيلائها عليها ، وإحاطتها بها ، وكان أهلها فى أطيب عيش وأرفه حال ، وأرغد قرى ، وفى نهاية الخصب وطيب الهواء ، وصفاء الفضاء ، وتدفق الماء ، وقوة الشوكة ، واجتماع الكلمة ، ونهاية المملكة ، وكانت بلادهم فى الأرض مثلا ، وكانوا على صفة حسنة من اتباع شرف الأخلاق ، وطلاب الإفضال على القاصد ، والسفر بحسب المكان ، وما توجبه القدرة من الحال ، فمكثوا على ذلك ماشاء الله من الأعصار ، لايعاندهم ملك إلا قصموه ، ولا يوافيهم جبار فى جيش إلا كسروه ، فذلت لهم البلاد ، فصاروا تاج الأرض »

ثم هو يروى بعد ذلك شعرا ينسبه إلى ملك سبأ عندما أغرقهم سيل العرم ، ويزعم أن اسمه الملك الشاعر عمرو بن عامر ، وهذا الشعر جزء من أسطورة زعموها هى أن الجرذ سُلّط عليهم فقلب برجليه صخرة لايقلبها خمسون رجلا ، فنقب بفعله هذا السد الذى كان نقبُه سبب غرقهم ، فقال :

أبصرت أمرا عادلى منه ألم	وهاج لى من هوله برح السقم
من جرذ كفحل خنزير الأجم	أو تيس صرم من أفاويق الغنم[1]
يسحب صخرا من جلاميد العرِم	له مخاليب وأنياب قضم
٣٣ : مافاته سحلا[2] من الصخر قصم	كأنه يرعى حصيراً من سلم

ومع يقيننا بأن هذا الشعر مخترع مع هذه الأسطورة ؛ إذ لم تكن لغة قوم سبأ هى لغة قريش ، ولم يكن سبب انفجار السد جرذا كما تزعم الأسطورة ، فإنها تبين لنا أن ذلك الخيال الساذج الذى تخيل الأسطورة وشعرها يعترف بأن الأمة العربية القديمة كان لها شعر ، وكان بعض هذا الشعر قصصياً، وكان من بحر الرجز أيسر بحور الشعر نظما ، وأسهلها على الشعراء قافية .

---

(١) الصرم : الجماعة ، والأفاويق : الخيار.

(٢) سحلا : نحتا .

وليس طعننا فى هذه القصة بدافع سوانا إلى أن يطعن فى وصف بلاد اليمن اعتمادا على أن مصدرهما واحد ، فحضارة اليمن تحدّث عنها غير المسعودى من مؤرخى العرب ، بل تحدث عنها غير مؤرخى العرب .

٤ — فقد قيل إن الدولة التى قامت باليمن نالت من بسطة الحياة وفخامة المدنية حداً أدّى بمعاصريهم من اليونانيين إلى أن يسمُّوا هذه البلاد ببلاد العرب السعيدة ، وناهيك بمن بلغ من المعرفة الهندسية حداً يستطيع به أن يرمم سد مأرب ، وأن يشيد بناءه ، وهو بعد من أعظم ما أقامه البشر

وقصور اليمن التى تتحدث عنها كتب التاريخ تنطق بعلمهم الواسع ، وفنهم الزاخر ، فمن قصورها قصر غمدان الذى قيل عنه : « إنه كان مربعا : أحد أركانه مبنى بالرخام الأبيض ، والثانى بالرخام الأصفر ، والثالث بالرخام الأخضر ، والرابع بالرخام الأحمر ، وفيه سبعة سقوف طباقا ، ما بين السقف والآخر خمسون ذراعا ، وعلى كل ركن تمثال أسد من نحاس ، إذا هبت الريح دخلت من دبره وخرجت من فمه ، فيسمع له صوت يشبه زئير الأسد » .

وإذا كان فى وصف القصر مبالغة ، فإنها تؤيد رأينا ؛ لأن المبالغة دليل على إيمان المؤرخين بحضارتهم العظيمة ، وأنهم بلغوا منها الحد الذى يقدرون معه على إتيان أمثال تلك العجائب .

الدولة اليمنية والدولة الحورابية :

٥ — ما قيل عن دولة اليمن يمكن أن يقال مثله عن الدولة الحورابية التى بهرت العالم بحضارتها ، والتى تحدث المؤرخون عنها « بأنها أول دولة أنشأت الشرائع ، وجعلتها أساس معاملة أفرادها بعضهم مع بعض ، وليس كونها دولة تشريع بمانع أن تكون دولة فنّ ، فقد كانت الدولة الرومانية دولة تشريع وفنون معا ، وإذن فلماذا نحرمها حق الشاعرية فى ذلك الزمن السحيق ؟.

رأى الأستاذ جرجي زيدان :

٦ — يرى العالم الباحث جرجي زيدان « أن الشعر عند الساميين أقدم آدابهم لكن أكثره كان غنائيا ، وليس فيه من الشعر القصصى إلا نتف قليلة ، أما التمثيل فيظهر لأول وهلة أنه بعيد عن آداب العرب » .

وسنرى أنه موجود فيها على صورة ساذجة تشبه إلى حد كبير الصورة التى نشأ بها الشعر التمثيلى عند اليونان ، وإن لم يسمه العرب بهذا الاسم ، ولم يمثله غير قائليه ، ثم يقول : « ومما يعد من قبيل آداب العرب فى ذلك العصر سفر أيوب ، والمرجح عند أهل التحقيق أن صاحب هذا السفر فى التوراة عربى الأصل نظم ذلك الكتاب شعراً عربياً فى نحو القرن العشرين قبل الميلاد على أثر نزوح الحورابيين من بين النهرين ، ثم ترجم إلى العبرانية ، وعد من الأسفار المقدسة ، وضاع أصله العربى ، كما ضاع أصل كليلة ودمنة الفارسى ، فإذا ثبتت عربية سفر أيوب كان العرب أسبق الأمم إلى قرض الشعر ؛ لأنه نظم قبل إلياذة هوميروس بألف سنة ، ومهابها راتا الهند بعدة قرون » .

خلاصة المقال فى الشعر القصصى والتمثيلى :

وبعد ، فإننا وقد بينا أن عوامل الشعر القصصى كانت متوافرة عند العرب فى عصورهم السحيقة ، فلماذا لا نؤمن بوجوده ؟ بل لماذا ننكر — دون سند — وجود الشعر التمثيلى ، وقد كان أول ماعرف أسيويا ؟

إن هذه المدنية التى وصفنا بعض مظاهرها ، وعرضنا بعض آثارها لابد أن يكون قد تبعها تقدم عظيم فى الفنون ، ومن بينها الشعر ؛ فالمعقول أن يصفوا حروبهم ، ويصوروا انتصاراتهم ، ويمثلوا أبطالهم ، ويترسموا أعمالهم بالشعر القصصى والتمثيلى والغنائى ، وليس من الحتم اللازم أن يكون شعر جميع الأمم متحد الصورة متماثل اللون ، فإنه حتى الآن ليس متحد الصورة ، ولا متماثل اللون ، ولا جاريا على نمط مستقيم لا عوج فيه ، ولو أننا

قلنا غير هذا لجاز لنا أن نقول : إن الله خلق العالم كله ذا لون واحد ، ولسان واحد ، وعقل واحد ، وشعور واحد ، وليس شيء من ذلك حادثا .

مناقشة رأى ابن الأثير فى أقدمية الشعر العربى :

قلنا : إن المعقول أن العرب كان لهم شعر متنوع فيه القصصى والتمثيلى والغنائى ، وأن هذا الشعر بأنواعه الثلاثة قد طواه الزمان فيما طوى ، وعفته الأيام فيما عفت ، ودع عنك رأى ابن الأثير فى المثل السائر ، إذ يقول : « والذى نقلته الأخبار وتواردت عليه أن العرب كانت تنظم المقاطيع من الأبيات فيما يعنّ لها من الحاجات ، ولم تزل الحال على هذه الصورة إلى عهد امرئ القيس ، وهو قبل الإسلام بمائة سنة زائداً لا ناقصا ، فقصد القصائد . . . » فإن ابن الأثير بقوله هذا إنما يقصد الشعر المنظوم بلغة عدنان ، ومع ذلك فإنه من غير المعقول أن يكون الشعر قد ولد كاملا فى معانيه وفى أسلوبه وفى أوزانه ، فطبيعة الأشياء أن تنشأ ناقصة ، وتقوّم شيئا فشيئا حتى تبلغ درجة أدنى إلى الكمال .

وها نحن أولاء نرى أن بدء القصائد ببكاء الديار مثلا تتابع عليه الشعراء جيلا بعد جيل ، وعصراً بعد عصر ، فكيف أمكن ذلك التغيير الشامل فى الشعر من المقاطيع إلى القصائد فى عهد شاعر واحد ، وفى جيل واحد ، مع أن هذا لابد أن يستلزم تغيرا فى المعانى بالزيادة أو بالنقص ، وتفتقا للأفكار ، وتنوعا فى الخيال ، كما يستلزم حتما تغيرا فى الأسلوب ليجارى تلك المعانى ؟

الشعر الحورابى واليمنى كانه بغير اللغة العدنانية :

ولا ريب أن الشعر الحورابى ، واليمنى كان بغير لغة عدنان ، كان بلغتين تخالفان فى أصولهما وقواعدهما اللغة العدنانية مخالفة لابد أن تكون عظيمة ، حتى ليصعب على القارئ فهمها ، وهاك مايؤيد مانقول نقلا عن كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان ، قال :

« قس مقدار الفرق بين لغة مضر ولغة عمالقة العراق بالفرق الذى وجدوه بين لغة عرب الشام فى أوائل القرن الرابع للميلاد بما قرءوه على قبر امرئ القيس بن عمرو ملك الحيرة ، و بين لغة مضر عند ظهور الإسلام ، وذلك أنهم عثروا فى أطلال النمارة فى حوران على حجر عليه كتابة عربية بالخط النبطى نقشت فى أوائل القرن الرابع للميلاد ، أى قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون » .

ثم أورد المؤلف صورة الكتابة ، وقال :

« و إليك نصها كما تقرأ ، كل سطر على حدة :

١ — فى نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو أسر التاج .

٢ — وملك الأسدين ونزار وملوكهم وهرب مذحجو عكدى وجاء .

٣ — يزجود ؟ فى جبيح نجران مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيه .

٤ — الشعوب ووكله لفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه .

٥ — عكدى هلك سنة ٢٢٣ يوم ١٧ بكسلول بلسعد ذو ولده .

ثم يقول : « هذا لسان عربى تشوبه صبغة آرامية يحتاج تفهمها إلى إيضاح ، وهاك تفسير هذه الكتابة باللغة العربية الفصحى ، وهو :

١ — هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذى تقلد التاج .

٢ — وأخضع قبيلتى أسد ونزار وملوكهم ، وهزم مذحج إلى اليوم وقاد .

٣ — الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمر ، وأخضع معدا ، واستعمل بنيه .

٤ — على القبائل وأنابهم عنه لدى الفرس والروم فلم يبلغ ملك مبلغه .

٥ — إلى اليوم توفى سنة ٢٢٣ فى يوم ١٧ أيلول (سبتمبر) وفق بنوه السعادة .

ثم يقول : « انظر إلى الفرق بين الأصل وتفسيره ، والمدة بين هذين العصرين ثلاثة قرون ، فكيف تكون و بينهما بضعة وعشرون قرنا » .

عود إلى رأى ابن الأثير :

ذلك الرأى الذى يقول به ابن الأثير هو رأى أئمة الأدب القدماء ، وقد عللناه وأظهرنا

أن أساسه الذى بنى عليه هو مارووه من الشعر ، ولكنهم لم يُعملوا فكرا ، ولا أجالوا نظرا فيما بعُد من عصور التاريخ ، ولو قد فكروا لما وصموا الأمة العربية بموت العواطف، ونضوب القرائح تلك الأحقاب الطويلة .

لو قد فكروا لعرفوا أن امرأ القيس وخاله عدى بن ربيعة الذى قالوا عنه : إنه هلهل الشعر وغيرهما ممن جاء قبلهم وجدوا شعرا كامل العناصر تام الأجزاء فساروا على النهج الذى وجدوه ، ومتحوا من العين التى عرفوها ، إذ من المحال أن يولد الطفل رجلا ، وأن يظهر الناقص كاملا .

لو نظروا لرأوا امرأ القيس نفسه يقول :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن خذام

ولا نجد بين أيدينا من كتب الأدب واللغة عن ابن خذام هذا الذى يتخذه أمير الشعراء فى العصر الجاهلى قدوة يقتدى بها ، وقبسا يقبس من معانيه ما ينقع غلة أو يبل صدى كل ما قيل عنه : إنه رجل جاهلى كان يقول الشعر ، وهذا هو مفهوم البيت لا غير ، أما ماذا قال من شعر ؟ وفى أى زمان ومكان قاله ؟ فلا نجد شيئا .

لو تأمل القدماء فى النزر اليسير الذى وصل إلينا من شعر العصر الجاهلى لرأوا هؤلاء الشعراء يصفون أنفسهم بالقصور ، ويعترفون فى شعرهم بأنهم ينهلون من مناهل استنبطها لهم أسلافهم ، ويردون موارد هداهم إليها أجدادهم ، فزهير بن أبى سلمى يقول :

٣٥ : ما أرانا نقـــول إلا معارا أو معادا من لفظنا مكرورا

إنه ينسب إلى نفسه ــ وهو من هو صفاء قريض وسناء معان ــ ينسب إلى نفسه و إلى غيره الاستعارة والاستعادة والتكرار مما قاله القدماء ، ولما قالوه دون أن يحد من مدى الاستعارة والاستعادة والتكرار مما يدل على أنه يريدها جامعة شاملة جميع ما يمكن أن يجمع .

وهذا شاعر آخر يقرر أن الأول لم يترك للآخر شيئا ، وينفى فى صيغة الاستفهام أن يكون الشعراء السابقون تركوا معنى لم يتركوه،أو متردما من الشعر لم يصلحوه،فيقول عنترة:

هل غادر الشعراء من متردَّم   أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

ومَن أولئك الذين يقررون و يؤكدون أنهم مقتبسون ومستعيرون ، ومستميدون ومكررون ومقلدون ؟ إنهم ثلاثة من أصحاب المعلقات ، ومن زعماء الشعر فى العصر الجاهلى ، وهم لايرون فى ذلك غضا من عليائهم ، ولا توهنيا لكبريائهم .

الشعر العربى المفقود كان بلسان قحطان :

و إذن فإن لنا أن نحكم بأن للعرب المتوغلين فى الدهر شعرا لم يصلنا منه شىء كان بلسان قحطان ، لم يصلنا لأنه اندثر فيما اندثر من آثار ، و بأن هذا الشعر لم يكن غنائيا خالصا ، و إنما هو مزيج من الغنائى والقصصى والتمثيلى ، ولكنه ساذج لم يتم بناؤه ، ولم تستحصد أجزاؤه ، فلم يوصف بأنه قصصى أو تمثيلى .

الحوار هو الشعر التمثيلى :

إن تلك المحاورات التى تروى عن امرئ القيس وعبيد بن الأبرص ، وعنه وعن التوءم اليشكرى ـ مع أننا نظن أنها موضوعة ـ تصلح لأن تعطينا صورة للحوار الذى يمكن أن يعتمد عليه المسرح .

وها هو ذا الحوار الذى زعم أنه دار بين امرئ القيس والتوءم :

قيل إن امرأ القيس نازع التوءم اليشكرى جد قتادة بن الحارث ، فقال : إن كنت شاعرا فأجز ما أقول : فقال التوءم : قل ما شئت ، فقال امرؤ القيس :

امرؤ القيس : أصاح ترى بريقا هب وهنا .[1]

فقال التوءم : كنار مجوس تستعر استعارا .

فقال امرؤ القيس : أرقت له ونام أبو شريح .

فقال التوءم : إذا ما قلت قد هدأ استطارا .[2]

(١) البريق : تصغير برق ، والتصغير هنا للتعظيم ، ووهنا : منتصف الليل .

(٢) استطار : انتشر .

فقال امرؤ القيس : كأن هزيزه بوراء غيب .
فقال التوءم : عشار وُلَّه لاقت عشارا .
فقال امرؤ القيس : فلما أن علا كنفى أُضاخٍ [١]
فقال التوءم : وهت أعجاز ريِّقه فحارا .
فقال امرؤ القيس : فلم يترك بذات السر ظبيا .
٤١ : فقال التوءم : ولم يترك بجلهتها حمارا .

فلما رأى امرؤ القيس أن التوءم قد ماتنه ، ولم يكن فى الزمن الأول شاعر يماتنه آلى ألا ينازع الشعر أحدا بعده

أيعيب العرب ألا يكون لهم شعر قصصى وتمثيلى

و بعد فهبهم لم يقولوا شعرا قصصيا ولا تمثيليا فإن ذلك لايهن من براعتهم ، ولا يغض من فنهم ، إذ لا يعيبهم أن يعرضوا عن منهل لم يستعذبوه ، أو ألا يردوا موردا لم يعرفوه ، ولو أرادوه لعرفوه ، فليس الشعر المسرحى بمعجز من كان له طبع سليم ، وخيال فسيح ، وكانا متوافرين عند العرب .

وقد يكون من أسباب انحرافهم عنه ـ إن كانوا قد انحرفوا ـ أو عدم اتجاههم إليه إن سلمنا بأنهم لم يتجهوا ـ أنهم كانوا ذوى بديهة وارتجال، لأنهم ـ كما يرميهم بعض المتعنتين ـ ضيقو المجال ، مقفرو الخيال ، فشعرهم الغنائى يشعرنا بغير ذلك، فقد منحتهم طبيعتهم عناصر الإبداع ، ووهبت لهم بيئتهم أسباب تفرع القول .

---

(١) إحدى قرى اليمامة لبنى نمير

الشعر الغنائى

انبعاث الشعر الغنائى :

ينبعث الشعر الغنائى عن عاطفة صادقة ، و يتدفق من وجدان سليم ؛ إذ هو يصور ما يجيش بخاطر الشاعر دون غيره ، و يرسم ما يخالط مشاعره لا مشاعر سواه ، فهو أقرب ما يكون موطنا من الغناء ، وأدنى ما يكون صلة به ، فالعربى الذى يحدو إبله ، والراعى الذى يرعى غنمه ، والحبيب الذى يناجى حبيبه ، والعاشق الذى يساهر النجوم ، والمحارب الذى يصول فى حومة الوغى ، والمكلوم الذى يشكو الجوى و يرسل الأسى ، وغير أولئك وهؤلاء ممن تحفزهم إلى إنشاء القريض دوافعه تتفتح صدورهم لإنشاده ، وتطرب آذانهم لتلحينه ، فإذا الشاعر مغن ، و إذا المغنى شاعر .

الشعر القصصى والتمثيلى ليسا صالحين للغناء دائما :

أما القسمان الآخران : القصصى والتمثيلى فلا يصلحان فى جميع الأحوال للغناء ، إذ ليست جميع المواقف والمشاهد تستأهل التلحين ، وحتى إن كانا صالحين ، فإنهما يصدران عن باعث ليس قويا قوة انبعاث الشعر الغنائى ، هذا إلى أنهما أقرب إلى الدين والأخلاق منهما إلى الآداب والفنون ، وهما يحتاجان إلى التروية والتأمل ، وهذا مالم يكن يحتمله العربى الجاهلى القريب العهد بالإسلام ، فحياته البدوية البحت لاتلائم هذه القيود ، وطبيعة النفور من الأسر لا تتحمل هذه الأصفاد ؛ تلك التى تقف دون انطلاق لسانه بما يشاء و يريد ، لا بما يراد منه .

الشعر القصصى والتمثيلى يحتاجان إلى تدوين .

ثم إن الشعر القصصى والتمثيلى يحتاج كلاهما إلى تدوين وتسجيل حتى يقتدر ناظمه على تتبع ما نظم ، والعودة إلى مراجعة ماقرض ؛ لتسير الملحمة أو التمثيلية على نمط متسق ،

ونظام متصل، وهذا هو ماصرف الشاعر فى العصر الجاهلى الحديث عن هذين الفنيين، لاما يزعمه بعض رجال الأدب من أنه ضِيق الأفق ، أو قَيد القافية ، فليس العربى الذى يعيش بين الصحراء والسماء — لايحجب هذه الآفاق عنه حجاب . ولايعترض النظر فى كائناتهما حائل — بالذى يقال عنه إنه ضيّق الأفق ، وأما القافية فهو مخترعها، ولو رأى أنها ستصده عن طريق يريده لحاد عنها ، و إذا كان الرجز أول ماقال من الشعر وقد التزم فيه بناء البيت على الشطر الواحد، فالقافيه ملتزمة فى كل شطر ، ثم توسع فى استعمالها ؛ إذا كان الأمر كذلك ، فإنه يتحول عنها إلى ما ييسر عليه النظم ، فهو مطلق الحرية فى ذلك الحين ، وهو الخالق الأسس والقواعد .

ومع هذا فبحر الرجز يبيح له مالا يباح فى بحر سواه، وسهولة النظم به تتيح للشاعر القدرة على الإطالة ، وهذه أرجوزة أبى العتاهية الشاعر العباسى توشك أن تكون ملحمة ، مع أنها فى الحكمة : والحكمة أضيق معانىَ من الملاحم .

وها هو ذا أحمد شوقى بك استطاع أن ينظم القصة القصيرة ، والتمثيلية الجميلة دون أن يقف فى سبيل نظمه قيد البحر أو القافية .

أول من فكر فى تقسيم الشعر الغنائى :

أول من فكر فى تقسيم الشعر الغنائى عند العرب تقسيما فيه دقة نظر ، واستقصاء أغراض هو الشاعر العباسى هو أبو تمام الطائى ، فقد اختار من شعر الشعراء المجيدين فى الجاهلية وصدر الإسلام ، والعصر الأموى وصدر العباسى أجود ما قاله أولئك الشعراء ، وسمى كتابه : « ديوان الحماسة » ، ووهب لهذا الغرض ثلث كتابه .

و إذا كان لنا مانأخذه عليه فهو أنه آثر المقطوعات القصيرة على المقطوعات الطويلة والقصائد الكاملة ، وكأنه أراد بذلك أن يعرض علينا من شعر الفحول أكثر ما يمكن أن يجمع فى كتاب ؛ فيكتفى بالبيتين أو الأبيات دليلا على جمال الشعر وروعته ، وعلى قدرة

الشاعر و براعته ، مثله كمثل البستانى ينسق الطاقة ، فيقطف من كل نوع زهرة ، ليظهر غنى بستانه بأزاهيره .

تقسيم أبى تمام ورأينا فيه :

وقد قسم ما اختاره إلى عشرة أقسام : الحماسة والمراثى ، والأدب والنسيب ، والهجاء والأضياف والمديح ، والصفات والسير ، والملح ومذمة النساء .

ومن عجب أن أبا تمام غض من قدر الوصف مع أنه كان من البارعين فيه ؛ إلا إذا أبحنا لأنفسنا ألا نتقيد بالتسمية التى سماها لأقسامه ، وأورد تحتها الأبيات التى اختارها . على أنه أورد فى باب الصفات سبعة عشر بيتا ليس فيها بيت لشاعر من شعراء الوصف المجيدين ، فهى للبعيث الحنفى ، ولعنترة بن الأخرس ، ولملحة الجرمى ، وهذه أبياته يصف فيها السحاب :

أرقت وطال الليل للبارق الومض	حبيا سرى مجتاب أرض إلى أرض (١)
نشاوى من الإدلاج كدرى مزنه	يُقضِّى بجدب الأرض مالم يكد يَقضى (٢)
تحن بأجــــــواز الفضا قُطُراته	كما حَنَّ نيب بعضهن إلى بعض (٣)
كأن الشماريخ العلا من صبيره	شماريخ من لبنان بالطول والعرض (٤)
يبارى الرياح الحضرميات مزنه	بمنهمر الأرواق ذى قزع رفض (٥)
يغادر محض المـاء ذو هو محضه	على إثره إن كان للماء من محض (٦)
يروى العروق الهامدات من البلى	من العرفج النجدى ذو باد والحمض (٧)

٤ ر :

---

(١) حبيا : سحابا معترضا الأفق . (٢) الإدلاج : سير أول الليل . كدرى: فى لونه كدرة وسواد (٣) الأجواز : الأوساط . قطراته : نواحيه . النيب : الإبل المسنة .

(٤) الشماريخ : أعالى الجبال، واستعارها للسحاب. الصبير : السحاب فيه سواد وبياض .

(٥) الحضرميات : الهابة من حضرموت . الأرواق : جمع روق المياه الصافية . القزع : قطع السحاب . الرفض : الإبل تترك فى المرعى ، ويريد متفرقا . (٦) دو : بمعنى الذى .

(٧) العرفج : اسم نبات . ذوباد : الذى هلك . الحمض : المرمن النبات

وبات الحبى الجون ينهض مقدما كنهض المدانَى قيده الموعث النقّض[١]

وهى أبيات بالغة الإحسان فى وصف السحاب ، والقطعتان الأخريان إحداهما فى وصف الناقة ، والأخرى فى وصف الثعبان .

إذا لم نتقيد بهذه التسمية وجدنا فى جميع الأبواب قطعا تصلح لأن تكون فى باب الصفات ، كأبيات أمية بن أبى الصلت التى يصف فيها شأنه وولده إذ يقول :

غذوتك مولوداً وعلتك يافعا تعل بما أدنى إليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت لشكوك إلا ساهرا أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى طرقت به دونى ، وعينى تهمل
تخاف الردى نفسى عليك، وإننى لأعلم أن الموت حتم مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التى إليها مدى ما كنت فيه أؤمل
جعلت جزائى منك جبها وغلظة كأنك أنت المنعم المتفضل

إلى آخر هذه القطعة التى فى أبياتها الكثير مما يدخل فى الوصف الحكمى وتندرج تحته ، بما تنتظمه من صور كاملة ، ومعان سامية ، وكقول الأخنس التغلبى الجاهلى فى الأطلال والناقة والسيف :

لمن يك أمسى فى بلادٍ مقامة يسائل أطلالا بها لا تجاوب
فلابنة حطان بن قيس منازل كما نمق العنوان فى الرق كاتب
تمشى بها حُولُ النعام كأنها إماء تزجى بالعشى حواطب[٢]
٥٩ : وقفت بها أبكى وأشعر سخنة كما اعتاد محموما بخيبر صالب[٣]

(١) الجون : السحاب الأسود أو الأبيض ، والأول هو المراد . المدانى : المقارب الخطا . الموعث : السائر فى الأرض اللينة . النقض : المهزول الضعيف .

(٢) إماء : جمع أمة البنت الرقيقة . تزجى : تساق سوقا لينا . حواطب : ضالة تخبط خبط عشواء، أو جامعات الحطب . (٣) أشعر : ألبس الشعار ، وهو الثوب يلى الجسد . سخنة : حرارة . صالب : حمى مصحوبة بصداع .

خليـلىَّ عوجا من نجاء شملة عليهافتى كالسيف أروع شاحب[1]

خليلاى هوجاء النجاء شملة وذو شطب لايجتويه المصاحب[2]

وهى أبيات تبدو فيها الروعة والحسن والافتنان ، فهذا التشبيه لرسوم الديار « كما نمق العنوان ... » لا يفضله قول طرفة فى المعنى نفسه : « تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد » وتشبيهه النعام الحائل فى أماكن تلك الديار يضرب فيها ، ويخبط فى جنباتها بالإماء تخبط خبط عشواء ، أو بهنّ إذ يتنقلن فى جمعهن الحطب من مكان إلى مكان تصوير جميل .

وإذن فإن أبا تمـام وإن يكن قد وضع الوصف فى غير مكانه ، فقد ملأ به كتابه ، فغض منه من ناحية، وعنى به من ناحية أخرى، فقل أن تجد قطعة لا يبهرك الوصف فيها .

تقسيم البحترى ورأينا فيه :

ثم جاء بعده أبو عبادة البحترى ، فوضع كتابه : « الحماسة » على غرار كتاب أستاذه أبى تمـام فى الاسم فقط ، وخالفه فيما عدا ذلك ، إذ قسمه إلى أربعة وسبعين ومائة قسم ، نظر فيها لا إلى فنون الشعر ، بل نظر إلى جزئيات المعانى ، فيقول مثلا :

« الباب السادس عشر » فيما قيل فى حمد عاقبة ركوب المـكروه عند الحرب :

قال النابغة الذبيانى :

سرنا إليهم وفيهم كارهون لهم وقد يصادَف فى المـكروهة الرشَدُ

وقال الجمال العبدى :

إذا خفت فى أمر عليك صعوبة فأَصعبْ به حتى تذل مراكبه

وأمرٍ على مكروهه قد ركبته فـكان بحمد الله خيرا عواقبه

٦٤ :

---

(١) عوجا : ميلا . النجاء: السرعة . الشملة : الناقة السريعة . الأروع : الجميل . شاحب: متغير من السفر .

(٢) خليلاى مبتدأ خبره : هوجاء النجاء ، وذو شطب . الهوجاء : الناقة فى سيرها هوج ونشاط . وذو شطب : وصف للسيف به طرائق متعرجة . يجتويه : يكرهه ويمله .

وقال الأخرز بن جرين :

وأركب السكره أحيانا وأحمده ورُبما نال فى السكره الفتى الرُّغبا
لا تجزعنّ لسكره أنت راكبه واجسر عليه ولا تظهر له رُعُبا

وقال بشامة بن حصين الفزارى :

٦٧ : ونركب السكره أحيانا فيفرجه عنا الحفاظ وأسياف تؤاسينا

ثم ينتقل بعد هذه الأبيات الستة إلى الباب السابع عشر فيما قيل فى الاعتذار من الفرار ، وهكذا يسير فى تقسيمه ، فيجمع المعانى المتماثلة ، والأفكار المتقاربة فى إطار واحد ، وهو لا يعدو فيما يعرضه البيت والبيتين والثلاثة ، فيتيح للناظر فى الشعر ، تبيُّن أصحاب المعانى المبتدعة ، ومعرفة من اقتبس منهم . وأخذ عنهم ، و يجمع الكتاب نحو أربعة آلاف بيت كلها من جيد الشعر ومصطفاه

تقسيم قدامة بن جعفر :

ولقدامة بن جعفر كتابان فى النقد ، أحدهما : نقد النثر ، والآخر نقد الشعر ، قال فى أولهما ؛ عن تقسيم الشعر : « وللشعراء فنون كثيرة تجمعها فى الأصل أصناف أربعة ، وهى : المديح والهجاء ، والحكمة واللهو ، ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون ، فيكون من المديح المراثى والافتخار ، والشكر واللطف فى المسألة ، وغير ذلك مما أشبهه وقارب معناه ، ويكون من الهجاء الذم والعتب والاستبطاء والتأنيب ، وما أشبه ذلك وجانسه ، ويكون من الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ ، وما شاكل ذلك وكان من نوعه ، ويكون من اللهو الغزل والطرد وصفة الخمر والمجون وما أشبه ذلك وقاربه ، ثم يورد بعد ذلك أمثلة لهذه الفنون الأصلية والفرعية ، وهو تقسيم تظهر عليه سِمة العلماء وأهل المنطق . وقال فى نقد الشعر تحت عنوان : « باب المعانى الدالّ عليها الشعر » .

« . . . ولما كانت أقسام المعانى التى يحتاج فيها إلى أن تكون على هذه الصفة مما لانهاية لعدده . . . ، رأيت أن أذكر منه صدراً ينبيء عن نفسه ، ويكون مثالا لغيره ، وعبرة لما لم أذكره ، وأن أجعل ذلك فى الإعلام عن أغراض الشعراء ، وما هم عليه أكثر حوما ، وعليه أشد روما ، وهو المديح والهجاء، والنسيب والمراثى والوصف والتشبيه».

ولو أنه استغنى عن التشبيه بالوصف لكان تقسيمه أقرب إلى ما تعارف عليه الشعراء .

تقسيمات أخرى :

جاء أبو هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ هـ فى أعقاب قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ هـ فسار على نهجه ، وأخذ عنه مذهبه ؛ إذ قال : « وإنما كانت أقسام الشعر فى الجاهلية خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيب والمراثى حتى زاد النابغة فيها قسما سادسا ، وهو الاعتذار فأحسن فيه » .

ومن بعدهم جاء ابن رشيق القيروانى المتوفى سنة ٤٥٦ هـ فعدل فى تقسيم من سبقوه تعديلا طفيفا ؛ إذ جعله تسعة أقسام : النسيب والمديح ، والافتخار والرثاء ، والاقتضاء والاستنجاز ، والعتاب والوعيد والإنذار ، والهجاء والاعتذار .

ويقول عبد العزيز بن أبى الإصبع : « والذى وقع لى أن فنون الشعر ثمانية عشر فنا : غزل ووصف ، وفخر ومدح ، وهجاء وعتاب ، واعتذار وأدب ، وزهد وخمريات ، ومراث وبشارة وتهان ، ووعيد وتحذير وتحريض وملح ، وباب مفرد للسؤال والجواب » .

وهو تقسيم ليس بذى قيمة فنية ، فلا هو راعى دقاق المعانى كالبحترى ، ولا هو لاحظ خصائص المعانى ، فنحن نستطيع أن نجمع بين الهجاء والعتاب والوعيد والتحذير والتحريض فى باب واحد ؛ لأنها تصدر عن غاية واحدة ، وكذلك المدح والبشارة والتهانى ، ثم الأدب والزهد .

وقسمه البارودى فى مختاراته إلى سبعة أقسام : الأدب والمديح والرثاء ، والوصف والنسيب والهجاء والزهد ، ومع أنه أيضا من زعماء الوصف فى عصره ، فإنه لم يعرف له قيمته ، ولم يضمه فى فلكه ، فلم يعقد له بابا خاصا .

وبعد ، فأقرب هذه التقسيمات إلى الدقة تقسيم أبى تمام والبارودى ، فتقسيمهما تقسيم الشاعر لا تقسيم العالم .

الفصل الرابع

فى الوصف وتقسيمه

معنى الوصف :

الوصف بمعناه اللغوى : هو التحلية والتجميل ، يقال : وصف الشىء له وعليه وصفا وصفة: حلاه وجمله ، وللصديق أوصاف حسنة وصفات جميلة، وتواصفوا الكرم إذا وصف بعضهم بعضا به ، وقد اتصف جاره بالخلق الحميد إذا صار منعوتا متواصفا بين القوم به .

وهو عند النحويين يخالف معناه عند اللغويين بعض المخالفة ، فهو عند أولئك أعم وأشمل ، إذ جعلوه يتناول المدح والذم ، والحسن والقبيح ، فيقال : هذا فتى وسيم، وذاك رجل دميم ، وفلان له أصل كريم ، والآخر له نسب لئيم .

ونحن لا نعنى هذا المعنى ولا ذاك ، و إنما نعنى معناه عند الأدباء ، وهو عندهم :

تصوير الظواهر الطبيعية بصورة واضحة التقاسيم ، وتلوين الآثار الإنسانية بألوان كاشفة عن الجمال ، وتحليل المشاعر الإنسانية تحليلا يصل بك إلى الأعماق ، إلى غير هاتيك العناصر التى قد يحتاج وصفها إلى ذوق فنىّ ، وتتطلب الإحاطة بنواحيها ، والسمو إلى آفاقها وجدانا شاعرا ، وإحساسا مرهفا ، وذوقا سليما ، ككل ما يملك على الإنسان المرهف الحس إحساسه ، ويثير فيه شعوره ووجدانه ، وكتلك المناظر التى تخلب لبّ المتأمل وتملكه ، وتأسر بفتنتها المتمعن وتسحره ، فيطيل فى قسماتها التأمل ، ويدمن فى أجزائها التمعن ، ثم يصوره بعدئذ فى الصورة التى يرتضيها ذوقه ، ويقبلها فنه ، وقد يكون الفن فى أول الأمر ساذجا فطريا ، يعوزه الصقل والتقويم ، وتنقصه الدقة والعمق ، ولكنه مايلبث بعد حين أن يصقل ويكمل ويوفى على التمام .

قيمة الوصف فى الشعر العالمى :

والوصف — فى حقيقة الأمر — هو عمود الشعر وعماده ، بل إن كل أغراض الشعر

وصف ، فالمدح وصف نبل الرجل وفضله ، والنسيب وصف النساء والحنين إليهن ، والشوق إلى لقائهن ، والرثاء هو وصف محاسن الميت ، وتصوير آثاره وأياديه ، والهجاء وصف سوءات المهجوّ ، وتصوير نقائصه ومعايبه ، وهكذا نستطيع أن ندخل جميع فنون الشعر تحت الوصف ، فهو على هذا الوضع كالدوحة الملتفة الأغصان ، الفارعة الأفنان ، المترامية الظلال، ولكننا نريده مستقلا بذاته، محدود المعالم عن سواه، وهو ماسنفصله فى هذا الكتاب.

الوصف أول ما نطق به الشعراء :

أرى أن فن الوصف هو أول ما نطق به الشعراء ، لا ما يرى البعض من أن الشعر الحماسى هو أول ضروب الشعر ، وحتى إن رضينا بهذا الذى يقال ، فإننا نرجع الشعر الحماسى إليه ؛ لأنه وصف لضروب من الشجاعة والفتوة ، وعرض لصور من البطولة والقوة .

إذ أرى أن الشعراء حينما تدفقت ألسنتهم بالشعر ، بعد أن أفعمت به قرائحهم تدفقوا واصفين شعورهم ووجدانهم ، أو أساهم ووجدهم ، أو مصورين نجواهم وشكواهم ، أو نعيمهم وملهاهم ، وعلى الجملة معبرين عن كل ما يحرك كوامنهم ، ويثير هواجسهم ، ويوقظ أحاسيسهم ، ويستبد بمشاعرهم من مناظر أو أحداث ، أو مظاهر أو آثار .

نعم نطق الشعراء بالشعر واصفين — لا مفتخرين ولا راثين — فالفخر كان بلغة الشعب إلا إذا اقتضته المحافل الجامعة أو الأسواق الحاشدة ، ولغة الشعب فى الأمم البادية هى القوس والسهم ، والسيف والرمح، والرثاء كان بلغة القلوب والعيون . القلوب تنفطر، والعيون تنهمر .

أما وصف أثر الطبيعة فى النفس ، وتصوير فعل الظواهر فى الخاطر ، فلابد أن يكون بلغة أرق ، وبأسلوب أكثر اتساقا ، وأعظم انسجاما من سواه ، وهو الشعر .

ودع رأى من يقول : « إن أبواب الشعر اليوم تعدّ بالعشرات لم يكن منها فى الجاهلية إلا الفخر والحماسة ، والتشبيب والمدح والهجاء ، وتفرع من المدح الرثاء وهو مدح الميت » فذلك رأى لا تؤيده الطبيعة الإنسانية ، ولا يثبته المروى من الشعر الجاهلى ، ولعل القائل فاته أن الوصف يمكن أن يندرج تحته كما قدمنا — الفخر بالقبيلة لأنه وصف لمآثرها ، وعد لآلائها ومناقبها ، وعلى النمط بقية الأغراض التى تناولنا الحديث عنها .

كثرة الوصف وطغيانه على الأغراض الأخرى :

وبين يدينا الكثير من الشعر الجاهلى نتأمله فنجده يبدأ بالوصف دائما ؛ وصف الأطلال أو وصف الظعن ، أو وصف الحبيبة ، أو وصف الخمر أحيانا ، ثم ينتقل الشاعر من وصف إلى وصف مستطردا متتابعا ؛ حتى تكاد القصيدة تنتهى، فإذا جُلُّها وصف ، وإذا القليل منها ليس كذلك .

وهذه — مثلا — معلقة امرئ القيس نتتبعها فنجدها جميعا وصفا ، فقد بدأها بوصف منازل حبيبته ، وتأثير الشمال والجنوب فيها ، فترى فى عرصاتها وقيعانها بعر الآرام كأنه حب فلفل ، ثم يصف وقوفه وصحبه عند ماتحمل أحبابه، وهم يبعثون فيه التجمل، ويصور مايشفى نفسه ، ويطفئ لوعة قلبه بأنها عبرة مهراقة ، وإن لم يكن من ورائها طائل ، فهل عند رسم دراس من معول ؟ وهكذا يتنقل فى الوصف ، فيصف عقر مطيته للعذارى ، ويعجب من كورها المتحمل ، ويصور كيف ظل العذارى يرتمين بلحمها « وشحم كهداب الدمقس المفتل » ثم يصف دخوله خدر عنيزة وأنها عبثت به فدعت عليه ؛ لأنه سيرجلها بركوبه معها ، إذ لن يستطيع البعير أن يحملهما جميعا ، وأى عبث كقولها :

« لك الويلات إنك مرجلى » .

ويسير على هذا النهج الوصفى القصصى المعتمد على الحوار الهادئ حينا ، والثائر حينا كقولها :

« عقرت بعيرى ياامرأ القيس فانزل » فيقول :

٦٨ : فقلت لها سيرى وأرخى زمامه ولاتبعدينا من جناك المعلل

ثم ينتقل إلى وصف بيضة الخدر التى لايرام خباؤها ، ويصف الثريا فى السماء ، وقد عرضت له :

« تعرض أثناء الوشاح المفصل » .

ويصف بعد ذلك صورة لما يجرى بين العاشقين ، لاينقص الصورة تلوين أو تظليل ، بل هى كاملة التكوين والتحبير ، وأى صورة أكمل من قوله :

هصرت بفودى رأسها فتمايلت　　عَلىّ هضيم الكشح ريا المخلخل

مهفهفة بيضاء غير مفاضة　　ترائبها مصقولة كالسجنجل

تصد وتبدى عن أسيل وتتقى　　بناظرة من وحش وجرة مطفل

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش　　إذا هى نصته ولا بمعطل

وفرع يزين المتن أسود فاحم　　أثيث كقنو النخلة المتعثكل

و ينتقل من وصف عنيزته ذلك الوصف الذى يستطيع المصور أن يخلق منه ملكة جمال فى هذا العصر بعد أن يتأمل دقائقه ، و يتصور جزئياته ،

ثم ينتقل إلى وصف الليل وطوله ، وثبات نجومه حتى لكأنها :
« بكل مغار الفتل شدت بيذبل » .

ومن الليل ينتقل إلى وصف واد :

وَوَادٍ كجوف العير قفر قطعته　　به الذئب يعوى كالخليع المعيل

ثم يدير الحديث بينه و بين ذلك الذئب ، ومن ثم ينتقل إلى وصف فرسه ، وسنعرضه عرضا مبسوطا بعد حين ، و إذ يبلغ غايته من وصف فرسه يصف سربا من البقر الوحشى . وهنا ترى صورة من الصيد والطرد ، كأنها لوح فى معرض من معارض التصوير ، أو قطعة فنية فى متحف من متحفات الآثار ، و ينتقل من معركته مع صيده إلى وصف البرق ، وأن وميضه .

« كلمع اليدين فى حبى مكلل » و بعد أن يأخذ حظه من وصفه يصف ثبيرا فى عرانين و بله كأنه : « كبير أناس فى بجاد مزمَّل » حتى يختم القصيدة بقوله :

كأنّ مكاكى الجواء غدية　　صبحن سلافا من رحيق مفلفل

٧٦ : كأن السباع فيه غرقى عشية　　بأرجائه القصوى أنابيش عنصل

فهذه قصيدة تجاوزت أبياتها الثمانين ليس فيها بيت واحد يمكن أن يقال عنه : إنه ليس من فن الوصف ، مع أنها لشاعر يتسع له مجال الفخر والحماسة ؛ لأنه ملك وسليل

ملوك ، ولكن الوصف غلب عليه ؛ لأن من حقه أن يغلب عند ذوى النفوس الجياشة ، وهم الشعراء قبل جميع الناس .

وهذه قصيدة سويد بن أبى كاهل اليشكرى تجاوزت أبياتها المائة تكاد تكون وصفا خالصا ، فهو يصف فى أولها خليلته وصفا لا فحش فيه ولا فسوق ، بل هو تشبيه وتصوير كقوله :

تمنح المرآة وجها واضحا مثل قرن الشمس فى الصحو ارتفع
صافى اللون وطرفا ساجيا أكحل العينين ما فيه قمع

ثم ينتقل إلى وصف زيارة طيف المحبوبة ، وسهاد الليل فى سبيل الإلمام به ، وأنه قطع فى رحيله إليه : « عصب الغاب طروقا لم يرع » لأنه :

آنس كان إذا ما اعتادنى حال دون النوم منى فامتنع

ثم يصف رحلته إليها ، وقطعه المفاوز فى سبيلها ، فيصف الزمان والمكان والسكان ، فيقول :

كم قطعنا دون سلمى مهمها نازح الغور إذا الآل لمع
فى حرور ينضج اللحم بها يأخذ السائر فيها كالصقع
وتخطيت إليها من عدى بزماع الأمر والهم الكنع
وفلاة واضح أقرابها باليات مثل مرفت القزع
يسبح الآل على أعلامها وعلى البيد إذا اليوم متع
فركبناها على مجهولها بصلاب الأرض فيهن شجع
كالمغالى عارفات للسرى مسنفات لم توشم بالنسع

ثم يسير فى هذا الوصف حتى يبلغ منه غايته، فيعرج على قبيلته يصفها، ويفخر بكرمها وخلقها ، ثم ماينى أن يعود إلى تصوير أثر بعد الحبيبة عنه فيقول:

٨٧ : حل أهلى حيث لا أطلبها جانب الحضر وحلت بالفرع

لا ألاقيها وقلبي عنـــدها   غير إلمام إذا الطرف هجع

ومن ثم يصف الثور الوحشي وصفا فيه دقة المعرفة ، وفيه سذاجة الفطرة ؛ فهو يصف شياته وأجزاءه ، ثم يصف روعته وفزعه من صياد طيئ وكلابه ، فيصور لك حربا ناشبة بين الـكلاب و بينه ، مما سنعرضه لك فيما بعد

ومايزال ذلك شأنه يتنقل بين وصف الطبيعة الساكنة والمتحركة ، أو بين الفخر والحـكمة ، وللوصف فى هذين أثر حتى يبلغ الغاية بوصف شيطان شعره ، فيختم به قصيدته فيقول :

وأتانى صاحب ذو غيث   زفيان عنـد إنفاد القرع

قال : لبيك ! وما استصرخته   حاقرا للناس ، قوال القــذع

ذو عباب زبد آذيه   خمـــط التيار يرمى بالقلع

زغربى مستعز بحره   ليس للماهر فيـــه مطلع

هل ســـويد غير ليث خادر   ثئدت أرض عليـــه فانتجع ؟

هاتان قصيدتان من أطول قصائد الشعر الجاهلي لاتكاد تجد فيهما من أغراض الشعر بعد الوصف إلا القليل الذى لايعتد به ، بل لاتكاد تجد فيهما شيئا غير الوصف إذا نظرنا إلى مافيهما من غزل أو فخر أو حكمة نظرة واسعة، فسويد يقول فى فخره ، ووصف حربه مع عدوه :

وعدوّ جاهـــد ناضلته   فى تراخى الدهر عنـكم والجمع

فتساقينا بمر ناقـــع   فى مـــقام ليس يثنيه الورع

وارتمينـا والأعادى شهد   بنبال ذات سم قـــد نقع

بنبال كلها مـــذروبة   لم يطق صنعتهـا إلا صـــنع

٩٨ : خرجت عن بغضة بينة   فى شباب الدهر والدهر جذع

فهل بعد هذا يصح لقائل أن يقول : إن شعر الحماسة فى العصر الجاهلى غلب

على الشعر العربى ، أو أن نستمع إلى من يقول: «إن الوصف كان متخلفا عن أكثر أبواب الشعر العربى » ؟ اللهم لا ، وقد قدمنا الحجة والدليل .

الشاعر هو الوصاف :

إن الشاعر الوصاف يعبر عن خلجات النفوس ، وخفقات القلوب ، وومضات العيون ، وبسمات الشفاه، وأسارير الجباه ، معينه فى وصفه السماء ، والأرض ، والصحراء ، والماء ، والبدو ، والحضر ، والشمس ، والقمر ، والإنسان ، والحيوان ، والنبات ، والجماد ، وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق كما يقول المتنبى. يتخذ منه مادته ، ويجعله نبع عاطفته ، فهو يصور الليل إذا سجا ، والنجم إذا هوى ، والموج حين يتلاطم ، والرمل وهو متراكم ، والبدر عندما يتألق ، والصبح حينما يشرق ، بل هو يصف مالايدركه البصر ، ويصور مالايعرف كنهه النظر ، فيصف الحس ، ويصور الخاطر ، ويخرج من هذه المعنويات صورا فتانة يدركها الحس ، ويتأملها الشعور ، فكأنك ترى الكبد المقروحة ، أو القلب الخفاق ، أو النفس الهاجسة ، أو الطيف الزائر، أوالخيال العابر، مما لاتدركه إلا النفوس الجياشة بالشعور.

ويصور لك الشوق نارا تتأجج ، والسرور نسيما يتأرج ، وغير هذا وذاك ، مما ستقرأ منه الكثير ، فتجد فيه روح العبير .

أثر البيئة العربية فى أهلها

إذا تأملنا مصور شبه جزيرة العرب أدركنا لأول وهلة أنها وحى صادق للشاعرية ، ونبع غزير للوصف ، إنها تكاد تكون صحراء ، لا أنهار تجرى بينها ، فتفتق مكنونها ، وتخرج مكنوزها : فالقحط يشملها من كل جانب ، والجدب يحتلها من كل قطر ، فهم لذلك ينتظرون الوسمى انتظار المحب رجع الرسول ، ويؤملون من النوء أن يجر أهدابا على البطحاء ، ويسعون فى طلب الكلإ سعيا يجمع بين الضحك والبكاء ، وينتجعون العشب فى الصبح أو فى الليلة الظلماء ، لا يشغلهم عن طبيعة بلادهم السافرة ، ومناظرها الساحرة

إلا أن يجدوا من العيش شظفا ، ومن الماء رشفا ، ثم انصرفوا إلى ذلك الطبيعى يتأملونه فيصفونه ، ويستنبئونه سره ويعلنونه :

إن الذى حرم الصحارى منظرا   ألـــــقى عليها للجلال شعارا
روحية صدفت عن الدنيا وما   فيها وأضحت للشـــعور مثارا

لذا عرفوا جميعا ـ لا فرق بين طفل وشيخ ، ولا بين رجل وامرأة ، ولا بين أعمى ومبصر دقائق ظواهرها ، وحقائق مناظرها .

أعرابى ضرير يستنبئ ثم يعلن حكمه :

حدثوا أن أعرابيا ضريراً خرج مع ابنة عم له يرعيان غنما ، فأحس نسمة تؤذن بمطر ، وأراد أن يتعرف من ابنة عمه حال السماء ، فقال : إنى أجد ريح النسيم قد دنا ، فارفعى رأسك فانظرى، فقالت: تريد السحب ،كأنها ربرب معزى هزلى ، فعلم أن السحب لاتزال فى صغر قطعها ، ووضوح لونها كقطيع المعزى الهزيلة ، وأن المطر آت ولكن بعد حين ، فقال لها : ارعى واحذرى ، وسكتت ساعة ، ثم أعاد السؤال ، فقالت : كأنها بغال دهم تجر جُلالها ، فعرف أن السحب قد عظمت وأطبقت؛ حتى صارت فى ضخامة البغال قد سقطت عنها الجلال ، فهى تتعثر فيها ، فقال : ارعى واحذرى ، وبعد قليل سألها الثالثة ، فقالت: كأنها بطن حمار أصحر .

فعرف أن غبرة السماء قد اختلطت بحمرة خفيفة ، وأن السحاب قد تدلى لثقل مائه ، وعما قليل سيمطر ، فقال لها : ارعى واحذرى ، ثم سألها الرابعة ، فأنشدت :

١٠١ : دان مسف فويق الأرض هيدبه   يكاد يمسكه من قام بالراح

فأيقن أن المطر هاطل ، فقال لها : انجى لا أبالك ، فما أتم كلامه حتى هطلت السماء

عناية العرب بالسحاب والغيث :

و بلغ من عنايتهم به ، ورقابهم له أن سموه أسماء بترتيب دعماته ، فقالوا : إنه أول ما ينشأ نشء ، فإذا انسحب فى السماء فهو السحاب ، فإذا تغممت له السماء فهو الغمام ، فإذا كان الغيم فى عرض السماء ولم تبصره و إنما تسمع رعده فهو العقر ، فإذا أطل وأظل السماء فهو العارض ، فإذا كان رعد و برق فهو العراض ، فإذا كانت السحابة قطعا صغارا متدانيا بعضها من بعض فهى النمرة ، فإذا كانت متفرقة فهى القزع ، فإذا كانت قطعا متراكمة فهى الكرفىء ، فإذا كانت قطعا كأنها قطع الجبال فهى قلع ، فإذا كانت قطعا رقاقا فهى الطخارير ، فإذا كان حولها قطع من السحاب فهى مكللة ، فإذا كانت سوداء فهى طخياء ، فإذا حسبتها ماطرة فهى مخيلة . فإذا غلظ السحاب وركب بعضه بعضا فهو المكفهر . . . إلى آخر هذه الأسماء التى تبلغ اثنتين وثلاثين منزلة لكل منزلة اسمها المميز لها عما سواها .

وللمطر أسماء مميزة : منها الوسمى ، ثم الولى ، ثم الربيع ، ثم الصيف ، ثم الحميم ، وله فى آثاره أسماء كذلك ، فالحيا ما يحيي الأرض بعد موات ، والغيث ما يعقب المحل ، والديمة الدائمة مع سكون إلى غير هذه الأسماء المحددة للمعانى ، والتى تبلغ سبعة وعشرين اسما كل اسم يميز أثر المطر فى الأرض .

وللرياح من الأسماء ما للسحاب والغيث ، فهى النكباء إذا وقعت بين ريحين ، وهى الجربياء إذا وقعت بين الجنوب والصبا ، وهى المتناوحة إذا هبت من جهات مختلفة إلى آخر هذه الأسماء التى تبلغ أربعة وعشرين اسما .

ونظروا إلى الجبال فى ارتفاعها وشهوقها ، فأدنى الجبل الحضيض ، ثم السفح ، ثم السند ، ثم السكيح وهو عرضه ، ثم الحضن ، وهو ما أطاف به إلى غير تلك الأسماء الكثيرة التى تدل على طول تأملهم فيها ، و إدمانهم النظر إليها ، فضربوا بها الأمثال .

احتفالهم بمظاهر الطبيعة :

ولهم فى وصف كل هذه الظواهر الرائع من الشعر ، والجيد من النثر ، فهم يحتفلون بها فيصورونها أجمل تصوير ، ومن نثرهم قول أعرابى يصف المطر :

« تدارك ربك خلقه وقد كلبت الأمحال ، وتعاصرت الآجال ، وعكف اليأس ، وكتمت الأنفاس ، وأصبح الماشى مصرما ، والمترب معدما ، وجفيت الحلائل ، وامتهنت العقائل ، فأنشأ سحابا ركاما ، كنهورا سجاما ، بروقه متألقة ، ورعوده متقعقعة ، فسحّ ساجيا راكدا ثلاثا غير ذى فواق ، ثم أمر ربك الشمال فطحرت ركامه ، وفرقت جهامه ، فانقشع محمودا وقد أحيا وأغنى ، وجاد فأروى ، والحمد لله الذى لاتكت نعمه ، ولا تنفد قسمه ، ولا يخيب سائله ، ولا ينزر نائله » .

ولشغفهم ببيئتهم ، وإعجابهم بطبيعتهم : المتحرك منها والساكن استمدوا منها أوصافهم واقتبسوا من مظاهرها صورهم ، فى شعرهم ونثرهم ، رجالهم ونساؤهم على السواء ، وهذه قصة مارية امرأة حاتم الطائى تصف سنة أصابها وزوجها فيها القحط ، ثم تصف مع هذا كرم زوجها ، فتقول :

« أصابتنا سنة اقشعرّت لها الأرض ، واغبرّ أفق السماء ، وراحت الإبل حدبا حدابير ، وضنت المراضع على أولادها ، فما تبضّ بقطرة ، وحلقت السنة المال ، وأيقنا بالهلاك ، فوالله إننا لفى ليلة صنبر بعيدة ما بين الطرفين ؛ إذ تضاغى صبيتنا جوعا : عبد الله وعدى وسفّانة ، فقام حاتم إلى الصبيين ، وقمت أنا إلى الصبية ، وأقبل يعللنى بالحديث ، فعرفت ما يريد ، فتناومت ، فلما تهورت النجوم إذا شىء قد رفع كسر البيت ، ثم عاد ، فقال حاتم : من هذا ؟ قالت : جارتك فلانة ، أتيتك من عند صبية يتعاوون عواء الذئاب ، فما وجدت معولا إلا عليك يا أبا عدى ، فقال : أعجليهم ، فقد أشبعك الله وإياهم ، فأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشى جنانبها أربعة ، كأنها نعامة حولها رئالها ، فقام حاتم إلى فرسه فوجأ لبته بمديته ، فخر ، ثم كشطه عن جلده ، ودفع المدية إلى المرأة ، وقال لها :

شأنك ، فاجتمعنا نشوى اللحم ونأكل ، ثم جعل يمشى فى الحى يأتيهم بيتا بيتا ، فيقول هبوا أيها القوم ، عليكم بالنار ، فاجتمعوا ، والتفع فى ناحية ينظر إلينا ، فوالله إن ذاق منه مزعة ، و إنه لأحوج إليه منا ، فأصبحنا وما على ظهر الأرض من الفرس إلا عظم وحافر »

هذه القطعة فيها الجميل من الصور ، والبديع من الوصف ، وهو لا يحتاج إلى من يكشف عنه ستوره ، أو يبدى مكنونه ، فوصف الأرض بالاقشعرار ، والسماء بالاغبرار وصف يشعر بالفاقة ، وينبئ عن الحاجة ، ووصف الإبل بالحدب والضمور ، والمراضع بالضنّ والجفاف يدل على اختيار المعانى .

فالعربى يجوع ليطعم ناقته ، والأم تضنى ليحيا وليدها ، وما أروع وصفها الصبية بأنهم يتعاوون عواء الذئاب ؟ فلصوت الذئاب نكر ووحشة ، وما أجمل تشبيه الأم بالنعامة تغطى اثنين من رئالها بجناحيها ، و يلتف من حولها بقية أولئك الرئال .

إنها جميعها صور مستمدة من تلك البيئة الغنية بأسباب الجمال ، السخية بروائع الصور والظلال ، قلنا إنهم اتخذوا من هذه البيئة أمثالهم وحكمهم ، فيقولون : أظلم من حية ، وأغدر من ذئب . قال الأسدى :

لعمرك لو أنى أخاصم حيـــــة ‌ ‌ ‌ ‌ إلى فقعس ما أنصفتنى فقعس

اذا قلت : مات الداء بنى و بينها ‌ ‌ ‌ ‌ أتى حاطب منهم لآخر يقبس

فـــــا لـكم طلسا إلىَّ كأنكم ‌ ‌ ‌ ‌ ذئاب الغضى، والذئب بالليل أطلس

وقالوا : « ماء ولا كصدا » وهى ركية عذبة . قال ضرار السعدى :

و إنى وتهيامى بزينب كالذى ‌ ‌ ‌ ‌ تطلب من أحواض صداء مشربا

وقالوا : « لقد ذل من بالت عليه الثعالب » وأصله أن رجلا من العرب كان يعبد صنما ، فجاء ثعلب ، فبال عليه ، فكفر بصنمه ، وقال فى ذلك :

١٠٦ : أرب يبول الثعلبان برأســـه ؟ ‌ ‌ ‌ ‌ لقد ذل من بالت عليه الثعالب

أثر البيئة فى الوصف :

و بعد فللبيئة العربية فى الأدب الأثر القوى ، ولها فى الوصف بصفة أخص الأثر

الأقوى ، منها يستمد معانيــه ، ويستنبط أفكاره ، ويتخـذ تشبيهاته ، ويستوهبها مادة أوصافه .

وإننا لنعلم فوق ماقدمنا عن طبيعتها أن العرب كانوا دائمى التسيار ، مدمنى الأسفار ، لا يكاد الواحد منهم يحط رحله اليوم حتى يشده غدا للارتياد والانتجاع فهم لايطمئنون فى مكان ولا يسكنون إلى دار ؛ لينالوا رزقهم ، ويبلغوا مايتبلغون به ، يخرجون إلى مواطن الكلأ ومنابت العشب ، ومساقط الغيث ومنابع الماء .

وقد ساق إليهم هذا المحلُ الفقر ، وبعث فيهم ذلك الجدبُ القحط، فاستهانوا بالنفوس ، واستخفوا بالأرواح يزهقونها ويختطفونها ، فكان اشتعال الحروب ، واصطراع الجيوش ، ورأيناهم يشنون الغارات ، ويؤلفون العصابات ، ويوقدون نار الحرب التى كلما أطفأها عقلاؤهم أوقدها سفهاؤهم

وإذا آمنا بأن الشعر المضرى نهض نهضته الفتية قبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام بمائة سنة ، وأن أول من هلهل الشعر هو عدى بن ربيعة جاز لنا أن نقول : إن الحرب بين بكر وتغلب هى التى أطلقت لسانه ، وفكت عقاله ، أطلقته بالقصائد الجياد التى سار على نهجها الشعراء من أبناء عصره ، ومن بعد أبناء عصره ، فقد قيل : إن هذه الحرب دامت أربعين عاما تتطاحن فيها القبيلتان بالسنان واللسان .

وهكذا نستطيع أن نحكم بأن بيئتهم قد أثرت فى حياتهم الصاخبة الصارخة التى لايستقر لها قرار ، ولا ينطفئ للهيبها أوار ، فلونت شعرهم بملائم هذه الحياة ، فوصفوها أجمع وصف ، وصوروها أحكم تصوير ، ولم يتركوا فى الفلوات والمفازات إذا كانوا من بنيها شيئا إلا وصفوه ، فوصفوا وحوشها الضارية ، وذئابها العاوية ، وظباءها السارحة ، وحمرها القارحة ، كما وصفوا جوارح السماء وصوادحها ، وخشاش الأرض وهوامها ، ثم وصفوا الرسوم والأطلال ، والسهول والجبال ، والأنواء والأمطار ، والعيون والآبار ، والبرق والرعد، والأفلاك والكواكب ، ولم ينسوا أن يصفوا حياتهم فى جدهم ولهوهم ، وظعنهم وإقامتهم ، وسلمهم وحربهم ، وأن يصفوا أدوات الحرب كالسيف والرمح والقوس والسهم ، وشأنهم

فى الحضر ، هو شأنهم فى البادية ؛ فوصفوا جميع مظاهره ، وصفوا النبات والأزهار ، والحدائق والأثمار ، والخمر ومجالس الشراب ، واللهو ومحافل الميسر . وعلى الجملة لم يتركوا فى قراهم ومدنهم منظرا إلا رسموه ، ولم يستخدموا مما يقع فى محيطهم أو تحت سمعهم وبصرهم حيوانا أو جمادا إلا وصفوه ، ولم ينالوا من متع الحياة شيئا إلا تحدثوا عنه ، وأشادوا به ، ولم يروا من بأسائها ضرا إلا ذكروه وشكوا منه . فخلدوا بشعرهم بيئتهم ، وأبقوه على الدهر صورة لحياتهم هى أصدق سفر للمؤرخين ، وأدق سجل للباحثين ، ولذلك قالوا صادقين : « الشعر ديوان العرب »

أقسام الوصف

الطبيعة فى الشعر العربى :

يقسم الأدباء الوصف إلى قسمين : وصف الظواهر الطبيعية التى هى من خلق الله القادر المبدع ، ووصف الآثار الإنسانية التى هى من صنع الإنسان الحاذق المخترع ، ومن إخراج اليد الصَّناع ، ثم هم يتناولون الظواهر الطبيعية فلا يجدونها متماثلة فى جميع الخصائص ، فيعقدون بينها موازنة تنتهى إلى تقسيمها قسمين : الظواهر المتحركة ، وهى كل مايجرى فيه ماء الحياة وينبض بالحركة : من حيوان أنيس كالناقة والفرس ، والكلب والمعز والغنم ، أو حيوان آبد كالأسد والضبع ، والذئب والثعلب ، والحشرات والهوام .

والظواهر المتحركة إما خارجية كهذا الذى قدمنا أمثلة له ، ويسميه الغربيون الوصف الموضوعى ، وإما داخلية ، وهى تلك التى تمثل أحوال قائلها ، فتصف خواطر نفسه ، أو خفقات قلبه ، أو تقرّح كبده ، أو تحرق فؤاده ، أو هجسات وجدانه ، أو همسات شعوره ، أو لمحات أفكاره ، أو ومضات إنسانه ، إلى آخر مايصوره من تلك التموجات النفسية ، والاهتزازات العاطفية ، وهو الوصف الذاتى .

والظواهر الساكنة ، وتنصرف إلى كل ما تشتمل السموات والأرض من أجرام وكواكب ، وجبال وصحارى ، ووهاد ونجاد ، وبحار وأنهار ، وما ينشأ عن هذه وتلك من مد وجزر ، وبرق ورعد ، وغيث ومطر ، وزلازل وبراكين ، وزعازع وأعاصير .

وللشعر العربى فى هـذه وتلك الآثار الجليلة ، ولا نظن أن آداب أمة ذات شاعرية تدانى الأمة العربية فى العصر الجاهلى فى وصف الظواهر الطبيعية الموضوعية ، وبخاصة الحية منها ، وسنعرض من جميع ماتقدم مافيه مقنع لكل شاكّ فى أن العرب فى القديم قد فاقوا أضرابهم فى أكثر ضروب الوصف .

غلبة الحس الفردى على الوصف عند العرب :

وبعد ، فالوصف يدور فى غالب أمره على الحس الفردى الذى يشعر به صاحبه عندما يكون فى حال تماثل حال الشاعر الذى يصور ذلك ، أما الإحساس الجماعى ، فلا يصوره الشعر فى العصر الجاهلى ؛ لأن حياة الجماعة لم تكن واضحة المعالم فى تلك العصور ، فالشاعر يتحدث عن نفسه أو مايمس نفسه ، لايكاد يتجاوزهما بالنظرة البعيدة ، أو الفكرة الشعبية .

على أن هـذا لايغض من قيم الوصف العربى ، فقد فطر الشعب العربى على ثوران النفس ، وتوفز الحس ، لايطمئن ويهدأ حتى يفكر ويتعمق ، فشعره قائم على البديهة والارتجال أو مايشبه الارتجال ، ومن كان هذا شأنه لايرضى من شعره إلا بما يرضى عاطفته ؛ ويعبر عن شعوره .

على أن من شعرهم مايعتمد على الحس والخيال معا ، والعاطفة والتصوير والتمثيل ، وسنعرض فى هذا الكتاب لكثير مما يقوم دليلا على أن ألوانا من الوصف قد امتزج فيه الحس بالخيال ، وسيان بعدئذ أن يكون الخيال ماديا أو روحيا

عوامل الشاعرية :

من الأدباء من يقول : «إن شعراء العرب لم يكونوا ينظرون إلى الكون النظرة الشاملة الواسعة ، ولم يكونوا يشعرون بما فيه من مظاهر الجمال ، وأسرار الحياة إحساس الشعراء الغربيين » وكأنى بأولئك قد نسوا أن الطبيعة الشعرية ليست العامل الفرد فى الشاعرية ، وإنما هى أحد العوامل التى منها : الثقافة والحضارة والبيئة والعصر والخلق ؛ فالعرب فى عصورهم الأولى لم يكونوا قد بلغوا من قوة التفكير مابلغه شعراء هذه العصور الذين غمرتهم الثقافة ، وشملتهم الحضارة ، وربطتهم بغيرهم أسباب وأسباب .

نهجنا فى التأليف :

هذا وسنقسم الشعر الوصفى إلى قسميه المعروفين : وصف الظواهر الطبيعية المتحركة والساكنة ، ثم وصف الآثار الإنسانية .

والشعراء فى العصر الجاهلى كانوا أكثر فى القسم الأول افتنانا إلا فيما يتصل بالطبيعة الداخلية ، إذ لم تكن الآثار الإنسانية وفرت ـ فيما عدا أدوات الحرب ـ حتى تلفت إليها أنظار الشعراء .

سيكون نهجنا أن نجمع القطع المتحدة الموضوع ، المتقاربة المعانى ، نضعها جميعها فى إطار قد وشى بالتفسير والشرح ، والتحليل والنقد ، ونبرز ما قد يكون فيها من صور شعرية ، وما فى هذه الصور من دقة فى الفن ، وجودة فى الوصف .

وعندنا أن التفسير أول واجب على المؤلف ؛ حتى لا يحمل القارئ عبء الانصراف عن القراءة إلى مراجعة المعجمات يسألها البيان والإيضاح ، فينبعث فى نفسه الميل إلى الانصراف عن هذا الشعر الذى لايفهم إلا بمساءلة القواميس ، وشرح هذه القطع شرحا تصويريا يحبب إلى شداة الأدب آثارهم القديمة ، ويزجى إليهم اللذة الفنية .

ولا نريد إحصاء ، فالشعر العربى زاخر بمادة الوصف ، ومكان ذلك الإحصاء إنما هو دواوين الشعراء ، وإن كنا سنورد أمثلة للكثرة الغالبة من الشعراء ، دون تمييز بين من اشتهر بالوصف ، ومن لم يشتهر به ؛ لنبين أن العرب أجمعين كانوا وصافين . ولنبدى لكل قارئ أن الوصف فى الشعر العربى كان يغلب جميع ضروب الشعر

هذا ولن نعرض لوصف الناس : رجالا ونساء ، فهذا بابه المدح أو الغزل أو الهجاء ، حتى ولو كان معبرا عن دراسة نفسية ، كقول أحد الشعراء عن أخلاق النساء :

رأين الغوانى الشيب لاح بعارضى فأعرضن عـــنى بالخدود النواضر

١٠٨ : وكنّ إذا أبصرننى أو سمعن بى سعين فرقعن الكوى بالمحاجر

لأن ذلك سيخرجنا عن الوصف إلى كل ما يمتّ إليـه ، وما أكثر ما يمت إليه ويتصل به .

قيمة الوصف في العصر الجاهلي :

كان الوصف فى العصر الجاهلى أقوى فنون الشعر ، فكلما عنّ لأحدهم أن ينظم شعراً كان الموحى به هو الوصف ، سيان فى ذلك أن يكون وصفا للطبيعة المتحركة أو الساكنة، يبدءون به قصائدهم التى قد يكون الدافع إليها ضربا سواه ، ولـكن الشاعر ينسى هذا الضرب ، وقد لا يلمّ به إلا إلماما ضئيلا .

وشغفهم بالوصف دعهم إلى أن يصفوا بعض التافه من عاداتهم ، فمن ذلك أن غلمانهم كانوا إذا ثغروا رموا أسنانهم فى عين الشمس بسباباتهم وأباهيمهم ، وقالوا : أبدلينا أحسن منها ، فوصف ذلك طرفة بقوله :

بدلته الشمس من منبتهـا   بردا أبيض مصقول الأشر

وكانوا يزعمون أن الإبل إذا أصابها العر ، فأخذوا الصحيح فكووه زال العرعن السقيم ، قال النابغة فى وصف تلك العادة :

وكلفتنى ذنب امرئ وتركته   كذى العر يكوى غيره وهو راتع

ومن ذلك لعبة الفيال حين شبه بها طرفة السفينة فى البحر تشقه ، فقال :

يشق حباب المـاء حيزومها بها   كما قسم الترب المفايل باليد

وذكروا الوشم الذى كانوا يستوشمون به ، فقال زهير فى مطلع معلقته :

أمن أم أوفى دمنـــة لم تكلم   بحومانة الدراج فالمتثلم ؟

ودار لهـا بالرقمتين كأنهـا   مراجع وشم فى نواشر معصم

وقال طرفة فى المعنى ذاته فى أول معلقته :

١١٤ : لخولة أطلال ببرقة ثهمـد   تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

وذكروا أكل الهرة أولادها حبا لها ، وأكل الضب إياها عقوقا منه ، فوصفوا به برّ الرجل ، فقال العملس بن عقيل لأبيه :

أكلت بنيك أكل الضب حتى ... وجدت مرارة الكلإ الوبيل
فلو أن الألى كانوا شهودا ... منعت فناء بيتك من بجيل

وليس كل ذلك فى حقيقة الأمر من وصف الطبيعة الساكنة أو المتحركة ، وإنما هو وصف للعادات ، وهو يدلنا على إمعان فى الوصف إمعانا لم يقف عند حد ، وإن أنكر ذلك المنكرون . فأى وصف للطبيعة الداخلية والنفس المتغيرة أقوى من قول علقمة الفحل :

فإن تسألونى بالنساء فإننى ... بصير بأحوال النساء طبيب
إذا شاب رأس المرء أو قلّ ماله ... فليس له فى ودهن نصيب
يردن ثراء المرء حيث علمنه ... وشرخ الشباب عندهن عجيب

وأى وصف أبدع تصويرا لأخلاق النساء وغريزة حب الاستطلاع من قول المثقب العبدى :

١٢٠ : ظهرن بكلة وسدلن رقما ... وثقبن الوصاوص للعيون

وكل هذا وسواه مما سنعرضه فى هذا الجزء يدل على أن الوصف الجاهلى بلغ مبلغا عظيما



الفصل الخامس

وصف الطبيعة المتحركة فى العصر الجاهلى

عنى الشاعر الجاهلى بوصف الطبيعة المتحركة العناية كلها ، ولا سيما وصف الناقة والفرس ، وله ما يبرر هذه العناية بهذين الحيوانين أكثر من عنايته بسواهما ، فإن الناقة أعظم خَلق أرضىٍّ فى نظره ؛ لما يفيده منها ، ولما تسديه إليه من صنائعها ، فهى صديقة حله وترحاله ، ورفيقة ظعنه وإقامته ، تحمل له الكل ، وتعينه على نوائب الدهر ، وتصبر معه على لأواء الأيام ، دون أن تشكو نصبا ، أو تحس لغوبا ، وإن أحسته لم تضجر ولم تتململ .

إنها تظمأ فلا تشكو الصدى ، وتجوع فلا تظهر الأسى ، وتقطع بخليلها الصحارى فى الصبر الجميل والوفاء الكريم، فإذا أقام شرب لبنها ، ونسج وبرها ، وطعم لحم فصالها ، هذا إلى أنها تؤنس وحشته ، وتخفف عليه وحدته ، يحدو لها فتشاركه فى عواطفه ، ويغنيها فتشاطره جميع مشاعره ، تنقاد له انقياد الصديق لا انقياد الذليل ، وتطيعه طاعة الرفيق لا طاعة الرقيق ، فلو شاءت لحرمته امتطاءها ، ومنعته وبرها ولبنها وفصالها ، فهى فى ضخامتها وجسامتها ، وقوّتها ومُنتها تستطيع أن تدفع عن نفسها ، ولكنها تنيخ إذا أراد إناختها ، وتنهض حينما يطلب نهوضها ، وترقل إن ابتغى منها إرقالا ، وتخد إن أحب منها وخدا ، فكيف به بعد كل ذلك لا يحفظ ودها ، ولا يحسن نعتها ؟

ثم يتبع بوصفها وصف ما يشبهها من بقر وحشى فيبدع فى وصفه ماشاء له الإبداع ؛ لأنه شبيه ما منحه مودته ، ونظير ما أولاه تقديره

وإن الفرس لأجمل ما خلق الله فى نظره ، وهو إلى هذا الجمال الفتان صديق حربه وسلمه ، ولهوه وجده ، وطرده وصيده ، لا يضن عليه بجهد ، ولا يبخل دونه بشأو ، إذا حارب كان له أوفى من سيفه ورمحه ، وأسدّ من قوسه وسهمه ،وإذا سالم شاركه فى خيلائه، وعاونه على بناء مجده وسنائه ، وإذا ابتغى صيدا كان قيد الأوابد ، أو أراد طرداً آلى على نفسه أن يلحق المطارد ، وأمهار الفرس ثروته المدخرة ، وكنزه الثمين ، فهى كما قال الشاعر :

* قليلة كالكرام ، عزيزة لاتضام * وإذا وصف فرسه انتقل منه إلى وصف ما يتصل به فآنا يصف الصيد والطرد ، وآنا يصف المعارك والحروب ، وإذن فلا غرابة أن يفتتن بهما ، فيفتن فى وصفهما .

(أ) وصف الناقة

١ — قال طرفة بن العبد * يصف ناقته فى معلقته التى أولها :

لخولةَ أطــــلالٌ ببرُقـــةِ ثَهمَدِ تلوح كباقِى الوشمِ فى ظَاهرِ اليدِ [1]

وَ إنّى لأَمْضى الهمَّ عند احتضارِه بعوجاءَ مِرْقالٍ تروحُ وتَغتدِى [2]

أمـــونٍ كألواحِ الإرانِ نَسأْتُها على لاحبٍ كأنَّه ظهرُ بُرْجُـــدِ [3]

١٢٤ : تُبارِى عِتاقًا ناجيـــاتٍ وَأَتْبعَتْ وَظيفًا وظيفًا فوقَ مَوْر مُعَبَّدِ [4]

---

* ترجمة الشاعر : هو طرفة بن العبد بن سفيان البكرى ، وطرفة لقبه ، واسمه عمرو ، وهو من أشعر شعراء العصر الجاهلى ، ومعلقته التى منها هــذه الأبيات من أجود المعلقات ، ومن أروع الشعر الوصفى ، فهى جميعها وصف ، وقد اشتملت على معان لم تشتمل عليها غيرها، قتل بأمر من عمرو بن هند لأنه هجاه ، ولم تــكن سنه بلغت الثلاثين ، فــكيف به لو عمر؟ قتل حوالى سنة ٥٥٢ م

التفسير اللغوى : (١) خولة : خليلته ، قيل : إنها امرأة من كلب . الأطلال : جمع طلل ماشخص من آثار الديار . البرقة : الرابية من الرمل والطين . الوشم : غرز الإبر ، ثم يذر عليه الـكحل فيبقى سواده ظاهرا .

(٢) لأمضى : لأذهب احتضاره : نزوله . العوجاء : الناقة النشيطة لاتستقيم فى سيرها . مرقال : سريعة . تروح وتغتدى : يستوى عندها سير الليل والنهار .

(٣) أمون . مأمونة العثار . الإران : التابوت . نسأتها : ضربتها بالمنسأة . لاحب : طريق واضح . برجد : كساء مخطط .

(٤) تبارى : تسابق. عتاقا : جمع عتيقة كرائم: ناجيات : جمع ناجية سريعات . الوظيف : عظم الساق . المور المعبد : الطريق الممهد .

تربّعتِ القفّين بالشّــــولِ ترتعي حدائقَ مَوليِّ الأسِرَّةِ أغيَدِ[٥]

تُريعُ إلى صــوتِ المُهيبِ وتتّقِي بِذِى خُصَلٍ رَوْعاتِ أكلَفَ مُلبِدِ[٦]

كأنَّ جناحَىْ مضرَحِيٍّ تكنّفا حِفافيه شُكّا فى العسيبِ بِمِسْرَدِ[٧]

فطورًا به خلفَ الزّميــــلِ وتارةً عَلَى حَشَفٍ كالشَّنِّ ذاوٍ مُجدَّدِ[٨]

لهَا فَخِذانِ أُكْمِلَ النَّحْضُ فِيهمَا كأنّهمَا بَابَا مُنيــــفٍ مُمرَّدِ[٩]

وطيٌّ مَحالٍ كالحَنِيِّ خُلوفُه وأجْــرِنةٌ لُزَّتْ بدأْىٍ مُنضّدِ[١٠]

١٣١ : كأنّ كِناسَى ضالة يَكنفانها وأطرَ قِسيٍّ تحت صُلْبٍ مؤيّدِ[١١]

---

(٥) تربعت : رعت الربيع : القفين : مثنى قف ، وهو الأرض المرتفعة . الشول : الإبل شالت ضروعها . المولى : الذى توالى عليه المطر . الأسرة : مفردها سرارة ، بطون الأودية . الأغيد : الناعم من كل شئ .

(٦) تريع : ترجع . المهيب : الراعى يهيب بها ويدعوها . بذى خصل : بذيل كثيف الوبر . الروعات : الإفزاعات . أكلف : أحمر ضارب إلى السواد . الملبد : المتلبد وبره .

(٧) المضرحى : العتيق من النسور يضرب إلى البياض ، وهو طويل الجناحين. تكنفا : صارا من جانبيه . حفافيه : جانبيه . شكا : غرزا . العسيب : أصل الذنب . بمسرد : بمخصف .

(٨) الزميل : الرديف ، ويقصد موضعه . الحشف : الأخلاف جف لبنها . الشن : القربة البالية . الذاوى : الذابل اليابس . المجدد : الذاهب اللبن .

(٩) النحض : اللحم . المنيف : العالى . وهو وصف لموصوف محذوف أى قصر منيف . ممرد : مملس أو مطول ، وهو المقصود هنا .

(١٠) المحال : فقار الظهر الواحدة محالة ، وهى خاصة بفقر البعير . الحنى : مفردها حنية القسى . الخلوف : مفردها خلف الأضلاع. الأجرنة : جمع جران باطن العنق، وجمعه لما حواليه لزت : قرن بعضها ببعض . الدأى جمع دأية وهى فقار العنق أو الظهر . منضد : منسق منظم .

(١١) الكناس : بيت الظبى يحتفره فى أصل الشجرة كالسرب والجحر . الضالة : شجرة السدر . يكنفانها : يحيطان بها . الأطر : العطف . مؤيد : مقوى مشدد .

لها مِرفقان أفتــــلان كأنَّمــا ... تمرُّ بِسَلْمَيْ داِلجٍ مُتَشــــدِّدِ (١٢)

كقنطرةِ الرُّومِيِّ أقسمَ ربُّهـــا ... لتُكْتَنَفَنْ حتى تشادَ بقرْمَدِ (١٣)

صُهابيَّةُ العُثْنُونِ مُوجَــدةُ القَرَا ... بَعيدةُ وَخْدِ الرِّجــلِ موَّارةُ اليَدِ (١٤)

أُمِرَّتْ يداها فتلَ شزْرٍ وأُجْنِحَتْ ... لها عَضداها فى سَقيفٍ مُسَــنَّدِ (١٥)

جَنوحٌ ، دُفاقٌ ، عَندلٌ ، ثم أُفْرِعت ... لهـا كتِفاها فى مُعالى مصــعَّدِ (١٦)

كأنَّ عُلوبَ النِّســعِ فى دأَياتِها ... مَواردُ مِنْ خلْقاءَ فى ظَهْرِ قرْدَدِ (١٧)

١٣٨ : تَلاقَى وأحيانًا تبــينُ كأنَّها ... بَنائقُ غُرٌّ فى قميصٍ مُقــدَّدِ (١٨)

---

(١٢) المرفقان : مثنى مرفق ، الوصلان بين الساعد والعضد . أفتلان : محكمان . السلم : الدلوذات عروة واحدة . الدالج : النازح بالدلو من البئر إلى الحوض .

(١٣) لتكتنفن : لتؤتين من أطرافها لتبنى . تشاد : رفع . بقرمد : بآجر .

(١٤) صهابية العثنون : حمراء ماتحت لحييها من الوبر ، والصهبة بياض تخالطه حمرة . موجدة : محكمة . القرا : الظهر . الوخد : ضرب من السير السريع . موارة اليد : دوارة القائمتين الأماميتين .

(١٥) أمرت . فتلت . فتل شزر : فتلا إلى أعلى . أجنحت : أميلت . سقيف مسند : سقف متماسك .

(١٦) جنوح : مائلة . دفاق : متدفقة فى السير . عندل : ضخمة الرأس . أفرعت : عوليت . معالى : اسم مفعول من عالى يعالى . مصعد : مرتفع .

(١٧) العلوب : مفردها علب بفتح العين الآثار . النسع : الحبل من الجلد مضفور . الدأيات : منتهى الأضلاع . الموارد : طرق المياه . الخلقاء : الصخرة الملساء . القردد : الارض المستوية الصلبة .

(١٨) تبين : تنفرق . البنائق : مفردها بنيقة قطع القميص من الأجناب . غر : بيض مفردها غراء . مقدد : مشقق .

وأتلعُ نهَّاضٌ إذا صعَّدتْ به ... سُكانِ بوصِيٍّ بدِجْلةَ مُصْعِدِ (١٩)

وجُمجمةٌ مثلُ العَلاةِ كأنَّما ... وَعَى المُلتقَى منها إلى حَرْفِ مِبْرَدِ (٢٠)

وخدٌّ كقِرطاسِ الشآمِي ومِشْفرٌ ... كسِبْتِ اليمانِي قدُّه لم يُجرَّدِ (٢١)

وعينانِ كالماويَّتينِ استكنَّتا ... بكهفَيْ حِجاجَيْ صخرةٍ قلْتِ موْرِدِ (٢٢)

طَحورانِ عُوَّارَ القَذَى فتراهُما ... كمكحولتَيْ مذعُورةٍ أمِّ فرْقدِ (٢٣)

وصادقتا سمعِ التوجُّسِ للسُّرى ... لِهجسٍ خفيٍّ أو لصوتٍ مُندَّدِ (٢٤)

١٤٥ : مؤلَّلتانِ تعرِفُ العِتقَ فيهما ... كسامِعَتَيْ شاةٍ بحومَلَ مفرَدِ (٢٥)

---

(١٩) الأتلع : الطويل العنق . النهاض : القوى المرتفع فى سيره . صعدت به : أشخصته إلى السماء . السكان : الدفة . البوصى : النوتى . دجلة : نهر بالعراق . « انظر المصور »

(٢٠) العلاة : السندان . وعى : تماسك . الملتقى : مجتمع عظام الرأس . الحرف : الحد .

(٢١) القرطاس : ورق الكتابة . الشآمى : الكاتب المنسوب إلى الشام . المشفر : للجمل كالشفة لغيره . السبت : الجلود المدبوغة أو من جلد البقر خاصة . قده : قطعه . لم يجرد : لم يعوج فى تقطيعه .

(٢٢) كالماويتين : كالمرآتين . الكهف : الغار فى الجبل . الحجاج : العظم المشرف على العين . القلت : النقرة فى الصخرة او العين . المورد : منهل الماء .

(٢٣) طحوران : دفاعتان . العوار : مايضر العين كالقذى . المذعورة : وصف لموصوف محذوف هو بقرة أم فرقد : كناية عن البقرة الوحشية ، والفرقد اسم ولدها .

(٢٤) التوجس : التسمع بحذر . السرى : السير ليلا حيث يجب الحذر . الهجس : الحركة . مندد : مرفوع .

(٢٥) مؤللتان : محددتان . العتق : الكرم . الشاة : الثور الوحشى . حومل : اسم مكان . مفرد : صفة لشاة ، وجاء اللفظ بلا هاء ، لأنه أراد الثور الوحشى ، وانفراده يجعله أحد سمعا ؛ إذ ليس هناك مايشغله .

وَأروعُ نباضٌ أحــذُّ مُلَمْلَمٌ ... كَمِرداةِ صخرٍ فى صـفيحٍ مُصمَّدِ[٢٦]

و إن شئتَ سامَى واسطَ الـكورِ رأسُها ... وعامت بِضَبْعَيها نجاءَ الْخَفَيْدَدِ[٢٧]

و إن شئتَ لم تُرْقِلْ و إن شئتَ أرقلَتْ ... مخافةَ مَلْوِىٍّ مِنَ الْقِدِّ مُحصَــدِ[٢٨]

وأعــلَمُ مخروتٌ مِنَ الأنفِ مارنٌ ... عتيقٌ مَتَى تَرْجُمْ به الأَرضَ تَزْدَدِ[٢٩]

١٥٠ : عَلَى مِثلها أمضِى إذا قالَ صاحِبِى ... ألا ليتَنِى أفديكَ مِنْها وَأَفتَدِى[٣٠]



(٢٦) الأروع : صفة لموصوف محذوف هو ، القلب . والأروع : الفزع الخائف . نباض : كثير النبض والخفقان . احذ : أملس ململم : مجتمع . كرداة : كصخرة تكسر بها الصخور لصلابتها . الصفيح : العريض من الحجارة . المصمد : الصلب لاخور فيه .

(٢٧) سامى : عالى وطاول . واسط الـكور : العود بين موركة الرحل ومؤخره ، وموركة الرحل الموضع الذى يضع عليه الراكب رجله . بضبعيها : بعضديها . نجاء : إسراع . الخفيدد : الظليم .

(٢٨) الإرقال : ضرب من السير السريع . الملوى : وصف السوط . القد : الجلد . المحصد : المحكم .

(٢٩) الأعلم : وصف للمشفر ، والعلم : الشق فى الشفة العليا ، وضده الفلح ، وهو شق الشفة السفلى . المخروت : المشقوق . المارن اللين . عتيق : كريم . ترجم : تضرب به الأرض . تزدد : تضاعف سيرها .

(٣٠) منها الضمير يعود على الفلاة الموحشة المخيفة .

تحليل الأبيات :

هذه قصيدة كاملة فى وصف الناقة ، و إن تكن جزءا من معلقة طرفة ، فقد بلغ وصفه للناقة ثمانية وعشرين بيتا ، وهو قدر لم يبلغه شاعر سواه ، وكلها تفيض بالمعنى وتزخر بالأفكار ، فليس فيها بيت يمكن أن يقال عنه : إنه انحرف فيه عن موضوعه ، أو حاد عن غرضه ، بل إن الأبيات إلى الإيجاز بنوعيه : إيجاز الحذف و إيجاز القصر أقرب منها إلى الإسهاب والإطناب .

ولو أن رساما نابغة ذايد صناع ، وريشة مطواعة وقف يتأمل الناقة جزءا جزءا ، ثم يرسم ما تأمله ، وما يمكن أن يتخيله مابلغ هذا الذى بلغه طرفة ، فسيكون الرسم صامتا لا ينبض بحياة ، ساكنا لايشعر بنأمة ، أما الأبيات فتنبض بالحياة وتفيض بالحركة .

فى هذه الأبيات صور كثيرة تبهر أقدر المصورين ، وتعجز أنبغ الرسامين ، ولقد أعجب بهذا الوصف القدامى والمحدثون ، ولا نعرف أحداً من أولئك أو هؤلاء جرؤ على القول بأن فى الوصف عيبا ، أو أن فى الخيال شططا ، فالأخيلة جميعها مستمدة من بيئته ، مقتبسة من طبيعة أرضه ، مأخوذة عن المحسوسات ؛ إذ وصف الناقة لايستقيم بغير المحسوسات .

قال : إنى لأزيل همى وغمى بامتطاء ناقة نجيبة ضامرة ، سريعة مرقال ، تصل بمسير الليل سير النهار ، دون أن يخشى راكبها العثار ، وكيف تعثر وجسمها فى صلابته كألواح التابوت ؟

لقد مسستها بالمنسأة لأستثير همتها فى طريق قويم ، لاأمت فيه ولاعوج ، كأنه الثوب المستقيم الخطوط .

ومن قدماء النقاد من زعم أنه لم يرد فى قوله : « على لاحب كأنه ظهر برجد » ظهر الكساء دون بطنه ، وكأنه يقول : إن « ظهر » حشو ، والأمر ليس كذلك ، فظهر الكساء هو الذى تظهر خطوطه واضحة ، أما بطنه فلا تكاد تظهر له خطوط ، وهى دقة تخفى على غير طرفة المتأمل المتمعن .

ناقتى تلك تبارى فى سيرها كرائم النياق ، وبجائب العتاق ، فتغذ السير ، وتتبع الوظيف الوظيف موق ذلك الطريق المعبد ، وهى الكريمة عندى ، الأثيرة لدى ، فأنا أربعها نبات الربا ، وأرعيها عشب الحدائق ، وهذا وذاك أجمل ماتنبته الصحراء ، بل من أجمل ماتخرجه الأرض ، أرعيها نبات الربا وعشب البساتين بين نياق قد جفت ضروعها ، ونضبت أخلافها ، ففيهن إلى الطعام نهم ، ولهن على التهامه قدرة ، فيبعثن فيها الميل إلى التنافس فى الرعى من ذلك المرعى الناعم الأريض الذى يلاحق وسميه وليه ، فهو دائم الإعشاب ناعم التراب .

وهى ناقة مذعانة إذا أهاب بها حاديها سعت إليه سراعا متقية بذيلها ذى الخصل الكثيفة ماقديعترض طريقها من الفحول الشداد . تلك الفحول الكلف الملبدة خصل ذيولها لكثرة ثورانها . ولكنها لاتباليها فى سبيل الإجابة لإهابة داعيها ، ذنبها الذيال المنبسط الوبر يشبه جناحى النسر العتيق الطويل الجناحين ، فكأنهما قد غرزا فى عظامه ، وهذا تشبيه واسع الدلالة ؛ إذ يدل على أنها قوية كقوة جناحى النسر ، وأن ذيلها منبسط انبساط الجناحين ، كما يدل على غزارة وبره ، فهى به معجبة ؛ فطورا تضرب به مكان الرديف لحاديها ، وآخر تضرب به أخلافها ، فهو حينا إلى أعلى ، وحينا إلى أدنى ، وفى الحالين تبلغ به المكان القصى البعيد ، تبلغ به أخلافها التى جف لبنها ، فصارت كالقربة البالية ، والشن الذابل ، ولها فخذان مكتنزان باللحم ، كأنهما لضخامتهما مصراعا باب لقصر مشيد منيف ، وفقار ظهرها متداخلة متماسكة ، وهى مع الأضلاع المتصلة بها كالقسى اقترن بعضها ببعض فى صفوف متراصة ، وما بين مرفقى الناقة منبسط فسيح ، كأنه كناسان محفوران فى أصل شجرة سدر ، وكأن قسيا متعاطفة تحت أضلاعها الصلبة ، فهى لذلك مأمونة المسير .

ولما وصف مابين مرفقيها بالانبساط أراد أن يزيد المعنى إيضاحا فقال :

إن مرفقيها المفتولين المتباعدين يشبهان دلوين يحملهما سقاء قوى ، إحداهما فى يمناه ، والأخرى فى يسراه ، فهو لقوته يبعدهما عن جانبيـــــه ؛ حتى لا يحتكا بثيابه ، وهى فى امتدادها وصلابة أجزائها كقنطرة رجل رومى حاذق الصناعة ، محكم البناء ، بصير

بحاجاته وأدواته ، فهو يقسم أن يبنيها من جوانبها بالآجر ؛ حتى لا يصيبها وهن ، وهى من النوق المتكاملة الجمال ، فما تحت لحييها أحمر ، وهى قوية الظهر ، شديدة الأسر ، بعيدة الخطو ، دوارة اليد ، وفى هذا البيت تقسيم رائع فى معنى وافر لايغض من قيمته أنه تكرار لمعنى سبق ، فكأنه أراد أن يجمل بعد تفصيل، شأن العليم بالفرائز يجمع المتفرق: ليثبته فى الأذهان ، وهو إلى هذا من طرق شعراء ذلك العصر ، وأحسب أن شيئا آخر غير العلم بالغرائز يدعو إلى التكرار هو أنهم فى أمية تحتاج إلى التقرير والتأكيد .

أحكمت فاعتاها الأماميتان أيما إحكام ، فكأنهما مفتولتان فتلا شزرا ، وأميلت عضداها تحت جنبيها ، فكأنهما سقفان أسند بعضهما إلى بعض ، تجنح فى سيرها لفرط نشاطها (وليس بين هذا البيت والبيت الثالث . . . أمون كألواح . . . تناقض ؛ لأنه فى البيت الثالث حملها على الاستقامة بمنسأته) وتندفق فى طريقها ضخمة الرأس ، مرتفعة الكتفين على ظهر قد علا وتسامى ، وكأن آثار النسع فى ظهر هذه الناقة وجنبيها موارد ماء ينبجس من ناقة ملساء فى أرض صلبة غليظة ، فهو تشبيه كامل الحسن ، دقيق العرض ، فقد شبه خطوط الأنساع بموارد الماء فى بياضها وامتدادها ، وشبه جنبيها بالصخرة الملساء فى الصلابة والنعومة ، وجعل ظهرها صلداً كالأرض الغليظة ؛ إذ فى الظهر السنام ، هذه الموارد تبدو للعين متلاقية متجمعة حينا ، ومتفرقة متباعدة حينا ، فتتلاقى تحت إبطيها عند ماترتبط بينها العرا ، وتتباعد عند ما ترتفع إلى الرحل ، فكأنها بنائق بيض فى قميص شقق ووصل ، وهذا البيت يتمم الصورة فى البيت السابق .

ولها عنق سامق ، إذا رفعته كان كسكان النوتى يسير بزورقه فى دجلة ، والتشبيه يجمع بين حركتى العنق والسكان فى ارتفاعهما حين تسير الناقة ، وحين تجرى فوق الماء السفينة ، ولها جمجمة صلبة كأنها السندان ، فكأنما طرفاها يجتمعان عند ملتقى صلب محدد تحديد المبرد ، وهو تشبيه بالغ الحسن ، قال عنه الأصمعى : « لم يأت أحد غير طرفة بهذا التشبيه » ولها خد مصقول قد خلا من الشعر الذى يشين الخدود ، فكأنه

لانصقاله قرطاس كاتب شامى ، فهو يختار لمـا يكتب أرق القراطيس وأبيض الورق ، ينتهى بمشفر طويل لين مستقيم ، كأنه مقدود من جلد البقر المدبوغ بالقرظ ، واستقامة المشفر دليل فتاء الناقة وشبابها ، ولها عينان صافيتان متألقتان كمرآتين ثبتتا فى عظمتين غائرتين ، كأنهما لغورها وصلابتهما نقرتان فى جبل ينبع منه أصفى المـاء ، هاتان العينان تدفعان ما يمكن أن يصيب العيون من عوار أو قذى ، فهما فى صفائهما وكحلهما كعينى بقرة وحشية مذعورة من صائد ترقبه وتحذره على نفسها وعلى فرقدها ، والبقرة فى تلك الحال أجمل ما تكون عينا ، وأحدّ ما تكون بصرا ، ولها أذنان سماعتان متوجستان فى السرى ، سواء عندها أكان ما تسمعه همسا خفيا أم صوتا عاليا ، أذنان دقيقتان محدودتان تحديد الحربة ، فكأنهما أذنا ثور وحشى فى مكان موحش ، فهو لوحدته ووحشته حديد السمع ، شديد الحذر . ذات قلب عظيم الارتياع ، سريع الخفقان ، خفيف ذكى مجتمع ، كأنه الصحراء العظيمة بين أضلاع كالحجارة العراض ، وذات مشفر معلم ، وأنف مثقوب لين ، فإذا أومأت به إلى الأرض اندفعت كالسهم لا تأبه ما يعترضها .

وهى مروضة ذلول ، إن أردتها على الإسراع لبت إرادتك ، وإن شئت منها البطء أجابت مشيئتك خشية سوط ملوى محكم مقدود من الجلد ، وإن أردتها على أن تطاول برأسها العـود فى واسط كورها كان لك منها ما تريد ، وجميع ذلك لفرط نشاطها ، وامتلاكى زمامها ؛ حتى لتشبه إذ تسبح بعضديها الظليم الطويل الساقين .

على مثل تلك الناقة التامة التكوين ، الـكاملة الأعضاء ، أقطع الفلاة التى تخيف الشجاع الجرىء؛ حتى ليقول صاحبى: ليت لى ما أفتديك به وما أفتدى به نفسى؛ لتكتب لنا النجاة ، فتكون هذه الناقة سبيل الأمان ورائد الحياة .

النقد :

وبعد ، فإن المتأمل فى هذه الأبيات يستنبط منها ما يمكن أن يتخذ حكما عاما على الوصف فى الشعر الجاهلى ، فهو لا يعنى بالترتيب ، ولا يبالى بمواقع الأعضاء ، فقد وصف أول ما وصف سرعة الناقة ، وانتقل من وصف سيرها إلى وصف أضلاعها ، ولم يسر فى هذا طويلا بل رجع إلى وصف منزلتها فى نفسه ، وإكباره لها ، ثم عرج على وصف ذيلها ، وهكذا ، لا تراه يسير على نمط ، بل أشد ما يتأثر به هو أول ما يبدأ بوصفه .

وهو يعتمد على التشبيه كل الاعتماد فى تصوير ما يشاء تصويره ، ويغلب أن يكون واضحا كل الوضوح ، فكأنه اختار لكل جزء لونه الملائم له ؛ لتكون الصورة كما يقولون « طبق الأصل » فأى جمال فى التشبيه يفوق قوله :

أمون كألواح الإران نسأتها على لاحب كأنه ظهر برجد

وقد عرضنا لدقة التشبيه فى تحليل هذا البيت ، وأظهرنا أن أى كلمة لا يغنى عنها غيرها ، فهى مأمونة المسير ؛ لأن أعضاءها صلبة كألواح التابوت ، وهى تطوى طريقا لاحبا ، قد رسم طرفة كثرة المسير فيه فهو يظهر كالكساء المخطط خطوطا طولية ، أو قوله :

لها فخذان أكمل النحض فيهما كأنهما بابا منيف ممرد

لم يكف أن يشبه فخذيها بأنهما كبابى القصر فى استطالتهما وتقابلهما ، فوصف القصر بأنه شاهق أملس ، لأن فخذى الساقين أملسان ، والملاسة من آثار السمنة ، أو يفوق قوله :

وعينان كالماويتين استكنتا بكهفى حجاجى صخرة قلت مورد

ولعله لاحظ فى هذا البيت أكثر من علاقة بين المشبه والمشبه به ، فالعينان كالمرآتين المستكنتين فى مغارة جبلية ، ولمعان العينين فى هاتين النقرتين كالماء ينبع من تينك المغارتين، إلى غير هذه التشبيهات الدقيقة التصوير .

كما أن الـكناية تلى التشبيه فى اعتماده عليها ، وعنايته بها ؛ فالأبيات التى لا تشبيه بها قد يكون فيها كناية مستملحة ، كقوله :

تبارى عتاقا ناجيات وأتبعت وظيفا وظيفا فوق مـــور معبد

فقد كنى فى الشطر الأول عن كرمها ونجابتها بمباراتها للـكرائم العتاق ، كما كنى فى الشطر الآخر عن سرعتها ونشاطها باتباعها الوظيف الوظيف ، وكقوله :

تربعت القفين بالشــول ترتعى حدائق مولى الأسرة أغيـــد

كنى عن إعزازه إياها بأنها تربع نبات الربا ، وترتعى حدائق قد أخذت حظها من الماء ، فهى ناضرة ناعمة ، وكقوله :

تريع إلى صوت المهيب وتتـــقى بذى خصل روعات أكلف ملبد

كنى فى الشطر الأول عن يقظتها وطاعتها ، ودائم توجسها وتوقيها ، وكنى عن كثافة وبر ذيلها بأنه ذو خصل ، وكنى عن شجاعتها بأنها تفوت الفحل الأكلف الملبد ، وعنه بأنه أحمر ضارب إلى السواد ، وكنى عن قوته بروعاته وبكلفه وإلباده .

وقد يستخدم الاستعارة قليلا ، وإذا جاء بها بدت متناسقة الألوان ، كاملة الظلال ، كقوله :

أمدت يداها فتل شزر وأجنحت لها عضـــداها فى سقيف مسند

فقد صور استدارة فائمتيها الأماميتين بالفتل الشزر ، وظهرها بالسقف المتساند المتماسك الأجزاء ، وكقوله :

طحوران عوار القذى ، فتراهما كمكحولتى مذعورة أم فرقد

ففى الضمير المحذوف العائد على « وعينان » استعارة ، إذ شبه العينين بإنسانين يدفعان الأذى ، ويطحران العوار .

والشاعر واسع الثروة اللغوية ، فاللغة لغته ، ولا يعييه أن يستبدل بلفظ لفظا ، ولا يعجزه أن يعدل عن كلمة إلى أخرى ، وإن لاحظنا أنه إنما يعدل عن القريب إلى

الغريب ، وليس ذلك شأن أكثر شعراء عصره ، فلعل ذلك لأنه كان ما يزال شابا ، وللألفاظ جزالة وفتوة تستمدان من قائلهما ، أو كأنه يريد أن يظهر أنه فوق براعته فى القريض يستطيع التصرف فى الألفاظ ، أو أن ذلك مسلك سائر شعراء العصر الجاهلى فى الوصف أو فى وصف الطبيعة المتحركة بالذات ، وذلك واضح جدا فى وصف النابغة وزهير وغيرهما .

وطرفة لايهتم بالأسلوب اهتمامه بالمعنى،فقد نجد فى الأسلوب ماقد يأخذه عليه الناقدون، وذلك لأن الجاهليين كانوا يؤثرون العناية بالمعانى ، والتصرف فيها على العناية بالأسلوب ومراعاة الجمال فيه ، فما لاتستلذ الأذن جرسه لتوالى الإضافات قوله :

وعينان كالماويتين استكنتا بكهفى حجاجى صخرة قلت مورد

وقوله فى البيت التالى للبيت السابق :

طحوران عوار القذى فتراهما كمكحولتى مذعورة أم فرقد

و إننا لنشعر بأن طرفة كان رجلا خبيرا ببيئته ، عالما بطبيعة بلاده خبرة وعلما قل أن يدركهما علماء وصف البلدان ، ونجده بصيرا حاذقا بطبائع الحيوان ، بصرا وحذقا لايجاريه فيهما علماء الحيوان فى هذا العصر ، ولا أقصد حيوانا خاصا هو الناقة التى يصفها ، بل أقصد جنس حيوان بلاد العرب .

إنه فى كثير من أبياته يحدثنا عن البيئة الصحراوية ، وما تشتمل عليه من صخور ملس ، أو منابع روية ، أو أحجار صلدة ، أو كهوف وأغوار ، فاستمع إلى قوله :

كأن كناسى ضالة يكنفانها وأطرقسى تحت صلب مؤيد

إن هذا البيت قد رسم لنا كناس الظبى ، وحدد مكانه ، فهو يتخذه فى أصل شجرة السدر ، وصور لنا القسى فى الصورة الدقيقة التى لا تدق عنها صورة .

وأما عن طبيعة الحيوان فقد عرفنا أن طبيعة الناقة ليست هى طبيعة الجمل ، وأن حياة الإبل ليست مثلها حياة غيرها ، وأن مايستحسن فى نوع منه قد لايستحسن فى سواه . هذا

إلى أن الأبيات توحى إلينا أنه واسع المعارف ، عظيم الاطلاع ، فهو يعرف عن الروم إحكام الصناعة والمهارة فى البناء ، فيقول :

كقنطرة الرومى أقسم ربها لتكتنفن حتى تشاد بقرمد

وهو يعلم أن البناء بالآجرّ أحكم من البناء بالحجر ، وأن الجوانب إذا كانت قوية حفظت البناء من التصدع والانهيار .

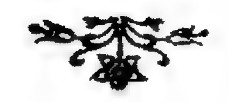
كما أنه يعرف جغرافية الشام واليمن وحال أهليهما ، وما يجيده أولئك وما يحسنه هؤلاء فأهل الشام يقرءون ويكتبون ، وأهل اليمن يحسنون صناعة الجلد ، فقال فى وصف خدّ ناقته :

وخد كقرطاس الشآمى ومشفر كسبت اليمانى قده لم يحرد

وفى الأبيات عرض لبعض عادات الجاهليين ، فقد وصف لنا العلاة حين شبه بها الجمجمة فى قوله :

وجمجمة مثل العلاة كأنما وعى الملتقى منها إلى حرف مبرد

وختام القول أن طرفة كان أقدر شعراء عصره على الإطلاق فى وصف الناقة ، فقد بذ من سبقه من فحول الشعراء ، ولم يلحقه من جاء بعده ، مع أنه عبد لهم الطريق ، ومهد لخيالهم السبيل ، وأحسب أن طرفة كان شديد الحساسية بفضل ناقته عليه ، فأتى فى وصفها بالصور التى لا تدانيها صور لأى شاعر كان .



٢ — وقال بشامة بن الغدير * من قصيدة بدأها بالغزل ، فقال :

هجرتَ أُمامــــةَ هجرًا طويلاَ   وحمَّلك النَّأْىُ عِبئاً ثقيــــلاَ[(١)]

وقرَّبْتُ للرَّحْــــلِ عَيرانَةً   عُذافِرَةً عَنْتريسًا ذَمولاً[(٢)]

مداخــــلةُ الخلق مضبورةٌ   إذا أخـــذ الحاقفاتُ المقيلا[(٣)]

لهـا قرَدٌ تامكٌ نيُّــــــه   تَزِلُّ الوليةُ عنـــــه زليلا[(٤)]

تطرَّدُ أطرافَ عامٍ خَصيبٍ   ولم يَشْــلُ عَبدٌ إليها فصيلا[(٥)]

توقَّرُ شـــازرةً طرْفَها   إذَا ما ثنيتَ إلَيها الجْــديلاَ[(٦)]

١٥٧ : بِعينٍ كمــينِ مُفيضِ القِدا   حِ إذَا ما أَراغُ يُريدُ الحويلاَ[(٧)]

---

* **ترجمة الشاعر** : هو بشامة بن عمر الملقب بالغدير بن هلال الغطفانى الشاعر الحكيم الوصاف ، عليه تخرج زهير بن أبى سلمى ، وكان مقعدا ذا مال كثير ، ولا ولد له ، فأورث أهله ماله ، وجاء زهير يستورثه ، فقال له : « والله يابن أختى لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله ، فقال زهير : وما هو ؟ قال : شعرى ورثتنيه » .

التفسير اللغوى: (١) أمامة : خليلته المتخيلة ، فقد كان مقعدا لاأرب له فى النساء . النأى : البعد . العبء . الحمل .

(٢) العيرانة : الناقة تشبه العير الوحشى لوثاقتها . عذافرة : شديدة ضخمة . عنتريسا : قوية متينة . ذمولا : سريعة .

(٣) مداخلة الخلق : محكمة الجسم . مضبورة : مجموعة الخلق . الحاقفات : الظباء تكون فى الأحقاف ، والحقف ماعوج من الرمل . المقيل : مكان قضاء وقت القيلولة .

(٤) القرد : السنام . التامك : المرتفع العالى . الني : الشحم . تزل : تنزلق . الولية : حلس يوضع تحت الرحل ليحمى الظهر .

(٥) تطرد : تتبع . لم يشل : لم يدع . الفصيل : ولد الناقة .

(٦) توقر : ترزن وتثقل . شازرة : رافعة . الجديل : الزمام المجدول .

(٧) مفيض القداح : الذى يقلب قداح الميسر ، وبه يضرب المثل فى حدة النظر . أراغ : أراد . الحويل : الاحتيال .

وَحادرةٍ كنفيهـــا المسيـــحَ تنضحُ أوبرَ شثًّا غَليـــلاَ[٨]

وصدرٍ لهــا مهيعٍ كالخليـــفِ تَخالُ بأَنَّ عليه شَليلاَ[٩]

مرّتْ على كشُبٍ غُـــدوةً وحاذَت بجنبِ أريكٍ أصيلاَ[١٠]

توَطَّأُ أغلظَ حِـــــزّانه كوطءِ القويِّ العزيزِ الذَّليلا[١١]

إذا أقبلتْ قلتَ مَذعـــورةٌ أطاعَ لها الرِّيحُ قِلعًا جفولاَ[١٢]

وإنْ أدبرت قلتَ مَشحونةٌ منَ الرُّمْدِ تلحقُ هَيْقًا ذَمولاَ[١٣]

وإنْ أعرضَت راءَ فيها البصيـــرُ مالاَ يكلِّفُهُ أنْ يفيـــلاَ[١٤]

١٦٥ : يَدًا سُرُحًا حائِلاً ضَـــبْعُها تَسومُ وَتَقْدُمُ رِجْلاً زَجولاَ[١٥]

---

(٨) الحادرة : الضخمة . كنفيها : جانبيها . المسيح : العرق الممسوح . الأوبر : دو الوبر . شثا : كثيرا متراكبا . غليلا : حارا .

(٩) المهيع : الطريق الواسع البين . الخليف : الطريق أيضا . الشليل : كساء أملس يوضع فوق عجز البعير .

(١٠) كشب وأريك : جبلان متباعدان . غدوة : صبحا . أصيلا : بعد العصر ، وقبيل المغرب .

(١١) توطأ : تطأ . حزانه : جمع حزيز ، وهو ماغلظ من الأرض .

(١٢) أقبلت : جاءت إليك . مذعورة : خائفة . أطاع لها : هيأ لها . جفولا مسرعا .

(١٣) أدبرت : تحولت إلى الخلف . مشحونة : مملوءة ، وهي وصف لموصوف محذوف هو سفينة . الرمد : جمع أرمد أو رمداء ، وهي النعامة ، سميت بذلك لأن لونها يشبه الرماد . الهيق : ذكر النعام . ذمولا : مسرعا .

(١٤) أعرضت : تحولت . راء : رأى حصل فيها قلب ، فقدم الألف على الهمزة . يفيلا : يخطىء .

(١٥) يدا سرحا : يدا منسرحة سهلة . حائلا ضبعها : مضطربا عضدها . تسوم : تمر مرورا سهلا . زجولا : بعيدة الاندفاع .

وَعُوجًا تناطَحْن تحتَ المَطَا ... وتَهدِي بهنَّ مُشاشاً كُهُولاَ[١٦]

تعُـــزُّ المطىَّ جِماعَ الطريـــقِ إذَا أدلجَ القومُ ليلاً طويلاَ[١٧]

كأَنَّ يدَيْها إذَا أرقلَتْ ... وَقد جُرْنَ ثَمَّ اهْتَدينَ السَّبيلاَ[١٨]

١٦٩ : يَدا عائمٍ خَـــرَّ في غَمْرَةٍ ... قدَ أدركَه الموتُ إلاَّ قليلاَ[١٩]



(١٦) العوج : جمع عوجاء كناية عن الأضلاع . تناطحن : تداخلن . المطا . الظهر . تهدى : ترشد . المشاش : رءوس العظام . الكهول : جمع كهل الضخام الطوال .

(١٧) تعز : تغلب . المطى جمع مطية الإبل . جماع : طوال . أدلج : سار ليلا .

(١٨) أرقلت : أسرعت . جرن : ملن عن الطريق ، والضمير يعود على النياق اللاتى يسايرنها .

(١٩) عائم : سابح . خر : سقط . غمرة : ماء كثير .

تحليل الأبيات :

لم يكن بشامة من رجال الحب ، بل لم يكن ممن يتخيل الحب فيحسن تخيله ، أو يصوره فيجيد تصويره ، فجاء مطلع قصيدته دالا عليه ، منبئا عنه ، ناطقا بأن عاطفته فى الغزل ناضبة جامدة ، فقد هجر فؤاده حبيبته هجرا طويلا ، وكان من حق أمامة أن تكون هى الصادة عنه ، الهاجرة له ؛ إذ شأن المرأة الصد والدلال ، والهجر والإعراض ، وليس ذلك شأن الرجل فى لغة المحبين ، وكأنه أحس بأنه أخطأ فى حق الحب والجمال ، فقال : « وحملك النأى عبئا ثقيلا » ولكن كيف حمله النأى العبء الثقيل ، وهو صاحب الهجر الطويل ؟

ثم يدير كلاما فى النسيب ليس له من جمال الخيال نصيب يصف بعده الوداع ، وأن عينيها استعبرتا ، فيقول:

فبـــادرتاها بمستعجل من الدمع ينضح خدا أسيلا

ولا ندرى لماذا لم يصبغ دمعه الدامى خده ليكون الوداع دامعا داميا ؟ ثم ينتقل إلى وصف ناقته ، فيقرب بها للرحيل يقرب ناقة صلبة قوية كأنها العير الوحشى فى وثاقة جسمها ، وصلابة أعضائها ، وهى شديدة ضخمة ، حريئة سريعة ، فأى صفة مستحبة تنقصها ؟ إنها متداخلة الأعضاء ، مدمجة الأجزاء ، يبدو مراحها فى أدنى الأوقات إلى الخمول ، ويظهر نشاطها فى أحق الساعات بالكلال والملال ، وهى ساعات الظهيرة ؛ إذ يقيل كل كائن ، ويسكن كل متحرك ، ويهدأ كل حى ، حتى الظباء ، وهى رمز المراح تطلب الراحـــة والسكون ، وتسكن إلى الهدوء والاطمئنان .

أما الناقة فلا تشعر بتغير الجو ، ولا بتوهج الشمس ، وهى لا تسكن إلى الراحة ، لها سنام مرتفع مكتنز ، قد أزال اكتنازه وبره ، فهو أملس ناعم تزل عنه الولية زليلا ، ويسقط عنه الحلس سقوطا ، أعززت تلك النجيبة ، فمنحتها حق الرعى حيث شاءت ، فهى تقطف أطراف النبات الناجم فى الأرض الخصبة دون أن يزجرها راعيها ، وتستمد قوتها من أنها لا فصيل لها يمتص مُنَّتها مع امتصاص أخلافها ، ويرشف دمها حين يرشف لبنها ، وهى

وقور رزان لاتثور إذا ما شد راكبها زمامها ، ولا تنفر عندما يثنى إليه خطامها ، تنظر بعين حادة كأنها عين مقلب القداح ، قداح الميسر ؛ ليعرف الرابح منها ، ويحتال ليتبين الكاسب فيها.

وأذنها ضخمة ينضح على جانبيها العرق غزيرا ، حتى يتجاوزهما سائلا إلى الوبر فى لحييها ، فيبلل ذلك الوبر الكثيف الحار ، ولكنه لا يزيل حرارته لتجمعه وتكاثفه ، ولها صدر عريض واسع ؛ كأنه طريق بين لاحب ، يتموج ويضطرب كأنه مغطى بذلك الكساء الذى يوضع فوق أعجاز الدواب، وهى تقطع المراحل الشاسعة دون أن يدركها الأين أو يحط عليها الكلال ، فتغدو على جبل كشب ، لتمسى فوق جبل أريك ، فما أقوى احتمالها ! إنها لتطأ الأرض الغليظة الحزنة ، فتحيلها لينة ناعمة ، مثلها كمثل السيد القوى العزيز يطأ بجبروته الرجل الضعيف الذليل ، فيطوى صفحته من الوجود ، متى أقبلت عليك ظننتها لنشاطها قد تملكها الذعر، واستولى عليها الفزع ، فهى أسرع من نعامة يطاردها ظليم قوى عداء، و إذا أدبرت حسبتها سفينة موسوقة أطاعت الريح قلعها، وأذعنت الريح الصرصر لشراعها، وهى بمن فيها مجفلة متوجسة ، فهى تمخر العباب بقوتين، وتجرى فى اليم بإرادتين : قوة الريح والشراع،و إرادة الإجفال والتوجس،و إذا ظهرت أدرك رائيها كرمها ونجابتها دون أن يخطىء فى إدراكه ، أو يفيل فى تقديره ، يرى يدا منسرحة سهلة ، وهى مختلجة العضد ، مضطربة الضبع ، تمريدها مر الريح ، وتندفع قدمها اندفاع الصخرة، ذات أضلاع تبدو تحت ظهرها عوجاء مقوسة ؛ قد تلاقى بعضها ببعض، واتصل يمينها بشمالها ، حتى لكأنها تتناطح، ترشد من يراها أن عظامها ضخام صلاب ، جسام شداد ، تبارى المطى فتغلبه وتعزه ، وتسابق الركب جماع الطريق فتسبقه وتبزه ، وذلك الغلب والسبق حينما تسرى ليلا ، فتبدو يداها ، وقد أرقلت إرقالا معتدلا هازة رأسها — فى مرح ونشاط ، فتشاركها الإبل المبارية لها فى أول مراحل السير هذا المرح وذلك النشاط ، فينحرفن عن الطريق كما تنحرف ، و يملن عن الصراط المستقيم كما تميل ، فإذا ما أوغلن فى الطريق سرن معتدلات قاصدات لايجرن ولا ينحرفن ؛ لأنهن فقدن تلك القوة الدافعة ، واستنفدن ذلك النشاط الحافز ، لقد أدركهن الأين والنصب ، وأصابهن التعب والوصب ، فسرن سواء السبيل حينئذ تبدو يداها كيدى

سابح فى بحر عجاج متلاطم الأمواج قد كاد يدركه الغرق ، و يطويه فى قراره المـاء ، وهو يطلب الحياة ، فيعمل يديه كلتيهما بكل ما أوتى من قوة ؛ حتى يبلغ ساحل الأمان ، و يصل إلى شاطىء الاطمئنان .

النقد :

الناظر فى هذه الأبيات يجدها ممتازة بوفرة معانيها ، وتجدد الأفكار فيها ، فإذا نحن تجاوزنا الصفات العامة التى كاد يتفق فيها أغلب الواصفين كصلابة الناقة ، ووثاقة الأعضاء وسرعة السير ، وعظم السنام ، وا كتناز الفخذين ، وجفاف الأخلاف ، واتساع الصدر ... إذا تجاوزنا هذا وجدنا الشاعر وفق إلى معان لم يوفق إليها شاعر عداه ممن سندرسهم بعده ، وهى معان تعتمد على الحس حقا ، ولـكنها مع هذا بالغة الروعة ، عالية الخيال ، وذلك كقوله فى وصف حدة نظرها :

توقر شـــــازرة طرفها إذا ما ثنيت إليها الجديلا

بعين كعين مفيض القداح إذا ما أراغ يريد الحويلا

فحدة نظر الناقة صفة نعتها بها كل واصف إياها ، ولـكن أحدا لم يشبهها بمثل هـذا التشبيه الذى أوحى إلينا بالتفـكير فى إحدى عاداتهم ، و بتصور حال الحـكم فى الميسر ، وفيما يجب أن يكون عليه من حدة النظر ، وحسن الاحتيال ، وكقوله فى وصف سرعتها فى السير ، وجلدها عليه :

فمرت على كشب غـــدوة وحاذت بجنب أريك أصيلا

فقد صورها لنا تربط بجلدها وقوة صبرها بين المتباعدين ، وتصل بين المتنائيين ، وأى قوة كقوتها ، وقد سارت اليوم كله من مطلع الشمس إلى مغربها لم يأخذ منها الـكلال ، ثم إن تشبيه وطئها غليظ الحصى ، واستحالته تحت أقدامها دقيقا ناعما بوطء القوى العزيز للضعيف الذليل تشبيه إنسانى صادق فيه سمو المعنى ونبالة الغرض الذى أوحى به ، فهو يرمز إلى أن القوى يكاد يحسب الذليل مفقود الحس ، معدوم الشعور فقدان الحصى للحس والشعور ، أو أنه لايدرك أنه كائن حى من حقه أن يشعر بالوجود ، كما أن الحصى ليس كائنا

حيا ، فليس من حقه أن يشعر بالوجود : لابد أن بشامة نظر إلى هذا المعنى الإنسانى الرائع فقد كان إنسانا كريما ، كما كان شاعرا حكيما ، والإنسانية والحكمة تمليان هذا المعنى

ووصفه تقابل الأعضاء بأنها تتناطح وصف دال على طول التأمل ؛ فالأضلاع والقرون كلاهما مقوسان ، والأضلاع متقابلة ، تقابل القرون عندما تتناطح ، فهى صورة تكاد تكون كاملة لاينقص من كمالها سوى أن الأضلاع متعددة ، والقرون محدودة العدد .

وتشبيهه يدى الناقة عند الإرقال بيدى السابح فى عباب متلاطم يكاد يقضى عليه بالغرق ، فهو لذلك يبذل قصارى جهده ؛ ليصل إلى النجاة تشبيه قوى مستقيم ، وبخاصة إذا ذكرنا أن بلاد العرب غريبة فيها هذه المناظر لانعدام البحور والأنهار فيها .

والحق أن هذه القطعة من خير ماقيل فى وصف الناقة ، ولو بلغ عدد أبياتها عدد أبيات طرفة لكان أحق منه بزعامة وصف الناقة ، بل لكان أحق منه بزعامة الوصف عامة ، وذلك من نواح : أسلوب بشامة أملس وأعذب ، وتشبيهاته أدق وأقرب إلى الحقيقة ، ولعل طول الحياة ، وكثرة التجارب ، وسعة الخبرة هدت بشامة إلى ما لم يهتد إليه طرفة ، فقول بشامة فى وصف تداخل أعضاء ناقته :

مداخلة الحلق مضبورة إذا أخذ الحاقفات المقيلا

أقرب إلى الحقيقة من قول طرفة :

وطى محال كالحنى خلوفه وأجرنة لزت بدأى منضد

وينتظم أسلوب بشامة البديع من البديع ، والرائع من جمال اللفظ ، وحق مثله فى حياته وسنه أن تكون عنايته بجمال اللفظ دون عناية طرفة ، فالشباب دائما باحث عن الجمال فى كل شئ ، ولكن بشامة كان يبغى الجمال فى شعره دون سواه ؛ لأن حياته حرمته النظر إلى غير جمال الشعر ، فمن ذلك الجمال قوله :

إذا أقبلت قلت مذعورة من الرمد تلحق هيقا ذمولا

وإن أدبرت قلت مشحونة أطاع لها الريح قلعا جفولا

و إن أعرضت راء فيها البصـــير مالا يكلفه أن يقيلا

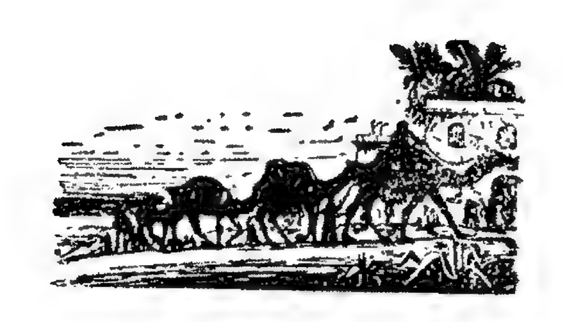
و يعجبنا منه ذلك التضمين الذى يعيبه واضعو قواعد النظم العربى ؛ يعجبنا لأنه مبعث تشويق ، وشغف للقارئ ؛ إذ هو ينتظر فى لهفة المشبه به ؛ ليتبين وجه الشبه الذى يربط بينه و بين المشبه ، وذلك فى قوله :

كأن يديهـا إذا أرقلت وقد جرن ثم اهتدين السبيلا

يدا عائم خرّ فى غمرة قد أدركه الموت إلا قليلا

وتعجبنا دقته فى اختيار الألفاظ ، وحسبنا شاهدا البيتان السابقان ، فاختياره الإرقال دون غيره من أنواع السير دقة ؛ لأن السابح يحرك مع يديه رأسه كما تصنع الناقة المرقلة ، واختياره لفظ « عائم » دون سابح مثلا دقة ؛ لأن السباحة تشعر بالمهارة دون العوم ، وتفضيله « خرّ » على عام مثلا دقة ؛ لأنها تشعر بالسقوط دون عمد .

و إذا كان لنا ما نأخذه عليه ، فهو تكرار القافية ، لقد كان بشامة أستاذا لزهير فأكرم بالأستاذ والتلميذ .



٣ — وقال المثقب العبدى* فى قصيدة أولها :

هَـــلْ عند غانٍ لفؤادٍ صدِ   من نَهلةٍ فى اليومِ أو فى غدِ ؟[١]

حتى تَلوفيتُ بِلَـكِيّــــةٍ   مُعجمَـــةِ الحارِكِ والمَوفِدِ[٢]

تُعطيكَ مشياً حسَناً مرّةً   حَثْكَ بالمِرْودِ والمُحْصَـــدِ[٣]

يُنْبي تجاليـــدى وأقتادَها   ناوٍ كرَاسِ الفَدَنِ المُؤيَدِ[٤]

عَرفاء ، وجناء ، جُماليّـــةٍ   مُـكرَبةٍ أرساغُها جَلْعَـــدِ[٥]

١٧٥: تَنمِى بنهّاضٍ إلى حارِكٍ   ثَمّ كرُكْنِ الحجرِ الأَصْلَدِ[٦]

---

* ترجمة الشاعر : هو العائذ بن محصن بن ثعلبة بن وائل العبدى ، وكنيته أبو عمرو ولقبه المثقب لقوله : ظهرن بكلة وسدلن رقما   وثقبن الوصاوص للعيون

وهو شاعر مجيد ، قيل عنه : « قد عرد بقصائده كل مفرد ، وأنشدت على كل مورد » . والقصيدة التى منها هـذه الأبيات من أجود شعره ، وقد أجاد فيها وصف ناقته ، توفى سنة ٥٢٠ م .

التفسير اللغوى : (١) الغانى : أصلها الغانية ، ثم رخم ، أو أنه ذهب إلى الإنسان . صد : عطشان . النهلة : المرة من النهل . (٢) تلوفيت : تدوركت . بلـكية : بناقة كثيرة اللحم ، وبلـكية صفة لموصوف محذوف ، واللـكائك شرائح اللحم . معجمة الحارك : مكتنزة أعلى الـكاهل . الموفد : المشرب . (٣) حثك : حضك ودفعك . المرود : حديدة تدور فى اللجام . المحصد : السوط المحكم الفتل ، فهو صفة لموصوف محذوف .

(٤) ينبى : يدفع . تجاليدى : جسمى وأعضاءه . الأقتاد : جمع قتد ، وهو أداة الرحل . الناوى : سنام الناقة . الفدن : القصر العظيم ، أو الصرح الضخم . المؤيد : الموثق المشدد .

(٥) عرفاء : وصف للناقة صار سنامها كالعرف ، وهو المرتفع من الرمل . الوجناء : الغليظة ، أو العظيمة الوجنتين . جمالية تشبه الجمل فى وثاقة الخلق وعظم الجسم . المـكربة : الموثقة الصلبة . الأرساغ : جمع رسغ ، وهو الموضع المستدق بين الخف وموصل الوظيف . الجلعد : الغليظ الصلب . (٦) تنمى : ترتفع . النهاض : الـكثير النهوض ، ويقصد به العنق . المصعد المتسامى . الحارك : أعلى الـكاهل . ثم : هناك . كركن : كجانب . الأصلد : الأملس الصلب .

كأنَّما أوبُ يديها إلَى	حَيزُومِها فوقَ حَمَى الفدْفدِ (٧)
نَوْحُ ابْنَةِ الجَوْنِ على هالِكٍ	تَندُبُه رافِعـــــةَ المِجْلَدِ (٨)
كلَّفتُها تهجـــــيرَ دَوِّيَّةٍ	مِنْ بعدِ شأوَىْ ليلِها الأَبْعدِ (٩)
فى لاحبٍ تعـــــرِفُ جِنَّاتِه	مُنفهِقِ الفَقْرةِ كالبُرجُـــدِ (١٠)
تكادُ إذ حرَّكتُ مِجـــذافَها	تَنسَلُّ مِنْ مَثناتِها واليَدِ (١١)
لا يرفع الصَّوتَ لَهَـا راكبٌ	إِذَا المهارَى جَودةً فى البَدِ (١٢)
تسمعُ تَعـــــزافًا له رَنَّةٌ	فى باطنِ الأرضِ وَفى القَرْدَدِ (١٣)
١٨٣ : كأنَّها أسفعُ ذو جُـــدَّةٍ	يَمُدُّهُ الوَبْلُ ، وليلٌ سَدِى (١٤)

(٧) أوب يديها : رجوع قائمتيها الأماميتين . الحيزوم : ما استدار بالظهر والبطن أو ضلع الفؤاد . الفدفد : المكان الغليظ أو الفلاة .

(٨) ابنة الجون : امرأة من كندة عرفت بشدة النواح حتى ضرب بها المثل . تندبه : تبكيه . المجلد : خرقة سوداء كالمنديل تحملها النادبة ، وتشدها بين يديها وفوق رأسها .

(٩) التهجير : السير فى ساعات الهجير عند اشتداد الحر . الدوية : الصحراء الشاسعة . شأوى ليلها : تثنية شأو ، كأنه أراد شأو ليلها ونهارها ، والشأو : الغاية .

(١٠) اللاحب : الطريق البين الواضح . منفهق : متسع . الفقرة : العلم من جبل أو فلاة . البرجد : الثوب المخطط .

(١١) مجذافها : يريد سوطها ، وهو فى الأصل المجداف ، وهو خشبة طويلة مبسوطة أحد الطرفين تسير بها السفن . المثناة : الزمام .

(١٢) المهارى : الإبل المنسوبة إلى مهرة بن حيدان من عرب اليمن ، قالوا عنها : إنه لايعدل بها شئ فى سرعة جريانها . الجودة : كالتجويد ضرب من السير . البد : الابتداء ، يقال بدأت بالشئ ، وبديت به .

(١٣) التعزاف : أصوات الحجارة التى تقذف بها الناقة إذا سارت ، وهو فى الأصل العزف على ناى أو عود أو غيرهما . الرنة : الصوت والصلصلة . القردد : الأرض الغليظة .

(١٤) الأسفع : الثور الوحشى فى وجهه سفع ، وهو السواد المشرب بالحمرة . الجدة : خطة فى ظهره تخالف لونه . يمده . يطويه يقال : ممدود الخلق ومعصوبه . الوبل : المطر الكثير . السدى : الندى . يقال سديت الأرض نديت .

تحليل الأبيات :

بدأ الشاعر قصيدته كأكثر شعراء عصره بالغزل المتمنِّى ، فهو يتمنى على غانيته أن يجد عندها رية لفؤاده الصادى من رحيق ريقها العذب فى يومه ، فإن تعذر عليها ففى غده ، ثم يسير فى غزل قصير يعتمد فيه على الأمانى العذاب ، وإذ لم يجد من ينيله متمناه انتقل إلى وصف الناقة فقال :

لقد تداركنى الأمر بناقة موفورة اللحم ، كثيرة الشحم ، مكتنزة الكاهل ، سمينة العنق ؛ إذا ما امتطيتها سارت بك سيرا جميلا ؛ جميلا فى لينه وهدوئه ، جميلا فى إرقاله وتجويده ، فكأنك تستحثها — دون أن يكون منك حض أو استحثاث — بمرود لجام ، أو بمحكم سوط ، وهى — إذ يعتمد على سنامها جسمى ورحلى ، ذلك السنام العظيم الضخم الذى يشبه قمة القصر الفخم — تدفعنى من أرض إلى أرض ، وتقلنى من بلد إلى بلد ، هى ناقة عرفاء ، فسنامها فى اكتنازه وارتفاعه كدعص الرمل منبسط من أدناه ، مجتمع فى أعلاه ، ووجنتاها ممتلئتان يغطيهما لحم كثير ، ويكسوهما جلد ثخين ، وأعضاؤها فى وثاقتها وإحكامها ، وتداخلها وتساندها كأعضاء الجمل ، وأرساغها فى ملاستها وصلابتها كالحجر الصلد ، ووظيفها فى غلظه وشدته كالجلعد الغليظ من الأرض .

إذا سارت صعدت بعنقها حتى تسامى به كاهلها السامق الرفيع الذى هو كجانب الحصن المنيع ، وكأن صوت قائمتيها الأماميتين ، وهى تعود بهما فى مسيرها إلى وسط بطنها ، وضلع فؤادها فوق حصى القدفد ، كأنه نواح ابنة الجون على هالك عزيز عليها ، وفقيد كريم لديها ؛ فهى ترجِّع فى نواحها ، وتندب رافعة بين يديها مجلدها ، تشير به إلى الأمام وإلى الوراء .

كلفت تلك الناقة الجمالية العرفاء أن تقطع بى فى ساعة القيلولة وإبان المقيل ، وحين التهاب الرمضاء صحراء واسعة ، دون أن يكون هذا الذى كلفتها إياه أول مسيرها ، بل كان بعد أن قطعت شوطا بعيدا فى يوم أيوم ، وليل أليل ، فسارت فى تلك المفازة فى طريق

واضحة ، وسبيل لاحبة ، فقد قطعتها وعرفتها ، فإنى بها جوّاب آفاق ، وجوال صحارى ، فهى تعرف جناتها ، فتسير فى طرقها المستقيمة الممتدة التى تماثل فى استقامتها وامتدادها ظهر برجد ، إذا ماحرك حاديها سوطه فى يده كادت لشدة فزعها تنتزع منه زمامها ، و إذا ماسايرت النياق المهارى اللائى مايزلن فى أول شوطهن فى حين أنها قطعت ما قطعت من رحلة فى إثر رحلة ، وسارت ماسارت من ليل فى أعقاب نهار لم تحوج حاديها إلى أن يسمعها زجره ، بل تسمعه صوتا موسيقيا موقعا منغما ، كأنه عزف ناى ، ينبعث هذا الصوت الموسيقى من اصطدام وظيفها بالحصى الغليظ ؛ سواء أكان مسيرها فى بطن الوادى أو فى ظهره .

كأن ناقتى تلك لجمال وجهها ، وسفعة وجنتيها ثور وحشى ، لون ظهره يخالف لون وجهه ، إذ فى وجهه سفع كأنه الدم المتجمد ، وظهره أبيض كأنه ملتف بالو بل الندى

المثقب

وصف المثقب يبعد كثيرا عن وصف طرفة و بشامة ، فقد أقل من وصف الأعضاء ، فلم يفصلها تفصيل طرفة ، ولا اجترأ ببعضها دون بعض كما فعل بشامة ، و إذا كان قد جاراهما فى شيء ففى وصفها جملة بالصلابة والاكتناز ، فأجمل نعوتها فى الثلاثة الأبيات الآتية :

ينبى تجاليدى وأقتادها ناو كرأس الفدن المؤيد
عرفاء ، وجناء ، جمالية مكربة أرساغها جلعد
تمى بنهاض إلى حارك ثم كركن الحجر الأصلد

ولكنه تحدث عن حسن سيرها ، وسهولة قيادها ، وشدة يقظتها ، وعظم صبرها ، فأجاد إجادة بالغة ، فهى :

تعطيك مشيا حسنا مرة حثك بالمرود والمحصد

ويعجبنا منه قوله : تعطيك فهى استعارة جميلة ، وكأنه قد شبهها كذلك بالفرس يتحكم فيه اللجام ، ويخشى السوط المحكم المحصد ، ولكنها ليس لحاديها ما يتحكم به فيها غير حبها

إياه ، وطاعتها له . ثم رسم رجع يديها إلى وسط بطنها ، وأنها إذ تقدمهما وتؤخرهما فى سرعة سريعة ذات صوت ورنين تشبه ابنة الجون الصائحة النادبة .

وهذه صورة لا تنقصها الظلال . فأحسب أن الغبار الذى تثيره الناقة هو لون مجلد ابنة الجون ، وتشبيه السوط بالجداف تشبيه جميل ، فكلاهما وسيلة سير ، وكلاهما مبسوط ممتد ، وكلاهما عريض من قبضته ، دقيق فى نهايته .

ونفيه عنها رفع صوت حاديها لها ؛ استحثاثا لإرقالها بعد مسيرة بعيدة المدى فى حين أن كرائم النياق ماتزال فى بدء سيرها ، فيه تكريم لها ، واعتزاز بها ، ولـكنّ فيه كذلك مبالغة وغلوا ليسا من سمة الجاهلى .

ووصفه صوت وظيفها عند ما يصدم الحصى بأنه كالتعزاف أكسب الجو جمالا يشعر به من يعرف أثر الحداء والغناء فى قوة الإبل عند ماتشعر بالأين والإعياء ، فـكأنها تغنى لنفسها ، وتحدو بوظيفها إذا غفل راكبها عن الحداء لهـا .

والناظر بين أبيات المثقب وأبيات طرفة وبشامة يجد أبياتا قليلة متماثلة ، أنحكم بأن طرفة وبشامة أخذا من المثقب ، أم أنها معان مطروقة ؟ أما أنا فأعتقد أنها معان مطروقة ، وذلك كقوله :

تمى بنهـــاض إلى حارك ثم كركن الحجر الأصـــلد

إذ مثله قول طرفة :

وأتلع نهاض إذا صـعدت به كسكان بوصى بدجلة مصعد

وبيت طرفة أجمل ؛ لأنه أوسع معنى ، وأدق تصـويراً . ويشبه قول بشامة ابن الغدير :

تعــــز المطى جماع الطريـــق إذا أدلج القوم ليلا طويلا

قولَه :

لا يرفع الصوت لهـــا راكب إذا المهارى جودة فى البـــد

و بيت بشامة أضفى مدحا مع قلة فى المبالغة ؛ لأنه وصفها بالسبق طوال الطريق .

أما أسلوب المثقب فهو سلس سهل ، لاعوج فيه ولا أمت ، وفيه من التشبيهات الجميل الجيد ، والواضح الساطع كقوله :

كأنما أوب يديها إلى ... حيزومها فوق حصى الفدفد

نوح ابنة الجون على هالك ... تندبه رافعة المجلد

وقد اتفق طرفة معه فى وصف الطريق فى الاستقامة والوضوح بأنه كالبرجد ، و بيت طرفة أجمل ، على أن له فضلا فى كثير من هذه المعانى . فقد سبق طرفة بفترة طويلة .



٤ — وقال زهير بن أبى سلمى* من قصيدة بدأها بقوله :

غَشيتُ الدِّيارَ بالبقيعِ فَثَهْمَدِ دَوارسَ قد أقْوَينَ مِنْ أُمِّ مَعبدِ (١)

وقفتُ بها رَأدَ الضَّحاء مَطيَّتى أسائلُ أعلامًا بِبيــداء قَرْدَدِ (٢)

فلمَّا رأيتُ أنَّهــا لا تُجيبُني نَهضتُ إلى وَجْناءَ كالفَحْلِ جَلْعَدِ (٣)

جُماليَّةٍ لم يُبقِ سَيْرِى ورِحلتى عَلَى ظَهرها مِن نَيِّها غَيرَ مَحْفِدِ (٤)

متى ما تُكلِّفْها مآبةَ مَنْهــلِ فَتَستعفَ أو تُنْهكْ إليك فتجهدِ (٥)

١٨٩ : تَرِدْهُ ولمَّا يُخْرِجِ السَّوطُ شَأْوَها مروحًا، جنوحَ اللَّيلِ، ناجيةَ الغدِ (٦)

---

* ترجمة الشاعر : هو زهير بن أبى سلمى بن زهير المزنى الشاعر الحكيم ، المجيد فى جميع فنون الشعر ، وبخاصة الحكمة والمدح والوصف ، ويمتاز من غيره بتقييح شعره ، وتهذيب قريضه ، وتنقيته من كل زيف وبهرج ، حتى تخرج قصائده متينة الرصف ، محكمة البناء ، ولذلك كان له قصائد تعرف بالحوليات لأنه لاينشدها إلا بعد عام كامل على نظمها ؛ توفى سنة ٩هـ

التفسير اللغوى: (١) غشيت : نزلت . البقيع وثهمد : مكانان بالمدينة . دوارس : زوائل . أقوين . أقفرن ، ورحل عنهن أهلهن . أم معبد : زوجته .

(٢) رأد الضحاء : وقت ارتفاع الشمس وانبساط ضوئها . المطية : الناقة ، ثم أطلقت على كل مايمتطى ظهره . أعلاما : جمع علم ، وهو مايهتدى به فى الصحراء . القردد الأرض الغليظة المرتفعة .

(٣) الوجناء : الناقة الضخمة الوجنتين . الغليظة الخدين . الجلعد : الشديدة الصلبة .

(٤) جمالية : تشبه الجمل فى عظم خلقها، وقوة جسمها . النى : الشحم . المحفد : الأصل ، ومثلها المحتد ، والمحكد ، أو أن المحفد الأصل للسنام خاصة .

(٥) مآبة منهل : المآبة أن تسير الناقة نهارها ، ثم تثوب إلى المنهل للشرب عشيا . فتستعف : يؤخذ ماعندها من السير من غير كد . تنهك : يبلغ منها بالضرب والإجهاد . تجهد : تتعب .

(٦) ترده : ترد المنهل . لما يخرج السوط شأوها : لم يستخرج ضرب السوط كل عفوها وما تسمح به نفسها من طاقة وقدرة وطلق . مروحا : نشيطة مرحة . جنوح الليل : ميالة فى سيرها يمينا وشمالا فى الليل لجنوحها فى النهار ، وذلك لنشاطها . ناجية الغد : مسرعة فى غدها

كهمّك إن تَجْهَدْ تجِدها نجيحةً ... صَبورًا، وإن تَسترِخ عنْها تزَيَّدِ (٧)

وتنضحُ ذفـــراها بجَوْنٍ كأنه ... عصيمُ كُحَيْلٍ في المراجِل مُعْقَدِ (٨)

وتَـلْوِي بريَّانِ العَسيبِ تُمِرهُ ... عَلَى فرجِ محرومِ الشراب مُجَدَّدِ (٩)

تُبادِرُ أغوالَ العشِيِّ وَتتَّـــقِي ... عُلالةَ مَلْوِيٍّ مِنَ القِدِّ مُحْصَدِ (١٠)

١٩٤ : كخنساءَ سفعاءِ الملاطمِ حُرَّةٍ ... مُسافرةٍ مَزءودَةٍ أُمِّ فَرقَـــدِ (١١)

---

(٧) كهمك : هي كما يهمك منه وترجو . إن تجهد : إن تطلب جهدها وإسراعها . نجيحة : سريعة . صبورا : كثيرة الصبر على الجهد . تسترخ : تجعل لها السير سهلا . تزيد : تسير سير التزيد ، وهو ضرب من السير فوق العنق .

(٨) تنضح : ترشح . الذفرى . عظم ناتئ خلف الاذن ، ويكثر عرق البعير في هـذا المكان . الجون . الأسود والأبيض والأول هو المراد . العصيم : البقية من كل شئ . الـكحيل : القطران أو النفط ، ويقال : إن الإبل أول مايبدو عرقها أسود ، ثم يصفر . قال الشاعر :

يصفر لليبس اصفرار الورس ... من عرق النضح عصيم الدرس

معقد : مطبوخ .

(٩) تلوى : تضرب يمنة ويسرة . ريان العسيب : ممتلئ الأصل ، وهو يعني ذنبا غليظا ، والعسيب : عظم الذنب ومنبته من الجلد والعظم. تمره : تذهب به وتجئ . محروم الشراب : كناية جميلة عن عدم حملها مجدد : لالبن في أخلافها من جد الشئ يجده كنصره ينصره قطعه ، وشاة جداء قليلة اللبن ، يابسة الضرع ، ويقال : ناقة جدود : مجددة .

(١٠) تبادر : تسارع . أغوال : أبعاد مفرده غول ، وهو بعد المفازة ، لأنه يغتال من يمر به ، ويقال : هون الله عليك غول هـذا الطريق أي خفف عليك بعده العلالة : البقية . ملوى من القد : مفتول من الجلد ، وهي كناية عن السوط . محصد : شديد الفتل محكمه .

(١١) الخنساء البقرة الوحشية المتأخر أنفها في رأسها . السفع : السواد في حمرة ، والمقصود بهذا الوصف خداها . إذ الملاطم : الخدود لأنها تلطم . حرة : كريمة عتيقة . مسافرة : كثيرة الأسفار وقطع الأرض . مزءودة : مذعورة ، يقال : زئد الرجل فهو مزءود ، والاسم منه الزؤد . الفرقد : ولد البقرة الوحشية .

تحليل الأبيات :

نزلت بديار أم معبد ، تلك الديار التى تقع بين البقيع وثهمد من مدينة يثرب ، وقد درست آثارها ، وامحت معالمها بعد أن فارقتها تلك الزوجة الغالية ، ونأت عنها هذه الحبيبة الغانية .

وقفت بها مطيتى وقد انبسط ضوء الشمس ، وامتدت أشعتها هنا وهناك ، وقفت أسائل أعلام تلك البيداء الغليظة ، والصحراء الوعرة ، أسائلها أين ذهب الذين مروا بها مرتحلين ؟ ومن حزن ومن أسى أن الديار لم تجب لى نداء ، وأن الدوارس لم تلبّ لى دعاء ، فوثبت حزينا باكيا إلى ناقتى الغليظة ، الضخمة الوجنات ، الوثيقة الأعضاء التى تماثل الجمل فى خلقها ، وانبساط جسمها ، وإن لم يبق سفرى الطويل الدائم ، ورحيلى المستمر من شحم سنامها سوى أصله ، ولم يخلف منه غير رسمه ، ولكنها مع هذا الجهد الجاهد إذا ما كلفتها قطع مفازة ، أو عبور فلاة ذات مناهل وعيون لم تن فى العدو ، ولم تدخر شيئا من النشاط ، شأن كرائم الإبل ، وعتاق النياق ، بل هى تبذل نشاطها كله لا تستبقى منه شيئا حتى تبلغ ذلك المنهل من دون أن تجهد بالضرب ، أو تنهك بالزجر ، ترده قبل أن يخرج السوط نهاية شوطها ، أو غاية طلَقها ، ترده نشيطة مرحة ، قوية جلدة ، لم ينل منها أن سارت الليل كله ، فهى تميل يمينا وشمالا ، سريعة فى المشى والغدوّ ، فى الليل والنهار ، هى كما تريد منها مجيبة مذعانة ، إن أجهدتها بالسير الطويل ، أو الإرقال السريع وجدتها نجيحة سريعة ، مروحا نشيطة ، صبورا جليدة ، وإن تركتها دون إجهاد سارت متزيدة ، فهى لك كما تبغى ، وهى فى مسيرها على ماتهوى ، وإن نال منها الجهد ، وأدركها الأين حينئذ تنضح ذفراها بعرق أسود كأنه بقية قطران انعقد فى المراجل ، وطبخ على النار فى الأوانى .

وهى إذ تسير تضرب بذنبها الممتلئ الريان العسيب ، الغليظ الضخم المَنبتِ ، تضرب به ساقيها ، ثم تذهب به وتجىء على فرج قد حرم الشراب ومنع من الضراب ، فهى لم تحمل ولم تحلب ، ولا لبن فى أخلافها ، يمتصه ويمتص معه غذاءها فصلان ، فغذاؤها لها وحدها

وطمامها وقف عليها دون سواها ، فهى لذلك الجلدة الصبور ، و إذا سرت بها فى مهمه فيحاء أسرعت بك إسراعا كأنه جرى الريح خشية أن يكون بعد المسافة فى العشى سبب اغتيال، فهى تبغى لك الحياة، و إن كانت من كثرة أسفارك فى شقاء ، وتطلب لك النجاة ، و إن أصابها من تعدد رحلاتك العناء ، وهى شديدة الخوف كثيرة الفزع ، تخاف أن تعلل بذلك السوط المحكم المفتول ، المقدود من الجلد .

ما أشبه ناقتى تلك بالبقرة الخنساء قد سفعت وجنتاها ، وهى إلى هـذا الحسن والجمال كريمة عتيقة ، حرة عزيزة ، قطاعة آفاق ، جوابة أنحاء وأقطار ، شديدة الذعر ، جياشة الفؤاد ، تكاد تشبه لشدة ذعرها ، وجيشان فؤادها البقرة الرءوم الحريصة على فرقدها الحسن الجميل .

النقد :

معانى هذه القطعة من قصيدة زهير تشبه شبها واضحا معانى قطعة بشامة بن الغدير أستاذه العظيم ، فالناقة وجناء كالفحل الغليظ الضخم ، وهو معنى سبقه إليه بشامة ، بل إن بيت بشامة أجمع :

فقربت للرحـــل عيرانة   عذافرة عنتريسا ذمـــولا

و إن يكن زهير قد وصفها ــ دون غيره ممن تقدمه ــ بأنها نضو أسفار ، وطليح آفاق ، وذلك إذ يقول:

جمالية لم يبق سيرى ورحلتى   على ظهرها من نيها غير محفد

وأحسب أنه لو أكرمها لأراحها ، كما أراح علقمة ناقته فى قوله :

قدعريت زمناحتى استطف لها   كترلحافة كير القين ملموم

وأراه متناقضا ، فقد ذكر أنه يكرمها ، و يضاعف لها غذاءها ؛ لأن فرجها محروم الشراب ، وذلك مفهوم من قوله :

وتلوى بريان العسيب تمره   على فرج محروم الشراب مجدد

ثم هى مضناة من السفر ، منضاة من الرحل ، وذلك غير قول أستاذه بشامة :

لمـا قرد تامك نيـــــــه ترل الولية عنــــــه زليلا

وكأنى بزهير فى بيته ذاك قد نظر إلى نفسه لا إلى ناقته ، وهذا المعنى يقال عن غيره من أولئك الشعراء الذين يصفون مطاياهم بالنضو والضنى والهزال .

ولقائل أن يقول : إن زهيراً كان جواب آفاق ، فأما بشامة فقد كان قعيد داره ، لا يكاد يبرحها ، فناقته مكتنزة السنام ، وكلاهما وصف ناقته بالـكرم والعتق والجنوح والنجاء ، والمرح والنشاط ، ولـكن معنى جديدا أورده زهير واضحا ساطعا ؛ ذلك أن ناقته تشعر بشعوره ، وتحس باحساسه ، فهى إذا ما أرخى الليل سدوله ، وخيف على المسافر الفتك والاغتيال :

تبادر أغوال العشى ، وتتقى علالة ملوى من القد محصد

و يؤ يد هذا المعنى أيضا قوله :

كهمك إن تجهد تجدها نجيحة صبوراً ،و إن تسترخ عنها تزيد

وهذان البيتان واضحان عن قول المسيب بن علس :

مرحت يداها للنجاء كأنمـا تكرو بكفى لاعب فى صاع

فعل السريعة بادرت جدادها قبـــــل المساء تهم بالإسراع

ولم وصف زهير سوطه بأنه علالة ؟ ألأنه قطعه بضربه إياها ؛ أم لأنها لا تحتاج إلى ضرب ، فا كتفى بالبقية الباقية منه ؛ الوجه أنه عرفها كريمة عتيقة ، فاستغنى عن السوط الـكامل بسلالة منه

وزهير يمتاز على جميع شعراء عصره بدقة التحديد ، فديار أم معبد « بالبقيع فثهمد » وقد كان وقوفه « رأد الضحاء » والرحل لم يبق من « نيها غير محفد » وهى « جنوح الليل ناجية الغد » وتجىء دقة معانيه تابعة للدقة فى ذلك التحديد سواء أ كان التحديد مكانا أم زمانا ، معنى أم صورة .

كما أنه دائم الجنوح إلى الحقيقة ، وهذا أثر من آثار حكمته التى أخذها عن أستاذه بشامة ، فهو لم يقل ماقاله طرفة فى وصف انفراج مابين مرفقيها :

كأن كناسى ضالة يكنفانها وأطر قسى تحت صلب مؤيد

ولم يسر على نهج أستاذه ، فيقول كما قال :

وصــــدر لها مهيع كالخليــــف تخال بأن عليـــــه شليلا

ولـكن فى الأبيات غير التشبيهات الـكنايات الطريفة كقوله :

وتلوى بريان العسيب تمـــــره على فرج محروم الشراب مجـــدد

وقوله :

كخنساء سفعاء الملاطم حـــرة مسافرة مزءودة أم فرقــــد

و بعد فمعانى زهير أقل من معانى من سبقوه ، وتشبيهاته أدنى من تشبيهاتهم ، ولعل ذلك لأنه كان يؤثر الحقيقة ، وفى التشبيه نوع من المبالغة ، وصوره ليست متكاملة كأ كثر صورهم : وأسلوبه فى جملته أقل رنينا من أساليبهم .



٥ — وقال المسيب بن علس* من قصيدة أولها :

أرَحلتَ مِن سلمى بِغيرِ متاعِ قبل العُطَاسِ ورُعْتَهَا بوداعِ ؟(١)

فتسلَّ حاجَتَهَا إذا هى أعرضَت بخميصةٍ سُرُحِ اليدين وَساعِ(٢)

صكَّاء ذِعلبةٍ إذَا استدبرتها حَرَجٍ إذَا استقبلتها هِلواعِ(٣)

وكأنَّ قنطرة بِموضِعِ كُورِها مَلساءَ بينَ غوامض الأنساعِ(٤)

وإذَا تعاورتِ الحصَى أخفافُها دوَّى نوادِيهِ بظهرِ القاعِ(٥)

وكأنَّ غارِبَها رَباوة مَخْرِمٍ وتمدُّ ثِنْىَ جديلها بِشراعِ(٦)

وإذا أطفتَ بها أطفتَ بكلكلٍ نبضِ الفرائصِ مُجفَرَ الأضلاعِ(٧)

مَرِحت يداها للنَّجاء كأنَّما تكرُو بكفَّىْ لاعبٍ فِى صاعِ(٨)

٢٠٣ : فِعلَ السَّريعةِ بادرَت جُدَّادها قبلَ المساء تَهُمُّ بالإسراعِ(٩)

---

* ترجمة الشاعر : هو زهير بن علس بن مالك بن عمرو الربعى، خال الأعشى وأستاذه، شاعر مقل مجيد، مدح عمرو بن هند، ولقى عنده طرفة والمتلمس الشاعرين ، وهذه الأبيات من قصيدة جيدة مدح بها القعقاع بن معبد، وكان سيداً كريماً ظريفاً يضرب بظرفه المثل، توفى حوالى سنة ٥٨٠م.

التفسير اللغوى : (١) العطاس : الصباح . رعتها أفزعتها :

(٢) أعرضت : صدت . بخميصة : بناقة ضامرة الخصر ، منطوية البطن . سرح اليدين : سهلة السير بهما . وساع : واسعة الخطو . (٣) الصكاء : القوية فى سيرها ، والتى تقارب عرقوباها. الذعلبة : السريعة. الحرج : الطويلة الضامرة . الهلواع : السريعة الحديدة المذعانة .

(٤) الكور: الرحل بأداته. غوامض: خوافى. الأنساع : جمع نسع سيور الجلد يشد بها الرحل.

(٥) تعاورت: تداولت . دوى: صوت. نواديه: شوارده ومتفرقه . القاع: الأرض السهلة.

(٦) الغارب : هنا السنام ومن معانيه مابين الظهر والكاهل . الرباوة : منقطع الغلظ من الجبل حيث استرق . المخرم : منقطع أنف الجبل . ثنى : مثنى . الجديل : الزمام المجدول المفتول . الشراع : القلع . (٧) الكلكل: الصدر. نبض: حركة . الفرائص : جمع فريصة وهى مضغة بين الكتف والصدر. مجفر: واسع. (٨) مرحت: نشطت. النجاء : الإسراع . تكرو : تلعب . الصاع : منهبط الأرض . (٩) الجدادة : مابقى من خيوط الثوب .

تحليل الأبيات :

بدأ المسيب قصيدته فى مدح القعقاع بن معبد بغزل لم يتجاوز الأبيات الثلاثة من القصيدة ، فقد صحا فى بيته السادس من حلمه ، وأفاق من شوقه ، ورأى أن الحكمة فى اجتناب الصبا ، وذلك إذ يقول :

فرأيت أن الحكم مجتنب الصبا وصحوت بعد تشـــوق ورواع

وإذن فعلى قلبه الواله أن يتسلى عن سلمى إذا ماصدت عنه ، وأعرضت دونه ، فقال له : تسلّ عن حاجتك منها بخليلة أخرى تطيعك إن أحببت ، وتقبل عليك متى أردت ، ولا تصد عنك أو تعرض كتلك الخليلة التى أعرضت عنك وصدت ، تسلّ بتلك الناقة النجيبة ، الخميصة البطن ، الضامرة الخصر ، السهلة السير ، الواسعة الخطو ، البعيدة الشأو ، كأنها فى تقارب عرقوبيها ، وقوة نشاطها نعامة تسابق الريح ، ولا تكاد تتبينها إذا رأيتها مدبرة ، فإذا استقبلتها بدت لك طويلة ضامرة ، مطيعة مذعنة ، حديدة البصر ، قوية النظر ، وكأن ظهرها قنطرة ملساء مدمجة ، مكتنزة قد أثرت سيور الكور التى لا تكاد ترى لتداخلها فى لحمها الكثير ، حتى ملس ونعم مكان تلك الأنساع ، إذا أرقلت فتداولت أخفافها حصى الطريق المتفرق سمعت له دويا فى الأرض الهينة الناعمة ، كأنه صوت الريح الحنون .

أما سنامها الضخم المتعالى فأشبه بأكمة رمل ، أو رباوة جبل ، كلاهما يعلو جسما منبسطا ، وكلاهما ينتهى بقمة متماسكة متداخلة ، وتحملك على أن تبسط المثنى من زمامها المفتول ، وخطامها المجدول ، عند ما تمد فى مسيرها عنقا مستطيلا ، كأنه الشراع المطوى ، أو الرقل المستعرض المتين .

وإذا تأملتها ، وتدبرت محاسنها ، وأحطت بأعضائها أخذك ما تراه من قوة فى صدرها ، وامتداد فى كلكلها ، ذلك الصدر الذى تنبض بالحركة الدافقة فرائصه ، وتشتد بالخفقان السريع عروقه ، وتتسع أضلاعه ، قد نشطت قائمتاها الأماميتان ، فهما تندفعان للعدو اندفاعا ، حتى ليحسبها من يراها تدفعهما بتلك القوة تريد أن تحفر بهما

الأرض ، فهما كـكفّى لاعب ماهر ، قد نشط للـكرة يقذفها بكلتا يديه فى أرض منخفضة سهلة ، وقد انهمك فى اللعب حتى سال عرقه ، وجرى فوق أعضائه ، تلك الناقة تشبه فى تتابع قائمتيها عند إرقالهـا امرأة تريد أن تنتهى من ثوب تنسجه قبل أن يحل بها المساء ، ويطوى النهار ، فهى تبادر إلى مابقى من خيطها تعمل فيه يديها فى قوة و إسراع .

النقد

يغلب على وصف المسيب الحسية البصرية ، فهو يعتمد على عينيه الاعتماد كله ، أليست ناقته « بخميصة سرح اليدين وساع » ؟ و بتأملها مدبرة ومقبلة فيقول :

صكاء ذعلبة إذا استدبرتها حرج إذا استقبلتها هلواع

وكأن قنطرة بموضع كورها ملساء بين غوامض الأنساع

وكأنه أخذ هذا المعنى من طرفة ؛ إذ يقول :

لهـا مرفقان أفتلان كأنما تمر بسلمى دالج متشدد

كقنطرة الرومى أقسم ربها لتكتنفن حتى تشاد بقرمد

و إن قوله : « ملساء بين غوامض الأنساع » فيه تصوير واضح ؛ إذ أظهر انطواء جلد الناقة فوق الأنساع حتى ما تظهر أو تبين ، وفيه دلالة على اكتنازها ورقة جلدها ، وتصويره تعاور أخفافها الحصى بأن له دويا أوحى إلى السامع أشياء :

منها تصوير تلك الفلاة التى تقطعها بأنها وعرة ، وأن السير فيها لا يهون إلا على النياق الوثيقة الأخفاف ، الصلبة الأرساغ ، وتوحى بأن للسامع أذنا موسيقية تعرف كيف تميز الأصوات ، وكيف تصورها ، وأن قوتها فى مسيرها أطارت الحصى ، فضرب بعضه بعضا ، وهو قريب من قول المثقب العبدى :

تسمع تعـــزافا له رنة فى باطن الوادى وفى القردد

وتشبيهه سنامها بأنه كربوة الجبل تشبيه جميل . و إن يكن مطروقا على ألسنتهم جميعا ،

فهو يشبهه بقمة الجبل ، والمثقب العبدى يشبهه برأس القصر ، وهو يدل على خيال حضرى ، فيقول :

ينبي تجاليدى وأقتادها ناو كراس الفدن المؤيد

وتشبيهه قائمتيها الأماميتين بكفى لاعب الكرة يقذفها بكلتا يديه ليكون مرماها بعيداً . تشبيه جميل ؛ لأنه يدل على بعض ألعابهم ، وجميع تشبيهاته مستمدة من بيئته ، فغار بها رباوة مخرم ، وزمامها كالشراع أو كالدقل الذى يفضله القدماء ، و إن كنت لا أرى مايمنع تشبيه العنق بالشراع المطوى ، والحصى يدوى نواديه بظهر القاع ؛ وقد جرى الشاعر على الطبيعة الجاهلية ، فلم ينظر فى أبياته تلك إلى ترتيب بل كل مايعن له من معان ينظمه ، وذلك شأن الشاعر المطبوع فى ذلك العصر .



٦ ـــ وقال علقمة الفحل* من قصيدة أولها :

هل ما علمتَ وما استُودعتَ مكتوم   أم حبلُها إذ نأتكَ اليومَ مَصرومُ[١]

فالعينُ مـــنِّى كأنْ غربٌ تَحطُّ به   دهماء حارِكُها بالقِتْب مَحـــزُومُ[٢]

قد عُرِّيَتْ زمناً حتى استَطَفَّ لها   كَتْرٌ كحافةِ كِيرِ القيْنِ مَلمومُ[٣]

قد أدبر العُرُّ عنها ، وهى شامِلُها   مِن ناصِعِ القطِرانِ الصِّرف تدسيمُ[٤]

٢٠٨ :تسقى مَذانبَ قد زالت عصيفَتُها   حَدُورُها من أَتِيِّ الماءِ مَطمُومُ[٥]

---

* ترجمة الشاعر : هو علقمة بن عبدة بن النعمان بن ناشرة التميمى ، شاعر جاهلى فحل . قال عنه ابن سلام الجمحى : « له ثلاث روائع جياد لايفوقهن شعر » والقصيدة التى منها هذه الأبيات إحدى هذه الروائع ، ولقب بالفحل لأنه نازع امرأ القيس الشعر ، وحكما أم جندب زوج امرىء القيس ، فحكمت لعلقمة عليه ، فطلقها امرؤ القيس ، فخلفه عليها ؛ توفى حوالى سنة ٥٦١ م .

التفسير اللغوى : (١) نأتك : فارقتك . مصروم : مقطوع .

(٢) الغرب : الدلو العظيمة ؛ تصنع من جلد الثور . تحط به : تعتمد فى جذبها إياه على أحد شقيها . دهماء : وصف للناقة، إذ الدهم أقوى أنواع الإبل والخيل. الحارك: أعلى الكاهل. القتب : الإكاف الصغير .

(٣) استطف لها : ارتفع لها . الكتر : السنام . الكير : موقد النار للحداد ، وهو القين . ملموم : مجتمع .

(٤) العر : الجرب . الناصع : الخالص . التدسيم : الأثر

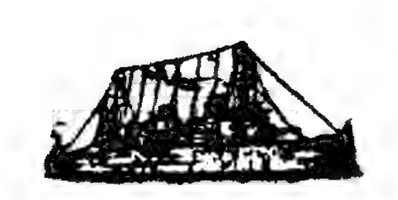
(٥) مذانب : مدافع الماء إلى الرياض . العصيفة : ورق الزرع . حدورها : منحدرها أتى الماء : السيل القوى المندفع . مطموم : مملوء .

هلْ تُلحقَنِّى بأخرى الحىّ إذ شَحطوا ... جُلذيَّةٌ كأتانِ الضَّحْلِ عُلكوم ؟[٦]

كأنَّ غِسْـلَةَ خِطْمِىٍّ بِمِشفَرِها ... فى الخَدِّ مِنْها وفى اللَّحْيَيْن تَلغيم[٧]

تَتْلِها تَقطَعُ المُوماةُ عن عُرُضٍ ... إذا تبغَّم فى ظَلمائهِ البُوم[٨]

٢١٢ : تُلاحِظُ السَّوطَ شزْرا وهى ضامِزَةٌ ... كما تَوَجَّسَ طاوى الكَشْحِ مَوشوم[٩]



(٦) أخرى الحى : آخر الفرق المرتحلة . شحطوا : بعدوا . الجلذية : الصلبة القوية . أتان الضحل : الصخرة يجرفها السيل فتبقى فى الماء . العلكوم : الغليظة .

(٧) الغسلة : ماغسل به الرأس . الخطمى : نبات يغسل به . التلغيم : تفعيل من اللغام ، وهو زبد تخالطه خضرة من المرعى .

(٨) الموماة : الصحراء . عن عرض : عن اعتراض . تبغم : صوّت صوتا مختلسا .

(٩) شزرا : بمؤخر العين . ضامزة : صابرة فلا ترغو من الضجر . طاوى الكشح : كناية عن الثور الوحشى . موشوم : منقط .

تحليل الأبيات :

بدأ علقمة قصيدته بمناجاة قلبه فى موقفه من خليلته ، أيحافظ على سرها ، ويكتم مكنون أمرها ، أم أنه وقد نأت عنه سيقطع صلته بها ، ثم يفشى سرها ؟

ثم أخذ يصف رحيل الغوانى وأثره ، وجمالهن وسحره ومسكهن وعطره ؛ حتى انتهى بعدئذ إلى أن العين كالذنوب اعتمدت على أحد جانبيها ناقة دهماء ، قد ظهر من فوق قتبها المحزوم فى كاهلها ، فماء الدلو لهذا الميل دائم الانسكاب ، وهو بعد هذا التمهيد يسير فى وصف الناقة ، فيقول :

إنه يعز ناقته ويكبرها فلا يستخدمها إلا قليلا ، قل أن يضع الرحل فوق ظهرها ، فهو فى أكثر الأحيان عريان ، لذلك هو مكتنز صلب كحافة كير الحداد ، وقد ذهب عنها العرّ ، وزال الجرب ، بما بذله من العناية بها ، فآثار القطران الخالص تشمل جميع أجزائها ، وهذا فى ذلك العصر دليل الغنى والثروة .

مثل ذلك القطران يسقى جميع أجزاء هذه الناقة كمثل الماء يسير فى طرقه ومجاريه ؛ ليسقى الحدائق والرياض ، قد زالت عنها أوراق الأشجار ؛ فالقطران يسير من أعلاها إلى أدناها ، فيتفرق على قوائمها وعنقها وذيلها وجميع أجزاء جسمها ؛ تفرق الماء يسير إلى الرياض من المرتفعات إلى الوهاد ، فيسقيها جميعها .

هل تلحقنى تلك الناقة العزيزة المكرمة بأخرى الظعائن اللائى ظعنّ ، وهى الظعينة التى علق بها قلبى ؟ ولم لا تفعل ؟ وهى ناقة قوية صلبة كأنها الصخرة نضب عنها الماء ، فبدت ناعمة ملساء ، وكأنها ــ وقد علا مشفرها وخدها ولحييها الزبد المختلط بخضرة العشب ــ قد غسلت بالخطمى .

بمثل تلك الناقة القوية الجلدة تقطع الفلوات ، وتجاب المفازات دون أن تباليها أو تخشى مجاهلها ؛ تلك المجاهل التى يصوّت فى أقطارها البوم ، ذلك الصوت المنكر الضئيل المختلس ، كأنه يخاف أن يسمعه صائد فيودى به ويقضى عليه ، وهى إذ تسير تراقب سوط راكبها ، وتنظر إليه بمؤخر عينها جلدة صبورا لا تشكو سيرا ، ولا تحس ضجراً ، مثلها فى النظرة الشزراء والطرف الحذر ؛ كمثل الثور الوحشى الطاوى الكشح ، الضامر الخصر ، المنقط الجسم ، يتوجس الشر ، فيسمع كل نأمة ، ويرهب كل حركة ، فهو لا يأمن كائنا ، ولا يصاحب مخلوقا .

النقد :

لم يقتضب علقمة فى قصيدته غزله كما اقتضبه سائر من اخترنا من شعرهم فى الوصف ، فقال طرفة : « وإنى لأمضى الهم عند احتضاره » وقال بشامة بن الغدير : « فقربت للرحل عيرانة » .

وقال المثقب العبدى : « حتى تلوفيت بلسكية » ، وقال زهير بن أبى سلمى : « وقفت بها رأد الضحاء مطيتى » ، وقال المسيب بن علس : « فتسل حاجتها إذا هى أعرضت » .

لم يفعل كما فعلوا وإنما مهد للوصف تمهيداً طريفا على غير عادة الجاهليين ، فقال : إن عينه مثلها كمثل الدلو تحمله ناقة دهماء قوية ، وقد مالت الدلو إلى أحد جانبيها فهى تسيل ، ثم انصرف إلى وصف تلك الدهماء .

وفى القطعة معان طريفة مخترعة لم يمر لها نظير فى شعر الخمسة الشعراء الذين قدمنا لهم نماذج فى وصف النوق ، فناقته عزيزة عليه عزتها على الآخرين ، ولكنه لا يرهقها كما فعل زهير ، بل :

قد عريت زمنا حتى استطف لها　　　كتر كحافة كير القين ملموم

قد أدبر العر عنها وهى شاملها　　　من ناصع القطران الصرف تدسيم

ومن الطريف تشبيهها فى صلابتها وملاسة جسمها بالصخرة الغليظة الضخمة يجرفها السيل ، فتبقى فى الماء دهراً فتزول خشونتها ، وتبقى لها قوتها ، فيقول :

هل تلحقنى بأخرى الحى إذ شحطوا　　　جلذية كأتان الضحل علكوم ؟

وهو يتخير الألفاظ الصلبة لمعانى الصلابة ، مثل : جلذية ، علكوم ، ضامزة ، كتر .

والقطعة على قصرها تدل على أن علقمة كان من مجيدى الوصف البارعين فيه ، فأى صورة كاملة للقطران يعم أجزاء الناقة أدق من تشبيهه بالماء يسيل من الروابى والنجاد إلى المنخفضات والوهاد ، فيصل جميع أجزاء الروض .

نظرة فاحصة عن معانى الشعراء فى وصف الناقة

هؤلاء الشعراء الستة الذين أردنا أن نجعل منهم عناوين لبقية شعراء هذا العصر فى وصف الناقة ليسوا بأشعرهم فى الوصف ، وليسوا بأفوقهم فى الشعر ، ولكننا اخترناهم ؛ لأنهم ينتسبون إلى قبائل متعددة ، و يعيشون فى أقاليم متباعدة ، و ينشئون فى عصور مختلفة وإن بدت متقاربة ، فطرفة كان ينتسب إلى بكر ، ويعيش فى البحرين وإن رحل منها إلى غيرها ، وكان بشامة بن الغدير غطفانيا ، ويعيش فى نجد ، والمثقب عبديا ، ويعيش فى العراق ، وكان زهير مزنيا ، ويعيش فى نجد ، والمسيب بن علس بكريا ، ويعيش فى العراق ، وكان علقمة الفحل تميميا ، ويعيش فى نجد ، وليس كون بعضهم متفقين فى الوطن أنهم متفقون فى الفكرة ؛ إذ كانوا جميعا ما عدا بشامة بن الغدير من الشعراء الرحالين ، وللرحلات أثر فى الأدب ؛ إذ ينهل الشاعر من البيئة التى يرحل إليها نهله من البيئة التى يرحل عنها ، هذا إلى أن العراق ونجدا إقليمان واسعان مختلفان اختلافا كبيرا فى نظم الحياة .

ونحن نرى هؤلاء الشعراء — ماعدا طرفة — يكادون يتشابهون فى المعانى التى أوردوها ، ولم نستثن طرفة لأنه لم يشاركهم فى معانيهم ، بل لأنه أورد معانى كثيرة اتسع لها طول وصفه ، وهم يعتمدون على الحس دون العطف الاعتماد كله ، وبخاصة حاستا السمع والنظر ، ولكنهم يتفاوتون فى الاعتماد عليهما ، فمنهم من يؤثر النظر ، ومنهم من يؤثر السمع ، وقلما يشيرون إلى الشعور الداخلى ، ومن ذلك القليل قول زهير :

تبادر أغوال العشى وتتـــقى علالة ملوىّ من القد محصد

فقد أشار إلى إحساسها وشعورها حينما يغطيهما الظلام ، ويغشاها الليل ، ولكنها مع ذلك إشارة عابرة ، ومنه قول علقمة :

بمثلها تقطع الموماة عن عرض إذا تبغم فى ظلمائه البـــــوم

فهو يشير إشارة مبهمة أو خفية إلى أنها تسعى جاهدة لتقطع هذه الموماة بعد أن بسط الليل جناحيه الأسودين ، يشعرنا بهذا الذى يعنيه قوله : تبغم فهى وحدها الموحية بهذا الشعور .

ومع تباعد أوطانهم وأنسابهم وأعمارهم تكاد معانيهم تنبع من معين واحد ، فكلهم وصف ناقته بالصلابة والقوة ، فقال طرفة :

أمون كألواح الإران نسأتها   على لاحب كأنه ظهر برجد

وقال بشامة بن الغدير :

فقربت للرحل عيرانة   عذافرة عنتريسا ذمولا

وقال المثقب العبدى :

عرفاء وجناء جمالية   مكربة أرساغها جلعد

وقال زهير بن أبى سلمى :

جمالية لم يبق سيرى ورحلتى   على ظهرها من نيها غير محفد

وقال المسيب بن علس :

صكاء ذعلبة إذا استدبرتها   حَرَج إذا استقبلتها هلواع

وقال علقمة الفحل :

هل تلحقنى بأخرى الحى إذ شحطوا   جلذية كأتان الضحل علكوم؟

وقال أيضا :

فالعين منى كأن غرب تحط به   دهماء حاركها بالقتب محزوم

وقد استنبطت قوتها من كلمة دهماء ؛ إذ الإبل الدهم معروفة بالقوة والسرعة ، فهو فى تناوله هذا المعنى غير المسيب بن علس الذى نعتها بنعوت القوة كصكاء وحرج ، فالصكاء القوية ، والحرج الطويلة ، وكلاهما غير زهير الذى صورها جملا ، وهو دون شك أقوى من الناقة وأبسط جسما ، وثلاثتهم أقل من المثقب العبدى الذى وصفها بأنها عرفاء ، ووجناء ، وجمالية ، وبأنها مكربة وجلعد الأرساغ ، فهذه خمسة نعوت كل نعت منها يشعر بالقوة والصلابة ، أما بشامة فيصف قوتها فى بيتين متتابعين :

فقربت للرحل عيرانة   عذافرة عنتريسا ذمولا
مداخلة الخلق مضبورة   إذا أخذ الحاقفات المقيلا

فنبات الربا فى الحدائق التى توالى عليه المطر أنعم وأجود من سواه ، ولا يعرفه من يعيش فى صحارى الأحقاف أو فى النفود أو فى الدهناء ، ثم جمعه الحدائق يدل على كثرتها وانتشارها ، ومثل قوله :

لها فخذان أكمل النحض فيهما كأنهما بابا منيف ممرد

فتشبيه الفخذين ببابى القصر المنيف دليل مدنيتهم ؛ حتى إنهم يشيدون قصورا ممردة متعددة الأبواب ، وتستطيع أن تتتبع أبيات القصيدة لتجد دلائل الحضارة ومظاهر المدنية واضحة ساطعة ، وتجد أثر الحضارة فى تشبيه آثار ارتطام الحصى بأرساغ الناقة بالغناء فى قول المثقب :

تسمع تعزافا له رنة فى باطن الوادى وفى القردد

وفى قول المسيب :

وإذا تعاورت الحصى أخفافها دوى نواديه بظهر القاع

أما آثار الثقافة فى شعر طرفة فمظاهرها كثيرة كذلك ، ومنها قوله :

كقنطرة الرومى أقسم ربها لتكتنفن حتى تشاد بقرمد

فهو قد أشعرنا بأن الروم يحسنون البناء ، ويجيدون فن الهندسة ، وقوله :

وخد كقرطاس الشآمى ومشفر كسبت اليمانى قدّه لم يحرد

ففى هذا البيت صورة لقرطاس الشآمى ، فهو رقيق أبيض عريض ؛ لأنه يريد وصف خد الناقة بهذه الصفات ، ولأن هذه الصفات من أسباب الجمال فى النوق والمشفر كسبت اليمانى نستشعر منه أن سبت اليمانى أحمر لين مستقيم ؛ لأن هذه صفات المشفر الجميل ، وقوله :

وعينان كالماويتين استكنتا بكهفى حجاجى صخرة قلت مورد

فتشبيه العين بالمرآة يدل على ثقافة وحضارة ؛ إذ هو يعرف فى المرآة الصفاء ، وكثرة العرب تشبه العين بالنبع ، أو النبع بالعين ، أما تشبيهها بالمرآة فلا .

على أنه لا ينسى البادية بل يذكرها ، فألفاظه فى جملتها من أجزل ألفاظ البادية ، والكثير من معانيه وتشبيهاته وكناياته أضفت عليه البادية الكثير من القوة والرصانة ، وذلك كقوله :

تريع إلى صوت المهيب وتتقى   بذى خصل روعات أكلف ملبد

فهذه الكنايات فى البيت من ملاحظات أهل البادية ، وكقوله :

كأن كناسى ضالة يكنفانها   وأطر قسى تحت صلب مؤيد

لها مرفقان أفتلان كأنما   تمر بسلمى دالج متشـــدد

كلها من إملاء البيئة البدوية التى لا تشوبها شائبة من الحضارة ، فإن القسى من أدوات الغابة لا من نبات الحديقة .

وهذا الذى ذكرناه عن طرفة يذكر بعضه عن الشاعرين الآخرين المنتسبين إلى العراق، ونقول بعضه لأنهما لم يطيلا كما أطال ، ولم يكن لهما ماله فى ذلك المجال ، وإن يكن لهما من الصور الشعرية ما يملأ النفس روعة ، كقول المثقب العبدى :

كأنما أوب يديهـــا إلى   حيزومها فـــوق حصى الفدفد

نوح ابنة الجون على هالك   تندبه رافعــــــة المجلد

فهذه صورة واضحة كاملة لحركة القائمتين الأماميتين لا تنقصها ألوان ولا خفقان ، وهذه النغمة الموسيقية التى تصورها المسيب بن علس فأحسن تصويرها لا يمكن أن نغض من شأنها بالإشارة إليها دون عرضها ، وهى قوله :

وإذا تعاورت الحصى أخفافها   دوى نواديه بظهـــر القاع

أما الشعراء النجديون وهم بشامة وزهير وعلقمة ، فمع أن اثنين منهم كانا حكيمين ، والحكمة توحى إلى صاحبها بالرقة والسهولة ، واللين والسماحة فإنك تشعر أن للبيئة فيهما مالها فى غيرهما ، فاستمع إلى هذا البيت ينشده رجل هو قعيدة بيته ، وحكيم قبيلته، وهو بشامة بن الغدير :

فقربت للرحــــل عيرانةً   عذافرة عنتريسا ذمـــولا

أربع كلمات كأنها منحوتة من الصخور فى بيت واحد ، ولو أنها وزعت فى إحدى المطولات لألبستها شملة الأعراب ، ثم قوله .

لها قرد تامك نيـــه   تزل الولية عنـــه زليلا

أما تلميذه زهير ؛ فشأنه هو شأنه المعروف رقة لفظ وعذوبة أسلوب ، فإن خرج عن طبعه فلأن الكلمة التى قهر عليها مما لا يغنى عنها غيرها ، أو لأن الشعراء جرت بها ألسنتهم ، فصارت كالجزء من وصف الناقة ، وذلك كقردد وجلعد ، ومزءودة ، فأما علقمة فقد كان شعره جميعه منخولا مصفى ؛ حتى أخبر عنه حماد الراوية قال : « كانت العرب تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوا منها كان مقبولا ، وما ردوا منها كان مردوداً ، فقدم عليهم علقمة بن عبدة فأنشدهم القصيدة التى منها هذه الأبيات ، فقالوا : هذه سمط الدهر ، وكان الفرزدق يقول عنه :

والفحل علقمة الذى كانت له حلل الملوك كلامه يتنخل

وقد قدمنا أنه كثير الرحلات فلعل هذا من أسباب رقة شعره ، و يعجبنا منه ذلك الخيال فى قوله يصف مسيل القطران الخالص على أطراف الناقة :

تسقى مذانب قد زالت عصيفتها حدورها من أتىّ الماء مطموم

فالقطران لا يجدى الجدوى كلها إلا إذا كان جسم الناقة خاليا من الشعر ، وهو ما أشار إليه بقوله : « قد زالت عصيفتها » وقوله فى وصف خضرة مشفرها من أثر الرعى :

كأن غسلة خطمى بمشفرها فى الخد منها وفى اللحيين تلغيم

كما يعجبنا قول زهير فى وصف عرقها خلف أذنيها :

وتنضح ذفراها بجون كأنه عصيم كحيل فى المراجل معقد

فهذا الوصف لعرق الإبل الذى يتحدثون عنه بأنه أسود فى أول أمره ، ثم ما يلبث أن يصفر حتى يصير كالقطران المطبوخ تشبيه دقيق يدل على علم بدقائق حياة الإبل .

و بعد فهذه نظرات فاحصة قد تكون إلى الإيجاز أقرب منها إلى الإطناب ، ولكنها مع ذلك محصية مستقصية ، فهى إتمام لما بدأناه فى تحليل القطع الست ، و إيفاء لما قد نكون عبرناه عبراً ، و إيحاء إلى من يريد أن يتبين أصول وصف الناقة فى العصر الجاهلى ، وحسبك من الزاد ما بلغك المحل ، ومن النقد ما رسم لك الطريق .

(ب) وصف الفرس

١ — قال امرؤ القيس * من معلقته :

وقد أغتَدِى والطيرُ فى وُكُناتها بمنجردٍ قيدِ الأوابدِ هيكلِ [(١)]

مِكرٍّ مِفرٍّ ، مُقبلٍ مُدبرٍ معاً كجُلمودِ صخرٍ حطَّه السيلُ من عَلِ [(٢)]

كُميتٍ يَزِلُّ اللبدُ عن حال متنه كما زَلتِ الصَّفواء بالمُتنزَّلِ [(٣)]

على الذَّبلِ جياشٍ كأنَّ اهتزامه إذا جاش فيه حميُه غلْىُ مِرْجَلِ [(٤)]

مِسَحٍّ إذا ماالسَّابحاتُ على الوَنَى أثَرْنَ الغُبارَ بالكديد المُرَكَّلِ [(٥)]

٢١٨ : يَزِلُّ الغُلامُ الخِفُّ عن صهواته ويَلوى بأثواب العنيف المُثَقَّلِ [(٦)]

---

* ترجمة الشاعر : هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو الكندى ، زعيم شعراء العصر الجاهلى، بما اخترع من معان بقيت مادة الشعر والشعراء عصورا ، وبما أنشأ من صور لونها، فلم يمح ألوانها مرور الدهور ، وبما ابتكر من أساليب ذات طراز طريف خالد ، وبما ابتدع من تشبيهات واستعارات وكنايات هى آية الآيات فى الروعة والجمال ، فى الشعر القديم والحديث ، وأسنى شعره غزله ووصفه ، لأنهما ينبعثان عن نفس جياشة صافية ، توفى حوالى سنة ٥٣٩ م .

التفسير اللغوى : (١) أغتدى : أخرج غدوة للصيد ، والغدوة أول ساعات النهار . وكناتها : جمع وكنة وهى الأوكار ، والوكنات فى الجبال كالتماريد فى السهول ، والتمراد برج الحمام . بمنجرد : بفرس قصير الشعر . قيد الأوابد : مقيد للوحوش الآبدة النافرة . هيكل : ضخم . (٢) مكر مفر : كثير الكر والفر ، مقبل مدبر : حسن الإقبال والإدبار . كجلمود صخر : كصلب الصخر . حطه : أسقطه .

(٣) كميت : أحمر مائل إلى السواد . يزل : يسقط . حال متنه : موضع ظهره . الصفواء : الصخرة الملساء . بالمتنزل : بالسيل المتدافع . (٤) الذبل : الضمور . جياش : مضطرب اضطراب الماء المغلى . اهتزامه : صوته . حميه : غليه . المرجل : القدر الكبيرة .

(٥) مسح : عداء، من سح السحاب المطر إذا صبه . السابحات : وصف للخيل تبسط يديها فى جريها كما يبسطهما السابح . الونى : البطء والفتور . الكديد : الأرض الصلبة المطمئنة . المركل : الذى يركل بالرجل مرة بعد مرة .

(٦) يزل : يزلق . الخف : الخفيف . الصهوات : جمع صهوة مقعد الفارس من ظهر الفرس . يلوى : يرمى يميناً وشمالا وفوقا . العنيف : الفارس الحاذق . المثقل : الثقيل .

دريرٍ كخُذرُوفِ الوليـــــدِ أمَرَّهُ	تتابُعُ كفيه بخيطٍ مُوَصَّـــلِ (٧)
له أيطلا ظبي ، وســـــاقا نعامةٍ	وإرخاء سِرْحانٍ ، وتقريبُ تتفُلِ (٨)
ضليعٍ إذا اســـــتدبرتَهُ سدَّ فرجَه	بضافٍ فُويق الأرضِ ليس بأعزلِ (٩)
كأنَّ سراتَه لدى البيتِ قائمًا	مَداكُ عروسٍ أو صَـلاَيَةُ حنظَلِ (١٠)
كأنَّ دماءَ الهادياتِ بِنَــحره	عُصارةُ حنَّاء بِشَيْبٍ مُرَجَّـــلِ (١١)
فعنَّ لنا سربٌ كأنَّ نِعاجَــــه	عَذارَى دَوَارٍ في مُـلاءٍ مُذيَّلِ (١٢)
فأدْبرن كالجزعِ المفصَّـــلِ بينه	بجيدٍ مُعِمٍّ في العشـــيرةِ مُخْوِلِ (١٣)
فألحقنا بالهــــادياتِ ودونَه	جَواحِــرها في صَرَّةٍ لم تَزَيَّلِ (١٤)
٢٢٧ : فعادَى عِداءً بين ثورٍ ونعجةٍ	دِراكًا ولم يُنضَحْ بماءٍ فيُغسَلِ (١٥)

(٧) درير : مستدر في العدو . الخذروف : الخرارة ، وهي حصاة مثقوبة يجعل فيها الصبيان خيطا ويديرونها فيسمع صوت ودوي لسرعة دورانها . أمره : أحكم فتله. تتابع كفيه : بسرعة إدارة تلك الحصاة . (٨) أيطلا ظبي : خاصرتا غزال . إرخاء سرحان : عدو ذئب ، والإرخاء نوع من جريه. تقريب : وضع الرجلين موضع اليدين في العدو. التتفل : ولد الثعلب .

(٩) ضليع : عظيم الأضلاع . استدبر الشيء : نظر إلى مؤخره . الفرج : الفضاء بين الفخذين . بضاف : بذيل سابغ مغط . فويق : تصغير فوق للتقريب، كأنه قال : بضاف قريب من الأرض . الأعزل : الذي يميل عظم ذنبه على أحد الشقين .

(١٠) سراته : ظهره . المداك : الحجر الذي يدك به الطيب ونحوه . الصلاية : الحجر الأملس الذي يدق فيه أو عليه . الحنظل : نبت مر . (١١) الهاديات : السابقات من كل شيء ، ويريد هنا المتقدمات من طرائد الصيد . بنحره : بعنقه . مرجل : مسرح .

(١٢) عن : اعترض . السرب : القطيع من البقر الوحشي . العذارى : جمع عذراء الأبكار ، ويعني أنهن فتيات قويات . دوار : اسم صنم كان الجاهليون يدورون حوله تشبها بالطائفين حول الكعبة . الملاء : جمع ملاءة الملاحف ، ولا تسمى ملاءة إلا إذا كانت لفقين مذيل : أطيل ذيله . (١٣) الجزع : الخرز اليماني فيه سواد وبياض . المفصل : المنظم بغيره من الجواهر . بجيد : بعنق . معم : كريم الأعمام . مخول : كريم الأخوال .

(١٤) الجواحر : المتخلفات في جحورهن. الصرة : الجماعة . لم تزيل : لم تتفرق .

(١٥) فعادى عداء : فوالى الجرى موالاة . دراكا : مداركة ومتابعة . ينضح : يرشح .

تحليل الأبيات :

غنّى امرؤ القيس فى معلقته الخالدة خلود الفن والأدب بواحد وخمسين بيتا أودع فيها ألوانا من الفن ، وأفانين من الجمال ، مختلفة مؤتلفة ، مختلفة لاختلاف أصواتها ، مؤتلفة لائتلاف أوصافها ، فهى جميلة رائعة ، سواء أكانت فى وصف الأطلال أم فى وصف أمّ الحويرث ، أم فى وصف يوم بدارة جلجل ، أم فى ذلك الحوار الأخاذ بالألباب بينه و بين عنيزته ، أم فى وصف مغامراته فى سبيل حبه ، ومخاطراته ليقضى حق قلبه ، أم فى وصف الليل وهوله ، أم فى خدمته لآله وصحبه ، أم فى قطعه واديا كجوف العير تعوى فيه الذئاب ؟

أليست هذه كلها أصواتا مختلفة ، وألحانا متباينة ، ولـكنها مع هذا متسقة المعانى ، متسامية الخيال ؟ و إذن فهى مختلفة مؤتلفة .

والشاعر لم ينبهر لطول الغناء ، ولم يبحّ صوته لـكثرة الإنشاد ، بل زاده ذلك جلاء ووضوحا ، وحسن نغمة ، وجمال ترجيع ، فأخذ يغنى بمحاسن جواده .

وامرؤ القيس الشاعر هو امرؤ القيس الفارس الذى صادق الخيل فتى وشابا ، ورجلا وكهلا ، الذى صادقها فى لهوه وجده ، وسلمه وحر به ، وصيده وطرده ، فكانا الـكر يمين فى صداقتهما ، وفاء فى الشدة والرخاء ، وصفاء فى السراء والضراء ، فليس غر يبا أن يغنى بمحاسن جواده خمسة عشر بيتا ، فيقول :

قد أغدو بكرة مرحا نشيطا ، وأى نشاط أوفر من نشاط أسبق به رمز النشاط ، أسبق به الطيور التى لا تزال فى وكراتها لمّـا تصح لتشقشق وتغرد ، أغدو معتليا صهوة جواد كريم ، قد انحسر شعره لوفرة سمنه ، جواد ماض لا يقف فى طريقه كائن ؛ حتى إنه ليقيد بسرعته الوحوش الآبدة ، فما تستطيع حراكا ، وهو الفرس النهد العظيم ، المـكر فلا يسبق ، المفر فلا يلحق ، المقبل حين تريد إقباله فلا يصد ، المدبر إذا رغبت فى إدباره فلا يرد ، وهذه الصفات متجمعة فى قوته ، لا أنه يأتيها جميعها ، كأنه فى سرعته وصلابته حجر عظيم أسقطه السيل الزاحف ، من السمو إلى الهوى ، هذا الفرس الـكميت الضخم الجسم ، المـكتنز اللحم ؛ حتى ليسقط اللبد عن أوسط ظهره سقوط الصخرة الملساء بالمطر

الماطل ، وهو ضامر ذابل كثير الجيشان ؛ حتى لتخال تكسر صوته إذا حمى فى عدوه جيشان الماء فى المرجل .

يصب هذا الجواد عدوه صبا ، فيأتى بأفانين تتيح له السبق ، فى الوقت الذى أدرك الجياد السابحات الونى والكلال، ويبدو ذلك الإعياء من أنها تثير من الأرض الصلبة الغبار، يزلق الغلام النحيف الخفيف الذى لم يدرب على الفروسية عن صهوته ، ويرمى بأثواب الفارس العنيف الماهر الشديد فى جهات ثلاث ، يرمى بها إلى أعلى وإلى شمال وإلى يمين ، ، وهو يستدرّ عدوه ، ويوالى جريه كما تدر ذوات اللبن ضرعها إدراراً متتابعا ، أو هو فى تتابع أفانين سبقه كخذروف الصبى أحكم فتل خيطه ، وتتابعت كفاه فى إدارته بخيط قطع ثم وصل ، فهو كالخذروف يبدأ هادئا ، ثم يشتد شيئا فشيئا بين انبساط وانقباض .

ترى لذلك الفرس النهد خاصرتى ظبى ، وساقى نعامة قصيرتين صلبتين ، وسيرا كسير الذئب ليس بالشديد ولا البطىء ، وتقريبا فى سيره بين قوائمه كما يفعل ولد الثعلب عند مايسرع إذ تقع قدماه الخلفيتان مكان قدميه الأماميتين ، فهو قد أخذ من كل حيوان أجمل ما يتصف به ، فأخذ من الظبى خصره الضامر ، ومن النعامة ساقها القصيرة الصلبة ، ومن الذئب سيره المرخى ، ومن التتفل تقريب قوائمه فى سيرها .

وهو مع ضمور خصره عظيم الأضلاع ، ممتلئ الجنبين ؛ إذا تأملته مستدبراً رأيته يسد الفضاء الذى بين قائمتيه بذنبه الضافى السابغ الذى يكاد يصل إلى الأرض ، فى استقامة واستواء ، كأن ظهره الأملس حينما ينزع عنه سرجه قائما أمام البيت فى صفائه وملاسته مداك عروس أو صلاية حنظل ، واختياره مداك العروس ؛ لأنه دائم الطيب ، وصلاية الحنظل لأنه يسيل منها دهن فتلمع جوانب الصلاية وتبرق، وكذلك جلد الفرس فيه نصاعة وصفاء ، ولمعان وبريق .

هذا الفرس يقيد الأوابد ، ويدرك الهاديات الشوارد ، وفارسه حينئذ يطعنها طعنة

عميقة يتدفق منها الدم غزيرا ، فيضرج نحر ذلك الفرس الكريم ، فإذا هو كالشيب المرجل بالحناء ، لقد عرض لنا قطيع من البقر الوحشي هو آية الجمال ، وعنوان الحسن ، فظهورها بيض نواصع ، وقوائمها سود حوالك يشبهن فتيات عذراوات ، يملك صفاء بشرتهن القلوب ، وقد أسبغن على أرجلهن ملاء سودا ذوات أذيال سابغة ، ويختلن اختيال أولئك العذارى إذ يدرن حول صنم يقدسنه ويعظمنه ، وإذ هن فى تلك الحال اللأى بأسباب المسرة بدَوْت لهن ففزعن أعظم الفزع ، وأدبرن متفرقات ، وكن من حين متجمعات مختالات ، فبدون فى تفرقهن كالجزع سائره أبيض وأطرافه سود ، وقد فصل بعضه عن بعض بجوهر كريم ، يزدان به عنق غلام نبيل ، فهو كريم الأعمام والأخوال ، ولكن تفرقهن لم يغنهن شيئا ؛ إذ ألحقنا الجواد الكريم بالسوابق منهن ، وترك من خلفه الجواحر المتخلفات ، فإدراكه للأوائل كفيل باقتناص الأواخر .

وهى إذ تفرقت تفرقت جماعات ، فعادى بينها عداء ، ووالى الجرى موالاة ، بين ثيران ونعاج ، فأدركهن لم يجهده الإدراك ، ولا أشقاه العدو ، فلم يسل منه عرق ، فيغسل جسمه .

النقد :

والناظر فى هذه الخمسة عشر بيتا يجد ضروبا من الوصف رائعة ، وألوانا من الجمال فاتنة ، تشعُّ ألفاظها معانى أوسع مما تعارف عليه اللغويون ، وتصب معانيها صوراً لا يخلق مثلها المصورون ، بل هى ترسل وميضا تشعر به ولا تصوره ، فهى مفعمة بالصور الكاملة ، زاخرة بالحياة النابضة ، فكأنك حيالها فى ميدان أو فى حلبة فرسان .

أى حياة نابضة أوضح من حركة الكر والفر ، والإقبال والإدبار ؟ كلها فى شطر واحد ، إن هذه لا تصدر عن جواد فى لحظة ، ولكنها تلمح فى حلبة ، وإننا لنتخيل الصخرة العظيمة تسقط من شاهق ، فتمتلئُ القلوب من سقوطها هلعا ، قد نتصورها ، ولكننا نعجز عن تصور أثرها فيمن تسقط عليه ، إلا أننا نستشعره إذ نسمع : « كجلمود صخر حطه السيل من عل » .

وأى حياة خافقة نابضة أقوى من حياة تستقضيك جميع حواسك ، فترى منها وتسمع ، ولا تكتفى بالسمع والبصر ، بل تطالبك باللمس و بغير اللمس ؟ هذه الحياة تبدو فى قوله :

على الذبل جياش كأن اهتزامه   إذا جاش فيه حميه غلى مرجل

إن الألفاظ مع قوتها لا تغنيك شيئا كثيراً فى تصور « اهتزامه » ولا فى تصوير « غلى مرجل » وتخيل حيوانا يتألف من جملة أجزاء لعدة حيوانات ؛ حيوان له خصر كخصر الظبى ، وساق كساق النعامة ، وسير كسير الذئب ، وتقريب كتقريب التتفل ، أليس ذلك الحيوان سيكون نوعا فريدا بين سائر أنواع الحيوان ؟

و إنك لتتخيل الغلام الغر بالفروسية يعتلى صهوته ؛ بل صهواته ، وفرق بعيد بين اللفظين و إن أديا معنى واحدا ، فإن هذا الجمع يشعر بالفخامة والضخامة ، والحول والهول ؛ حتى ليكاد الغلام يزل دون ركوب ، إنه لن يثبت على ذلك الفرس الجبار ذى الصهوات، لن يثبت عليه لا لجموحه فهو عتيق أصيل ، ولكن لاندفاعه فهو القوى الشديد ، وتتصور صورة ذلك الفارس العنيف العنيد تتطاير أثوابه ، فلا يستطيع جمعها ، فهو مشغول بجسمه عن ثوبه ، وتتصور أثوابه تتطاير فى جميع الجهات ، فكأنها جناحان لطائر جارح .

وتتخيل خرارة طفل قد أحكم فتل خيطها ، وأجاد اللعب بها ، إنك لا تستطيع أن تتبين الخذروف لسرعة دورانه ، ولتتابع حركة الصبى به .

وامرؤ القيس هو الشاعر الذى يستطيع — دون تكلف — أن يفعم قصائده بالصور المتكاملة الظلال ، فلنعدُ هذا النوع لنقف وقفة قصيرة عند نوع آخر تظهر فيه عبقريته .

الدقة فى التعبير سمة امرئ القيس الظاهرة ، وآيته السافرة ، فتأمل هذا البيت :

كميت يزل اللبد عن حال متنه   كما زلت الصفواء بالمتنزل

فحال متنه وسط ظهره ، وهنا تبدو الدقة ، فقد يزل اللبد لأنه لا يتوسط الظهر ، ولكنه وقد توسطه لا يزل إلا لملامسة ظهره ، واكتناز لحمه ، ومثل :

مسحّ إذا ما السابحات على الونى   أثرن الغبار بالكديد المركل

فقد يثور الغبار إذا كانت الأرض رملية أو مترية أو سهلة ، وليس فى ثورانه حينئذ مايدل على الونى أو الكلال ، وإنما الذى يدل عليهما هو إثارة الغبار من الكديد ، ومثل :

ضليع إذا استدبرته سدّ فرجه   بضاف فويق الأرض ليس بأعزل

قد يكون الذيل ضافيا سابغا ولكنه معيب ؛ لأن صاحبه يتعثر فيه لطوله فى عدوه ، ولذلك احترس من هذا المعنى بقوله : « فويق » دون فوق لتفيد قربه من الأرض دون ضفوه عليها .

وتستطيع متابعة التأمل لتحكم بأن الدقة يراعيها كل المراعاة ذلك الشاعر الذى حكم له بأنه استنبط للشعراء معانى ، وفتح لهم فى الشعر منابع وعيونا .

وليس عجبا على امرئ القيس أن ينال زعامة الشعر ، وأن تكون أقوى أسباب زعامته وصف فرسه ، فقد صاحبه من مهده إلى لحده ، و بين الصاحبين مجاوبة هى أقوى عوامل الإجادة والإحسان .



٢ — وقال بشر بن أبي خازم * من قصيدة أولها :

أَلا بان الخليـــــطُ ولم يُزاروا وقلبُكَ في الظَّعائِنِ مســـتعارُ[١]

فأبلغْ إن عرضتَ بنا رســـولاً كنانةَ قومَنا في حيثُ سارُوا[٢]

كَفَيْنا من تغيَّبَ واســـتبَحْنا سنامَ الأرضِ إذ قحِطَ القِطارُ[٣]

بكلِّ قيادِ مُسنِفَةٍ عَنـــودٍ أضرَّ بها المَسالِحُ والغِـــوارُ[٤]

مُهارشـــةِ العنانِ كأنَّ فيها جَرادَةَ هَبْوةٍ فيها اصـــفرارُ[٥]

٢٣٣: كأنِّي بين خافِيـــتَيْ عُقَابٍ تقلِّبُنى إذا ابْتلَّ العِـــذارُ[٦]

---

* ترجمة الشاعر : هو بشر بن أبي خازم بن عمرو بن عوف شاعر مجيد وفارس مغوار ، وهو ينتسب إلى بنى أسد ، وقد كان يهجو أوس بن لأم الطائى هجاء مقذعا حتى ذكر فى هجائه أمه ، فتحين له أوس الفرص حتى أسره فى إحدى حروبه مع طيئ ، وكان أوس قد أهدر دمه إن مكن الله منه ، فقالت له أمه : خل الرجل فإنه لا يمحو ما قاله غير لسانه ، فعفا عنه ، فجعل بشر مكان كل قصيدة هجاء قصيدة مدح ، توفى حوالى سنة ٥٣٠ م .

التفسير اللغوى : (١) بان : بعد . الخليط : المخالط أو المخالطون يطلق على المفرد والجمع ، وهم الأحباء . الظعائن : جمع ظعينة ، وهى الإبل فوقها الهوادج فيها النساء . مستعار : مأخوذ منك معهن .

(٢) عرضت بنا : تحدثت عنا . رسولا : رسالة . قومنا : بدل من كنانة .

(٣) كفينا : حمينا . استبحنا : جعلناها مباحة لا أحد يحميها ، سنام الأرض : نجدها . قحط القطار : قل المطر ، ونضب الغيث ، فأجدبت الأرض وأمحلت .

(٤) قياد : عنان . المسنفة : الفرس شد عليه السناف ، وهو لبب يشد من وراء السرج . إلى صدر الفرس لئلا يتأخر السرج . العنود : التى تعاند الفارس فتأبى إلا قطعه . المسالح : المراقب والثغور . الغوار : الغارة ، وهو مصدر لغاور .

(٥) المهارشة : المقاتلة . العنان : جلد اللجام ، وتقاتله لنشاطها ومرحها . الهبوة : الغبرة ، وخص جرادة الهبوة لأنها أشد طيرانا ، ثم خص الأصفر ، لأنه ذكر الجراد ، وهو أخف من الأنثى فى الطيران .

(٦) الخافية : جمعها خواف الريش الصغير ، وضدها القوادم . عقاب : نسر . ابتل العذار : كناية عن العرق ، والعذار : الشعر الذى يحاذى الأذن .

نَسُوفٍ للحِـــــزامِ بمِرفقَيْها يَسُـــدُّ خُواء طُبيَيها الغُبارُ(٧)

تراها من يبيسِ الماء شُهبًا مُخالِطَ درَّة منها غِــــرارُ(٨)

بِكل قرارةٍ من حيثُ جالتْ رَكِيَّةُ سُــنبُكٍ فيها انهيارُ(٩)

كأنَّ حفيف مُنخُــــرِه إذا ما كتمن الرَّبْو كير مُســتعارُ(١٠)

وجـــدنا فى كتابِ بنى تميم « أحقُّ الخيل بالركضِ المُعارُ »(١١)

يُضَمَّرُ بالأصــــائل فهو نهد أقبُّ مقلِّص فيــه اقورارُ(١٢)

كأنَّ سَراتَه ، والخيْلُ شُــعثٌ غَــــداةَ وَجِيفها مَسدٌ مُغارُ(١٣)

٢٤١: يَظَـــلُّ يعارِضُ الرُّكبان يَهفُو كأنَّ بياض غُرَّته خِمــارُ(١٤)

---

(٧) نسوف : دفوع . خواء : خلاء طبييها : مثنى طبى ، وهو من الفرس ما يشبه الخلف من الإبل ، والضرع من ذى الخف .

(٨) يبيس الماء : متجمده ، ويقصد جاف العرق . شهبا : بيضا . الدرة : كثرة العرق . والغرار : قلته .

(٩) القرارة : الأرض المطمئنة . الركية : موضع حافر فى الأرض ، وأصلها البئر . السنبك : مقدم حافر الفرس . انهيار : سقوط .

(١٠) الحفيف : صوت نفس الفرس . المنخر من الفرس ما يشبه الأنف من الإنسان . الربو : النفس المرتفع . الكير : المنفاخ الذى ينفخ به الحداد ناره . مستعار : مأخوذ ثم يرد . أو متداول من تعاوروا الشىء إذا تبادلوه .

(١١) الركض : دفع الفرس للعدو . المعار : المضمر ، أو المنتوف الذنب ، أو المسمن ، أو المتروك دون قيد حرآ ، وكلها تصلح لأنها دليل العناية به .

(١٢) يضمر : يصير ضامرا . الأصائل: جمع أصيل، وهوالوقت بعد العصر وقبيل المغرب. نهد : قوى ضخم . أقب : ضامر البطن . المقلص: المشمرالطويل القوائم . الاقورار : الضمور.

(١٣) سراته : أعلاه ، ويقصد ظهره . شعث : جمع أشعث ، مغبرة . غداة : صبيحة . وجيفها: إسراعها . مسد مغار : حبل مفتول محكم الفتل .

(١٤) يظل : يستمر سائر النهار كله . يعارض الركبان : يبارى الخيول وينافسها. يهفو : يسرع . الغرة : البياض فى جبهة الفرس . الخمار : القناع .

تحليل الأبيات :

يتحسر بشر حسرة موجعة أن رحل عنه خلطاؤه . وفارقه خلصاؤه دون أن يهيئ له الدهر السعادة بمرآهم ، فقلبه قد استعارته هذه الظعائن ، ثم يسير مسيراً طويلا فى عرض حنينه ، ونعت وجده ، ووصف جمال هؤلاء الظعائن ، ومن ثم ينتقل إلى أغراض أخر تصل به إلى وصف فرسه فيقول :

أبلغ أيها الخليل إن تحدثت عنا ، وجرى على لسانك ذكرنا لدى قومنا بنى كنانة ، حيث اتجهوا وساروا ، وكيفما كانوا وصاروا ، أننا كفينا من تغيب منهم مئونة الحرب ، وتحملنا دونهم أعباء القتال ، وأننا استبحنا حرم المجد ، واستفتحنا سنام الأرض ؛ إذ الغيث ضنين ، والمطر بخيل ، والقطار لايعطى ولا يجود ؛ فالناس فى قحط وإعدام ، والقوم فى جدب وإمحال ، نحن حينئذ نقتحم كل منيع ، ونبلغ كل حصن حصين ، فننزل حيثما يغيض الماء ، ويقحط المطر حيث نشاء ، بكل فرس جواد قد شدّ لها السناف ، حتى لايسقط عنها سرجها عندما يغلى مرجلها ويشتد عدوها ، وهى عنود للأرض ، مطواعة للفارس ، فتأبى فى عنادها إلا أن تطوى الأرض طيا مهما يطل الأمد ، وتتسع الشقة ، وهى فرس كريمة قد اختيرت لحماية الثغور ، ومراقبة المسالح حتى أضنتها ، وانتخبت للمرابطة عند الحدود حتى أضرتها ، وعودت شن الغارات حتى تعودتها ، هى آية فى النشاط حتى إنها لتعارك العنان ، وتعرك اللجام ، تريد كراً وفراً ، وفارسها يبغى منها سكوناً وانتظاراً ، فهواهما مختلف ، فهما فى عراك مستمر ، كأن أعضاءها يسكنها ذكر الجراد ، فهو لايفتأ طائراً وما يزال متوثباً ، كأنى حينما أعتلى صهوتها ، وأمتطى متنها ، وتأخذ فى العدو حتى يجرى حميمها ، ويسيل عرقها فيبتل عذارها ، كأنى أمتطى خافيتى عقاب ، تميل بى كل الميل ، تدفع بمرفقيها حزامها حينما تشتد فى السبح بيديها ، فيسد ما بين طبييها الغبار الثائر من بين سنابكها .

ترى الخيل التى منها فرسى تلك حينما يجف عرقها فوق أجزاء جسمها ، وقد خالط

كثيره قليله ، وامتزج غامره بغزاره ؛ تراها بيضا لوامع ، وشهبا سواطع ؛ إذا سارت تلك الخيول فى أرض سهلة مطمئنة أثرت فيها سنابكها الصلاب تأثيرا بالغا ، حتى لتبدو هذه الآثار كالحفائر المنهارة ، أو الآبار المطمورة ، وكأن صوت ذلك الفرس عندما يشتد عدوه ، وتكتم الخيول أنفاسها فى مناخرها كير حداد قد استعاره مستعير ، فهو شديد الحرص على أن يرده إلى صاحبه فور وقته ، فهو ينفخ فيه بشدة ، ليقضى به حاجته قبل أن يضطر إلى رده لصاحبه .

ونحن نسمن خيلنا ، ونكرم أفراسنا ، حتى تكون على العدو فى الحرب قوية الإغارة ، وتظهر قديرة على الركض ، فقد نقل عن بنى تميم أن أجدر الخيل بالركض المضمرة المسمنة ، وهو يشير بهذا إلى قول أحد شعراء بنى تميم القدامى :

أعيروا خيلكم ثم اركضوها   أحق الخيل بالركض المعار

فرسى هذا موضع عنايتى ، ومحل تكريمى ، فأنا أضمره أصيل كل يوم ، وهو نهد ضخم ، ضامر البطن مشمر القوائم ، كأن ظهره وقد اغبرت شعور الخيل ، وتشعثت أعرافها من طول السفر ، وتغيرت ألوانها من غبار الطريق ساعة سيرها السريع ، كأن ظهره حبل شديد الفتل محكم البرم ، يشبهه فى شدته وامتداده ، واملاسه واستوائه ، يظل يومه الأطول يعارض كرائم الخيل ، و يبارى المذاكى العتاق ، فهو يهفو ليسبقها ، و يعدو ليبذها ، هو وضاح الغرة ، مشرق الجبهة ، كأن غرته الخمار الأبيض يغطى رأس المليحة الغيداء .

النقد :

بشر فى هذه الأبيات يتفق مع امرىء القيس وقد كانا متعاصرين فى بعض معانيه ، ويختلف معه فى البعض الآخر ، ولكنه على أى حال لايبلغ مبلغه ، ولا يعدو فى طلقه ، وإن تكن المعانى التى انفرد بها بشر معانى جيدة، منها : الطريف المبتدع، والجميل المخترع ، وهذه نظرة فاحصة لذلك الذى أجملناه :

قال امرؤ القيس فى وصف جيشان جواده عند عدوه :

على الذبل جياش كأن اهتزامه إذا جاش فيه حميه غلى مرجل

وقال بشر :

كأن حفيف منخره إذا ما كتمن الربو كير مستعار

و بيت امرئ القيس أدق فى الوصف والتصوير ، فألفاظه تكاد تشعرك بصوت الشهيق والزفير اللذين يصدران عن الفرس عنـدما يشتد عدوه ؛ فقد جمع امرؤ القيس فى بيت واحد بين جياش ، واهتزام ، وحميه ، وغلى ، ومرجل ، وكل هذه الألفاظ توحى بالصورة التى يريدها الشاعر ، فوق أنه وصفه فى أول البيت بالضمور ، و إسناد الجيشان إليه مع الضمور فيه يقظة حسية . فقد يكون مبعث الجيشان الضخامة والسمنة والاكتناز ، أو الهرم ، أو غيرها .

أما بيت بشر فإنه و إن يكن دون بيت امرئ القيس ، فإن فيه حسنا مبعثه الإشارة إلى توالى التنفس وتتابعه بقوله : « كير مستعار » ولـكنه على أىّ دون بيت امرئ القيس، والبون بينهما شاسع .

ومن المعانى التى اتفقا فيها وصف الفرس بالملاسة والصلابة ، فقال امرؤ القيس :

كأن سراته لدى البيت قائمـا مداك عروس أو صـلاية حنظل

وقال بشر :

كأن سراته والخيل شـعث غـــداة وجيفها مسد مغار

وكلا البيتين يشتمل على معان غير الملامسة ، فامرؤ القيس وصف الظهر بالصفاء ، ولم يرد هذا المعنى فى بيت بشر لأن المسد لايوصف بالصفاء ، وأشعرنا بطيب ريحه بنسبة المداك إلى العروس ، و باللمعان بنسبة الصلاية إلى الحنظل ، وجميع هذا خلا منه بيت بشر ، ولاأظن أن من المستحسن أن يكون الظهر كالحبل المبرم المفتول ، فاستواء الحبل مهما أحكم فتله غير ملاحظ ، فهو ينثنى و ينطوى ، والجمال فى البيت يبدو فى قيد استقامة ظهره عند مباراته

الخيول الأخرى ؛ لأن الفرس حينئذ يشتدّ ظهره شدا قويا ، ووصف الخيل بأنها شعث أشعر بأن فرسه ليس كذلك لأنه يغسله ، وإن لم يواته اللفظ الدال على صفائه كما واتى امرأ القيس .

أما المعانى التى انفرد بها بشر ، وهى معان جميلة طريفة فمنها :

مهارشة العنان كأن فيها جرادة هبوة فيها اصفرار

كأنى بين خافيتى عقاب تقلبنى إذا ابتلّ العذار

فمن شأن كرائم الخيل أن تعلك لجامها ، وتشد عنانها كأنها تقاتله ، وعدم تشبيهها بالجرادة بأن جعل الجرادة جزءا من أجزائها معنى دقيق ، وعمق فى التصور ، ثم تصويره نفسه حينما يعتلى صهوتها بأنه بين خافيتى عقاب تصوير جميل، يشعر بأنه لا يأمن على نفسه ، وهو الفارس الجبار ، ومنها قوله :

نسوف للحزام بمرفقيها يسد خواء طبييها الغبار

ويشبهه قول سلمة بن الخرشب ، وسيرد فيما بعد :

إذا كان الحزام لقصريها أماما حيث يمتسك البريم

يدافع حد طبييها وحينا يعادله الجراء فيستقيم

وبيت بشر خير من بيتى سلمة ، وأوفى منهما معنى ، وأسلس لفظا .



٣ — وقال عنترة بن شداد العبسىّ * من قصيدة أولها :

عَجِبَتْ عُبيلةُ مِن فتًى متبذِّلِ عارى الأشاجعِ شاحبٍ كالمنصُلِ (١)

ولَرُبَّ مُشعلَةٍ وزعتُ رِعالهَا بمقلّص نهدِ المراكِل هيكلِ (٢)

سَلِس المُذَّرِ لاحقٍ أقرابُه مُتقلِّبٍ عبثاً بفأسِ المِسْحَلِ (٣)

نَهدِ القطاةِ ، كأنَّها من صخرةٍ ملساء يغشاها المَسِيل بِمَحْفِلِ (٤)

وكأنَّ هادِيَه إذا استقبلته جِذعُ أذِلٍ ، وكان غير مُذَلَّلِ (٥)

٢٤٧: وكأنَّ مَخرَجَ رُوحِه فى وجهه سربانِ كانا مُولجَيْنِ لجيألِ (٦)

---

* ترجمة الشاعر : هو عنترة بن عمرو بن شداد العبسى ، أحد فرسان العرب وأغربتهم وأجوادهم وشعرائهم ، وكانت أمه زبيبة أمة حبشية ، وأبوه من سادات بنى عبس ، وكانت العرب لا تلحق بأنسابها أبناء الإماء ، فبقى عنترة عبدا منبوذا حتى ظهرت فروسيته فى حرب داحس والغبراء ، فنسبه أبوه إليه وأصبح بعدئذ سيدا من سادات بنى عبس توفى سنة ٦١٥ م.

التفسير اللغوى : (١) عبيلة تصغير عبلة ، وهى ابنة عمه أحبها وشغفه حبها ، ولكنه حرمها ، فعاش حياته يفرد باسمها ويتغنى بحبها . متبذل : مستخف غير محتشم . الأشاجع : العروق المتصلة بأصول الأصابع . وفى عريها كناية عن الضعف والهزال . شاحب : متغير . المنصل : السيف .

(٢) المشعلة : وصف للكتيبة المتفرقة فى كل وجه . وزعت : فرقت . رعالها : جمع رعلة ، وهى القطعة من الخيل . بمقلص : بفرس طويل القوائم . نهد : ضخم جميل . المراكل: جمع مركل موضع ركل الفرس . هيكل : عظيم ضخم .

(٣) سلس : لين . المعذر : موضع العذار من كاهل الفرس . لاحق الأقراب : ضامر الخواصر . الفأس : الحديدة القائمة من اللجام فى حنك الفرس. المسحل: حلقة فى طرف الشكيمة .

(٤) نهد القطاة : عظيم العجز . يغشاها : ينزل بها. المسيل: مجرى الماء . بمحفل : بمجتمع الماء ، وفيهما كناية عن الاكتناز .

(٥) الهادى : العنق وجمعه هواد . أذل : سهل ونعم . غير مذلل : غير منعم ومسهل .

(٦) مخرج روحه : كناية عن فتحى منخره : سربان : مثنى سرب سردابان . مولجين : مدخلين . لجيأل : لضبع .

وكأنَّ متنيـــه إذا جرَّدتَه ... ونزعتَ عنه الجُلَّ متنا أيِّلِ[٧]

وله حوافرُ موثقٌ تركيبُها ... صُمُّ النُّسورِ كأنها مِن جندلِ[٨]

وله عسيبٌ ذو سبيبٍ سابغٍ ... مثلِ الرِّداء على الغنيِّ المُفضِلِ[٩]

سلِسُ العنانِ إلى القتال ، فعينهُ ... قبلاء شاخِصةٌ كعينِ الأحولِ[١٠]

وكأنَّ مِشيَتَهُ إذا نَهنَهتَه ... بالنَّكلِ مِشيةُ شاربٍ مُستعجِلِ[١١]

٢٥٣ : فعلَيه أقتحمُ الهِياجَ تقحُّمًا ... فيها وأنقضُّ انقضاضَ الأجدلِ[١٢]

(٧) متنيه : تثنية متن ، والمتن الظهر ، وهو هنا يريد جانبيه ؛ لأنهما يكتنفان صلب الظهر عن يمين وشمال . جردته : رنعت عنه الجلّ . الجل : ما يوضع فوق ظهر الفرس ليصان به ، وهو كالثوب للإنسان . الأيل : نوع من الظباء ، جانبا ظهره أملسان ناعمان ، وله قرون متشعبة لا تجويف فيها .

(٨) موثق : محكم . صم : جمع أصم ، وهو الصلد الصلب . النسور : جمع نسر ، والنسر لحمة فى باطن حافر الفرس . جندل : صخر صلد .

(٩) العسيب : هو أصل عظم الذنب ومنبت الشعر منه . ذو سبيب سابغ : له شعر ضاف طويل . الرداء : الثوب . المفضل : الزائد فى طول ردائه عن جسمه .

(١٠) سلس العنان : لين القياد، وهى كناية . قبلاء : ناظرة إلى أعلى ، ومثلها شاخصة . الأحول : الرجل ينحرف إنسان عينه إلى أحد الجانبين أو إلى أعلى ، وهو المراد هنا .

(١١) نهنهته : زجرته وكففته . بالنكل : بحديدة اللجام . شارب : يقصد سكران . مستعجل : مسرع .

(١٢) أقتحم : أخترق . الهياج : كناية عن الحرب ، وهو فى الأصل الثورة . تقحما : قويا مشتدا . أنقض : أثب . الأجدل : الصقر .

ساكنة فى صخرة أوفى أصل شجرة ، والمنخر فى رأس الفرس التى قد يكون فيها من أعضاء الجسم ما يشبه الثقوب والنتوء فى الصخرة ، ففيها العينان ، وفيها الأذنان ، وفيها العذار ، وفيها الشفتان ، وكل هذه تقرب شبه الرأس بالصخرة غير الملساء .

و بعد فعنترة دون امرئ القيس فى هذه الأبيات وفى غير هذه الأبيات ، ولـكنه يبذ بشراً فى هذه الأبيات وفى غير هذه الأبيات ، وليس بناقص من قدر عنترة أن يكون دون امرئ القيس ، فالعبقرى لا يعاب من لا يساويه ، وأين قول عنترة فى وصف ذيل فرسه ؟

وله عسيب ذو سبيب سـابغ مثل الرداء على الغـنى المفضل

من قول امرئ القيس :

ضليع إذا اسـتدبرته سدّ فرجه بضاف فويق الأرض ليس بأعـزل

إن وصف عنترة ناقص من وجوه عن بيت امرئ القيس :

أولا : إن رداء الغنى المفضل ينسحب على الأرض فيتعثر فيـه إلا إذا رفعه بيديه ، وهذا مااحترس منه امرؤ القيس إذ قال : « فويق الأرض » .

ثانيا : أن السبيب يخالف الرداء من نواح : فشعراته غير متساوية الطول ، ولو قال : إنه ثوب ذو أهداب لكان أقرب إلى السداد ، والثوب يبدو ضيقا من أعلى وواسعا من أدنى ، وليس ذلك شأن الذيل .

ثالثا : بيت امرئ القيس اشتمل على صفات ثلاث : فهو ضليع ، وهو ضافى الذيل ، وذيله مستو مستقيم ، فوق أنه أشعرنا بأنه كثيف لأنه يسد مابين ساقيه . وليس فى بيت عنترة شىء من ذاك .

هـذا إلى أن فى البيت صورة رجل وقف يتأمل فرسا من خلفه ، فهو يراه على الصورة التى رسمها ، ولـكن عنترة أحسن وصف شعور فرسه ، إذ صوره ناظرا إلى أعلى يتأمل فارسه ، وكأنه يريد أن يدفع عنه عوادى الزمن ، فهو متأهب لهذا الدفاع ، أشعرنا أن فرسه هـذا نبيل كريم ، وأن حياة فارسه أعز عليه من حياته ، فقد

لايتقى هو طعنة قد توجه إليه ، وهو شاخص ببصره إلى فارسه ، هذا إلى أنه يشارك فارسه فى ابتغاء النصر ، و إدراك الظفر .

أما اللغة فـكلها تنبع من عين واحدة ، ولا تكاد تجد فرقا كبيرا بينهما ، ولـكننا إذا أنعمنا النظر حكمنا بأن ألفاظ عنترة أرق من ألفاظ امرئ القيس ، مع أن حاليهما كانت تستأهل غير ذلك ، فعنترة من عبدان العرب وأغربتهم ، وامرؤ القيس من أواسـطهم وملوكهم ، وعنترة يجب أن يكون خشن الملمس ، غليظ القول ، وعكس هذا كان يجب لامرئ القيس .

وأرى أن الجاهليين ومقلديهم كانوا يؤثرون فى وصف الناقة والفرس وما يجرى مجراهما اللفظ الجزل ، فالعدول عن هذا انحراف عن مذهبهم ، ولا يعتبر مزية يمتاز بها صاحبها بل يعتبر ذلك قصوراً منه وعجزاً .



٤ — وقال سلمة بن الخرشب * من قصيدة أولها :

تَأوبَه خيالٌ من سُليمى كما يعتادُ ذَا الدَّيْنِ الغريمُ (١)

وُمختاضٍ تبيضُ الرُّبْدُ فيه تُحُومِىَ نبتُه فهو العَميمُ (٢)

غدوتُ بِهِ تُدافِعنى سَبوحٌ فَرَاشُ نُسُورِها عَجَمٌ جَرِيمُ (٣)

مِن المتلفتاتِ بجانبيها إذا مابلَّ مَحْزِمَها الحميمُ (٤)

إذا كان الحِزام لقُصْرَيَيْها أَمامًا حيثُ يمتسك البَرِيمُ (٥)

٢٥٩: يُدافِع حدَّ طُبْيِيها وحينا يُعادِله الجِراء فيستقيمُ (٦)

* ترجمة الشاعر : هو سلمة بن عمرو بن نصر بن حارثة الغطفانى ، ولقب أبيه الخرشب ومعناه الطويل ، وهو شاعر جاهلى ، ولكننا لم نقع له فيما بين أيدينا من كتب على ترجمة مطولة .

التفسير اللغوى : (١) تأوبه : راجعه . الخيال : الطيف . سليمى : محبوبته . يعتاد : يعاود . ذا الدين : المدين . الغريم : الدائن .

(٢) المختاض : الموضع الذى يخوض فيه الناس، لكثرة عشبه والتفاف نبته . الربد : مفرده ربداء ، وهى النعام . تحومى : تحاماه الناس فلم يرعوه خوفا . العميم : الكثير الشامل الملتف بعضه على بعض .

(٣) غدوت به : بكرت إليه . تدافعنى : تدفعنى . السبوح : الفرس التى تسبح بيديها ، كما يسبح الإنسان فى الماء . فراش نسورها : الفراش : ما تطاير منها . والنسور : جمع نسر ، وهى قطع اللحم الصلب فى باطن الحافر ، وصلابتها موضع المدح منها . عجم : نوى . الجريم : المجروم وهو المقطوع ، وهو ما طال مكثه فى نخله حتى جف وصار تمرا ، ونواه أصلب النوى .

(٤) من المتلفتات بجانبيها : من الخيل المتلفتات ، والجملة كناية عن نشاطها ومراحها . المحزم : موضع الحزام ، وهو أول ما يمسه العرق . الحميم : العرق .

(٥) لقصرييها : لضلعيها السفليين . البريم : الخيط المبروم ، أو السير من الجلد تشده المرأة حول وسطها .

(٦) الطبيان : مثنى طبى ، وهو ما يشبه الخلف من الناقة والثدى من المرأة ، والضرع من ذات الظلف . يعادله : يقيمه ويعدله . الجراء : الجرى ، فيستقيم : فيعتدل فى سيره .

كميتٌ غيرُ مُحلِفَةٍ ولكن كلونِ الصِّرْفِ عُلَّ بِهِ الأديمُ[٧]

تعادَى مِن قوائمِها ثلاثٌ بتحجيلٍ ، وقائمةٌ بهيمُ[٨]

كأنَّ مسيحتَيْ ورِقٍ عليها نَمت قُرْطَيْهِما أُذُنٌ خذيمُ[٩]

تُعوَّذُ بالرُّقَى من غيرِ خَبْلٍ وتُعقد في قلائدها التميمُ[١٠]

وتُمكِننا إذا نحن اقتنصنا مِن الشحّاجِ أسعلَه الجميمُ[١١]

٢٦٥: هُوِيَّ عُقاب عردة أشأزتها بذي الضَّمْرانِ عِكرِشةٌ دَرومُ[١٢]

---

(٧) الكميت : الأحمر يميل إلى السواد . غير محلفة : خالصة اللون لا يحلف عليها أنها ليست كذلك . الصرف : صبغة حمراء تصبغ بها الجلود . عل : سقى مرة بعد مرة . الأديم : الجلد .

(٨) تعادى : تتابع وتوالى . بتحجيل : التحجيل البياض في موضع القيد من قوائم الفرس . البهيم : الأسود أو السوداء .

(٩) المسيحة : الصفيحة أو السبيكة . الورق : الفضة . نمت : رفعت . قرطيهما : حلقيهما . خذيم : مخذومة مثقوبة .

(١٠) تعوّذ : يدعى لها بالحفظ . الرقى : جمع رقية التمائم ونحوها . الخبل : الجنون . تعقد : تربط . القلائد : جمع قلادة العقود . التميم : جمع تميمة التعاويذ .

(١١) تمكننا : تهيء لنا . اقتنصنا : خرجنا للصيد والقنص . الشحاج : الحمار الوحشى يشحج بصوته دون أن يفصح به . أسعله : جعله مسعلا نشيطاً كالسعلاة ، وهى الغول . الجميم : الكثير من النبات .

(١٢) هوى : سقوط . العقاب : النسر . عردة : اسم لهضبة . أشأزتها : أقلقتها واستخفتها . بذى الضمران : بذلك المكان . العكرشة : أنثى الأرنب . الدروم : المقاربة الخطو .

تحليل الأبيات :

زار قلبه طيف سليمى ، التى لا يفارقه خيالها ، فهو معه فى كل زمان ومكان ، يلازمه ملازمة الدائن لمدينه ، و يعاوده معاودة الغارم من غريمه ، ثم انتقل بعد بيت واحد إلى غرضه الأصيل فأخذ يصف فرسه ، فقال :

ورب مرعى مخصب ، ومختاض موفور العشب ، ملتف النبت تحاماه الناس وخافوه لكثرة هوامه وكواسره ، وتوقوه خشية وحوشه وجوارحه غدوت إليه فى بكرة النهار لا أخشى بأسا ، ولا أخاف فيه فتكا ، فإنى أعتلى صهوة جواد سبوح لا يطلب راكبها ، ولا يدركها طالبها ؛ إذا عدت تطاير من نسورها حصى له صلابة الحديد، أو نوى التمر الذى طال تجفيفه ، فأصبح نواه صلبا صلداً ، فإذا لز لجامها ، أو ركل مركلها تلعبت بمتنيها ، وتلفتت بجانبيها ، يحدث منها هذا عند ما يبل العرق موضع حزامها ، وذلك لحدة نشاطها ، وكثرة مراحها ، و إذا عدت وحزامها محكم الربط عند ضلعيها السفليين فإن عدوها ، وانقباض بطنها ، وضغطها على أضلاعها يجعل ذلك الحزام عند طبييها ، وأحيانا يقيمه و يعدله استقامة عدوها ، واعتدال جريها .

فرسى تلك كميت خالصة اللون صافية الأديم ، لونها فى شدة حمرته ، وأديمها فى صفاء كمتته ، كلون الصبغ الأحمر ينهلُ منه الأديم و يعل ، لينال صافى لونه ، وخالص قانيه ، وهى محجلة القوائم الثلاث دهماء الرابعة ، والضد يظهر حسنه الضد ، فنى قوائمها يظهر حسن الضدين ، وكأن سبائك من الفضة الرقيقة قد صنع منها لكل قائمة قرطان ، ورفعا إليها ، فكأن الأقراط فى آذان مثقوبة .

هذه الفرس كريمة علىّ ، أثيرة عندى ، فأنا لذلك أحفظها بالرقى ، وأقيها الشر بالتعاويذ دون أن يكون ذلك لخبل أصابها ، أو لمس نزل بها ، فهى سليمة من كل عيب، خالصة من كل شين ، وأنا أعقد فى قلائدها التمائم ، وأضع فى عقودها التعاويذ ، كأنها ولد عزيز علىّ أحميه من عيون الحاسدين .

وهى تهيئ لنا إذا خرجنا للصيد أن نصطاد أشق أنواع الحيوان صيدا ، فنصيد بها

الحمار الوحشى الذى قد أصبح لكثرة ما رعى ، ووفرة ما أكل كالغول يخيف كل صائد ، وينأى عن كل قاصد ، فهى تهوى عليه كما يهوى عقاب تلك الهضبة القوية العقبان ، أقلقها أن ترى بذلك المكان أرنبا متقاربا فى خطوه ، متدانيا فى سيره ، فهى لابد أن تنقض عليه فتقصر أجله .

النقد :

هذه قصيدة كاملة فى وصف الفرس لم نتجاوز منها إلا بيتا واحداً، فهى ثلاثة عشر بيتا ، ونقصد بهذا أن الشاعر محتفل بغرضه ، حاشد له جميع قواه ، ولكنه لم يبلغ فيه المبلغ الذى كان يرجوه ، فماذا جاء من المعانى ؟

تكاد تحصر المعانى التى اشتملت عليها قصيدته فى العناصر الآتية :

١ — فرسه سبوح ذو نسور صلبة قوية . ٢ — تتلعب بجانبيها عند ماتستثار للعدو .
٣ — ينقبض بطنها فيجرى عليه حزامها المحكم. ٤ — هى كميت اللون خالصة الكمتة .
٥ — محجلة القوائم الثلاث دهماء الرابعة . ٦ — كأن قوائمها البيض مقرطة بأقراط فضية .
٧ — معوذة بالرقى والتمائم لإعزازها . ٨ — تتيح لنا الصيد مهما يكن المصيد .
٩ — تهوى كما يهوى العقاب على الأرنب .

هذه هى المعانى التى أوردها الشاعر فى قصيدته ، وجميعها معان مطروقة ، والجديد منها ليس بذى بال كتعويذه إياها ، وتعليق التمائم فى القلائد ، وهو أمر يعرفه الخاص والعام ، فمن الناس حتى اليوم من يعوذ فرسه لاعتقادهم أن العين تصيبها قبل أن تصيب سواها ، والحق أن تخيله بياض قوائمها بأنها أقراط فضية خيال لا بأس به .

هذه هى المعانى التى لم يتناولها الشعراء ، وإن تناولوها ، فقد نهجوا فى تناولها غير نهجه ، وساروا بها فى غير طريقه ، أما ما سواها فكلها معان معروفة ، فقوله :

غدوت بها تدافعنى سبوح   فراش نسورها عجم أديم

يشبه قول عنترة :

وله حوافر موثق تركيبها   صم النسور كأنها من جندل

وفى كل من البيتين ناحية جمال يمتاز بها عن الآخر ؛ فبيت سلمة يمتاز بأنه وصف فرسه بصفتين هما سبحه فى عدوه ، وصلابة نسوره ، و بيت عنترة يمتاز بأن تشبيهه أقوى من تشبيه سلمة فتشبيه النسور بالجندل أقوى من تشبيهها بالنوى مهما تكن صلابته .

وقول سلمة :

إذا كان الحزام لقصريبها أماما حيث يمتسك البريم

يدافع حد طبييها وحينا يعادله الجراء فيستقيم

كقول بشر بن أبى خازم :

نسوف للحزام بمرفقيها يسد خواء طبييها الغبار

و بيت بشر أجمع من بيتى سلمة ، فقد زاد فى معناه أن الغبار الثائر فى مسيره يسد ما بين مرفقيها ، أما القيود التى أوردها سلمة فليست ذات قيمة فنية فقوله : « أماما حيث يمتسك البريم » قيد ثقيل فى لفظه وفى معناه .

و إذا كانت الألفاظ توحى بمعانيها ، وتشعر بمدلولاتها ، وذلك هو دليل حسن اختيار الأديب للفظه ، فإن إيحاء الألفاظ هنا على مدلولاتها إيحاء ضعيف ، ودلالتها على مدلولاتها غير كاملة ، فاختياره كلمة عكرشة لأنثى الأرنب لا رقة فيه ، فحروف الكلمة ، وتجمع هذه الحروف بعضها مع بعض يوحى بأنها اسم لغير الأرنب .

ومن الأبيات ماليس واضح المعنى لأن صورته غير كاملة ولا منسقة ، وذلك يظهر فى قوله :

كأن مسيحتى ورق عليها نمت قرطيهما أذن خذيم

فإن المعنى جميل ، ولكن التصوير غير كامل التكوين .

٥ — وقال عوف بن عطية من قصيدة أولها :

أَمِن آلِ مَيٍّ عرفتَ الدِّيارا بحيثُ الشقيقُ خلاءً قِفارا ؟[١]

وأعددتُ للحــرب مَلبونةً تَرُدُّ على سائسيها الحِمارا[٢]

كُميتاً كحاشيــــةِ الأتحمِــ يِّ لم يَدَعِ الصُّنْعُ فيها عُوَارا[٣]

رُواعُ الفؤادِ يَــكادُ العنيـــفُ إذا اجرتِ الخيلُ أن يُستطارا[٤]

لها شُــعَبٌ كإيادِ الغبيـــطِ فضّضَ عنها البناةُ الشِّجارا[٥]

لها رُسُغٌ مُكْرَبٌ أَيِّدٌ فلا العظمُ واهٍ ولا العِرقُ فارا[٦]

لها حافرٌ مثـلُ قَعبِ الوليـــدِ يتّخذ الفأرُ فيــــه مَغارا[٧]

٢٧٣ : لها كَفَلٌ مثلُ متنِ الطِّرا فِ مدَّد فيه البناةُ الحِتارا[٨]

* ترجمة الشاعر : هو عوف بن عطية بن عمرو بن عبس من بنى تيم شاعر فارس إلا أنه مقل . واختلف فيه أهو مخضرم أم هو جاهلى صرف ، والظاهر أنه لم يدرك الإسلام .

التفسير اللغوى : (١) مى : اسم حبيبته . الشقيق : ماء لبنى أسد بن عمرو بن تميم . قفارا : ماحلا .

(٢) الملبونة : التى تسقى اللبن إكراما لها . سائسيها : فرسانها . الحمار : يقصد الحمار الوحشى .

(٣) الحاشية : الأطراف . الأتحمى : ضرب من البرود منسوب إلى أتحم باليمن . الصنع : الدواء الذى تصنع به فى ضمرها . العوار : العيب .

(٤) رواع الفؤاد : ذكية القلب . العنيف : الشديد الغليظ . يستطار : تحمله على أن يطير من فوقها .

(٥) شعب : جمع شعبة ويقصد فقار الظهر أو هى ما أشرف منها كالكاهل والعنق ، وهو أنسب للمعنى . الإياد : المقدم من الغبيط . الغبيط : الرحل . فضض : فض وفرق . الشجار : خشب الهودج .

(٦) الرسغ : الموضع المستدق بين الحافر وموضع الوظيف من اليد والرجل . مكرب : شديد موثق ، وهو وصف للحبل المحكم الفتل . أيد : قوى شديد . واه . ضعيف . فار العرق : انتفخ ، والانتفاخ يضعف القوائم .

(٧) القعب : القدح . الوليد : الصبى . المغار : الجحر .

(٨) الكفل : مؤخر الظهر . الطراف : البيت من الجلد . الحتار : خيط يشد به الطراف

تحليل الأبيات :

بدأ الشاعر قصيدته بالاستفهام التعجبي ؛ إذ كيف تعرف ديار آل مى الواقعة بالقرب من ذلك الماء ؟ لقد أصبحت خالية مقفرة ، لا أحد من الإنس يسكنها ، فلتختر سكناها الوحوش الأوابد ، بعد أن كانت مهبط الغيد النواعم ، ثم أخذ يتنقل فى وصف عشقه ولهوه فى شبابه وشيبه من معنى إلى معنى ؛ حتى بدأ يصف فرسه ، أليس هو من أكبر أسباب اللهو ؟ فيقول :

إنى أعددت ليوم الكر والفر ، والضرب والطعن، فرسا غذيتها باللبن ، فكانت فتية قوية ؛ إذا طارد بها فارسها حمارا وحشيا ردته إليه مذعنا مطيعا ، فكأنها قيد الأوابد .

أعددتها فرسا كميت اللون ، كأنها فى صفاء لونها ، ووثاقة جسمها أطراف ذلك البرد اليمنى ، قد أحكم ناسجه نسجه ، فليس فيه ما يعاب به .

هى فرس ذكية الفؤاد ، متوفزة الإحساس ، نهابة للأرض ، جوابة للقفر ، تكاد تطير من فوق صهوتها الفارس العنيف حينما تبارى عتاق المذاكى ، فقار ظهرها فى صلابتها كإياد الرحل أزيل عنه خشب الهودج ، فبدت للأنظار متانته ، ورسغها موثق محكم ، مفتول مكرب ، فليس عظمها واهيا ، ولا عرقها منتفخا فائرا ، فيضعف ذلك من قوة قوائمها ، ويوهن من صلابة أرجلها ، وحافرها فى استدارته وتقعيبه مثل قدح الصبى ، بعيد الغور ؛ حتى ليمكن أن يتخذ فيه الفأر جحرا ، ويجعل منه مغارا ، وكفلها مثل ظهر البيت المتخذ من الجلد ، المشدودة أطرافه ، فبدا أملس ناعما ، ممتلئا مكتنزا .

النقد :

المتأمل فى هذه الأبيات يجد الشاعر قد أمعن فى نعتها ، فله فى كل بيت معنى أو أكثر من معنى ، وكلها معان مطروقة لا جدة فيها ، وإن لم نعتبر للسابق فضلا على اللاحق ، فكلهم ينظرون ويسمون ، فينعتون ويصفون ، ولا يمنع ذلك من أن نجمع بين بعض معانيه ، وبعض معانى من قدمنا عنهم القول ، يشبه بيته الأول بعض الشبه بيت امرئ القيس :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

وبيت امرئ القيس أطرف معنى ، وأقوى أسلوبا ؛ إذ ذكر ساعة صيده ، ووصف فرسه بأنه منجرد الشعر ، وقيد الأوابد ، وضخم الجسم ، وقوله : قيد الأوابد من معجزات الشعر .

وبيته الثانى يشبه بيت سلمة بن الخرشب :

كميت غير محلفة ولكن كلون الصرف على به الأديم

وبيت سلمة أفضل من وجوه ، أجملها ذلك الاحتراس « غير محلفة » فقد أكد المعنى وأكسبه روعة ، وتشبيه لونه « بأنه كلون الصرف على به الأديم » تشبيه بديع ، وقول عوف :

رواع الفؤاد يكاد المنيف إذا جرت الخيل أن يستطارا

بيت جميل وإن تكن فيه مبالغة من ناحية ، وقصور من أخرى ، أما المبالغة ففى استطارة المنيف ، أو قربها ، وأما القصور ، فشرطه الاستطارة بجريان الخيل معها ، ولم تكن المبالغة من سمات الشعر الجاهلى : كما أن القصور اللفظى قد يوجد ، أما القصور المعنوى فقل أن يوجد .

٦ — وقال المرقش الأصغر* من قصيدة أولها :

أَمِن رسمِ دارٍ ماءُ عينيك يَسفحُ   غَدا مِن مُقام أهلُه وتروَّحُوا ؟(١)

غدوْنا بصافٍ كالعَسيبِ مُجَلَّلٍ   طويناه حيناً فهو شِزْبٌ ملوَّحُ(٢)

أَسيلٌ نبيلٌ ليس فيه مَعابةٌ   كُمَيتٌ كلونِ الصِّرف أرجَلُ أقرحُ(٣)

على مِثله آتى النَّدِيَّ مُخايِلاً   وأغمِزُ سِرًّا ، أيَّ أمرىٍّ أربَحُ(٤)

ويَسبقُ مطروداً ، ويَلحَقُ طَارِداً   ويخرُجُ مِن غمِّ المَضيقِ ويجرَحُ(٥)

تراه بِشِكاتِ المُدَجَّجِ بَعدَ ما   تقطَّعَ أقرانُ المُغيرةِ يَجمَحُ(٦)

شَهِدْتُ بِهِ في غارةٍ مُسْبَطِرَّةٍ   يُطَاعِنُ أولاها فِئَامٌ مُصَبَّحُ(٧)

كما انتفَجَتْ مِن الظِّبَاءِ جِدَايةٌ   أَشَمُّ إذا ذَكَّرته الشدَّ أفْيَحُ(٨)

٢٨٢: يَجُمُّ جُمومَ الحِسْيِ جَاشَ مضيقُهُ   وجرَّده مِنْ تحتُ غيلٌ وأبْطَحُ(٩)

---

* ترجمة الشاعر : هو ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضبيعة البكرى عم طرفة بن العبد ، والمرقش الأكبر عمه ، والأصغر أشعر ، وأطول عمراً ، وقد أجاد الغزل ؛ لأنه من العشاق ، والوصف لأنه من الفرسان . توفى حوالى سنة ٥٠٠ م فهو أقدم من امرىء القيس .

التفسير اللغوى : (١) الرسم : بقية آثار الديار . يسفح : يسيل ويجرى . غدا من مقام : أصبح من إقامة إلى رحيل : تروحوا : ساروا فى وقت الرواح ، وهو من زوال الشمس إلى الليل.

(٢) غدونا . سرنا مصبحين . بصاف : بفرس خالص اللون . كالعسيب : كطرف السعفة فى صفاء لونه . مجلل : وضع عليه الجلال . طويناه : ضمرناه : شزب ملوح : ضامر متغير من حر الشمس . (٣) أسيل نبيل : أملس جميل . كميت : أحمر مائل إلى السواد . الصرف : صبغ أحمر يصبغ به الجلد . أرجل : محجل . أقرح : أغر الجبهة .

(٤) الندى النادى . مخايلا : مختالا . أغمز : أشير . (٥) مطرودا : يطرده فارس وراءه . طاردا : يطرد غيره أمامه. غم المضيق: شدة الأمر. يجرح : يصيد ، ومنه جوارح الطير.

(٦) الشكات : جمع شكة ، السلاح . المدجج : اللابس السلاح . تقطع أقران المغيرة : تمزق نظراء الكتيبة . يجمح : ينفرد ويشرد . (٧) مسبطرة : ممتدة طويلة الأمد . فئام : جماعة . مصبح : مغار عليها صبحاً . (٨) انتفجت : ثارت . جداية : شابة . أشم : عالى الأنف . أفيح : فسيح الخطا . (٩) يجم : يجتمع شده . الحسى : الرمل على الصخر يجتمع الماء تحته . جاش : غلى . الغيل : الماء الكثير . الأبطح : الحصى .

تحليل الأبيات :

يسائل المرقش نفسه ، أأن رأيت آثار الحبيبة تسيل الدموع من عينيك مدرارا . وتجرى العبرات من مآقيك غزارا ، لأن من كانوا يحلون تلك الديار غدوا مرتحلين ، وأموا غيرها متروّحين ؟

ثم يأخذ فى نسيب رقيق ، ووصف بديع لريق الحبيب فى أحد عشر بيتا يقتضب بعدها نسيبه إلى وصف فرسه ، فيقول :

لقد غدونا إلى الصيد بفرس صافى اللون ، ضامر البطن ، مكرم عندى ؛ إذ الجلال فوق متنيه يحميه من الحر والقر ، وقد ضمرناه حيناً حتى صار ضموره عنوان جماله .

هو أملس الجسم ناعمه ، جميل الخلق رائعه ، ليس فيه مايعاب ، فهو كميت اللون كأنها الصرف ، محجل القوائم ، أغر الجبهة « كأن بياض غرته خمار » .

وهو مظهر سراء وشرف لمتطيه ، فأفد به على نادى قومى معجبا مختالا ، معتزا مزهوا ، أسائل نفسى «أى أمرى أربح ؟» أيوم أخرج به للصيد ، فأبلغ ماأرجو من قنص الشوارد ، وصيد الأوابد ، أم يوم أستريح فأفد به إلى ذلك النادى الذى ينتظم سراة قومى ، وأشراف قبيلى ؟ .

إنه حينما أخرج به للحرب والغارة يسبق إذا كان مطروداً ، ويلحق إذا كان طارداً ، فهو ينجى من المآزق ، ويفرج من المضايق ، ويشاركنى فى حربى ، فيضرب ويجرح .

وهو إلى كل هذه الصفات كريم ذلول ، سلس العنان ، سهل القياد ؛ إذا حمل فارسه مدججاً بسلاحه ، مقلداً عتاده جعل النصر غايته ، فيعمل مع فارسه لإدراكه ، فإذا مافرق فارسه الأقران ، وجدل الأبطال ، عاوده المرح والنشاط ، فإذا هو الفرس اللعوب الجموح ، أليس قد شارك فى فوز فارسه ، وأسهم فى نصر سيده ؟

كم قد شهدت به غارات طويلة الأمد ، بعيدة الأجل ، يطاعن طليمة المغيرين جماعة مصبّحون ، فأولئك وهؤلاء يدقون الرماح بالرماح ، ويكسرون النصال على النصال ،

فتسمع للفرس ثورة وهمهمة ، وانتفاجا وزمجرة ، كأنما هو فى ثورته وانتفاجه ظبية فتية ، نشيطة قوية ، لاتهدأ ولا تسكن ، ولا تقف ولا تهمد .

هو فرس أشم طويل ، واسع الخطا ، إذا ذكرته بالشد على العدو اندفع اندفاع الحسى ينبع منه الماء تلو الماء ، وعرّاه مما حوله الماء المتدفق ، والحصى المتفرق .

النقد :

المرقش من الشعراء المجيدين ؛ لأنه كان عاشقا فارسا ، والعشق والفروسية من عناصر الشاعرية ، ومن مقومات الوصف بصفة خاصة ، ويظهر فى هذه الأبيات المعدودة أنه نحا فى وصفه نحوا يخالف إلى حد ما الطريق الذى نهجه بعده أكثر الشعراء ، أو أنهم لم ينهجوا نهجه فلم ينصفوه ، فعندى أن نهجه أوضح من نهج أكثرهم .

إنه لايصف أجزاء الجسم عضواً عضواً ، وإنما يلم بهذه الأعضاء إلماما ، ثم ينصرف إلى غيرها ، ففرسه :

أسـيلٌ نبيلٌ ليس فيـه معابةٌ كميتٌ كلون الصِّرْفِ أرجلُ أقرحُ

فها هوذا قد وصفه بست صفات فى بيت دون أن يقال : إنه قصر فى وصفه .

أما النحو الجديد الذى نحاه فهو الربط بينه وبين فارسه ، وتصويرهما صديقين متعاونين على ما يكسب المجد ، وينشر عنهما طيب الحديث ، فهو :

عَلَى مِثْله آتى النَّدِىَّ مُخَايِلاً وأغمِزُ سِرًّا أىَّ أمرىَّ أَرْبحُ؟

ويسبِقُ مَطرودًا ويَلحقُ طَارِدًا ويخرج من غمِّ المضيق ويَجْرَحُ

تراه بِشِكاتِ المُدَجَّجِ بَعْدَمَا تقطَّعَ أقرانُ المُغِيرَةِ يَجْمَحُ

وهو بارع الإجادة عند ما يصور اندفاعه بين جماعة الخيل ، فيصوره باندفاع الحسى ، ضاق مسيله ، وجرده من تحته الماء والحصى ، إنها صورة دقيقة ، وإن ضاقت الألفاظ عن المعنى ، ولو أنه عنى بتكوين الصورة ، وتوضيح الغاية لكان قد بلغ أسمى مايريد من التصوير ، والبيت هو :

يَجُمُّ جُمُومَ الحِسْيِ جاشَ مَضيقُهُ وجرَّده مِنْ تحتُ غِيلٌ وأبْطَحُ

و يعتمد المرقش على المقام الاعتماد كله ، فيقول مثلا :

غدونا بصافٍ كالعسيب مُجَلَّلٍ طويناهُ حِيناً فهو شِزْبٌ ملوَّحُ

فإلى أين غدا به ؟ أإلى الحرب أم إلى الصيد أم إلى غيرهما ؟ إنه لم يحدثنا من قبل عن شيء من هذه الأشياء .

ثم ما الأمران اللذان يسأل عن معرفة الأربح فيهما ؟ فى قوله :

على مثله آتى الندى مخايلا وأغمز سرا أى أمرى أربح ؟

إنه غامض ، فنحن لاندرى ألصيد يريد أم السباق ، أم الحرب أم اللهو ؟ وألنجاء يريد أم الطلب كما يرى بعض الأدباء ؟ وقد عرضنا رأينا فى التحليل ، ولعله أقرب الآراء إلى المعنى الذى أراده .

و إذا تجاوزنا هـذا الغموض حكمنا للمرقش بقوة الأسلوب وجماله ، ورونقه وحسنه ، فأى جمال وقوة يفوقان جمال هذا البيت وقوته فى طباقه الهادى ، ولفظه الجزل ؟

ويسبق مطروداً ، ويلحق طارداً ويخرج من غم المضيق ويجرح

و بعد ، فإن المرقش شاعر قد جاء قبل أوانه ، وفرع أهل زمانه .



نظرة فاحصة عن معانى الشعراء فى وصف الفرس

أكثر أولئك الشعراء الذين اخترنا لهم بعض ما قالوه فى وصف الفرس نجديون مقاما أو انتقالا ، ومن لم يكن منهم نجديا فقد طبع على أخلاق النجديين ، فأهل نجد فى القديم والحديث أولو نجدة وعزة ، وأصحاب فروسية و بطولة ، ولعل بلادهم العالية ، و إقليمهم الثابت أورثهم آيته ، وخلع عليهم طوله وعلياءه .

و إذن فليس عجيبا أن يجيدوا وصف الخيل ، وأن يبرعوا فى نعت الجياد ، وأن يبزوا غيرهم من الشعراء فى رسم شياتها ، وتصوير سماتها ، فالخيل النجدية لاتزال مضرب المثل فى الحسن ، وليس عجيبا ألا تتفق معانيهم، وألا تتحد أفكارهم وأخيلتهم فى وصفها ونعتها ، كما لمسنا ذلك فى وصف الناقة — فإن محاسن النياق تكاد تكون محصورة فى أجزاء جسمها ، وصلابة خَلقها ، وليس الشأن كذلك فى الخيل ، فمحاسن الخيل تتجاوز التكوين الخلقى ، ولله در المتنبى إذ يعرف هذا المعنى فيقول :

وما الخيــــلُ إلا كالكرامِ قليلةٌ ... وإن كثُرتْ فى عينِ مَنْ لايُجَرِّبُ
إذا لم تلاحظ غيرَ حُسْنِ شِياتها ... وأعضائهـا فالحسنُ عنك مَغيَّبُ

هناك وصفُها بمداركة الصيد ، ومتابعة الطرد ، وهناك وصفها عند المباراة فى الحلبة ، والسباق فى الميدان ، وهناك وصفها فى الحرب ؛ إذ تشارك فى الضرب والطعن ، وهناك وصفها فى اللهو ، وهناك تصوير عدوها ، وتشخيص جرائها ، ووصف حنانها وجيشانها إلى غير هذه المعانى التى مرت بنا ، وأفضنا القول فى تبيانها .

وليس أولئك الشعراء الذين اقتبسنا قبسا من شعرهم فى وصف الخيل بأقدر شعراء العصر الجاهلى على وصفها ، ولـكنهم من أقدرهم ، كما أن أولئك الذين اخترنا لهم بعض شعرهم فى وصف الناقة ليسوا بأبرع مَن وصَفها ، ولـكنهم من أبرعهم ، ولـكننا رمينا إلى الإكثار من عدد الشعراء ، فلم نختر لشاعر اخترنا له قبل فى وصف الناقة ، وذلك لنظهر أن

هذا العصر غنى بالشعراء الذين أجادوا القول فى كل مجال ، والذين سبقوا فى كل ميدان ، ولو نهجنا غير هذا النهج لوجدنا أكثر من شاعر له فى وصف الخيل الباع الأطول ، والقول الأفضل ، ومع ذلك ، ألم يفضل علقمة الفحل على امرئ القيس فى نعت الخيل بصفة خاصة ؟ إننا لا نؤيد هذا الحكم ، ولكننا نسوقه دليلا على أن من الشعراء الذين تجاوزناهم من هم شعراء وصافون لا يشق لهم غبار .

ونحن فى هذا المجال نجمع ماتفرق من المعانى فى التحليل ، لعل فيه ما ييسر على الناقد مهمته ، و يبصره بمنهجه وغايته .

يكاد الشعراء الستة الذين اخترنا لهم يتفقون فى وصف أجزاء الفرس وشياته ، و إذا كان بينهم خلاف فهو فى القدر والكيف ، ولكنهم يختلفون فى تصوير شىء غير تصوير الجسم ، وغير شياته ، ذلك الشىء هو خلقها وكرمها ، وحسنها ونبلها ، فإذا قال امرؤ القيس فى وصف فرسه بالضخامة والجسامة :

وقدْ أغتدى والطَّيْرُ فى وكُناتِها بِمُنْجَرِدٍ قيدِ الأوابدِ هَيْكَلِ

وجدنا غيره ممن تقدمه فى النشأة ، وسبقه إلى نعت الخيل بشر بن أبى خازم يقول :

يُضَمَّرُ بالأصائِلِ ، فهْوَ نَهْدٌ أَقَبُّ مُقَلَّصٌ فيه اقوِرَارُ

وألفينا من جاء بعدهما قد تابعهما فى نعت جواده بهذه الصفة ، فيقول عنترة :

وَلَرُبَّ مُشْعَلَةٍ وَزَعْتُ رِعَالَها بِمُقَلَّصٍ نَهْدِ المَرَاكِلِ هَيْكَلِ

ولكننا نلمح فى بيت بشر معنى لم يتناوله باللفظ هو عنايته بذلك الفرس ، ورعايته له فى قوله : يضمر بالأصائل ، فذلك التضمير من مظاهر العناية والتكريم .

و إذا وصف امرؤ القيس جواده بحدة النشاط ، وقوة الركض ، وشدة العدو ، فقال :

مِكَرٍّ مِفرٍّ ، مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا كجُلْمُودِ صَخْرٍ حطَّه السَّيْلُ مِنْ عَلِ

وجدنا من تقدموه قد تناولوه على نحو يقارب هذا النحو ، فقال بشر بن أبى خازم :

مُهَارِشَةُ العِنانِ كأنَّ فِيها جَرادةَ هَبْوَةٍ فِيها اصْفِرَارُ

وقال سلمة بن الخرشب :

وتُمكِنُنا إذا نحنُ اقتنصنا   مِنَ الشّحاجِ أسعلهُ الجميمُ

هُوِيَّ عُقابِ عَردَةَ أشأزتهـا   بذِى الضَّمرانِ عِكرِشةٌ دَرُومُ

المعانى متقاربة ، ولكن التصوير متباعد ، والتشخيص مختلف ، فبيت امرئ القيس يشعر بالحدة فى النشاط ، والقوة فى العدو ، و يتخذ من الصخرة يسقطها السيل مادة تصويره فى حين يتخذ بشر من مهارشتها عنانها مادته ، و يزيدها تصويرا بقوله : كأن فيها جرادة هبوة ... وسلمة لايُغنيه فى هـذا المعنى بيت بل يؤديه فى بيتين ، يؤلف فيهما صورتين كاملتين دالتين على أقصى القوة ، وأوفر الحدة .

وامرؤ القيس يصف فرسه بالكمتة ، فيقول :

كُمَيتٍ يَزِلُّ اللِّبْدُ عَنْ حَالِ مَتنِهِ   كما زلّتِ الصفواء بالمُتَنَزِّلِ

فترى جميع من سبقوه ومن لحقوه وصفوا جيادهم بالكمتة كأن الجياد العربية أو الخيل النجدية ليس فيها إلا هذا اللون ، فيقول سلمة بن الخرشب :

كُمَيتٌ غيرُ مُحلفةٍ ، ولكنْ   كلونِ الصِّرفِ عُلَّ بِهِ الأديمُ

و يقول عوف بن عطية :

كميتاً كحاشيـةِ الأتحمـ   ـىِّ لمْ يدعِ الصُّنْعُ فيها عُوَارَا

وقبل هؤلاء جميعا قال المرقش الأصغر :

أسيلٌ نبيلٌ ليس فيه مَعابةٌ   كميتٌ كلونِ الصِّرفِ أرْجَلُ أقرحُ

وهكذا نجد اتفاقا فى أكثر الأوصاف الجسمية بينهم ، و بنظرة عابرة يمكن الجمع بين هذه الأوصاف ، ولكنهم يختلفون فى أدائها ، وقد يتباعدون فى عرضها .

أما المعانى التى انفرد بها بعضهم دون بعض ، فليست من الكثرة بمنزلة المعانى التى اتفقوا فيها ، فمن هذه المعانى قول امرئ القيس :

مِسحٍّ إذا ما السّابحاتُ على الوَنَى   أثَرْنَ الغُبارَ بالكَديدِ المرَكَّلِ

إنه فى هـذا البيت يجمع معنيين متضادين دون أن يسمى ذلك طباقا ، وإذا كان الطباق جميلا ، فالقدرة على مثل هـذا النوع أجمل ، إنه نعت فرسه بالاندفاع كالأتى ، والانصباب كالسيل ، ونعت السابحات الأخريات بالونى والكلال ، حتى ليثرن الغبار بضربهن الأرض الصلبة ، وهى صورة للفرس لايصورها إلا من تتبع حركات الخيل : كبيرها وصغيرها عظيمها وضئيلها ، وهكذا تفتت الخيل المجهـدة بسنابكها الثقيلة الأرض الصلبة .

ومن تلك المعانى التى انفرد بها ، فلم يشاركه أحد فيها ، ممن تقدمه أو ممن جاء بعده قوله يصور الدماء المتطايرة من صيده ، والتى ضرج بها فرسه :

كأنَّ دِماءَ الهاديات بِنَحْرِهِ عُصارةُ حنَّاء بشَيْبٍ مُرَجَّلِ

فالمعنى فريد ، والتشبيه جميل ، والصورة كلها رائعة ، وقوله فى وصف السِّرب الذى عنّ له ، فارتاع لمرآه ؛ لأنه يعرفه مطاردا عنيفا ، وصيادا حصيفا ، فتفرق زرافات ووحدانا :

فعَنَّ لنا سربٌ كأنَّ نِعاجَه عذارَى دَوارٍ فى مُلاء مُذَيَّلِ
فأَدْبَرْنَ كالجِزْعِ المفصَّلِ بينه بجِيدٍ مُعِمٍّ فى العَشيرةِ مُخْوِلِ
فأَلْحَقنَا بالهـاديات ، ودُونَه جَوَاحِرُها فى صَرَّةٍ لمْ تَزَيَّلِ

ومن هذه المعانى التى لم يشاركه فيها أحد ، ولم يبلغ مبلغ جمالهـا شعر وصفه أيطلى الفرس وساقيه ، ثم وصف سيره فى إرخائه وتقريبه ، وذلك فى قوله :

لَهُ أَيْطَلاَ ظَبْيٍ ، وساقَا نعامةٍ وإرخاء سِرْحانٍ وتَقْرِيبُ تَتْفُلِ

ويعجبنا منه ذلك التقسيم البديع ، فهو فى الشطر الأول يصفه بصفتين جسميتين ، وفى الشطر الآخر ينعته بنعتين ليسا كذلك ، دون أن يضيق البيت بهذه المعانى ، فكان لكل هذا حامل لواء الوصف فى قديم الشعر وحديثه .

ومن المعانى الفريدة فى أبيات بشر بن أبى خازم قوله يصف شهبة فرسه حينما يبس عليها عرقها ، وجف حميمها : درته وغراره :

تَرَاها مِنْ يَبِيسِ الماءِ شُهْباً مُخَالِطُ دِرَّةٍ مِنْهَا غِرارُ

وقوله يصور أثر سنابكها الصلبة فى الأرض المطمئنة :

بِكلِّ قَرَارةٍ من حيثُ جَالتْ رِكِيَّةُ سُنْبُكٍ فِيهـا انْهِيَارُ

ولعنترة فى وصف الفرس المقام الأول بعد امرئ القيس ، فله فيه معان جياد ، إن لم نحط بها جميعا ، فحسبنا أن نشير إلى بعضها لندل على براعته .

من هـذه المعانى وصفه الفرس حين ينهنه من حدته ، ويحد من مراحه ، فلا يفتأ يتلوى و يتثنى بالشارب الثمل ، والنشوان العجل ، وذلك فى قوله :

وكأنَّ مِشيتَهُ إذا نَهْنَهْتَهُ بالنَّكلِ مِشيةُ شاربٍ مُسْتَعْجِلِ

وكثير من الشعراء وصف قطاة الفرس وكفله ، ولـكن أحداً منهم لم يصفه بذلك الوصف الذى ترك فى مخيلة كل قارئ رسما للصخرة الناعمة الملساء ، يغشاها السيل الجارف ، فلا يستقر لها قرار ، وذلك فى قوله :

نَهْدُ القطاةِ كأنَّها مِنْ صخرةٍ ملساءَ يغشاها المسيلُ بِمَحْفِلِ

فأما سلمة بن الخرشب ، فقد أبدع فى وصف التحجيل إبداعا ، وأجاد فى تصويره أيما إجادة ، وذلك فى بيتيه :

تعادَى مِن قوائمِه ثلاثٌ بِتحجيلٍ ، وقائمةٌ بَهِيمُ
كأنَّ مسيحتَى وَرِقٍ عليها نمتْ قرطيْهِما أُذُنٌ خَدِيمُ

فتصوير التحجيل فى القوائم الثلاث بأنه كالأقراط المصنوعة من الفضة فى الآذان المشقوقة تصوير جميل ، فوق أنه يدل على سراء وثراء ، وحضارة ومدنية .

ولـكننا لا ندرى كيف تكون الآذان ثلاثا ، ولا تكون اثنتين أو أربعا ؟ أحسب أن الصورة غير محدودة .

أما عوف بن عطية فقد جاءت أبياته كلها وصفا لأجزاء فرسه ، وهو قصير النفس فى الوصف ، ولا نجد له معنى مبدعا سوى قوله :

لهـا حافرٌ مثلُ قَعبِ الوليـــدِ يتخذُ الفأرُ فيه مَغارَا

أما المرقش الأصغر فقد قدمنا فى نقده أنه نهج فى وصف فرسه نهجا جميلا ، لا ندرى لماذا لم يتأثره فيه خلفاؤه ، ولعل عدم الاتجاه مبعثه أنه كان شاعراً فارسا ، فهو يجد المادة الغزيرة لوصف فرسه فى حربه أكثر من وجود هذه المادة لسواه ، وأكثر من تأمله هو لها فى أيام سلمه ، سيان بعد ذلك أن تكون هذه الحرب مع الوحوش الأوابد أم مع الجيوش الجحافل .

وعهدنا بما قدمناه عن جمال معانيه ، وطريف أخيلته وأفكاره قريب ، فلا نعيده مرة أخرى .

وبعد ، فيبدو واضحا أن عناية العرب بالناقة والإبل كانت أعظم من عنايتهم بالفرس والخيل ، إذ شعرهم فى وصف الأولى ونعتها أوفر ، وإذ معانيهم فى تصوير نفعها وفضلها أكثر ، وإذ أنفاسهم فى عد أياديها أطول ، وإذن فنعوتهم ترقى برقى الانتفاع بالمنعوت ؛ إذ مما لا ريب فيه أن الناقة للفقير والغنى ، وللفارس وغير الفارس ، وللاهى والجاد ، وليس ذلك شأن الفرس ، فهذه أداة زينة ولهو ، وفروسية وحرب .

كما أنه مما لا ريب فيه أن الفرس أجمل من الناقة وأوسم ، ولكن الانتفاع !! عند الناس جميعا أولى بالرعاية من الانتفاع الخاص.

وقد قدمنا أن الملاحظ أن الشعراء يختمون وصف الناقة أو يبدءونه بوصف ما يشبهها من البقر الوحشى أو الحمار ، أو الظليم أحيانا ، ويتمون وصف الفرس بذكر الصيد والطرد ، فوصفهما سبيل إلى نعت سواهما ، فهما إذن ـ الناقة والفرس ـ الدعامة الراسخة لهذا الفن ، وعلى نهج الشعراء سنسير ، فنبدأ بوصف الأوابد .

(ح) وصف الأوابد

١ — قال لبيد بن ربيعة * فى معلقته يصف البقرة الوحشية :

أفتلكَ أمْ وَحشيَّـــةٌ مَسبوعةٌ   خَذلت وهاديةُ الصِّوارِ قِوامُها ؟[١]

خَنساء ضيَّعتِ الفَرِيرَ فلم تَرِمْ   عُرضَ الشَّقائقِ طوفُها وبُغامُها[٢]

٢٨٥ : لمعفَّرٍ قَهْدٍ تنازَعَ شِـــلوَه   غُبسٌ كواسِبُ لا يُمَنُّ طعامُها[٣]

---

* ترجمة الشاعر : هو لبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر البكرى ، أحد فحول الشعر فى العصر الجاهلى ، ونقول فى العصر الجاهلى ، مع أنه عمر فى الإسلام لأن مؤرخى الأدب يكادون يجمعون على أنه هجر بعد إسلامه الشعر استصغارالشأنه بعد أن سمع القرآن الكريم ، ويزعمون أنه لم يقل بعد إسلامه إلا بيتا واحدا هو :

الحمـــد لله إذ لم يأتنى أجلى   حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

أو هو قوله :

ما عاتب الحر الكريم كنفسه   والمـــرء يصلحه الجليس الصالح

ومن مؤرخى الأدب الحديث من يعد هذه أسطورة ، ويذكر أن فى ديوانه كثيرا من الشعر الدينى .

التفسير اللغوى : (١) أفتلك : اسم الإشارة يعود على الأتان التى شبه بها ناقته فى الأبيات السابقة لهذا البيت . الوحشية : يقصد البقرة ، فهى نعت لمنعوت محذوف . مسبوعة : أصابها السبع بافتراس ولدها . خذلت : تركت دون أن تنصر وتعان . الهادية : المتقدم أو المقدمة. الصوار : القطيع من بقر الوحش ، والجمع الصيران . القوام : ما يقوم عليه الأمر ، أو الشىء.

(٢) الخنساء : صفة من الخنس ، وهو تأخر أرنبة الأنف . الفرير : ولد البقرة الوحشية ، وجمعه الفرار . فلم ترم : فلم تبرح . عرض الشقائق : ناحية الشقائق ، والشقائق : الأرض الغليظة مفردها شقيقة . الطوف : الطواف والجولان . البغام : الصوت الرقيق الناعم .

(٣) المعفر : الملقى على التراب ، وهو صفة للوليد . القهد : الأبيض . تنازع : تجاذب . شلوه : عضوه ، والجمع أشلاء كأعضاء . غبس . جمع أغبس وغبساء ، وهو ما لونه كلون الرماد وهو صفة لموصوف محذوف هو ذئاب . لا يمن : لا يقطع ، ومنـــه قوله تعالى : « ولا تمنن تستكثر » .

صادفن منها غِـــرَّةً فأَصَبْنها ... إنَّ المنايا لا تطيشُ سِهامُها(٤)

باتَتْ وأَسْبَلَ وَاكِفٌ مِنْ دِيمةٍ ... يُروِى الخمائلَ دائمًا تَسجامُها(٥)

يَعلُو طَرِيقَـــةَ مَتنِها مُتواتِرًا ... فى ليلةٍ كفَرَ النُّجومَ غَمامُها(٦)

تَجتافُ أَصْـــلاً قالصًا مُتنبِّذًا ... بِعجُوبِ أَنقاءٍ يَميلُ هَيامُها(٧)

وتُضىءُ فى وجهِ الظَّلَامِ مُنيرةً ... كَجُمانةِ البحرىِّ سُلَّ نِظامُها(٨)

حتَّى إِذَا انحَسَرَ الظَّلَامُ وأَسْفَرَتْ ... بَكرتْ تَزِلُّ عن الثَّرى أَزْلامُها(٩)

٧٩٢ : عَلِهتْ تردَّدُ فى نِهـــاءِ صَعائدٍ ... سَـــبعًا تُؤَامًا كامِلاً أَيَّامُها(١٠)

---

(٤) الغرة : الغفلة . فأصبنها ، فانتهزتها . لا تطيش : لا تخطىء . سهامها : جمع سهم ، وهو النبل ، وما يرمى به .

(٥) أسبل : أرسل وأسال . الواكف : المطر المنهل . الديمة المطرة التى تدوم نصف يوم على الأقل . الخمائل : جمع خميلة ، وهى كل رملة ذات نبت وشجر . التسجام : الانصباب .

(٦) طريقة متنها : خط ظهرها من الحارك إلى الكفل . متواترا : متتابعاً . كفر النجوم غمامها : ستر ضوء النجوم الغمام ، والكفر : هو الستر .

(٧) تجتاف : تدخل فى جوف ، والضمير يعود على البقرة الوحشية . أصلا : جذع شجرة . قالصاً : مرتفع الفروع . متنبذا : متنحيا . بعجوب أنقاء : العجوب جمع عجب بسكون الوسط : وهو أصل الذنب ، والأنقاء : جمع نقى وهو الكثيب من الرمل . والمراد أطراف الرمال المتجمعة . الهيام : الرمل ما يزال ينهال ولا يتماسك .

(٨) وجه الظلام : أوله ، لأن الوجه أول ما يستقبل الرائى . الجمانة : القطعة من الفضة ، أو اللؤلؤة ، وهى المرادة هنا لنسبتها إلى البحر ، ومنه يؤخذ اللؤلؤ ، لا الفضة . البحرى : المنسوبة إلى البحر أو البحرين ، إذ كان أهل إقليم البحرين مشهورين بالغوص على اللآلىء . سل نظامها : نزع خيطها .

(٩) انحسر : انكشف . أسفرت : أضاءت وظهرت . بكرت : غدت مبكرة . تزل : تزلق . أزلامها : قوائمها مفردها زلم .

(١٠) علهت : هلعت وفزعت . نهاء : جمع نهى وهو الغدير . صعائد : اسم مكان . سبعاً : أى سبع ليال . تؤاما : جمع توءم أى بأيامها .

حتّى إذَا يَئِستْ وأسحقَ حَالقٌ ... لم يُبْلِـــه إرضاعُها وفطامُها[11]

فتوجّست رِزّ الأنيسِ فراعَها ... عَن ظهرِ غيبٍ والأنيسُ سقامُها[12]

فَغدتْ كِلا الفرجينِ تحسَبُ أنّها ... مَولى المَخافةِ خَلفُها وأمامُها[13]

حتّى إذا يئس الرُّماةُ وأرْسلَوا ... غُضُفاً دَواجنَ قافلاً أعصامُها[14]

فلحِقنَ واعتكرَتْ لهَا مَدرِيَّةٌ ... كالسَّمهرِيّةِ حدُّها وتمامُها[15]

٢٩٨: لِتذُودَهنّ وأيقَنتْ إنْ لم تَذُدْ ... أنْ قد أحمّ مِنَ الحتُوفِ حِمامُها[16]

---

(١١) أسحق حالق : أخلق ضرع ممتلئ ، وليس ذلك هو المراد ، وإنما المراد ضرع مرتفع منضم إلى البطن لجفاف لبنه ، وقد استشهد اللسان على هذا المعنى ببيت لبيد هذا . لم يبله : لم يخلقه .

(١٢) فتوجست : فتسمعت خفي الصوت . رز الأنيس : الرز الصوت الخفي ، ويقصد بالأنيس الناس . فراعها : فأفزعها . عن ظهر غيب : عن عدم رؤية لأصحاب الأصوات . سقامها : سبب سقامها وضعفها .

(١٣) فغدت : فصارت . كلا الفرجين : الفرج الواسع من الأرض وموضع المخافة ، وما بين قوائم الدواب ، فما بين اليدين فرج ، وما بين الرجلين فرج ، وهو المقصود هنا . مولى المخافة : أولى بالخوف ، فمولى بمعنى أولى ، وذلك كقوله تعالى « مأواكم النار هي مولاكم » .

(١٤) الرماة : الصيادون . غضف : جمع أغضف ، وهي الكلاب المسترخية الآذان . دواجن جمع داجن ، وهي المعودات على الصيد . قافلا : يابسا . أعصامها :جمع عصام ، وهي سيور الجلد توضع في أعناق الكلاب .

(١٥) اعتكرت : رجعت وعطفت . المدرية : طرف القرن . السمهرية : الرماح المنسوبة إلى سمهر ، وهو رجل من قرية خطا إحدى قرى البحرين عرف بتثقيف الرماح وكانت له زوجة تسمى ردينة تنسب إليها الرماح كذلك .

(١٦) لتذودهن : لتدفعهن . أحم : حان الموت . الحتوف : جمع حتف وهو الموت حمامها : موتها .

فتقصّدتْ مِنها « كسابِ » فضُرِّجَتْ
بدمٍ ، وغُودِرَ في المكَرّ « سُخامُها »[١٧]

فبِتلكَ إذْ رقصَ اللّوامعُ بالضّحا
واجتابَ أرديةَ السّرابِ إكامُها[١٨]

٣٠١ : أقضِي اللُّبانَةَ لاَ أُفرطُ رِيبةً
أوْ أنْ يَلومَ بِحاجَةٍ لوّامُها[١٩]



(١٧) فتقصدت : فقصدت . كساب : اسم كلبة الصيد . فضرجت : خضبت بالدم . غودر : ترك . المكر : مكان الكر . سخامها :اسم كلب الصيد، ويظهر أنه كان أسود ، إذ السخام السواد .

(١٨) فبتلك : الإشارة إلى الناقة التي تشبه البقرة الوحشية . رقص اللوامع : اهتزت . الفيافى اللوامع ، فاللوامع صفة لموصوف محذوف . اجتاب : لبس . أردية : جمع رداء ، وهى الأثواب . الإكام : جمع أكمة المرتفعات .

(١٩) اللبانة : الحاجة . لا أفرط : لا أقصر . ريبة : خوفا . اللوام : الكثير العتب واللوم .

تحليل الأبيات :

هذه الأبيات من معلقة لبيد بن ربيعة ، وقد أظهر الشاعر فى معلقته ضروبا من الافتنان فى جميع فنون الشعر ، ولا سيا الوصف ؛ فقد تناول بالوصف الرائع الديار المقفرة ، والمنازل الدارسة ، والأمطار الواكفة ، ثم تغزل غزلا قصيرا ، وكأنى بلبيد كان رجلا جادا كزهير ، إذ لم يلبث أن عاد إلى الوصف ، فوصف الناقة وصفا صافى النبعة ، غزير المـادة ، وهذا الجزء أحد تلك التشبيهات ، فهو يشبهها بالبقرة الوحشية فيقول :

أفتلك الأتان « التى كان قد شبه بها ناقته قبل » أم البقرة الوحشية التى قد نكبها السبع فى ولدها ، حين غيبتها عنه ؟ إذ ذهبت ترعى مع صويحباتها من القطيع والصيران ؛ لتعود إليه وقد حفل باللبن ضرعها .

لقد خذلهـا زعيم القطيع وقائده ؛ إذ لم يستطع عن ولدها دفعا ، فهى هائجة ثائرة ، تطلب ولدها ، فلن يستقر لها من دونه قرار .

تلك البقرة الجميلة الخنساء ، المضيعة للفرير ، المفقودة الصغير ، لا تريم عن تلك الأرض الغليظة ، ولا تبرح عرض الشقائق طائفة صائحة صياحا رقيقا حزينا ، وكأنها تناديه فلا يجيبها ، فهى تبكى ذلك الفرير الذى طواه الرغام ، وغطاه التراب ، فعفر حسنه ، وغيب جماله ، تبكى ذلك الأبيض الناصع البياض الذى تنازعت الذئاب أشلاءه ، وتجاذبت الغبس أعضاءه ، فقد صادفن من البقرة غفلة فانتهزنها ، وأصبن منها غرة فاقتنصن فريرها ، ولو لم يكن القضاء نافذا ، والقدر مبرما ما صادفن الغفلة ، ولا أصبن الغرة ، ولـكن « إن المنايا لا تطيش سهامها » .

ها قد ولى النهار ، وأقبلت جحافل الظلام ، فباتت باكية نائحة ، تشاركها فى بكائها ديمة واكفة ، ويشاطرها عبراتها مزنة ماطرة ، تروى الخمائل بمائها المنسكب ، ودمعها المنهمر ، وهى فى ليلها المـكفهر يغطى طرائق ظهرها ، وخطوط متنها ذلك المطر المتواتر المتتابع ، لايقيها منه كن ، ولا يحجبها عنه كناس ، وقد ستر الغمام ضوء النجوم ، وكفر الركام نور الـكواكب ، فـكانت ليلة ليلاء اجتمع فيها على الخنساء الحزن والبرد والمطر ،

فإذا اشتد عليها التهطال جهدت أن تتقيه بالاستتار تحت جذع شجرة مستطيلة الفروع ، ممتدة الأفنان ، وهذه الشجرة نائية عن غيرها من الأشجار .

إنها وقعت فى كثيب من الرمل ينهال ولا يتماسك ، ويتساقط ولا يتساند ، فهى لفقد فريرها فى حزن ، ومن الطبيعة فى صرَد ، ومن انهيار الرمل فى فزع ، فما أشد ما نزل بها ! وما أعظم ما انتابها !

هذه البقرة بيضاء ناصعة ، فكأنها إذ تظهر فى أول الليل ساطعة واضحة ، درة صدفية ، أو لؤلؤة بحرية ، قد وهى عقدها ، وانفرط نظامها ، فهى لا تستقر فى مكان .

فإذا ما انكشف الليل، وولى الظلام ، وتنفس الصبح ، وأسفر النور، أصبحت مبكرة تنزع من الثرى قوائمها ، وتزل من التراب أزلامها ، ثم ظلت كما كانت هلعة فزعة ، لم يزايلها هلعها ، ولا جانبها فزعها ، واستمر ذلك حالها فى المكان المعروف بصعائد سبع ليال وثمانية أيام تبحث عن وليدها ، وكأنها تقدر أنه غائب وسيئوب :

وكل مسافر سيئوب يوما إذا منح السلامة والإيابا

وهى لم تر أحدا سلبه سلامته ، ولم تلاحظ عدوا انتهب من بين جنبيه روحه ، وإذن فلا بد من إياب .

وها هى ذى — وقد قضت ثمانية أيام سويا تبحث عنه فلا تجده ، وتهيب به فلا يفد عليها — تيأس من عودته ، فيجف ضرعها ، ويسحق خلفها ، وقد كان امتلاؤه أول الأمر باللبن من أسباب لوعتها وأساها ؛ إن ضرعها جف لا عن إرضاع بل عن غياب، وها قد سمعت صوتا خفيا ، وتوجست من الناس شرا ، فارتاعت ولم تر ما يروعها ، وفزعت دون أن تتبين ما يفزعها ، ولكنها مع ذلك حقيقة بأن ترتاع وتفزع ، فالناس بسهامهم أسباب حتوفها ، وهم رسل منيتها ، فهى مضطربة مختلجة ، لا تدرى من أين يجيئها حينها ، أمن الأمام فتتقيه أم من الخلف ؟ وهذا مالا حيلة لها فيه ؛ لأنها لا تبصره ولا تراه ، وليس لها إلى دفعه من سبيل .

إنها لا تتبين مصدر الصوت حتى تتقى المفاجأة ، وتتفادى المباغتة ، وهى قد فوتت

على الرماة أغراضهم ، فلم يصيبوا منها غرضا ، ولم يسددوا نحوها سهما ، فأرسلوا عليها كلابهم المسترخية الآذان ، المضرّاة على الصيد ، قد جملت بالقلائد فى الأعناق ، وزينت بالأعصام فى الأجياد ، فلحقت بها الكلاب ، فآبت إليهن تدافعها عن نفسها :

وإذا لم يكن من الموت بدّ   فمن العجز أن تكون جبانا

كان ذلك منطق تلك البقرة قبل أن ينطق به المتنبى ، وكان مستقيما ، فلها تلك المدرية التى هى أشبه بالرماح السمهرية فى حدة نصلها ، وطول قناتها .

عطفت عليهن ، لتذودهن عن نفسها ، وهى واثقة أنها إن لم تستمت فى الدفاع عن حياتها ، فإن الحتف سيكون مآلها ، قصدتها تلك الكلبة الكسوب حتى سميت كساب ففاجأتها بضربة بقرنها ، فضرجت بدمائها ، وأقبلت على سخام فتركته مجدلا ، فكان لها النصر ، وحقا قيل : « من طلب الموت وهبت له الحياة » .

بتلك الناقة القوية السريعة التى تشبه فى قوتها وسرعتها البقرة الوحشية المسبوعة أقطع المفازات ، فى ساعات الهجير ؛ إذ يلمع السراب ضحا ، وإذ تلبس الآكام أردية الآل ، أقطعها لأقضى أوطارى ، وأدرك مآربى ، لا أفرط فى طلبها خشية أو ارتيابا ، وما علىّ أن يلومنى اللائمون .

النقد :

لقد كان لبيد أطول الشعراء فى وصف البقرة الوحشية نفسا ، وهذه الإطالة لم تهن من قوته ، بل جاء كالفرس الجواد ، كلما طال المدى ظهر كرمه ، وبدا عزمه ، ذلك شأن لبيد فى وصفه يظهر قدرة فائقة ، ويبدى كفاية نادرة ، ويزجى فنونا من الافتنان ، ويسوق ضروبا من الإحسان ، لم يزجها شاعر جاهلى بعد امرئ القيس سواه ، ولا سيما فى معلقته التى منها هذه الأبيات ، وفرق بينه وبين طرفة ، فإن طرفة وصف أعضاء الناقة وأجزاءها .

أما لبيد فوصف شيئا غير أعضائها ، وصف ماتمدح له الناقة ، فشبهها بالغمامة الحمراء ، إذ يقول :

فلها هِبابٌ فى الزِّمامِ كأنها   صهباء خفَّ مع الجَنوبِ جَهامُها

ثم شبهها بالأتان الوحشية ، ثم شبهها بالبقرة المسبوعة ، وغرضه من جميع هذه الأوصاف السرعة .

وللبيد صور شعرية ناطقة ؛ محيطة كل الإحاطة بما يصوره ، فهى تنفذ إلى الأعماق، وتصل إلى اللباب ، فانظر تلك الصورة البارعة فى وصف بياض البقرة :

وتُضىء فى وجهِ الظَّلامِ منيرةً ... كجمانة البحرىّ سُلّ نظامُها

لم يكفه أن يصفه بالجمانة ، فوصف ضوءها فى الظلام ، ونسبها إلى موطنها ، ثم فرط عقدها ، لأن ذلك يصور حركتها الدائمة ؛ إذ ليس هناك ما يمسك هذه الحركة ، وانظر إلى قوله فى وصف قرنها :

فلَحقنَ واعتكَرَتْ لهَا مَدرِيَّةٌ ... كالسَّمهرِيَّةِ حِدُّها وتمَامُها

وصف القرن بأنه كالرمح ، وليعطينا صورة كاملة ذكر أنه كان محددا وطويلا ، وانظر إلى قوله يصف الفلاة يرقص فيها السراب :

فبتلكَ إذْ رقَصَ اللوامعُ بالضُّحاَ ... واجْتابَ أَرديةَ الظَّلامِ إكامُها

إنها صور لايجيد رسمها إلا شاعر مصور كلبيد .

وميزة أخرى للبيد هى أنه يستطيع أن يجعل الوصف مجالا للحكمة والوعظ كقوله :

صادَفن منها غِرَّةً . فأصَبْنهَا ... إن المَنايا لا تَطيشُ سِهامُها

وقوله :

لتذودَهُن وأيقنَتْ إنْ لم تذد ... أنْ قد أحمَّ مِنَ الحُتوف حِمامُها

أليست هذه قدرة أخرى امتاز بها لبيد ، ولم يشاركه فيها إلا زهير بن أبى سلمى ، ولم نجد من الشعراء سواهما من هيئ له من التفوق فى هذا الضرب ماهيئ لزهير وللبيد .

٢ — وقال النابغة الذبيانى* من قصيدته التى أولها :

يا دارَ ميَّـــةَ بِالعلياءِ فالسَّنَدِ أقوَتْ وطالَ عليها سالفُ الأمدِ(١)

كأنَّ رَحْلِي وقد زَالَ النَّهارُ بِنَا يوم الجليلِ عَلَى مُستأنِسٍ وَحِدِ(٢)

مِنْ وَحشِ وَجْرةَ مَوْشيٍّ أكارِعهُ طَاوِي المَصيرِ كَسيفِ الصَّيْقَلِ الفَرَدِ(٣)

سرَتْ عليهِ مِنَ الجوزاءِ سَارِيَةٌ تُزجِي الشَّمالُ عليه جامِدَ البَرَدِ(٤)

٣٠٦: فارتاعَ مِنْ صوتِ كلَّابٍ فباتَ له

طَوْعُ الشَّوامِتِ مِنْ خَوْفٍ ومن صَرَدِ(٥)

ترجمة الشاعر : هو زياد بن معاوية أحد الشعراء الثلاثة الذين حكم لهم بالسبق فى الشعر ، وزعيم نقاده ، وذوى البصر به ، كانت تقام له قبة من جلد فى سوق عكاظ : ليتحاكم إليه الشعراء، وكان من سراة قومه ، فغض مدحه الملوك وأخذه منهم الصلات من ذلك السراء، وأجود شعره ما قاله فى الاعتذار إلى النعمان بن المنذر ، وما ساقه فى الوصف ، وقيل إنه لقب بالنابغة ، لنبوغه فى الشعر بعد أن كبرت سنه توفى سنة ٦٠٤ م .

التفسير اللغوى : (١) مية : حليلته . العلياء : المرتفع من الأرض . السند : ما يقابل الإنسان من الجبل ، ، وهو فوق السفح . أقوت : خلت أو أقفرت . سالف الأمد : ماضى الدهر . (٢) الرحل : ما يوضع على ظهر البعير ، فيشبه السرج للفرس . زال النهار : حل وقت الزوال ، وهو الوقت الذى تتوسط الشمس فيه السماء . يوم الجليل : بذلك المكان الذى ينبت الجليل وهو الثمام . المستأنس : الذى ينظر بعينه كأنه يطلب الأنيس . وحد : منفرد (٣) وجرة : فلاة بين مكة والبصرة ، وهى قليلة الماء لذلك لايسكنها أحد . موشى : منقط . أكارعه : قوائمه ، ومفرده كراع كغراب . طاوى المصير : ضامر المصير ، وجمع المصير مصران ، وجمع الجمع مصارين . الفرد : الفريد الذى لا نظير له . (٤) سرت السارية : سارت السحابة ليلا . الجوزاء : نجم يظهر صيفاً . سارية سحابة تسير بالليل . تزجى : تسوق برفق. الشمال : الريح تهب من جهة الشام . جامد البرد : الماء المتجمد قطعا صغارالشدة البرد . (٥) فارتاع : فزع ، والضمير يعود على الثور الوحشى . كلاب : صاحب كلاب . طوع الشوامت : مطيع القوائم ، الشوامت جمع شامتة . الصرد : البرد الشديد .

فبثّهُن عليـــهِ واستمرّ بِهِ ... صُمعُ الكعُوبِ بريّاتٌ منَ الحرَدِ (٦)

وكان «ضُمرانُ» منه حيثُ يُوزِعهُ ... طعنَ المعاركِ عند المَحجرِ النجدِ (٧)

شكَّ الفريصةَ بالمدرى فأنفذَها ... شكَّ المُبيْطرِ إذْ يَشفِي منَ العَضَدِ (٨)

كأنّه خارجًا منْ جنبِ صَفحتِهِ ... سفُّودُ شَربٍ نَسُوه عِندَ مُفتأدِ (٩)

فظلَّ يعجمُ أعْلَى الرّوقِ مُنقبِضاً ... فى حالكِ اللّونِ صَدْقٍ غيرِ ذِى أوَدِ (١٠)

لمّا رأى «واشقٌ» إقعاصَ صَاحبِه ... ولا سبيلَ إلَى عَقْلٍ ولاَ قَوَدِ (١١)

٣١٣ : قالتْ لهُ النفسُ: إنّي لا أرَى طمَعاً ... وإنَّ مَولاكَ لم يَسْلَمْ ولمَ يَصِدِ (١٢)

---

(٦) فبثهن : فمرقهن ، والضمير يعود على الكلاب ، وإذا بهناك غير ضمران وواشق ، ويظهر أن هذين كانا أمهر الكلاب . صمع الكعوب : ضوامر ، ومفرد صمع أصمع ، وهو وصف للقوائم الملس . بريات من الحرد : بريئات من الحرد وهو ترهل فى المفاصل .

(٧) ضمران : اسم كلب . يوزعه : يغريه ويحضه . المحجر : الملجأ . النجد : الشجاع من النجدة ، أو الذى يعرق من الكرب والشدة ، والأول هو المراد .

(٨) شك الفريصة : طعنها وأنفذ فيها قرنه . والفريصة : قطعة لحم من مرجع الكتف إلى الخاصرة . المدرى : القرن . المبيطر : البيطار . العضد : بالفتح داء يصيب العضد .

(٩) كأنه : الضمير يعود على القرن . صفحته : جانبه . سفود شرب : السفود حديدة يشوى عليها اللحم . والشرب جماعة الشاربين . نسوه : تركوه ومنه قوله تعالى : « نسوا الله فنسيهم » أى تركوه فتركهم ؛ إذ الله جل شأنه لاينسى شيئاً . المفتأد : موضع النار التى فيها الشواء . (١٠) فظل : فاستمر اليوم كله وليس مرادا وإنما المراد فاستمر . يعجم : يعضغ . الروق : القرن . منقبضاً : منطويا متجمعاً . الصدق : بالفتح الصلب . الأود : الاعوجاج .

(١١) واشق : اسم كلب آخر ، وسمى بذلك لأنه يشق اللحم . إقعاص صاحبه : الإقعاص القتل السريع الذى نزل بصاحبه ضمران . لا سبيل : لا طريق ولا رجاء . إلى عقل : إلى دية ، ولا قود : ولا قصاص . (١٢) قالت له النفس : ناجته نفسه وحدثته . وله الضمير يعود على واشق . الطمع : الرجاء والأمل . مولاك : سيدك . لم يسلم : لم يسلم من الخسارة .

تحليل الأبيات :

ناجى النابغة دار محبوبته مية متوجعا متحسرا ؛ لأنه كان منها فى نعيم ، وبعد أن شفى قلبه بمناجاته إياها ، والتحسر عليها ، أخذ يصف ناقته فى بيتين انتقل بعدهما إلى وصف الثور الوحشى ، والبيتان هما :

فعدِّ عما ترى إذْ لاارْتِجَاعَ له ... وانْمِ القُتُودَ عَلَى عَيْرانَةٍ أُجُدِ

مَقذوفةٍ بِدَخيسِ النَّحْضِ بازِلُها ... له صريفٌ صريفُ القَعْوِ بِالمَسَدِ

كأنَّ رحْلِي وقد زالَ النهارُ بنا ... .

فهو يقول : كأنى إذ أضع رحلى ساعة الزوال ، فوق ظهر ثور وحشى غير محدود النشاط ، فى ذلك المكان الموحش الذى لا أنيس لى فيه يزيل وحشتى ، ويؤنس وحدتى .

إنه من وحش وجرة القليلة الماء ، المعدومة الغذاء ، وهو ضامر كالسيف المصقول ، ليس له فى صقله نظير ، وهو إلى توجسه وخوفه ، وظمئه وجوعه قد أسرت إليه فى ليلة ضريرة النجم مزنة شمالية لاتمل البكاء ، ولا تترك النحيب ، فهى تحمل إليه البرد والبرد ، وتسوق له معها الخوف والحذر ، والجوع والظمأ .

لكل أولئك هو مضطرب الحس ، هلع النفس ، قد ضاعف ماهو فيه أنه سمع صوت صياد جاء يغزوه فى عقر داره ، ويطارده فى فلاته بقوانصه ، ولكنه قدر أن الله منحه أكارع ملساء ، وقوائم جرداء قد برئت من العيب ، وسلمت من الحرد ، فهى كفيلة بأن تدفع عنه هذه الكلاب المطاردة .

أقبل عليه زعيمها كما أراد منه سيده ، فإذا انصباب واندفاع ، وقفز ووثب ، ومداورة ومراودة ، ومخادعة ومخاتلة ، ثم معركة حامية الوطيس طعن فيها الثور ضمران فى شجاعة ونجدة طعنة أنفذ بها قرنه فى بطنه ، فكان كأنه بيطار يشق عن داء ليغسله بالدواء ، وظهر القرن من الجنب الآخر مضرجا بدم الكلب ، كأنه سفود تركه فوق النار جماعة الشاربين ، فاحمر واشتعل ، فصار كأنه عمود من النار ، وأخذ الكلب فى ثورة ويأس يعض أعلى القرن

الحالك الأسود ، القوى الصلد ، المستقيم الممتد ، وهو متقبض الجسم ، مكفهر الوجه ، مما يشعر به من آلام الجراح والأوجاع .

وحين رأى واشق ماحل بأخيه من هزيمة و بوار، واندحار وانكسار، دون أن يحكم له أحد بدية يودى بها ، أو قصاص يقتص به من عدوه الفاتك ، حدثته نفسه ، وقد استولى عليها الفزع ، ونزل بها الجزع أنه لايرى فى ذلك الثور مطمعا ، ولا يرجو من وراء منازلته مغنما ، فعليه أن يرضى من الغنيمة بالإياب ، فهاهوذا سيده يعود وقد خسر خسارة فادحة ، دون أن يكسب شيئا ، فما أشقى جده ! وما أتعس يومه !

النقد :

كأنى بالنابغة الشاعر الوصاف القاص قد عمد إلى وصف قصة تخيلها ، وقص منظر تصوّره ، عُنى بأن يصف الثور الوحشى فى معركة حامية ، و بأن يقص علينا قصة حربية ، والنابغة يجيد القصص و يحسن التصوير .

أتاح له الإجادة فى هذين النوعين خياله الواسع ، وشرفه الرفيع ، فقد هيأت له حياته المتحضرة ، ورحلاته المتعددة ، ومنادمته الملوك ، ومصاحبته الأقيال أن يتسع خياله و يجود تصويره .

اختار لهذه المعركة أسلحتها ، وأعد لها عتادها : الثور الوحشى ، والكلاب المبثوثة ، والشك والفرائص ، والمدرى والروق ، والبيطر والعضد ، والسفود والمفتأد ، ثم رأى أن الصلح الشريف غير مستطاع فلا دية ولا قود ؛ فأى ألفاظ ميدان تنقص وصف ذلك الميدان ؟ وأى صورة للمعارك أدنى من تلك الصورة التى أعد لها ألوانها ، وهيأ لها ميدانها ؛ إذ يقول :

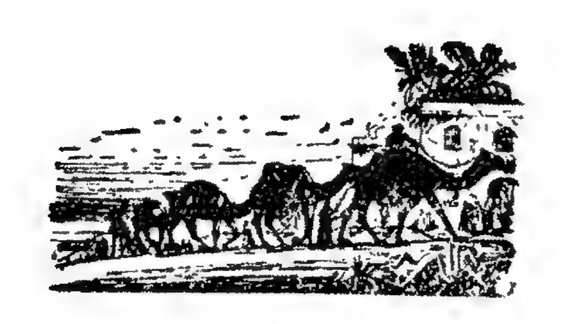
وكانَ « ضُمرانُ » منه حيثُ يُوزِعهُ	طعنَ المعاركِ عِند المحجَرِ النَّجِدِ
شكَّ الفريصةَ بالمِدْرَى فأنفذها	شكَّ المُبيطرِ إذْ يشْفِي من العَضَدِ
كأنّهُ خارجًا من جَنْبِ صَفْحَتِه	سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوه عِندَ مُفْتأدِ

فظلّ يعجمُ أعلى الرّوقِ مُنقبِضًا ... في حالكِ اللّونِ صَدْقٍ غيرِ ذِي أوَدِ

لقد كانت معركة النابغة معركة أليمة أسالَ فيها الدماء ، وكأنى به كان من تُجّار الحرب — كما يقالُ فى الأساليبِ الحديثةِ — فعاشَ حياتَه داعياً إليها ، محرّضاً عليها ؛ حتى بَيْنَ أنواعِ الحيوان .

تلك معانى النابغةِ تدُلُّ على بيئةٍ حربيّةٍ ، دلالَتها على الخيلِ الحضَرى ، فليس جميع العرب يعرفون : « سَفُّودَ شربٍ نَسُوهُ عند مُفتأَدِ » وإنما هــذا خيال من ينادم الملوك والأمراء .

أما أسلوبه فمستقيم لا أمت فيه ولا عوج ، ولا تركيب ولا تعقيد ، وإنما هو يسير على نمط عال من القول ، وقوة محكمة من الرصف . وأما الألفاظ فإن النابغة السهل العذب يجزل ويصلب عند ما يتناول وصف معانى الحيــاة الجزلة الصلبة كالناقة والصحارى ، والأوابد والفيافى ، وكأنى به يريد محاكاة تامة للطبيعة ، وهذه إحدى نواحى قدرته وجلاله .



٣ — وقال سويد بن أبي كاهل اليشكرى * من يتيمته التى أولها :

بَسطتْ رابعةُ الحبْـــلَ لنَا ... فوصَلْنَا الحَبْلَ مِنها ما اتَّسَع(١)

فكأنّى إذ جَرى الآلُ ضُحاً ... فوقَ ذَيَّالٍ بخَـدَّيْهِ سَفَعْ(٢)

كُفَّ خَـداه على ديباجةٍ ... وعَلَى المتنين لونٌ قد سَطَعْ(٣)

يَبْسُطُ المَشْىَ إذَا هَيَّجْتَـه ... مِثلما يَبْسُطُ فى الخَطْوِ الذَّرَعْ(٤)

راعَهُ مِنْ طيِّءٍ ذُو أسهمٍ ... وضِرَاءٌ كُنَّ يُبْلِينَ الشَّرَعْ(٥)

فرآهن ولمَّا يَسْتَبِنْ ... وكِلابُ الصَّيْدِ فِيهنَّ جَشَعْ(٦) : ٣١٩

---

* ترجمة الشاعر : سويد بن أبى كاهل اليشكرى ، شاعر مخضرم عمر طويلا فى الجاهلية ، ثم أدرك الإسلام ، فأسلم ، وقد عده نقاد الشعر من أجواد الشعراء ، وقصيدته التى منها هذه الأبيات من الرائع النفيس ؛ حتى كان العرب يسمونها باليتيمة لما تشتمل عليه من الحكمة الحكيمة ، والمثل الصادق ، ولا يحفظ التاريخ الأدبى للشاعر غير هذه القصيدة إلا القليل ، وإذن فإن يكن من المجيدين ، فقد كان من المقلين ، توفى سنة ٦١ هـ .

التفسير اللغوى : (١) بسطت : مدت . رابعة : اسم محبوبته . الحبل : يريد الوصل . فوصلنا الحبل : فأطلنا حبل الوصل . ما اتسع : ما أمكن اتساع الوصل لنا . (٢) الآل : السراب . الذيال: الطويل الذيل من أى حيوان ويقصد هنا الثور الوحشى. سفع : السفع السواد المشرب بالحمرة . (٣) كفف : ضم ، ومنه قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « أمرت ألا أكف شعراً ولا ثوبا » يعنى فى الصلاة . الديباجة : صفحة الخد . على المتنين . على جانبى الظهر . سطع : ظهر ووضح . (٤) يبسط المشى : يوسع الخطو ويمده . هيجته : أثرته ، مثلما يبسط : مثل بسط . الذرع : الطلا ، وهو ولد البقرة الوحشية .

(٥) راعه : أفزعه ، والضمير يعود على الذرع فى آخر البيت السابق . لا على الثور . طيء : إحدى القبائل العربية المنسوبة إلى قحطان ، وكان أبناؤها معروفين بالمهارة فى الصيد . ذو أسهم : وصف لموصوف محذوف أى صياد صاحب اسهم ، والأسهم جمع سهم النبال . الضراء : الكلاب المضراة على الصيد ، ومفردها ضار . يبلين : يخلقن . الشرع : الأوتار ، مفردها شرعة . (٦) فرآهن : ضمير النسوة عائد على الضراء ، والضمير الفاعل عائد على الثور : لما يستبن . لما يتحقق ويتبين . الجشع : الطمع وشدة الحرص على الصيد .

ثُمَّ ولَّى وجنابانِ لهُ مِنْ غُبارٍ أَكْدَرِيٌّ واتَّدَعْ.(٧)

فتراهُنَّ عَلَى مُهْلَتِـهِ يَخْتلينَ الأَرضَ والشَّاةُ يَلَعْ.(٨)

دانيـاتٍ ماتلبَّسْنَ بِهِ وَاثِقَاتٍ بِدِماهِ إِنْ رَجَعْ.(٩)

يُرهِبُ الشَّدُّ إِذَا أَرْهَقْنَهُ وإذا برَّزَ منهُنَّ رَبَعْ.(١٠)

٣٢٤ : ساكِنُ القَفْرِ أَخُو دَوِيَّةٍ فإذا ما آنَسَ الصَّوْتَ امَّصَعْ.(١١)



---

(٧) ولى : مضى وفر . جنابان له : جانبان له . الأكدرى : المنسوب إلى الأكدر وهو وصف من الكدرة وهى الغبرة . اتدع : تراخى فى جريه ، ولم يجهد نفسه فى عدوه ، لاطمئنانه إلى بعده .

(٨) مهلته : تمهله وتباطؤه . يختلين : يقطعن ، ومنه اختلى العشب : جزه وقطعه . الشاة : اسم للثور الوحشى . يلع : يستخف بهن ، ولا يجد فى بعده عنهن .

(٩) دانيات : قريبات : ماتلبسن : لم يختلطن به . واثقات : موقنات . بدماء : بجريان دماء أو بمعركة تسيل فيها الدماء . إن رجع : إن عاد إليهن وقرب منهن .

(١٠) يرهب الشد : يخيف العدو السريع فيطيعه . أرهقنه : أتعبنه وأعجلنه . برزمنهن : بعد عنهن ، ومنه برز الفرس إذا سبق الخيل فى الميدان وبعد فلم يدركنه . ربع : اطمأن فأقام ، يقال « اربع على نفسك » أى توقف مطمئنا على نفسك .

(١١) ساكن القفر : كناية عن الثور الوحشى ؛ لأنه يعيش فى القفار ، ومثلها أخو دوية . آنس : سمع وأحس . امصع : ولى ، يقال : مصع الفرس : مر مرا خفيفاً .

تحليل الأبيات :

بدأ سويد قصيدته بالغزل ، فأخبر أن حبيبته قد بسطت له حبل وصالها ، ومدت له فى مرضاتها ، فبادلها شعورها ، ثم سار بعد الغزل فى أفانين من الوصف حتى بلغ وصف ناقته، فشبهها بالثور الوحشى ، فقال :

كأنى فى تلك الفلاة المقفرة — وقد برق فيها السراب ، ولمع أمام السائرين ، وتألق وسطع فى عيون الناظرين ؛ إذ الشمس مشرقة ، والأشعة متلألئة — أركب ثوراً ضافى الذيل ، أسيل الخد ، نبيل الصفحة ، نخداه أسفعان فى سوادهما حمرة تمنحهما حسنا ، وتكسوهما رونقا ، قد ضما على صفحة سوداء ، وجمعا على ديباجة سفعاء . أما جانبا ظهره فناصعا البياض ، ساطعا الإشراق ، يبسط المشى ، ويوسع الخطو إذا ظهر له مايهيجه ، أو لمح ما يثيره ، حينئذ يبدو للرائى ، وكأنه الطلا سرعة عدو ، وشدة ركض .

وهاهوذا يظهر له مايهتاجه ويثيره ، ظهر له صياد ماهر ، من قبيلة طيئ المشهورة بالرماية ، المعروفة بالتسديد ، أسهمه لديه موفورة ، وكلابه معه مضراة ، فهى لكثرة استخدامها توهى أوتار الأسهم .

لقد رأى الثور هـــذه الكلاب ، وكم قد رآها من قبل ، وكم عرف ضراوتها وقوة مراسها ؛ إنه يراها على مدى بعيد ، ومن بعد سحيق ، يعرفها حريصة على صيده ، طموعا فى قنصه ، فولى دونهن مدبراً ، وقد اغبر جانباه ، واكدر متناه من الغبار المنتشر من كرّه وفره ، ومن شدّه وعدوه ، وإذ وثق بنأيه عنهن ، وأيقن عدم قدرتهن على لحاقه سار فى تراخ وتباطؤ ؛ كأنه يشمت بهن ، ويسخر منهن ، فهن يقطعن الأرض عاديات ، ويختلين المفازة مسرعات ، أما هو فيسير متمهلا ، « فكأنه آس يجس عليلا » إنها تدنو ولكنها لا تلحقه ، وتقرب من مكانه ولكنها لا تدانيه ، حينما يزداد قربها منه يخيف العدو فيطيعه ، ويهيب بالشد فيجيبه ، فإذا هو عاد راكض حين يرهقنه لحاقا ، ويعجلنه إدراكا ، فإذا ما أبعد عنهن، وقف ينظر إليهن مطمئنا إلى قوته ، مغتبطا بسبقه وتفوقه .

إن هذا الثور ابن الصحراء ، وأخو المفازات شديد الإحساس، متوفز الإدراك ،

فإذا ماأحس نأمة ذهب عدوا ، و إذا شعر بحركة راح ركضا ، فإذا هو عن الشر بعيد ، ومن عدوان العدو أمين .

النقد :

فى هذه الأبيات صورة واضحة لطرد الكلاب للثيران الوحشية ، فهى تحاول أن تختلها عن نفسها ، وتجاهدها لتقتنصها ، ولكن الأخرى دائمة اليقظة ، شديدة الحرص على ألا تقع فى أيدى أولئك المعتدين .

انظر إلى الحركات فى تلك الصور الشعرية : يراها عن بعد ، فيترقبها ، ثم يبتعد عنها عدوا ، ثم يقف متراخيا ناظرا إليها ؛ ليراها إلى أين تسير و إلى أى جهة تقصد ؟ فهو يعرف فى الكلاب الدهاء والخداع ، والموار بة والمناورة ، فإن سارت الكلاب يمينا سار هو شمالا ، و إن أقبلت تلك أدبر ذاك حتى ييأس الصياد من الصيد ، وتعجز الكلاب عن الطرّد .

إن الثور لايطرف له طرف ، ولا يغمض له لحظ ، فذو الأسهم من ورائه حريص ، فإذا غفل عنه أصابه البوار .

كل هذه الصور رسمها سويد فى أسلوب واضح قوى جميل ، فأى وضوح وقوة وجمال ينمّ عنها الشعر وتبدو فى الصور يبز قوله ؟

راعَه من طيئ ذو أسهمٍ وضِرَاء كُنَّ يُبْلِينَ الشِّرَعْ
فرآهُنَّ ، ولمَّا يستبِنْ وكِلاَبُ الصَّيْد فيهنَّ جَشَعْ
ثمَّ ولى وجنابان لهُ مِنْ غبارٍ أكدريٍّ واتَّدَعْ
فتراهُنَّ عَلَى مُهْلتِه يَختلِينَ الأرضَ والشاةُ يَلَعْ

أى تصوير لساكن الصحراء أروع من ذلك التصوير ؟ وأى معان لمعركة باردة « على حد تعبير رجال السياسة فى هذا العصر » أوفر من هذه المعانى ؟ وأى ألفاظ مؤدية لهذه المعانى أدق من هذه الألفاظ ؟

الألفاظ مؤدية للمعانى أتم الأداء لولا أن القافية فيها غرابة حينا ، وثقل حينا ،

ولعل ذلك لطول القصيدة ، ولقلة الألفاظ التى تناسب الوزن ، فمن الألفاظ الثقيلة « اتدع ، امصع » .

ويختلف سويد عن النابغة فى أن النابغة أحال الحرب الباردة إلى حرب حارة، فسويد يكتفى عن المنازلة بالمخاتلة ، فحين يقول النابغة :

كَأَنَّهُ خارجاً مِنْ جَنْبِ صَفحَتِهِ ⁂ سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوه عند مُفْتأَدِ

يقول سويد :

دانيـاتٍ ماتَلَبَّسْنَ بِهِ ⁂ واثقاتٍ بِدِماء إنْ رَجَعْ

لقد سلك كل منهما مسلكا أراده ، ولكن النابغة كان أوعر مسلكا، وأجمل صورا، وهذا أمر عرف عن النابغة ، فقد كان أميل شعراء عصره إلى المبالغة و إلى التصوير .



٤ — وقال امرؤ القيس * يصف الحمار الوحشي :

كأنّي ورحلِي فوق أخْقَبَ قارحٍ　بشربةَ أوْطَاوٍ بِعرنَانَ مُوجِسِ[١]

تعشَّى قَليــلاً ، ثم أنحَى ظلوفَه　يُثِيرُ التُّرَابَ عَن مَبيتٍ ومَكْنِسِ[٢]

يُهيــلُ ويُذرِى تُربهَا ويُثيِرُها　إثَارَةَ نبَّاشِ الْهَوَاجِرِ مُخْمِسِ[٣]

فبَاتَ عَلَى خَــدٍّ أحمَّ ومَنكبٍ　وضِجعَتُهُ مثلُ الأسيرِ المُكرْدَسِ[٤]

وبَاتَ إلى أرطاةِ حِقفٍ كأنهـــا　إذَا ألثقَتْهَا غَبْيةٌ بيْتُ مُعْرِسِ[٥]

٣٣٠: فصبَّحَه عنـــد الشُّرُوقِ غُدَيَّةً　كِلابُ ابْنِ مُرٍّ أو كِلابُ ابنِ سِنْبِسِ[٦]

---

* ترجمة الشاعر : انظر ترجمته فى وصف الفرس ص ١٠٩ .

التفسير اللغوى : (١) الأحقب: الحمار الوحشى الأبيض مكان الحقيبة . القارح: الذى شق نابه . شربة : اسم عين ماء . طاو : جائع غرثان . بعرنان : عرنان : اسم جبل . موجس : حذر خائف .

(٢) أنحى ظلوفه : عدل أظفاره استعدادا للنبش والنبث . يثير : يسفى ويذرى : المبيت : اسم مكان من بات مكان البيات . المكنس : الكناس والمسكن .

(٣) يهيل : يسقط . يذرى : يطير ويثير . نباش الهواجر : النباش فى أوقات الظهيرة ، وهذا الوصف يغلب للضبعة . مخمس : خامس خمسة .

(٤) أحم : أسود أو أبيض فهو من أسماء الأضداد ، والوصف بالبياض هو المراد ، إذ وصفه فى أول بيت بأنه أحقب . المنكب : مجتمع الكتفين . المكردس : المقيد ، والكردسة التقييد .

(٥) إلى أرطاة : إلى جانب شجرة أرطاة ، وثمر هذا الشجر يشبه العناب . الحقف : الرمل المجتمع . ألثقتها : بللتها وندتها . غبية : الغبية الدفعة الشديدة من المطر . المعرس : المتخذ له عرسا .

(٦) فصبحه : جاءه عند الصباح . غدية تصغير غدوة ، ويصح غدية بفتح الغين ، فتكون من غير تصغير . ابن مر وابن سنبس : صيادان ماهران من قبيلة طيء ، وقد قدمنا أن هذه القبيلة معروفة بحسن الرماية ، وسداد الإصابة .

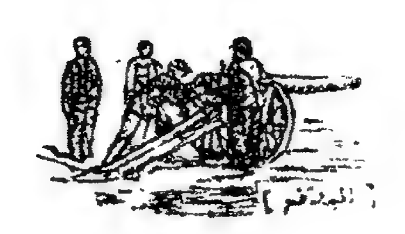
مُغَرَّثَةً زُرْقًا كَأَنَّ عُيُونَهَا ... مِنَ الذَّمْرِ والإِيحاءِ نُوَّارُ عَضْرَسِ (٧)

فَأَدْبَرَ يَكْسُوهَا الرَّغَامُ كَأَنَّهَا ... عَلَى الصَّمْدِ والآكامِ جَذْوَةُ مُقْبِسِ (٨)

وأَيْقَنَ إِنْ لاقَيْنَهُ أَنَّ يَوْمَهُ ... بِذِي الرِّمْثِ إِنْ مَاوَتْنَهُ يَوْمُ أَنْفُسِ (٩)

فَأَدْرَكْنَهُ يَأْخُذْنَ بِالسَّاقِ والنَّسَا ... كَمَا شَبْرَقَ الوِلْدانُ ثَوْبَ المُقَدَّسِ (١٠)

٣٣٥: وغَوَّرْنَ فِي ظِلِّ الغَضَا وَتَرَكْنَهُ ... كَقَرْمِ الهِجَانِ الفَادِرِ المُتَشَمِّسِ (١١)



التفسير اللغوى : (٧) مغرثة : مجاعة لتكون أشد فتكا ، وأقوى عدوا . الذمر : الإثارة واللوم والتحريض . الإيحاء : الايماء والإشارة. نوار : زهر النبات . العضرس : شجر له نور أحمر . (٨) فأدبر . فرجع . يكسوها الرغام : يغطيها الغبار ، حتى كأنه لها كالكساء . الصمد : المكان المرتفع . الآكام : جمع أكمة وهى كالصمد فى المعنى . جذوة : شعلة . مقبس : طالب قبس من نار . (٩) أيقن : وثقن ، والضمير عائد على كلاب ابن مرو ابن سنبس . بذى الرمث : كناية عن مكان به من شجر الرمث الكثير . وهو شجر يشبه الغضا ، وترعاه الإبل . ماوتنه : صابرنه وجالدنه حتى الموت . يوم أنفس : يوم زهاق أنفس . (١٠) يأخذن : يعضضن . الساق : ما بين الكعب والركبة . النسا : عرق من الورك إلى الكعب . شبرق : مزق . الولدان : الغلمان . المقدس : الرجل المطهر نفسه من الأدناس . (١١) غورن : سرن فى الأرض المنحدرة . كقرم الهجان : كالفحل الكريم . الفادر : الناقة المنفردة . المتشمس : الشموس النفور .

تحليل الأبيات :

فى هذه الأبيات صور نابضة بالحياة ، وصور ساكنة هادئة أحيانا ، فهى تمثل الحياة أروع تمثيل ، أليست الحياة حركة وسكونا ، وحياة وهمودا ؟

إنك إذ تقرأ هذه الأبيات تمثل البادية بحمرها الوحشية ، وشجرها المنبث فى أطرافها ونواحيها ، ورمالها الصفراء ، وصحرائها الفيحاء ، وكلابها المضراة ، وصياديها الخاتلين ، فهى صورة مرتبة واضحة ، أجزاؤها متناسقة ، وألوانها متآلفة ، لاتجد فى بعضها نبوا عن بعض، ولاتسمع فى حركاتها من حركاتها نشوزا ، وذلك هو الحس والخيال ، والروعة والجمال .

شبه امرؤ القيس ناقته من فوقها رحله بالحمار الوحشى الفتى ، ثم انصرف عنها إليه ، فهو ممتلئ نشاطا وعراما لأنه قارح ، أو لأنه طاوى الكشح ، أو لأنه قارح طاوى الكشح معا ، وهو قبالة عين ماء ، أو فوق جبل متباعد الأنحاء ، إنه هنا وهناك ؛ لأنه لايسكن ولا يهدأ ، فهو خائف متوجس ، حذر متربص ، لم ينل من الطعام فى أمسيته ما يسد جوعته ، أو يمسك صلبه ، إنه جامع أظلافه يهيل بها التراب ، كأنه يبحث عن مكنس أو مسكن ، مثله إذ يهيل الثرى ويذريه كمثل الضباع تنبش التراب ساعة الظهيرة ، فإذ هيأ له مناما هدأ عزمه ، وفتر نشاطه ، ونام على خد ومنكب أبيضين ، وهو فى ضجعته الهادئة كالأسير المقيد لايبدى حركة ولا يحدث ضجيجا .

قد اتخذ كناسه إلى شجرة تجمع حولها الرمل ، فكأنها إذا بللتها دفعة من المطر ، أوندتها مزنة من سحاب ، بيت رجل أعرس ، فهو هادئ ساكن ، ولكنه إذ ينفجر الفجر ، ويتنفس الصبح تصبحه كلاب مضراة على الصيد كأنها فى ضراوتها ودربتها « كلاب ابن مر أو كلاب ابن سنبس » .

وهى إلى هذه الضراوة مغرثة مجاعة ؛ لتكون أشد فتكا وأقوى عراما ، فعيونها لقسوة ذمرها وحرضها ، وشدة ثورانها وهياجها حمراء مشتعلة كأنها نوار عضرس .

رأى الحمار هذا الكلاب يذمر كلابه ، فشد يخلف من ورائه سحابا من الغبار ،

يكسو هذه الكلاب فكأنه ـ إذيعلو الأصماد والآكام ، و يرتفع إلى الربا والنجاد ، و يختلط الغبار المتطاير ببياضها ، فتغير لونها ـ جذوة من نار .

وكلما أيقن أنه إن لاقى هذه الكلاب فى وادى الرمث ، فإن نفوسا ستهلك ، ودماء ستهرق ، قد تكون نفسه إحداها ، وقد يكون دمه هو الدم المهراق سابق الريح ، وأمعن فى شده ؛ لايبقى من عدوه على شىء .

ثم إنه يتصور أنها إن أدركته فستأخذ بساقيه ووركيه ، فتمزقها تمزيقا ، تمزيق الغلمان الأغرار ألفين الراهب المطهر ذا التقوى والبركات آئبا من بيت المقدس ، فهم يتبركون به ، فيمزقون ثيابه التماسا للبركة ، وطلبا للمغفرة .

هذه الكلاب انحدرت إلى ظل أشجار الغضا بعد أن يئسن من لحاقه ، وأيقن عدم القدرة على إدراكه ، وتركنه قويا نشيطا لم يمسه نصب أو لغوب ، فهو كالفحل الهجان ، المنفرد فى حظيرته ، الشموس لايقوى أحد على مواجهته .

النقد :

فى معانى امرئ القيس وسويد بن أبى كاهل تشابه كثير ، وليس عظيما على سويد أن يقبس من امرئ القيس ، فإننا لا نكاد نجد شاعراً لم يكن عالة على امرئ القيس فى معانيه ، فإذا قال امرؤ القيس :

وأيقنَّ إن لاقينَه أن يومَه بذى الرِّمثِ إن ماوتْنَه يومُ أنفُسِ

ألفينا سويدا يقول :

دانيـــاتٍ ماتلبَّسْنَ به واثقاتٍ بدماء إنْ رَجَعْ

ومع أن واجب الأخذ أن يزيد الآخذ عمن أخذ منه فى المعنى أو فى الأسلوب ، فإن هذا الواجب لم يؤده سويد ، فبيت امرئ القيس أدق فى المعنى ، فقد حدد المكان الذى يكون فيه التماوت ، وهو أجمل فى الأسلوب ، وإذا قال امرؤ القيس :

فباتَ عَلَى خدٍّ أحمَّ ومنكِبٍ وضجعته مِثل الأَسيرِ المكرْدَسِ

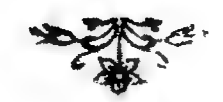
حاول سويد أن يتابعه ، فقال دون أن يبلغ تصوير امرئ القيس :

كُفُتٌ خـــدّاه على ديباجةٍ وعَلَى المَتنينِ لونٌ قدْ سَطَعْ

فبيت امرئ القيس فيه وصف وفيه صورة : الوصف فى الشطر الأول والصورة فى الشطر الأخير ، أما بيت سويد فليس فيه غير الوصف .

وقد وصف امرؤ القيس الكلاب ، وهى عماد الصورة ، ولكن سويدا مر عليها عدوا ؛ كأنه خشى إن تريث ليصفها أن تلحقه ، « وأدركنه يأخذن بالساق والنسا » أو يشبرقنه « كما شبرق الولدان ثوب المقدس » وتصوير امرئ القيس الهدوء والسكون بأنه كهدوء الرجل المعرس يرسل لنا شعاعا عما كانت عليه بيوت المعرسين بعد أن ينفض السامرون .

لا نبالغ فنقول : إن امرأ القيس أعظم شاعر عرفه العالم ، فقد نجد من يتعصب عليه ، أو يرمينا بالتعصب له ، ولكننا نقول : إنه أعظم شاعر عرفته الأمة العربية ، ونحن على ثقة أننا لن نجد معارضين ، حتى ولا أولئك الذين يقولون : « إن الشعر الجاهلى كان جناية على الأدب العربى » .



٥ — وقال علقمة الفحل* يصف الظليم من قصيدته التي أولها :

هلْ ماعلمتَ وما استُودِعتَ مكتومُ ... أمْ حبلُها إذْ نأتْكَ اليوم مَصرومُ؟(١)

كأنَّها خاضبٌ زُعْرٌ قوادمُه ... أجنى له باللِّوى شَرْيٌ وتَنُّومُ(٢)

يَظَلُّ فى الحنظلِ الخُطْبانِ يَنْقُفُهُ ... وما استَطَفَ مِنَ التَّنُّومِ مَخذومُ(٣)

فوهُ كشقِّ العَصا لأْيًا تبيَّنُه ... أسكُّ ما يَسمعُ الأصواتَ مَصلومُ(٤)

حتَّى تذكَّرَ بيضاتٍ وهيَّجَه ... يومُ رذاذٍ عليه الرِّيحُ مَغيومُ(٥)

٣٤١ : فلا تزيُّدُهُ فى مَشيِه نفِقٌ ... ولا الزَّفيفُ دُوَيْنَ الشَّدِّ مسئومُ(٦)

---

* ترجمة الشاعر : انظر ترجمته فى وصف الناقة ص ٩٨ .

التفسير اللغوى . (١) استودعت : أؤعنت . نأتك : هجرتك . مصروم : مقطوع .

(٢) الخاضب : الظليم احمر ساقاه وجلده ، وخاضب صفة لموصوف محذوف : هو الظليم ، وهو ذكر النعام ، وهو يشبه ناقته بهلسرعتها . زعر : جمع أزعر ، قليلة الشعر . قوادمه : جمع قادمة ، وهى الريشات الكبار فى مقدم الجناح ، وفى رواية قوائمه . أجنى النبات : نضج وتهيأ للجنى . اللوى : ما انعطف من الرمل . الشرى : شجر الحنظل . التنوم : شجر يشبه ورقه ورق الآس ، يسقط ورقه صيفاً ويترعرع شتاء . (٣) الحنظل الخطبان : هو الحنظل فيه خطوط تضرب إلى السواد ، وهو أشد ما يكون مرارة . ينقفه : يستخرج حبه . استطف : ارتفع وأمكن . مخذوم : مقطوع ليأكله . (٤) فوه : فم . لأيا : شدة وبطئا . تبينه : تراه . أسك : أصم ، وأذن سكاء : صماء صغير الأذن لاصقها بالرأس : مصلوم : مقطوع .

(٥) هيجه : أثاره . يوم رذاذ : يوم مطر خفيف ، عليه الريح : فيه الهواء . مغيوم : ملبد بالغيوم . (٦) التزيد : السير السريع . النفق : بكسر الفاء السريع الانقطاع من كل شيء ، يقال فرس نفق أى لا يطيل الركض . الزفيف : نوع من السير دون الشد . دوين : تصغير دون . الشد : العدو السريع . مسئوم : مملول .

* هذا البيت منسوب فى لسان العرب لذى الرمة ، ولكنه منسوب فى شعراء النصرانية وفى المفضليات لعلقمة ، ثم إن لذى الرمة قصيدة من هذا الوزن والقافية ولكن البيت ليس فيها ، فلعل وزن القصيدة هو الذى خلط الأمر على صاحب اللسان .

يكادُ مَنسِـــمُه يَختَلُّ مُقلتَه　　　كأنَّه حاذِرٌ للنَّخْسِ مَشهُومُ (٧)

وَضَّاعةٌ كعِصِيِّ الشِّرعِ جُؤْجُؤُه　　　كأنَّه بتَناهِي الرَّوضِ عُلجُومُ (٨)

يأوِي إلى حِسْكَلٍ زُعْرٍ حَواصِلُه　　　كأنَّهُنَّ إذَا بَرَّكْنَ جُرْثومُ (٩)

حتَّى تلافَى وقرنُ الشَّمسِ مُرتفِعٌ　　　أُدحيَّ عِرسَيْنِ فيه البَيْضُ مَركُومُ (١٠)

يُوحِي إليها بإنقاضٍ ونقنقـــةٍ　　　كما تراطَنُ فِي أفدانِها الرُّومُ (١١)

صعْلٌ كأنَّ جَناحيه وجُؤجُؤَه　　　بَيتٌ أطافَت به خَرقاءُ مَهجومُ (١٢)

٣٤٨ : تحفُّه هِقْلَةٌ سطعاءُ خاضِعَـــةٌ　　　تُجيبُه بِزِمارٍ فيــه ترنيمُ (١٣)

---

(٧) منسمه : ظفره ، والمنسم خاص بالبعير والنعام والفيل ونحوها . ويختل مقلته : يصيب عينه . حاذر : متأهب مستعد . النخس : غرز عود أو نحوه فى جنب الدابة ، أو مقدمها أو مؤخرها لاستفزازها إلى الجرى . المشهوم : الفزع المروع ، وأصله من شهم الفرس زجره ، وأيضا المشهوم الذكى الفؤاد وليس مقصودا .

(٨) وضاعة : صيغة مبالغة من الوضع ، وهو نوع من عدو الإبل السريع ، والتاء فى وضاعة للمبالغة لأنه وصف للظليم . الشرع : الأوتار مفردها شرعة . جؤجؤه : صدره . التناهى جمع تنهية، وهى الأماكن المطمئنة ينتهى إليها الماء . علجوم العلجوم البعير الطويل المطلى بالقطران ، والوعل ، والثور المسن ، والشديد السواد ، ولعله يقصد الوعل .

(٩) يأوى : يلجأ . حسكل : الحسكل الصغار من ولد كل شىء ، وخص بعضهم بالحسكل ولد النعام أول ما يولد وعليه زغبه الواحدة حسكلة ، ورواية اللسان « يأوى إلى حسكل زغب حواصلها » والحواصل جمع حوصلة معدة الطائر . بركن . استنخن . جرثوم : جمع جرثومة وهى أصل الشجر . (١٠) تلافى : تدارك قرن الشمس : أول ما يبدو من قرصها . الأدحى : مبيض النعام . عرسين : يقصد الظليم ونعامته . مركوم : مجمع متراكم بعضه فوق بعض. (١١) يوحى إليها: يشير إليها، ويصوت لها. الإنقاض : التصويت، أنقضت العقاب صوتت، ومثله النقنقة ، فهى صوت الظليم . التراطن : تفاهم الأعاجم . الأفدان : جمع فدن بفتح الفاء والدال ، وهى القصور . (١٢) الصعل : الدقيق الرأس والعنق من النعام أو النخل أو الناس ، والأول هو المراد . أطافت به : أحاطت به ، ودارت حوله . خرقاء : وصف لموصوف محذوف يقصد لامرأة خرقاء غير حازمة . مهجوم : ساقط مهدوم .

(١٣) تحفه : تحيط به . الهقلة : النعامة . السطعاء : الطويلة العنق . الخاضعة : التى تميل رأسها عند الرعى . الزمار : صوت أنثى النعام . الترنيم : الغناء والتنغيم .

تحليل الأبيات :

هذه الأبيات تكملة للأبيات التى اخترناها لعلقمة فى وصف الناقة ، فإنه بعد أن قال :

تلاحظُ السَّوطَ شَزْرا وهى ضامِزةٌ كما توجَّسَ طاوى الكَشْحِ مَوشُومُ

سار فى وصف ذلك الطاوى الكشح ، فكان هذا البيت تمهيدالوصف الظليم .

ذلك الظليم الأحمر اللون ، حتى لكأنه قد خضب بالحناء ، قوادمه قصيرة الشعر ، إذ ذهبت أصولها ، وبقى شكيرها ، له فى المكان الذى يعيش فيه نوعان من الطعام قد استوى نضجهما أو كاد ، هما : الشرى والتنوم ، فهو يظل يومه الأطول فى استخراج حب شجر الحنظل ، موق أنه يقطف ما يرتفع من شجر التنوم ليكون له غذاء .

ثم ذلك الظليم ضيق رقيق الشفتين لا يكاد يُرى ، فكأنه شق فى عصا ، وهو أصم الأذنين لايكاد يسمع ، أو هو مصلومهما ، وهو بهذا الوصف يشعرنا بأن أذنه صغيرة لاصقة برأسه ، فكأنه لم تخلق له أذن ، وفى المثل عن الظليم : « ذهب يطلب قرنين ، فعاد بلا أذنين » .

إذا تذكر بيضه فى أدحيه ، وهو يرعى الشرى والتنوم ثار وهاج ، ويزيده اهتياجا سقوط الرذاذ تزجيه الريح ، ويسوقه الهواء الملبد بالغيوم ، وهو إذ يتزيد ليدرك بيضه ويزف ، لايسئمه طول التزيد ، ولا دوام الزفيف ، فلا ينقطع سيره ، ولا تنفق سرعته ، حتى يبلغ غايته ، يكاد خفه يصيب عينه ، وذلك عند ما يشتد عدوه ، فيرفع خفه ويخفض رأسه ، وهو فى خفض رأسه كأنه متأهب للنخس ، فهو مروع فزع .

هذا الظليم وضاعة سريع ، صدره فى تقوسه كعصى الأوتار ، كأنه فى الأماكن الآنسة بالسكان ، المنتهية بالماء بين الرياض وعل قد أنس ، فهو يلجأ إلى فراخه الصغار الزغب الحواصل ، التى تشبه — وقد برك بعضهن بجانب بعض — أصل النخيل ، فما زال يوضع حتى تدارك أدحيه ، وقد برز قرن الشمس ، وارتفعت أشعتها ؛ أدركه — ومعه عرسه — مجتمعا مترا كما لم يكسره أحد ، ولا سطا عليه كائن ، فشرع عندئذ ينقض

لها فتفهم إنقاضه ، وينقنق فتجيب على نقنقته دون أن يفهم أحد من إنقاضه ونقنقته شيئا ، فكأنه وإياها روميان يتراطنان فى أحد قصور الروم .

ذلك الظليم دقيق الرأس والعنق ، تراه عند ما ينشر جناحيه حول صدره بيتا من الشعر تقيمه امرأة غير صناع ، فكلما أقامته سقط ، وهو بهذا يشير إلى أن الظليم ينشر جناحيه ثم ما يلبث أن يضمهما ، يصنع ذلك الصنيع مرات فى أويقات .

إذا سار ذلك الظليم حفت به عرسه المديدة العنق ، الميالة الجيد ، ذات الصوت الرخيم ، والتنغيم الجميل .

النقد :

هذا نوع فريد فى تشبيه الناقة ، فقد رأينا أكثر الشعراء يشبهونها بالثور أو البقرة أو الحمار ، أما أنّ أحدا شبهها بالظليم ، فلا ، نعنى ممن اخترنا لهم من الشعراء ، وإذن فلن تتاح لنا الموازنة بينه وبين من تقدموه .

وعلقمة حينما شبه ناقته بالظليم وصف الظليم بأوصاف حسية ، وبأخرى عاطفية ، والناحية العاطفة قليلة فى الشعر العربى ، فنعت الظليم بالتوجس ، والوشم ، والخضب ، وبالزغب والرعى ، وبضيق الفم ورقة الشفتين ، وصغر الأذنين ، وبالسرعة والصبر على الشد والعدو ، وكل هذه صفات منتزعة من الحس .

أما الأوصاف العاطفية فهى هياجه وثورانه عند ما يتذكر وهو فى مرعاه بيضاته ، فإنه ينسى كل شىء إلا أن يصل إلى ذلك البيض ليتفقده بعد أن يمر بحسكله الذى يشبه جرثوم النخل فى تراكمه ؛ إنه لتصوير للعاطفة الرءوم جميل :

حتّى تذكَّرَ بيضاتٍ وهيَّجه ... يومُ رَذاذٍ عليه الريحُ مَغيُومُ

فلا تزيُّدُه فى مَشيــــهِ نَفِقٌ ... ولا الزَّفيفُ دُوينَ الشدِّ مَسئومُ

يكادُ مَنسِمه يختــــلُّ مُقلتَه ... كأنّه حاذِرٌ للنَّخْسِ مَشْهُومُ

وَضاعَّةٌ كعصِيِّ الشِّرع جُؤْجُؤهُ ... كأنّه بتناهِي الرّوضِ عُلْجومُ

يأوى إلى حِشْكَلٍ زُعرٍ حواصلهُ   كأنَّهُنَّ إذا بَرَّكْنَ جُرثُومَ

وأنت ترى إلى جانب الناحية العاطفية أوصافا وصورا كاملة ، كالصورة الأخيرة التى يشبه فيها صغاره وقد بركن مجتمعات متراكمات فى أصل النخل .

ثم إن وصف مناجاة الظليم عرسه تصوير لا يصدر إلا عن عاشق متيم حدِّيث للنساء، يعرف لغة القلوب ، و يفهم ومضات العيون :

يُوحِى إليها بإنقاضٍ ونَقْنَقَةٍ   كما تراطَنَ فى أَفدانِها الرُّومُ

ولكن الذى لا أجد له مكانا فى الصورة التى رسمها لتخاطب الظليم وعرسه قوله : — فى أفدانها — فهل الروم لا يتخاطبون إلا فى الأفدان ؟

ولولا أن من ألفاظ القافية ما هو ثقيل الوقع على السمع لبلغت القطعة الغاية فى الجودة، مثل تنوم ، وعلجوم ، على أن هذا الثقل ينسيه جمال الصور .



نظرة فاحصة عن معانى الشعراء فى وصف الأوابد

كان العرب يأنسون إلى أوابد صحاريهم ، ولكنها لم تكن تأنس إليهم ، و يعجبون بها ، وهى لا تعجب بهم ، بل لا تحبهم ولا ترضى عنهم ، يعجبون هم بجمالها وحسنها ، وتكره منهم بغيهم وعدوانهم ، ولا عجب أن نرى هواهما مختلفا ، فيرون فيها الجمال ، وترى منهم العدوان ، و يشاهدون فى شياتها الحسن ، وتشاهد فى طباعهم الجحود والكفران ، فكلفوا بها و بحثوا عنها ، وركبوا الصعب فى صيدها ، ونأت دونهم وأعرضت ، فهم و إياها فى نضال مستمر ، وعراك متصل .

وصفوا جمالها ، وكأنهم بتصوير هذا الجمال يُعذِرون ، ثم طاردوها بكلابهم ، وحاولوا صيدها بقسيهم ، وهم جميعا يكادون يتفقون فى هذه المعانى .

ومنهم من وصف طريقه إليها ، فوصف الصحراء وما يحف بها من عين جارية ، أو نبت ناجم ، أو سراب خادع ، فكانت معينا يستقون منه ، ومنهلا يصدرون عنه ، فسويد يصف الصحراء ، فيقول :

فكأنِّى إذ جرَى الآلُ ضُحا فوقَ ذيَّالٍ بِخديْه سَفَعْ

ويقول :

ساكنُ القفرِ أخُو دوِّيَّةٍ فإذا ما آنَسَ الصوت امَّصَعْ

والنابغة ينسب الوحوش إلى مواطنها التى نشأت فيها فيقول :

مِن وحشِ وجرةَ موشيٍّ أكارِعهُ طاوِي المَصِير كسيْفِ الصَّيْقَلِ الفَرِدِ

ولبيد يقول فى وصف الصحراء ووصف سرابها :

فبِتلك إذْ رَقصَ اللَّوامِعُ بالضُّحَا واجتابَ أرْديةَ السَّرابِ إكامُها

ثم نراهم جميعا يصورون المعارك أدق تصوير ، فيثيرون الغبار ، ويسيلون الدماء ، ويصفون الأرواق ، وقد نفذت فى الأحشاء ، وقل منهم من ارتضى بأن ينحى الطراد بدون أن

يكون هناك طعن وقتل ، وكلهم يصفون صياديهم بالمهارة ، وينسبونهم إلى قبيلة ، فيقول سويد :

راعَه من طيِّءٍ ذو أسْهُمٍ ... وضِراء كُنَّ يُبلينَ الشِّرَعْ

ويقول النابغة :

فارتاعَ مِن صوتِ كلاَّبٍ فباتَ له ... طوعُ الشَّوامتِ مِنْ خَوفٍ ومن صَرَدِ

ويقول امرؤ القيس :

فصبَّحه عِنــــد الشُّروقِ غُدَيَّةً ... كلابُ ابنُ مُرٍّ أو كلابُ ابنِ سِنْبِسِ

وقد قدمنا أن ابن مر وابن سنبس صيادان طائيان اشتهرا بالحذق والمهارة . ويقول لبيد يصف الذئاب والرماة والكلاب والقرون :

لِمُعفَّرٍ قَهْدٍ تنازعَ شِــــلْوَه ... غُبْسٌ كَواسِبُ لا يُمَنُّ طعامُها

حـــتى إذا يئِسَ الرُّماةُ وأرسلوا ... غُضُفًا دَواجِنَ قافلاً أعصامُها

فلحِقْنَ واعتكرَت لها مَدريَّةٌ ... كالسَّمهريَّةِ حـــدُّها وتمامُها

أما تصويرهم للمعارك فتصوير بارع لا نكاد نحكم لأحدهم بالفضل على الآخر ، ولعل سويداً كان رجل سلام ؛ لأنه أنهى المعركة دون أن تجرى دماء ، فقال :

فرآهنَّ ولمَّـا يَسْتَبِنْ ... وكِلابُ الصَّيْدِ فيهنَّ جَشَعْ

ثم ولَّى وجنـــابان له ... مِنْ غُبارٍ أكْدريٍّ واتدَّعْ

فتراهنَّ على مُهلتـــهِ ... يختلِيَن الأرضَ والشَّاةُ يَلَعْ

أما النابغة فيثير الحرب عنيفة ، والمعركة حامية الوطيس تنتهى بفرائص تشك ، وبدماء تسيل ، وبروق يعجم ، فيبلغ بتصويره مبلغا رائعا ، وذلك إذ يقول :

وكانَ (ضُمرانُ) منه حَيثُ يُوزِعُه ... طعْنَ المَعارِكِ عِندَ المَحجرِ النَّجُدِ

شكَّ الفريصةَ بالمِدْرى فأنفذَها ... شكَّ المُبيْطِرِ إذْ يَشفِي مِن العَضَدِ

كأنّه خارجًا مِنْ جنب صَفْحتِه   سَفُّودُ شَرْبٍ نَسوه عِند مُفْتَأَدِ
فظلَّ يعجُم أَعْلَى الرّوق مُنقبِضًا   فِي حَالكِ اللَّوْنِ صَدْقٍ غيرِ ذِي أَوَدِ

أما امرؤ القيس فأوقد نار الحرب ثم أطفأها ، واكتفى بالجرحى دون القتلى ، فقال :

فأَدْرَكْنَه يأْخُذْن بالسَّاقِ والنَّسَا   كما شَبْرَق الولدانُ ثوبَ المُقدَّسِ
وغوَّرْنَ فى ظِلِّ الغَضَا وتَرَكْنَهُ   كقَرمِ الهِجانِ الفَادِرِ المتشمِّسِ

ولبيد يجرى دماء كساب وسخام ، فيقول :

فتقصدَتْ منها« كسابِ» فضُرِّجَتْ   بِدمٍ ، وغُودِر فى المَكَرِّ «سُخامُها»

ويظهر أن أخلاق كل شاعر تنطبع فى معانيه ، وتتضح من أفكاره ، فالشعراء المغرمون بسفك الدماء ، والتمتع برؤية الأشلاء ، وشهوة أكل لحوم الأعداء يثيرون المعارك ، والذين طبعوا على الرحمة ، وأشربت قلوبهم العطف والحنان، تنأى بهم نفوسهم عن القتل، فينهون معاركهم دون قتلى أو مصابين .

وبعد فإن أجلى الصور تظهر فى وصف هذه المعارك التى تتعدد أسلحتها ، فهى القسى والرماح ، والمخالب والأنياب ، والأرواق والمدارى ، وجميع هذه الأسلحة لها فى الصور الشعرية مكان أى مكان .



(د) صور متنوعة لمظاهر الطبيعة الحية

١ — قال زهير بن أبى سلمى* يصف معركة مع الحمر الوحشية من قصيدته التى أولها:

صحَا القلبُ عنْ سلمى وأقصرَ باطِلُه ... وعُرِّىَ أفراسُ الصِّبَا ورَواحِلُه[(١)]

إذَا ما غَدونا نَبْتغِى الصَّيْدَ مَرَّةً ... متَى نَره ، فإنَّنَا لا نُخاتِلُه[(٢)]

فبينا نُبَغِّى الوحشَ جاءَ غُلامُنا ... يدِبُّ ويُخفِى شخصَه ويُضائِلُه[(٣)]

فقال : شياهٌ رَاتعاتٌ بِقَفْرةٍ ... بمستأسِدِ القُريانِ حُوٍّ مسائلُه[(٤)]

ثلاثٌ كأقواسِ السَّرَاءِ ، ونَاشِطٌ ... قد اخضَرَّ مِن لَسِّ الغَمِيرِ جَحافِلُه[(٥)]

٣٥٤ : وقد خرَّم الطُّرَّادُ عَنه جِحَاشَه ... فلم يَبْقَ إلا نفسُه وحلائلُه[(٦)]

---

* ترجمة الشاعر : انظر ترجمته فى وصف الناقة ص ٨٨ .

التفسير اللغوى : (١) عرى أفراس الصبا : مثل ، ويريد أن يقول : عرى أفراس قد كنت أركبها فى صباى ، فلم يعد هناك ما يدعونى لإسراجها بعد أن كبرت سنى .

(٢) غدونا : بكرنا . نبتغى: نطلب . لا نخاتله : لا نخادعه لثقتنا من إدراكه .

(٣) يدب : يمشى على هينته كمشى الطفل والضعيف والنمل . يضائله: يصغره لئلا يفزع الصيد.

(٤) الشياه : الحمر الوحشية . راتعات . راعيات لا عبات . بمستأسد القريان : المستأسد من النبت الذى طال وتم ، والقريان مجارى الماء إلى الرياض الواحد قرى . الحو : النبات يضرب إلى السواد لشدة خضرته . مسائله : يقصد مسايل الماء ، والأصل عدم الهمزة لأن الياء أصلية ، ولكنهم توهموها زائدة ، فهمزوها كما همزوا مصائب . (٥) أقواس السراء : السراء شجر تتخذ منه القسى ، فهو يصف الثلاثة بالضمور . ناشط : يخرج من بلد إلى بلد . اللس : الأخذ بمقدم الفم . الغمير : نبت يطول ثم يصيبه مطر ، فيخرج تحته نبت أخضر ، فيكون غميرا لهذا الطويل أى مغمورا . الجحافل : جمع جحفلة ، وهى لذى الحافر كالشفة للإنسان .

(٦) خرم : فرق . الطراد : الصيادون : جحاشه : صغاره : حلائله : آتنه .

وقال أميرِى : ماترى رأىَ ما نَرَى ... أنختِلُه عن نَفْسِه أمْ نُصَاوِلُه ؟[٧]

فبتنا عُراةً عنـــدَ رأس جَوادِنا ... يُزاوِلنا عن نَفْسِـــه ونُزاوِلُه[٨]

فَنضرِبُه حـــتَّى اطمأَنَّ قذالُه ... ولم يَطمَئِنَّ قلبُه وخصائِـــلُه[٩]

ومُلْجِمُنَا ما إن يَنـــالُ قَذَالَه ... ولا قَدماه الأرضَ إلاَّ أناملُه[١٠]

فلأْياً بِلأْىٍ قد حَملنا غُـــلامنَا ... على ظَهْرِ مَحبوكٍ ظِماء مَفاصِلُه[١١]

فقلنا له : ســـدِّد وأَبصِرْ طريقَه ... وما هو فيهِ عنْ وصاتِيَ شاغِـــلُه[١٢]

وقلتُ : تعــلَّمْ أنَّ للصَّيْدِ غِرَّةً ... وإلا تُضيِّعْها فإنَّكَ قاتِـــلُه[١٣]

فأتْبَع آثار الشِّياهِ وَليـــدُنَا ... كشُؤْبُوبِ غيثٍ يَحْفِنُ الأُكْمَ وابِلُه[١٤]

٣٦٣ : نظرْتُ إليـــه نَظْرَةً فرأيتُه ... عَلَى كلِّ حالٍ مرَّةً هـــو حامِلُه[١٥]

---

(٧) أميرى : الذى يؤامرنى ويستشيرنى . نصاوله : نجاهره الحرب.

(٨) عراة : مؤتزرين . يزاولنا ونزاوله : يعالجنا ونعالجه .

(٩) قذاله : موضع العذار من رأسه ، وهو أعلى جزء فيه . اطمأن : سكن خصائله : جمع خصيلة وهى كل لحمة فى عصب .

(١٠) ملجمنا : واضع اللجام فى قذاله . أنامله : أطراف أصابعه .

(١١) فلأْيا بلأْى : فبطئا بعد بطء ، وجهدا بعد جهد . محبوك : مدمج . ظماء مفاصله : عطاشا مفاصله ، والمفصل مجمع كل عظمين ، وإذا كان ظمآن كان أيبس له .

(١٢) سدد : قوم صدر فرسك . أبصر طريقه : تبين خطة صائبة . وصاتى : وصيتى .

(١٣) تعلم : اعلم . غرة : غفلة ، وأن يؤتى من حيث لا يشعر . وإلا تضيعه : وإن لم تضيع ما أوصيتك به من أن للصيد غرة فعليه أن ينتهزها .

(١٤) فأتبع : فتبع غلامنا . كشؤبوب غيث : كدفعة من المطر . يحفن : يقشر . الأكم : جمع أكمة المرتفعات . وابله : مطره الغزير .

(١٥) إليه : الضمير يعود على الفرس . حامله : الضمير يعود على الغلام .

يُثِرْنَ الحصَى فى وَجهه وهو لاَحقٌ ... سِراعٌ تواليه صِيابٌ أَوَائِلُه(١٦)

فردَّ علَيْنَا الْعَيْرَ مِنْ دُون إلفه ... عَلَى رَغْمِهِ يَدمَى نَساهُ وَفائِلُه(١٧)

ورُحْناَ به يَنْضُو الجيادَ عَشِيَّةً ... مُخضبَّةً أرساغُه وحَوامِلُه(١٨)

٣٦٧ : بذِى مَيْعَةٍ لا مَوضعُ الرُّمْحِ مُسْلِمٌ ... لِبُطْءٍ ، ولا مَاخَلْفَ ذَلِك خاذِلُه(١٩)

---

(١٦) يثرن : الضمير يعود على الحمر . وجهه : الضمير يعود على الفرس . تواليه : أواخره ، يريد رجليه وعجزه . صياب : قاصدة مفردها صائب كصاحب وصحاب . أوائله : يداه وصدره .

(١٧) فرد علينا العير : فقطعه عن إلفه ، ورجعه إلينا . من دون إلفه : من غير أتانه . يدمى : يسيل دمه . النسا : عرق من الورك إلى الكعب . فائله : الفائل عرق فى الفخذ .

(١٨) ورحنا به : وأمسينا بذلك الفرس . ينضو : ينسلخ وينخلع . مخضبة : ملطخة بالدم. أرساغه : جمع رسغ وهو القدم . حوامله : قوائمه ، مفردها حاملة .

(١٩) الميعة : النشاط ، وهى هنا الدفعة من السير . موضع الرمح : الكاثبة، وهى قدام القربوس . قال النابغة « إذا عرض الخطى فوق الكواثب » معناه أن مقدمه لايخذل مؤخره، ومؤخره لا يخذل مقدمه .

تحليل الأبيات :

هذه القصيدة من جياد شعر زهير ، قالها يمدح بها حصن بن حذيفة الفزارى لامتناعه على عمرو بن هند ، ولـكن المدح أضعف أدواتها ، وأقل أسباب جودتها .

فمطلعها أبرع مطلع تبدأ به قصائد فى الثناء على الأبطال ، وتحدّث الرجال عن الرجال . عزف عن اللهو والهوى ، وصحا القلب عن سلمى ، وأقصر عن امتطاء باطل الصبا والشباب ، وعريت أفراس كنت أركبها فى الصبا .

و بعدئذ عرض للأطلال عرضا يسيرا ، ثم أخذ يصف فرسه ، يخرج به للصيد، وكأن وصف الصيد هو غايته الأولى من القصيدة ، إذ صوَّرهُ فى ثمـانية عشر بيتا ، فقال :

حينما نغدو مبكرين نطلب الصيد ، نظاهره الصيال ، ونجاهره النضال ، لا نعرف مخاتلة ؛ لأن المخاتلة ضعف ، ولا نرتضى لأنفسنا المخادعة فالخداع لؤم ، هذا إلى ثقتنا أن فرسنا كريم لا يفوته الصيد ، وإذ نبحث عن الوحش نصيده أقبل خادمنا يمشى على هينته ، و يضائل جسمه ، و يخفى شخصه ، خوف أن تراه الشياه ، فتعطى ساقيها العنان ، فأنبأنا أن شياها ترتع وتلعب ؛ فهى تعيش فى مرعى خصيب ، قد استأسد نبته ، وطال عشبه ، واسودت مسايل مائه ، مسايل القريان إلى الرياض .

إنها ثلاث شياه ضامرات كالقسى تصنع من شجر السراء ، منطويات ، لأنهن اجتزأن بالرطب عن المـاء ، فلم يضخمن وتمدد كدنتهن ، وناشط لا يستقر فى مكان ، ولا يقيم فى بلد ، قد اخضرت جحافله من أكل النبت المغمور ، وقد فرق الصيادون عنه جحاشه ، وأخذوا منه صغاره ، فهم يطردونه فيدعها ، فيقتنصونها ، فلم يبق من حوله إلا نفسه وآتنه .

وقال صديقه وأميره يؤامره و يشاوره : ألا ترى الرأى الذى نراه ؟ أنخدعه ونختله أم نصاوله ونناضله ؟ فبتنا عراة مؤتزرين عند رأس فرسنا الصعب الذى يحاول الجموح ؛ لمـا هو فيه من حدة ونشاط ، فيجذبنا ونجذبه ، و يعالجنا ونعالجه ، فضر بناه حتى سكن

رأسه ، دون أن يطمئن قلبه ، أو تسكن خصائله ، و إذا ما أقبل خادمنا ليلجمه ؛ لم يتهيأ له ذلك إلا إذا وقف على أنامله ، فهو فرس نهد ، هيكل ضخم .

فبعد جهد ومشقة حملنا وليدنا عليه ، حملناه على فرس مدمج محبوك ، لم يكتنز أو يترهل ، ومفاصله عطاش ظماء ، فهن صلد صلاب ، فقلنا لفارسه ناصحين : قوّم صدر فرسك ، ولا تمل يمنة أو يسرة ، وتبين طريقك الذى تسير فيه ، ولا يشغلك عن وصاتى التى أوصيك بها نشاط الفرس وعلاجه ، وحدته ومراسه .

قلت له : اعلم أن للصيد غرة فاهتبلها ، وفيه ــ أحيانا ــ غفلة فانتهزها ، فإذا لم تضيعها فإنك دون ريب قاتله .

فتتبع الوليد آثار تلك الحمر ، مثله فى اندفاعه إليها ، وانصبابه عليها كمثل دفعة المطر يقشر وابل هذه الدفعة الأكم ، ويزيل ترابها فيظهر نباتها ، نظرت إلى الفرس نظرة تأمل ، فألفيت الوليد يحمل الفرس على الأمر الذى يريد ، فأخذت الحمر الوحشية تثير فى وجه ذلك الفرس الحمى ، وهو لاحق بها مدرك لها ، أواخره سراع ، وأوائله صياب ، فلا مقدمه يخذله ، ولا مؤخره يسلمه ، فأمكننا من العير ، ورجعه إلينا من غير أليفه ، رده علينا مرغما مقهورا ، قد سال الدم من عرق النسا والفائل ، فقد طعنه فسدد الطعنة ، فرحنا بذلك الفرس يتقدم الجياد و ينسلخ منها عشية ، وقد خضبت من دماء العير أرساغه ، وضرجت بدمائه قوائمه ، فلم يكسر من حــدة نشاطه مطاردته ، ولم ينل من شدة عرامه مناضلته .

كان ذلك الطرد بفرس ذى ميعة ونشاط لا يُسلِمُ كاثبتَه مؤخَّرُه ، ولا تخذل مؤخرَه كاثبتُه ، فأجزاؤه يسند بعضها بعضا .

النقد :

بدأ زهير وصفه بطريقته فى الصيد ، فهو لا يخادع لأن فرسه كريم يقيد الأوابد ، ثم وصف خروجهم ، وفى هذا الوصف صوّر غلامهم تصويراً ناطقا ، فهو يدب دبيبا ، ويخفى شخصه إخفاء ، ويضائل جسمه ضئالا ، وهو مصوّر بارع ، فذلك شأن كل من يريد أن ينال شيئا على غرة ، ويدركه فى غفلة . ولـكنه لا يتفق مع البيت الأول ، إلا إذا قيل : إن الفارس لا يخاتل ، ولـكن غلمانه يخاتلون ، وهو عذر واه ، فالغلمان يأتمرون بما يؤمرون ، ثم وصف المكان أدق وصف ، وفى وصفه إياه إغراء بالصيد ، فالشياه فى مرعى خصيب ، فهى من غير شك سمينة غيرمترهلة ، على أنه أكد هذا المعنى فى البيت الثانى إذ يقول :

ثلاث كأقواس السراء ، وناشط قد اخضرّ من لَسِّ الغمير جحافله

ثم سار فى وصف الناشط ، فقال :

إنه قد فرق الطُّراد عنه صفاره ، وحرموه جحاشه ، فلم يبق إلا هو وأتنه ، وأخذ يشاور أميره ، والأمير يؤامر غلامه فى صيده ، أيخاتلونه أم يجاهرونه ؟ ويظهر أن للغلام رأيا غير رأى الأمير، فالأمير من طبعه أنه إذا رأى صيدا مرة ، فإنه لايخاتله ، ووصف بعد التشاور فرسه القوى النشيط بأنه لايسكن من حدته ، ولا يهدأ لشدته ، فقال :

فبِتْنَا عُرَاةً عندَ رأسِ جَوادِنا يُزَاوِلُنَا عنْ نَفْسِه ونُزَاوِلُهْ
فنَضرُبه حـتى اطمأنَّ قَذالُه ولم يطمئنَّ قلبُه وخَصَائـِلُه

وتلك صورة لما بين الفارس والفرس أتمها بأن الفرس مع أنه قد اطمأن قذاله إلا أن سائسه أقصر من أن يبلغ قذاله ، فهو لا يلجمه إلا إذا وقف فوق أنامله ، ثم وصف بعدئذ الصيد ، والحديث الذى جرى بينه وبين الغلام ، وهذا الحديث يؤيد التناقض الذى وقع فيه زهير فى أول بيت من أبيات الوصف ، فوصاته هى :

وقلتُ : تعـلَّمْ أنَّ للصَّيْدِ غِرَّةً وإلاَّ تضيعْهَا فإنَّك قَاتِـله

ثم وصف الطراد ، فوصف الغلام وصفا يدل على قوته ، وينبيء عن مُنته ، وصوره صورة تنم عن حنكته وحكمته ، فهو يندفع على الشياه : كشؤبوبِ غيثٍ يَحْضن الأَكْمَ وَابِلُه، وأحكم وصف المطاردة ، فالشياه تثير التراب فى وجه الفرس ، وهو لاحق لها ، فمؤخرتاه تلحق مقدمتيه أو أواخره ـ يقصد الرجلين والعجز ـ تلحق أوائله يعنى اليدين والصدر

وأدرك الغلام ما كان يرجو فقد أبلغه حصانه غايته :

فردَّ علينا الْعَيْرَ مِنْ دونِ إلفهِ ... على رَغْمِهِ يدمَى نَساهُ وفائِلُه

ورُحْنَا به يَنْضُو الجِيادَ عَشِيَّةً ... مخضبَّةً أرساغُه وحوامِلُه

فى هذه الأبيات جمال مبعثه حسن التصوير ، وروعة التعبير ، فقافية الأبيات ذات جرس موسيقى صاف هادئ ، ولكن أيناسب هذا الهدوء الصيد والطرد ؟ إنه يناسب لأن المخاتلة التى نفاها فى أول بيت هى التى اعتمد عليها فى الصيد ، وترى هذا الجمال فى تلك الدقة فى تصويره « يدب ، ويخفى شخصه ، ويضائله » لم يكتف بالدبيب ، ولم يكتف به مع إخفاء شخصه بل لابد من تمام الصورة بالمضاءلة ، كما تراه فى قوله :

ثلاث كأقواسِ السَّراءِ ، ونَاشِطٌ ... قد اخْضَرَّ مِنْ لَسِّ الغَمِيرِ جحافلُه

ثلاث متشابهات ، وواحد منفرد بصورة ، فلا بد أن يصفه ، فهو لا يقيم فى بلد ، وهو كثير الرعى ؛ حتى قد اخضرت جحافله من أكله بمقدم فمه ؛ وذلك لأنه لا يستقر عند ما يأكل .

٢ — وقال امرؤ القيس* يصف حربا ناشبة بين عقاب وذئب :

كَأَنَّها حِينَ فاضَ الماءُ واحْتَمَلَتْ ... فتخاء لَاحَ لهَا بالقَفْرَةِ الذِّيبُ (١)

فأَبصرَتْ شَخصَه مِنْ فَوقِ مَرْقَبةٍ ... ودُونَ موقِعها منـــه شنَاخِيبُ (٢)

فأقبلتْ نحوَه فى الجـــوِّ كاسرةً ... يَحُثُّها مِنْ هُوِىٍّ اللوح تَصْوِيبُ (٣)

صُبَّتْ عليه ولم تَنصَبَّ مِنْ أَممٍ ... إنَّ الشقاء عَلَى الأَشقينَ مَصبوبُ (٤)

٣٧٢ : كالدَّلو بُتَّتْ عُراها ، وهِى مُثقلةٌ ... إذ خانَها وَذَمٌ مِنْهَا وتكريبُ (٥)

---

* ترجمة الشاعر : انظر ترجمته فى وصف الفرس ص ١٠٩ .

التفسير اللغوى : (١) كأنها : الضمير يعود على الفرس التى كان يصفها قبل بقوله :

واليَدُ سابِحَةٌ ، والرِّجْلُ ضارِحةٌ ... والعَيْنُ قَادِحَةٌ ؛ والمَتْنُ مَلْحُوبُ

والماءُ مُنْهَمِرٌ ، والشَّدُّ مُنْحَدِرٌ ... والقَصْبُ مضْطَمِرٌ ، واللَّوْنُ غِرْبِيبُ

الاحتمال : الانتقال . فتخاء : لينة الجناحين عريضتهما ، وهى وصف للعقاب قال الشاعر :

كأَنِّى بِفَتْخَاءِ الْجَنَاحَيْنِ لَقْوَةٍ ... دَفُوفٍ مِنَ العِقْبَانِ طَأْطَأْتُ شِمْلَالِى

وفى رواية : « واحتفلت صقعاء » فى رأسها بياض .

(٢) المرقبة : المكان المرتفع يعلوه الرقيب . الشناخيب : مفردها : شنخاب أوشنخوب أعلى الجبل ، وأعلى الكاهل ، وفقر الظهر ، والأول هو المراد .

(٣) كاسرة : منقضة تكسر جناحيها ، أو تكسر ماتصيده كسرا . يحثها : يدفعها . هوى : سقوط . اللوح : بضم اللام الهواء بين السماء والأرض . تصويب : انحدار .

(٤) صبت عليه . اندفعت إليه . من أمم ، من قرب .

(٥) بتت عراها : قطعت مقابضها ، وهى جمع عروة . مثقلة : ممتلئة ثقيلة . الوذم : سيور بين آذان الدلو ، ويجمع على وذوم ، وأوذام ، وأوذم . التكريب : جعل الكرب وهو الحبل فى الدلو .

لا كالتى فى هواءِ الجــــوِّ طَالبةٌ ولا كهذَا الَّذى فِى الأَرضِ مَطلوبُ (٦)

كالبرقِ والرِّيحِ مرآتاهُما عجبٌ ما فى اجتهادٍ على الإصرارِ تغبيبُ (٧)

فأَدْركتْه ، فَنالَتْهُ مَخالِبُهـــــا فانسَلَّ مِنْ تَحتِها ، والدَّفُّ مَثقُوبُ (٨)

يلوذُ بالصَّخرِ منها بعد ما فَتَرَت مِنها ومِنه على الصَّخْرِ الشآبيبُ (٩)

ثم استغاثَتْ بِمَتْنِ الأرضِ تعفرُه وبالِّلسان وبالشِّدقَين تَتْرِيبُ (١٠)

ما أخطأته المنايا قِيس أَنمُـــــلَةٍ ولا تحرَّزَ إلاَّ وهْــوَ مَــكثُوبُ (١١)

٣٧٩ : يظل مُنجَحِرا مِنهـــــا يراقِبُها ويرقبُ اللَّيل إنَّ اللَّيل مَحبُوبُ (١٢)

---

(٦) كالتى فى هواء الجو : كناية عن العقاب . طالبة : باغية صيدا وحربا . كهذا : اسم الإشارة عائد على الذيب . مطلوب : مرغوب صيده . رويت هذه الأبيات لامرىء القيس رواها الجوهرى ، ووهمه ابن برى ، وزعمها لإبراهيم بن عمران الأنصارى ، ولكن صاحب كتاب شعراء النصرانية نسب بعضها لامرىء القيس .

(٧) كالبرق : يقصد العقاب . الريح : يقصد الذئب ، وهو يكنى عن وصفهما بالسرعة فى الطيران والإرخاء . مرآتاهما تثنية مرآة بمعنى منظراها . عجب . عجيب غريب . الإصرار . التصميم . التغبيب : التقصير . وفى حديث هشام : كتب إليه يغبب عن هلاك المسلمين أى لم يخبره بكثرة من قتل منهم مأخوذ من الغب الورد، فاستعاره لموضع التقصير فى الإعلام بكنه الأمر . (٨) مخالبها : جمع مخلب أظفارها . فانسل : فنزع نفسه برفق . الدّف مثقوب : الجنب منقوب . (٩) يلوذ : يلجأ ويحتمى . فترت : تراخت . منها ومنه : من العقاب ومن الذئب : الشآبيب : جمع شؤبوب : يريد شدة اندفاع كل منهما .

(١٠) استغاثت : استعانت ، والضمير يعود على العقاب ، وهى رواية الحيوان تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ، ولعلها استغاث ليعود الضمير على الذئب فهو المغلوب المحتاج إلى العون ، وهو أقدر على إثارة العفر ، والشطر الأخير من البيت يؤكد هذا ، تتريب : تراكم التراب فوق الشىء . (١١) المنايا : جمع منية ، وهى الموت . قيس : مثل قيد يعنى قدر أنملة ، والأنملة : رأس الأصبع . تحرز . تحصن . مكثوب : مكرور عليه ، مهجوم نحوه من كثب إذا كر . (١٢) يظل : يبقى طوال يومه . منجحراً . مختبئا فى الجحر . يراقبها : يلاحظها . يرقب الليل : ينتظره . محبوب : مرغوب فيه لأنه منقذ له .

تحليل الأبيات :

سواء أصحت هذه الأبيات لامرئ القيس أم لم تصح فإنها شعر جاهلى ، و إن كنا نكاد نثق أنها لامرئ القيس ، فإن روحه ظاهر فيها ، فهو أقدر من سواه على وصف مثل هذا المنظر لكثرة ما شاهد فى الصحارى ، ولأن فى الأبيات كثيرا من خصائصه التى تبدو فى تسلسل الصور ، وتنوع التشبيهات والكنايات ، وجمال التقسيم .

وصف فرسه بأنها عند انهمار الماء ، وانحدار الشد ، وانضمام الخصر ، ولحوب المتن كالعقاب ظهر لها فى الأرض القفر ذئب ، ثم تأكد رؤيتها إياه بعد أن تأملته من قمة لا يحجب الناظر منها حاجب ، ولكنَّ بينها و بينه ربا ونجادا ، فلم تخش قطعها ، بل أقبلت نحوه منقضة ، تكسر فى انقضاضها إليه جناحيها ليشتد طيرانها ، يُضاعف هويَّها فى ذلك الجو أنها تنقضّ منحدرة ، اندفعت إليه من مكان بعيد ، وهوت عليه من مرقب سحيق؛ لتنزل عليه سخطها ، وتنشب فيه مخالبها ، فما أشقاه ! إن الشقاء ليفد عليه من حيث يدرى ولا يدرى ، وحقا : « إن الشقاء على الأشقين مصبوب » أو « إن الشقى بالشقاء مولع » .

هوت عليه قوية دافقة ، وانصبت نحوه عازمة عارمة ،كأنها الدلو المثقلة بالماء قدانبتت عراها ، وخانها وذمها وتكريبها ، فسقطت كجلمود الصخر ، ليس كهذه التى تهوى من الجو تطلب صيدا فى قوتها وعرامها طالب ، ولا كذلك الذى يرخى فوق الأرض خوف ذلك الطالب مطلوب .

ما أشبه الطالب والمطلوب بالبرق والريح ، فالريح يعصف من ورائه البرق يلمع ، فمنظراهما عجيب ومرآتاهما غريبة ، إذ كلاهما يصر على الاجتهاد دون تقصير فيه ، و يعزم على أمر لا يحيد عنه ، هى تعزم على الفتك ، وهو يصر على الخلاص منها ، فما فى عزميهما تذبيب . ولكنها أنفذت إصرارها ، وأدركت ماعزمت عليه ، فنالته مخالبها ، وأنشبت فيه أظافيرها ، ولكنه استطاع أن ينسل من تحتها ، وأن يتخلص من براثنها ، وقد نقب جنبه ، وثقب دفه ، وأخذ يلجأ إلى الصخور يختبئ تحتها ليحتمى بها منها ، وكان الصراع

قد ثبط من همتيهما ، والنضال قد أوهى من قوتيهما ، فانتقل الهجوم والدفاع ، والكر والفر فوق ذلك الصخر الذى لجأ إليه ، ولاذ به ، فلجأ إلى غير الصخر ، فاستعان بمتن الأرض يثير غباره ، و يهيج عفره ليحجب بذلك التراب عن العقاب شخصه ، فترب لسانه وشدقيه ، دون أن تخطئه المنايا ، أو يغلط الموت فى معرفة مكانه ، لم يخطىء الموت قيد أنملة ، ولا نفعه التحرز والتحصن وهى كارة عليه ، مندفعة إليه ، فهو يظل يومه مختفيا فى الأجحار ، مختبئا بين الصخور ، مترقبا الليل المحبوب ليحميه من ذلك العدو الجبار .

النقد :

وقفت العقاب على إرم ، فرأت الذئب بينها و بينه قمم الجبال والربا والنجاد ، فاندفعت إليه تهوى « يحثها من هوى اللوح تصويب » تلك أول الصور التى رسمها امرؤ القيس فى هذه الأبيات .

انصبت عليه كما تسقط الدلو المفعمة بالماء قد انبتت عراها ، وخانها وذمها وتكربها ، وهذه صورة أخرى ، وأجمل من هاتين الصورتين تشبيههما بالبرق والريح ، وحقا إن مرآتاهما عجب ، و بلوغ هذه الصورة وتكوينها فى كلمتين أغرب وأعجب ؛ ووصف المعركة ، وأن العقاب قد أنشبت فى الذئب مخالبها ، وأنه ينسل من تحتها منقوب الجنب لائذا بالصخر ، وصف يلغ القمة فى تصوير الحقيقة ، وصدق الوصف .

إنك واجد فى هذه الأبيات صورا خلابة متسقة ، كما أنك واجد فى هذه الصور حياة دفاقة ، وأى صورة تتدفق بالحياة أوضح من هذه :

فأدركته ، فنالتــــــه مخالبها فانسل من تحتها ، والدف مثقوب
يلوذ بالصخر منها بعد ما فترت منها ومنه على الصخر الشآبيب

أدركته ، تصور عدوها وملاحقتها إياه ، فنالته مخالبها ، تصور قبضها عليه و إنشاب مخالبها فيه ، فانسل من تحتها ، تصور محاولته الإفلات من مخالبها حتى استطاعه ، والدف منقوب

تصور الحال التى أفلت عليها ، يلوذ بالصخر ، تصور اختباءه بين الصخور ، بعد فتورهما وخمود تدافعهما .

أما جمال الأسلوب فيبدو فى أكثر الأبيات بل فى جميعها ، فمن الجمال الفتان قوله :

صبت عليه ، ولم تنصب من أمم إن الشقاء على الأشقين مصبوب

يعجبك دون شك هذا الطباق السلبي ، كما يعجبك ذلك الاحتراس فى قوله من أمم . أما الحكمة ، فهى أخلد الحكم « إن الشقاء على الأشقين مصبوب » وأجمل ما فيها كلمة مصبوب ، لأنها توحى باندفاع الشقاء إليه ، وسقوط البلاء عليه ، ومن جمال الأسلوب قوله :

كالبرق والريح مرآتاهما عجب ما فى اجتهاد على الإصرار تغبيب

و بعد فالأبيات جميلة من جميع النواحى ، وكلما زدتها تأملا زدت شعورا بجمالها .



٣ — وقال عبيد بن الأبرص * يصف العقاب تصيد ثعلبا :

كأنَّها لَقْوَةٌ طَلُوبُ   تَيْبَسُ فِي وكرِها القُلوبُ (١)

باتَتْ على إرمٍ عَذُوبا   كأنها شيخةٌ رَقُوبُ (٢)

فأصبحَتْ في غداةِ قُرٍّ   يَسقطُ عَنْ رِيشِها الضَريبُ (٣)

فأبصرتْ ثعلباً سَرِيعاً   ودونَه سبسبٌ جديبُ (٤)

فنفضَتْ ريشَها وولَّتْ   وهْيَ مِنْ نهضةٍ قَرِيبُ (٥)

٣٨٥ : فاشْتَالَ وارتاعَ مِن حَسِيس   وفعلَه يفعلُ المَذْءوبُ (٦)

---

* ترجمة الشاعر : هو عبيد بن الأبرص بن حنتم بن مالك بن زهير الأسدى أحد فحول الشعر فى العصر الجاهلى ، ويقال : إنه لم يكن يقول الشعر إلى أن هجاه وهجا أخته شاعر ، فرفع يديه إلى السماء مبتهلا ، وهو يقول : اللهم إن كان فلان ظلمنى ورمانى بالبهتان ، فأدلنى منه ، وانصرنى عليه ، ثم نام ، فأتاه آت فى المنام بكبة من شعر ، وألقاها فى فمه ، فقام وهو يرتجز هجاء فى خصمه ، وقد مات قتيلا ، قتله المنذر بن ماء السماء سنة ٦٠٥ م .

التفسير اللغوى : (١) كأنها : الضمير يعود على الفرس التى كان يصفها فى الأبيات السابقة . اللقوة : العقاب ؛ سميت بذلك لأنها سريعة التلقى لما يطلب . طلوب : كثيرة الطلب ، تيبس : تجف من الخوف والفزع . القلوب : يعنى قلوب الطير فى أوكارها عند سماع حفيف جناحيها .

(٢) الإرم : العلم من الأرض ، العذوب : التى لا تأكل شيئا ولا تشرب ماء . الشيخة : العجوز . الرقوب : التى لا يبقى لها ولد .

(٣) القر . البرد . الضريب : الجليد .

(٤) دونه : أمامه . سبسب جديب : فلاة قاحلة مجدبة .

(٥) نفضت : حركت وهزت . ولت : طارت مبعدة . هى من نهضة : من طيران .

(٦) اشتال : رفع ذنبه . ارتاع : فزع . حسيس : صوت . المذءوب والمزءود : الخائف الفزع .

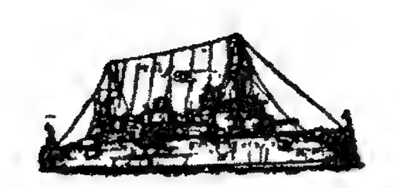
فنهضَتْ نحـــــوه حثيثا   وحرَدتْ حـــردَه تَسيبُ(٧)

فدَبَّ مِنْ خلفهـــا دبيباً   والعين حِلاقُها مَقلوبُ(٨)

فأدركَتْه فطرَّحَتْـــــهُ   والصَّيدُ مِنْ تحتِها مَكروبُ(٩)

فجدَّلَته فطرَّحَتْـــــه   فكَدَحتْ وجهَه الجَبُوبُ(١٠)

٣٩٠ : يَضغُو ومِخلَبُها فى دفِّه   لا بُدَّ حيزومُها مَنقوبُ(١١)



(٧) حثيثا : سريعة . حردت : قصدت . تسيب . تنساب على الرمل .

(٨) فدب : فسار فى خفاء وحذر . الحملاق : باطن الجفن أو عروق العين .

(٩) فطرحته : فرمته . الصيد : يقصد الثعلب . مكروب : مصاب بالكرب والشدة

(١٠) فجدلته : فقتلته ، وأصله طرحته بالجدالة وهى الأرض . فكدحت : فخدشت الجبوب : الأرض الصلبة .

(١١) يضغو : يصيح . مخلبها : ظفرها. دفه : جنبه . حيزومها : صدرها .

تحليل الأبيات :

شرع عبيد يصف فرسه ، فلم يطل ؛ إذ لم يتجاوز فى وصفه إياها هذه الأبيات :

فذاكَ عصرٌ وقد أرانى   تحمِلنى نهدةٌ سُرحوبُ

مُضبَّرٌ خلقُها تضبيرًا   ينشقُّ عن وَجهِها السَّبيبُ

زَيتيةٌ نائمٌ عروقُها   وَلينٌ أسْرِهَا رطيبُ

ثم انتقل إلى تشبيه فرسه فى شدة عدوها ، وسرعة شدها بعقاب خفيفة ، سريعة التلقى لما تطلب ، إذا أبصرتها الطيور فى أوكارها أدركها حينها ، و بلغها حتفها ؛ إذ تيبس قلوبها الرطبة ، وتجف أفئدتها الطرية ، لأن الدماء لاتجرى فيها ، وذلك لكثرة ماتصيد منها .

قد باتت هذه العقاب فوق رابية عالية ، ومرقبة مرتفعة ، و إرم مستطيل ، عذوبا عن الأكل ، عزوفا عن الطعام ، كأنها شيخة عجوز ، بلغ منها اليأس كل مبلغ ، فلا رجاء لها فى عقب ، فقد أدركتها سن الإياس ، لقد ثكلت تلك الشيخة وليدها ، وأصابها الدهر فى وحيدها ، فلم يقر لها فى ليلها الأطول قرار ، ولا مس جفنيها هجوع ، فأصبحت مبكرة فى جو بارد ، وبرد قارس ، تجمد له الماء ، فصار جليدا متساقطا عن ريشها .

و إذ هى على تلك الحال من انقباض النفس وجمود الحس ، أبصرت ثعلبا يستحث قوائمه ، و بينه و بينها فلاة قاحلة ، ومفازة مجدبة ، فنسيت ما كانت فيه من انقباض وخمود ، ونفضت ريشها نفضا ، ووثبت وثبة قوية ، إذ رأت الصيد مواتيا ، وطارت تجاهه ، فأصبح منها جد قريب ، فشال ذنبه ليهم بالفرار ، بعد أن أفعم قلبه بالارتياع والفزع من ذلك الزفيف المفاجئ ، والصوت المباغت ، وصنع ما يصنع الخائف المذءوب ، والفزع المزءود ، فأقبلت عليه مسرعة حثيثة ، وانسابت إليه انسياب الماء الدافق ، فتحول من خلفها حذرا ينظر إليها شزرا . ليتبين ما قدتهم به، فكأن حملاق عينه مقلوب ؛ لأنه ينظر فى اتجاه العقاب .

ولـكن هذا الدبيب الخفى لم ينفعه ، والدوران من حولها لم يجده شيئا ، والتوجس والحذر لم يدفع عنه قضاء ، فقد أدركته فطرحته على الأرض ، وهى من فوقه جاثمة ، وهو من تحتها فى كرب وقنوط ، فقتلته بعد أن طرحته بالجدالة لايقوى على دفاع ، ولا ينهض بمقاومة ، وخدشت وجهه بمخالبها الحادة ، وبالأرض الصلبة التى رمته فوقها ، وأخذ قبل أن يودى به يصيح ، وكأنه يتضرع ويستغيث فمخالبها فى جنبه تثقبه ، وأظفارها فى صفحته تنقبها ، ولـكن من ذا يستمع للضراعة ، وأنى يجد المغيث ؟ وأعياه الصياح ، فقد نعبت عن صدره ، فمثلت به أسوأ تمثيل .

النقد :

فى هذه الأبيات دقة وصف ، وجودة تصوير ، وعلم بطبائع جوارح الطير ، فهى تبدو ساكنة هادئة ؛ حتى إذا أتاحت لهـا الفرصة فريسة نفضت عنها غبار الهمود ، وخلعت ريش الهدوء ، ونهضت فى وثبة المرح النشيط ، وليس كل إنسان يعرف ذلك الطبع فى العقبان ، وإنمـا يعرفه رجل البيداء ، وأخو الصحراء .

كما أجاد الشاعر تسلسل العرض، وأبدع فى تصوير خطوات كل من العقاب والثعلب ؛ فالعقاب ينهض طائرا ، ويشتد فى الطيران ، ويقف على مرقبة من الثعلب ، وكأنه يرسم طريق الهجوم عليه ، ويراها الثعلب فيدبر لنفسه مخلصا ، ويقدر له منفذا فيهم بالفرار ، فيفر ، يتلفت ذات اليمين وذات الشمال .

ولـكنها وقد قاست الطرق إليه ، وقدرت أقربها نحوه ، تنساب انسياب الأفعى فتدركه فتطرحه فتجدله ، فتنقب جنبه وصدره .

صور حية ، وتمثيلية كاملة لاينقصها منظر ؛ ولاتحتاج إلى مزيد، كل ذلك فى أسلوب متسق ، فبعض الألفاظ يصور معانيه ، ويشعر باختيار الشاعر إياه ، فبسبب أفضل من غيرها من الألفاظ الدالة على الصحارى ، ويظهر أنه آثر الإكثار من بعض الحروف لتلائم

الموقف من هذه الحروف السين والباء ، فتيبس ، ويسقط ، سريعا ، وتسيب وحسيس كلها ألفاظ مقصودة لذاتها، ومن الألفاظ الموحية بالمعانى: فاشتال وارتاع فإن زيادة التاء فى الفعلين تشعرك باشتداد اشتياله ، وقوة ارتياعه .

والذى لا نكاد نستريح إليه البحر الذى اختاره عبيد لقصيدته ، ويشاركنا فى نظرنا إلى ذلك البحر المضطرب الأمواج ، المختل الأوزان أبو العلاء المعرى ، فيقول :

وقد يخطئُ الرأى امرؤ وهو حازم كما اختل فى وزن القريض عبيد

على أن مما يغفر له هذا الاضطراب أنه كان ذا نفس شاعرة ، وإن لم تكن وازنة ؛ فالشعر كما قدمنا فى أول هذه الفصول إثارة الشعور ، وإهاجة الوجدان ، لا ترتيب الألفاظ ، وتنسيق الأوزان .



٤ — وقال زُهير* يصف صقرا يطارد قطاة :

كأنَّها من قطا الأجبابِ حانَ لَها	وِرْدٌ وأفردَ عنها أُختَها الشَّبَكُ(١)
جُونيَّـــةٌ ، كحصاةِ القَسْمِ مرتعُها	بالسِّيِّ ما يُنْبِتُ القَفْعاءُ والحَسَكُ(٢)
أهوى لها أسفعُ الخدَّينِ مُطَّرِقٌ	رِيشَ القوادِمِ لم يُنْصَبْ له الشَّرَكُ(٣)
لاشيء أجْوَدُ منها وَهْيَ طيِّبَةٌ	نفساً بما سوفَ يُنجِيهاَ وتَتَّرِكُ(٤)
دون السَّماءِ وفوقَ الأرضِ قَدرُهُما	عِنْد الذُّنَابَى فلا فوتٌ ولاَ دَرَكُ(٥)
عندَ الذُّنَابَى لها صَوْتٌ وَأَزْمَلَةٌ	يكادُ يخطفُها طَـــــورًا وتَهْتلِكُ(٦)
٣٩٧ : حتَّى إذا ما هوت كفُّ الغُلامِ لَها	طارتْ وفى كفِّهِ مِن رِيشِها بِتَكُ(٧)

---

* ترجمة الشاعر : تقدمت فى وصف الناقة ص ٨٨ .

التفسير اللغوى : (١) كأنها : الضمير يعود على الفرس فى الأبيات قبل ، إذ يقول :

وصاحبي وردة نهد مراكلها ... جرداء لا فحج فيهـــا ولا صكك

الأحباب : جمع جب مواضع الآبار . حان لها . ظهر لها . ورد : الورد القوم يردون الماء ، أو هو ورود الماء ، وهو أنسب . (٢) القطا : الجونى والكدرى . وفى كليهما سواد ، والعطاط عبرهما . أو هو ما اسود جانب أجنحته وطالت أرجله ، واغبرت ظهوره غبرة ليست بالشديدة ، وعظمت عيونه . حصاة القسم : الحصاة التى يقسم عليها الماء إذا قل مع المسافرين ، فيصبون عليها الماء حتى يغطيها ولا تكون إلا ملساء مجتمعة ، ولذلك تشبه القطاة بها فى شدتها واجتماع خلقها . السى : ما استوى من الأرض . القفعاء : بقلة ذات نور أحمر . الحسك : ثمر الفل تشبه القث ولها نور أصفر . (٣) أهوى : انقض . أسفع الخدين : أسمر الخدين يشوبهما حمرة . مطرق : مجتمع الريش . القوادم : ريش مقدم الجناح ، وهو ريش كبير . لم ينصب له الشرك : كناية عن أنه وحشى لم يؤخذ ولم يذلل . (٤) أجود : أسرع : طيبة نفسا : راضية مطمئنة . تترك : تترك وتدع . (٥) دون السماء : تحت السماء . الذنابى : الذنب . فلا فوت : فلا بعد عن الصقر . ولا درك . ولا لحاق منه لها .

(٦) عند الذنابى : عند الذنب . لها صوت وأزمله : لها صوت مختلط مضطرب من الفزع . تهتلك : تجتهد فى الإسراع . (٧) هوت : سقطت . بتك : قطع وزنا ومعنى .

ثم استمرَّتْ إلى الوادى فألجأها ... مِنه وقد طمِعَ الأظفارُ والحَنَكُ(٨)

حتى استغاثَتْ بماءٍ لا رِشاءَ له ... مِنَ الأباطِحِ فى حافاتِهِ البُرَكُ(٩)

مكلَّلٍ بأصولِ النَّجْمِ تَنْسِجُه ... رِيحٌ خريقٌ لضاحِى مائِه حُبُكُ(١٠)

كما استغاث بسَيْءٍ فَزُّ غَيْطَلَةٍ ... خافَ العيونَ فلم يُنظَرْ به الحشَكُ(١١)

٤٠٢ : فزَلَّ عنها ، وأوفَى رأسَ مَرقَبةٍ ... كمنْصِبِ العِتْرِ دمَّى رأسَه النُّسُكُ(١٢)



---

(٨) استمرت : أى فى الطير والهرب . فألجأها : فحملها على الوادى خوفها منه ، لأن بالوادى شجرا يمكن أن تختفى فيه . الأظفار : المخالب . الحنك . المنقار .

(٩) استغاثت : استعانت والتجأت . لا رشاء له : لاحبل ينزح به الماء ، وفيه كناية عن أنه نز . الأباطح : جمع أبطح ، الأرض المستوية . فى حافاته : على شواطئه . البرك : جمع بركة وهى طيور من طيور الماء ، أو هى الضفادع .

(١٠) مكلل : محيط به النبت كالإكليل . النجم : النبت الذى يقال له التيل ، قيل : إنه لاينبت إلا على ماء ، أو فى موضع تحته ماء . ريح خريق : ريح شديدة. لضاحى مائه . لبارز مائه . الحبك: طرائق ، مفردها حبيك .

(١١) السيء : اللبن الذى فى الضرع قبل أن يدر . الفز : ولد البقرة . الغيطلة : الشجر الملتف أوالبقرة وهوالمراد . خاف العيون : خاف الناس وخشيهم . الحشك : احتفال الضرع باللبن .

(١٢) فزل عنها : فسقط الصقر عن القطاة . أوفى : بلغ . المرقبة : المكان المرتفع ينظر منه الرقيب . المنصب : الحجر يعتر عليه . العتر : والعتيرة الذبيحة تذبح تعبدا ونسكا . أو العتر الصنم . دمى : أسال دمه . النسك : جمع نسيكة ما يذبح عليه .

تحليل الأبيات :

كأن فرسى تلك من قطا أرض ذات عيون وآبار ، فيفد عليها الواردون ، فهى منهم حذرة وجلة ، ولا سيما وقد قنص أختها شبك الصائد ، وحبالة القانص ، تلك القطاة جونية الشكل ، مستوية الخلق ، فظهرها أكدر ، وباطن جناحيها أسود ، وريش حلقها أصفر ، واستواء خلقها يحكى استواء حصاة القسم ، يتقاسم عليها السفر ماءهم ، وقد أوشك أن ينفد ، وهى تحيا فى خصب ، وتعيش فى رتاع ، فلها فى سيها نوعان من الغذاء : بقلة من أحرار البقل ، وثمرة من ثمر النَّقَل .

وإذ هى سعيدة بوطنها ، متمتعة برغد عيشها انقض عليها صقر ذو خدين أسفعين ؛ أشربت حمرتهما بسواد ، وانضم ريش قوادمه بعضه على بعض ، وهو صقر كاسر ، لم يذلله قانص ، ولا قنصه آسر ، فهو قوى مخيف .

وبدأت المطاردة ، فليس أجود من القطاة سرعة ، وهى ليقينها بسرعة طيرانها طيبة النفس ، مطمئنة الفؤاد ، عالمة أن جناحيها سيهبان لها النجاة ، فهى تترك بعض ما تستطيعه ؛ لقد حلقا فى الجو ، بين السماء والأرض ، فهى أمامه ، وهو من خلفها ، يكاد يبلغ ذنبها ، فلا هو يدركها ، ولا هى تفوته ، وحينما تركت طيرانها أهوت إليها كف الغلام لتقبض عليها ، فاستجمعت قوتها ، وتخلصت من كفه ، وقد بقى فيها قطع من ريشها ، حتى بلغت الوادى ذا الشجر ، فهى تقدر على الاختفاء فى أغصانه ، أو الاختباء بين جذوعه وأفنانه ، بعد أن طمع ظفره فى القنص ، ومنقاره فى الخمش والنقر ، ولم تزل تجتهد فى الطيران ؛ حتى استغاثت بماء نجل يجرى على سطح الأرض ، فليس له غور ، ولا يحتاج إلى رشاء ينزح به ، لأنه فى أبطح مستو يتجمع حول حافاته البرك ، هذا الماء يكلله النجم ، وتحوطه أصول النبات الذى لاسوق له ، فإذا مرت به ريح الشمال الشديدة جعلت فى ظاهر ذلك الماء طرائق وأمواجا كأنها أجزاء النسيج ، وكانت استغاثتها بذلك الماء كاستغاثة ولد البقرة بالضرع الذى لم يحتفل بعد باللبن ، وهو يخاف أن ينظره الراعى ، فلا يدعه يشرب حتى ذلك السيء .

قد أجهد الصقر ، واختفت عن عينيه القطاة ، فسقط عن مطاردتها مرغما ، ولكنه وقف فوق مرقبة ينتظر أن تبدو له مرة أخرى كحجر العتر الذى يدمى رأسه بدم ذلك العتر .

النقر .

يمتاز زهير بتصوير كثير من مناظر البيئة العربية الدقيقة ، وبرسم عديداً من عادات العرب التى لا ترد على خواطر أكثر الشعراء ، ولعل مصدر هذا أمران : أولهما تجويد شعره ، فذلك التجويد يبعث على التأمل الطويل ، والتدبر فيما يقول ، والآخر طول عمره ، واستمداده حكمته من حياته وحياة أمته ، انظر إلى قوله يصف القطاة باستواء الخلق ، واملاس الظهر :

جونية كحصاة القسم مرتعها ... بالسي ماتنبت القفعاء والحسك

لقد ذكر لنا عادة من عادات العرب فى أسفارهم ورحلاتهم ، هى قسمهم الماء بينهم ، وذكر هذه العادة يوحى إلينا بقلة الماء فى بلاد العرب ، وقلة الماء يتبعها قلة العشب ، وندرة النبات . ولكنه فى هذا البيت بالذات أشعرنا أن من بلاد العرب أرضا ذات مراع خصبة ، ومزارع نضرة .

ثم هذه صورة أخرى من الصور الجميلة التى تستطيع أن ترسم منها مصورا لجزء من بلاد العرب دون أن تخاف الخطأ أو توصف بالتجوز فى الرسم ، تلك هى :

حتى استغاثت بماء لا رشاء له ... من الأباطح فى حافاته البرك

مكلل بأصول النجم تنسجه ... ريح خريق لضاحى مائه حبك

وصف الماء الذى استغاثت القطاة به بأنه لايحتاج إلى رشاء ؛ وإذن فهو نجل وأنه ينز فى أرض مستوية ؛ ليس فيها أغوار ؛ وأن على حافاته ذلك الطير الأبيض من طيور الماء ؛ أو الضفادع وهو أنسب فى هذا المقام ، ثم إن النبت الصغير يلف ذلك الماء ويحوطه ، وقد تنسج الريح فوق الماء الظاهر طرائق وحبكا .

ثم هذه النظرة الدينية التى صوّر لنا فيها إحدى عاداتهم فى عبادتهم ، وهى الذبح فى شهر رجب للأصنام تنسكا وتعبدا ، وتلك النظرة فى قوله :

فزلّ عنها وأوفى رأس مرقبة ... كمنصب العتر دمى رأسه النسك

أما أسلوب زهير فهو الأسلوب المصفى الذى قل أن تجد فيه ما يعيبه ، فقد كان من عبيد الشعر ، فكيف يخون سيده ، أو يهمل شأن أميره ؟

٥ — وقال أبوذؤيب الهذلى* يصف صيد الحمر الوحشية :

فوردْنَ والعيُّوقُ مَقْعَدَ رابِئِ الضُّـــــرَباءِ خَلفَ النَّجْمِ لا يتتلَّعُ(١)

فشرَعْنَ فى حَجَراتِ عذْبٍ باردٍ حصِبِ البِطاحِ تغيبُ فيهِ الأكرُعُ(٢)

فشرِبْنَ ، ثم سَمِعْنَ حسًّـا دُونه شرفُ الحجابِ ورَيْبُ قَرْعٍ يُقرعُ(٣)

ونميمةً من قانِصٍ مُتلَبِّبٍ فى كفِّـــه جَشْءٌ أجشُّ وأقطعُ(٤)

٤٠٧ : فنكِرْنه، فنفرْن فامــــترسَتْ له سَطعاءُ هاديةٌ ، وهادٍ جُرشُـــعُ(٥)

---

* ترجمة الشاعر : أبو ذؤيب كنية اشتهر بها الشاعر ، واسمه خويلد بن خالد بن محرث الهذلى ، كان شاعراً مخضرماً ، أدرك الإسلام فأسلم ، سئل حسان بن ثابت عن أشعر الناس ، فقال : حيا أم رجلا ؟ قال سائله: بل حيا ، فقال : حيا هذيل ، ورجلا أبو ذؤيب ، وهذه الأبيات من قصيدته التى يرثى بها بنيه الخمسة الذين اغتالهم الطاعون فى عام واحد بعد أن صاروا رجال بأس ونجدة وأول القصيدة هو :

أمن المنون وريبها تتوجع ؟ والدهر ليس بمعتب من يجزع

التفسير اللغوى : (١) فوردن : نون النسوة تعود على الحمر الوحشية . العيوق : كوكب يظهر بإزاء الثريا . رابئ الضرباء : الرابئ الرجل فوق الضرباء ينظر ما يفعلون ، والضرباء: جمع ضريب الضاربون بالقداح . لايتتلع : لايتقدم ولا يرتفع . (٢) فشرعن : ضمير النسوة يعود على الحمر ، فمددن أعناقهن ليشربن . الحجرات : النواحى ، مفردها حجرة . الحصب : الماء فيه الحصباء ، وهو أصفى ما يكون . البطاح : بطون الأودية، مفرده أبطح . الأكرع : جمع كراع مستدق الساق ، ويريد أكرع الحمير . (٣) حسا: صوتا . دونه : بينه . شرف الحجاب : منقطع أرض الحرة ، وقيل : إنما يريد حجاب الصائد ؛ لأنه لابد أن يستتر بشىء . ريب قرع : قرعا يريب ويفزع ، ويريد قرع القوس وصوت الوتر .

(٤) نميمة : يريد نميمة القانص ، وهى ما نم عنه ، المتلبب : المتقلد كنانته . الجشء : القضيب من النبع تصنع منه القسى . الأجش : الغليظ الصوت . أقطع جمع قطع ، وهو النصل العريض القصير .

(٥) فنكرنه : فأنكرنه . فامترست له : فأقبلت عليه ولصقت به . السطعاء : الطويلة العنق . الهادية : المتقدمة . الجرشع : الغليظ الممتلئ الجنبين .

فرمى ، فأنفذَ مِنْ نَجُـــودٍ عائطٍ سهماً فخرَّ ، وريشُـــهُ مُتصَمِّعُ(٦)

فبـــدَا له أقرابُ هادٍ رائغاً عنـــه فعيَّثَ فى الكنانةِ يرجعُ(٧)

فرمى ، فألحق صاعِـــديًّا مُطْحَراً بالكَشْحِ ، فاشتملَتْ عليه الأضْلُعُ(٨)

فأبدَّهُنَّ حتـــوفهُنَّ : فهاربٌ بِذَمائِهِ ، أو باركٌ مُتجعجعُ(٩)

٤١٢ : يَعْـــثُرْنَ فى عَلَقِ النَّجيعِ كأنما كُسِيتْ بُرُودَ بنى تزيد الأذْرُعُ(١٠)



(٦) النجود : العبلة الطويلة . العائط : التى اعتاطت رحمها فبقيت أعواما لا تحمل . متصمع : منضم بعضه فوق بعض من الدم المتجمد عليه .

(٧) الأقراب : الخواصر ، والذى بدا له قرب واحد فجمعه بما حوله . رائغا : منصرفا مائلا . عيث : مد يده إلى كنانته ليأخذ سهما . يرجع : يعيده .

(٨) الصاعدى : نسبة إلى بنات صعدة على غير قياس وهى الحمر الوحشية ، وقيل الأسهم ، والأول رأى اللسان . مطحراً : سهما بعيداً . الكشح : مابين الخاصرة إلى الضلع من الخلف .

(٩) فأبدهن حتوفهن : فأعطاهن حتفهن وهلاكهن . بذمائه : ببقية نفسه . المتجعجع : الساقط على الأرض .

(١٠) علق النجيع : متجمد الدم . بنو تزيد : بطن من قضاعة تنسب إليه البرود .

تحليل الأبيات :

وردت الحمر الوحشية الماء وكوكب العيوق يبدو خلف الثريا ، كما يظهر الرقيب خلف لاعبي الميسر بنظر مايفعلون ، فإذا نهد قدح حفظه خشية التبديل ، ولايكون العيوق كذلك إلا آخر الليل فى شدة الحر ، فشرعت الحمر تشرب من جميع نواحي الماء ، تشرب ماء عذباً خصرا ، حصب البطاح ، جاريا ليس نجلا ، بل هو فياض تغيب فيه أكرع هذه الحمر ، فما زلن يشربن هادئات هانئات ، حتى أزال هدوءهن ، وأفقدهن هناءتهن ، صوت بينه و بينهن شرف مرتفع ، فهن لايتبين مصدره ، فاشتد منه ريبهن ، وعظم فزعهن ، فهو يريب كما يريب قرع القوس أو صوت الوتر ، سمعن صوت وترذلك الصياد المتقلد كنانته ، المتلبب بأسهمه ونباله ، الحامل فى يده قوسه ، وهو إلى كل هذا ذو صوت أجش ، ونصـــل عريض قصير .

فأنكرن هذا الصوت ، وكان إنكارهن له سبب نفورهن منه ، و بعدهن عنه ، وأخذ بعضهن يمترس بالآخر ، فتنضم السطعاء الطويلة العنق إلى الجرشع الغليظ الجنبين ، كأنها تطلب حمايته ، و يمترسها هو كذلك : كأنه يلتمس حمايتها .

وكأن هذا الامتراس قد أضرّ بهن ، فقد رمى الصياد سهمه ، فأنفذه فى أتان عبلة طويلة ، قوية مكتنزة ، إذ لم تحمل ولم تلد فتهى قوتها ، فسقط السهم المريش فيها ، وقد انضم ريشه وتجمع ، فكان أقتل وأفتك .

وظهر لذلك الصائد الماهر خاصرة حمار رائغ عن إخوانه ، منصرف عن رفاقه ، فأمال يده إلى كنانته يستخرج منها سهما ليرمى به ذلك النافر الشارد ، ورمى فأدرك سهمه البعيد الرمى حماراً صاعديا ، أصابه فى خصره ، فاشتملت على ذلك السهم المسدد أضلاع ذلك الحمار ، وفرّق الموت عليهن ، ووزع المنون بينهن ، فمنهن من أصيب إصابة غير قتالة فهو هارب بذمائه ، ومنهن من إصابته قاتلة فهو بارك فى مكانه لايستطيع حراكا ، وهذه الأتن الهاربات تتعثر فى طريقها ، والسهام فى أذرعها ، والدم المتجمد يعلوها ، فطرائق الدم فى تلك الأذرع كطرائق برود بنى تزيد ، كلاهما يشتمل على خطوط حمر تضرب إلى السواد .

النقد :

الناظر فى أبيات أبى ذؤيب يجد صورا متتابعة متعاقبة ، يأخذ بعضها بأعناق بعض ؛ فالحمر ترد الماء سحرا ، فيشرعن يشربن من نواح مختلفات ، و بعد أن شربن سمعن حسا يحجبه عنهن شرف الحجاب ؛ ونميمة قانص متقلد كنانته ، فنكرن الصوت والنميمة ، فنفرن فتلاصقن ، وهكذا يسير فى تصويره كأنه قطار إبل .

وتلك الصور صادقة صدقا واضحا ، ليس للغلو فيها نصيب ، فالحمر ترد الماء سحرا إذ العيوق يتخذ له مرقبة خلف الثريا التى تقف دون أن تسير ، وتثبت لاتتتلع ، ثم صورها ترد الماء ملتفات حول شاطئه ، دائرات عند حجراته ، وليس هذا الماء نزا بل تغيب فيه الأكرع .

وكأنك تتأمل الصائد ، وهو يرمى سهمه ، فيصيب هدفه ، فيخر ذلك الهدف ، وقد تصمع ريش السهم من آثار الدم ، وذلك فى قوله :

فرمى ؛ فأنفـذ من نحوص عائط سهما ، فخر ، وريشـه متصمع

وها هو ذا يصف لك الصيد ، فهو أتان عبلة طويلة حرمت الحمل ، فهى فتية قوية ، ويظهر أن فقد أبى ذؤيب بنيه الخمسة جعله يستهين بالحياة ، و يستخف بالبقاء ، فهو فى أبياته يصف الصائد بأنه تابع الرمى حتى كاد يفنى الحمر ، و ينوع مواطن الإصابات ، وهاك قوله يثبت مانقول :

فرمى ، فألحق صاعديا مطحرا بالكشح ، فاشتملت عليه الأضلع

فأبدهن حتوفهن : فهـارب بذمائه ، أو بارك متجعجع

ولا بد أن الصورة فى آخر الأبيات ستعجبك ، فهى صورة حقيقية صادقة ، إذ ذلك شأن كل مايطارده الصائدون ، هروب و إلا فحتوف .

أما الأسلوب فجزل قوى ملائم لموضوعه تشيع فيه حروف تكسبه هذه الجزالة مفردة أو مركبة مع غيرها كحرف الشين مثلا ، وهناك حروف تتابع ، فلا تحدث تنافراً كقوله : فنكرنه فنفرن ، فقد تكررت فى هاتين الكلمتين الفاء ، والنون والراء ، دون أن يشعر القارئ بثقل ، بل لعله شعر برضا عن الشاعر .

و بعد فالأبيات من قصيدة حكم لها بالجمال ، وهذه الأبيات من أروع أسباب جمالها .

٦ — وقال تأبط شرا * يصف الغول ، وقد تقاتلا :

ألا مَن مُبلغٌ فتيانَ فهمٍ	بما لاقيتُ عند رَحَى بطانِ (١)
بأنِّى قد لقيتُ الغولَ تَهْوِى	بسهبٍ كالصحيفة صحْصَحانِ (٢)
فقلت لها : كلانا نِضْوُ أين	أخو سفر ، فخلِّى لى مكانى (٣)
فشدَّتْ شدةً نحوى فأهْوَى	لها كفِّى بمصقولٍ يمانى (٤)
فأضربُها بلا دَهَشٍ ، فخرَّتْ	صريعاً لليدين وللْجِرانِ (٥)
فقالت : عُدْ ، فقلتُ لها : رُوَيداً	مكانَكِ إنّنى ثبْتُ الجَنانِ (٦)
فلم أنفكَّ متّكِئاً عليها	لأنظرَ مُصْبحاً ماذا أتانى (٧)
إذا عينانِ فى رأسٍ قبيحٍ	كرأسِ الهرِّ مَشقوقِ اللِّسانِ (٨)
وساقا مُخْدَجٍ ، وشَواةُ كَلْبٍ	وثوبٌ من عباء أوْ شنانِ (٩)

٤٢١ :

* ترجمة الشاعر : هو ثابت بن جابر بن سفيان التيمى ، ولقب بتأبط شرا ؛ لأنه تأبط سيفه وخرج ، فسئلت عنه أمه ، فقالت : تأبط شراً وخرج ، وهو من صعاليك العرب الفتاكين ، ومن لصوصهم العدائين ، هذا إلى أنه كان أسمع العرب وأبصرهم ، وأكيدهم وأعداهم ، قيل عن عدوه : إن الخيل لم تكن تدركه ، والظباء لم تكن تفوته ، وله شعر جيد ، توفى سنة ٥٣٠ م .

التفسير اللغوى : (١) فهم : أبوحى وابن عمير بن قيس بن عيلان . رحى بطان : أرض بالبادية ، (٢) الغول : حيوان لاوجود له ، تخيله العرب فوصفوه ، ومن معانى لفظ الغول الحية . تهوى : تنقضّ . بسهب : بفلاة . الصحصحان : الأرض المستوية الجرداء.
(٣) نضوأين : سقيم نصب . أخو سفر : كثير الأسفار . فخلى : فاتركي.
(٤) فشدت شدة : فوثبت وثبة فأهوى: فأسقط . بمصقول يمانى: بسيف محدد مرهف منسوب إلى اليمن . (٥) دهش : تحير واضطرب . فخرت : سقطت . صريعاً : مصروعة مقتولة . للجران : لمقدم عنق البعير . (٦) عد . ارجع للقتال . رويدا : تمهلا . مكانك : الزمى مكانك . ثبت الجنان : ثابت القلب . (٧) متكئا : معتمدا . مصبحا : عند تنفس الصبح . (٨) الهر : القط . (٩) ساقا مخدج : ساق حيوان ناقص الخلق لم تتم أيام حمل أمه به . الشواة : قحف الرأس وجلدته . العباء : العباءة. الشنان: السحاب.

تحليل الأبيات :

انتصر تأبط شرا على الغول . قال الجاحظ عنها : إنها اسم لكل شيء من الجنّ يعرض للسفار ، ويتلوّن فى ضروب الصور والثياب ، ذكراً كان أو أنثى إلا أن أكثر كلامهم على أنه أنثى ، وإذا كان ذلك أمره ، فهو فيما يرى لاينتصر عليه إلا الأبطال الأشداء ، فمن حق تأبط شرا إذن أن يذيع نصره لا فى قبيلة بنى فهم فحسب ، بل له أن يذيعه فى الآفاق ، فهو نصر مؤزر ، وفوز مظفر .

لاقى تأبط شراً — فى فلاة مستوية جرداء ، لاماء فيها ولانبات ولاحيوان — غولا تنقض عليه انقضاض الصاعقة ، وتنتفض إليه انتفاض الجنان ، وتهوى نحوه هوى الصخرة من شاهق الجبل ، فلم يأخذه انقضاضها وهويها ، بل قال لها باغيا لنفسه ولها السلامة : لاعليك بأس ، فكلانا نضو أين ، وسقيم نصب ، وأخو سفر ، تخلى عنى أخلى عنك ، واتركينى لشأنى أتركك لشأنك ، ولكن كيف لها أن تدعه ؟ وأنى لها أن تخلى عنه ؟ لم تصخ إليه ، ولم تستمع له ، ومتى استمع القوى للضعيف أو لمن ظنه ضعيفا ؟

لقد شدت عليه شدًّا شديداً ، وعدت نحوه عدوا بعيداً ؛ حتى دانته فصارت منه قاب قوسين أو أدنى ، فهوى عليها بسيفه المصقول دون أن يصيبه من هجومها دهش ، أو يلحقه من انقضاضها خور ، فكانت الضربة حاسمة ، فخرت على الأرض مصروعة خائرة ، سقطت على يديها وجرانها ، وأثارتها الضربة التى لم تعرفها من قبل ، وأزعجتها الوثبة التى لم تكن تتوقع لها ذلك الأثر .

كيف تهزم ، وقد تعودت الانتصار ؟ لقد صاحت به أن عد ، فسأريك كيف يكون القتال ، فأجابها ، وقد أفرخ روعه ، واطمأن لضربته فؤاده ، مهلا ورويداً ! قفى مكانك ، وأنا منك حيث تشائين ، إننى ثبت الجنان ، لا أفر من ميدان .

واتكأت عليها بظبة سيفى حتى لاتهرب بجراحها فتنجو منه ، بعد أن التمست إليها المسالمة فأبتها ، وطلبت إليها المهادنة ، وكلانا فى حال تدعو إليها فعصتنى ، اعتمدت عليها

بسيفى إلى أن يتنفس الصبح ، لأتحقق من ذلك العدوّ الباسل ، ولأتبين فى الصباح ماذا أحمد من سُراى .

وإذا حيوان غريب ليس له فى أنواع الحيوان ضريب ، إن عينيه مختفيتين مختبئتين فى رأس مستدير كأنه رأس الهر ، وهو مشقوق اللسان ، وذو ساقين قصيرتين ، كأنهما الحيوان لم يتكامل خلقه ، ولم يتم تكوينه ، وشواة رأسه كشواة رأس الكلب ، وجلده ناعم أزرق كأنه فى نعومته عباءة ، وفى زرقته قطعة من سحاب .

فذلك الحيوان الصريع قد أخذ من كل حيوان أقبح ما فيه ليكون بشع المنظر ، قبيح الشكل ، مخيفا لكل ناظر إلا إذا كان تأبط شرا .

النقد :

لا يشعر الناقد البصير بقوة هذه الأبيات ، ولو أنه زعم أنها أبيات موضوعة لما عد مجاوزا الصواب ، فليست فيها القوة التى يمتاز بها الشعر الجاهلى ، فهو قد هوّل تهويلا عظيما فى عجز البيت الأول بذلك الإبهام « بما لاقيت عند رحى بطان » ولكن هذا التهويل مالبث أن توارى ، ولو أنه أراد الاستمرار فيه لبالغ فى وصف الغول ، وفى تصوير اعتدائها عليه ، ولكنه لم يزد على أن قال : « بأنى قد لقيت الغول تهوى » وليس من اللازم اللازب أن يكون هويها إليه ، ثم إنه أخذ يحاورها ، فقال لها ولم تقل له ، وليس مثل هذا من الأسلوب الجاهلى .

بقى أنه انتظر إلى الصباح حتى يعرف ما هى ، ويتبين حقيقتها ، وإذن فقد كان قتله إياها عن جهل بها ، وعدم معرفة لها ، وهذا المعنى يهون من شأنها .

أما الأسلوب فلا نكاد نجد فيه الجزالة البدوية ، ولا القوة الجاهلية ، ولا سيما فى مثل هذا الغرض ، وشعر تأبط شرا فى غير هذه الأبيات يفيض بالجزالة ، ويفعم بالقوة .

ويكاد البيتان الأخيران من الأبيات يشهدان بالصنعة ، وهو إذ يصف فيهما الغول يصفها وصفا لا ينبئ بقبح ، فيتم الوصف بالقبح ، وكأنى به لم يستطع أن يحدد لون الجلد بقوله : وثوب من عباء ، فعطف عليه بقوله أو شنان .

٧ — وقال الشنفرى * يصف الذئاب من قصيدته المعروفة بلامية العرب ، وأولها :

أَقيمُوا بنى أُمّى صُدورَ مَطيِّكُمْ   فإنى إلى قوم سِواكُمْ لأميلُ[(١)]

وأغدُو على القُوتِ الزَّهيدِ كما غدا   أزَلُّ تهاداهُ التَّنائفُ أطْحَلُ[(٢)]

غَدا طاوياً يُعارِض الرِّيحَ هافياً   يَخوتُ بأذنابِ الشِّعابِ ويَعْسِلُ[(٣)]

فلمَّا لَواهُ القوتُ مِنْ حَيْثُ أَمَّهَ   دَعا فأجابتْه نظائرُ نُحَّلُ[(٤)]

٤٢٦: مُهلهلةٌ شِيبُ الوُجوهِ ، كأنّها   قِداحٌ بكفَّيْ ياسرٍ تَتَقلْقَلُ[(٥)]

---

* ترجمة الشاعر : هو من بنى الحرث بن ربيعة بن الأواس بن الحجر من الأزد ، شاعر من أهل اليمن معدود فى العدائين الذين لا تلحقهم الخيل . وكانت فيه شجاعة وحذق ، والشنفرى اسمه . وقيل لقبه ، وهو ابن أخت تأبط شرا الشاعر السابق ، وقيل عن قتله : إنه حلف ليقتلن مائة رجل من بنى سلامان ، فقتل تسعة وتسعين ، ثم احتالوا عليه فأمسكه رجل منهم اسمه أسيد بن جابر ، ثم قتله ، فمر به رجل من أعدائه . فرفس جمجمة الشنفرى . فدخلت شظية منها برجله فمات فتمت القتلى مائة ، وهى أسطورة طريفة ، توفى سنة ٥١٠ م .

التفسير اللغوى : (١) أقيموا : ارفعوا . بنى أمى : كناية عن الإخوة ، والنداء به يشعر بالعطف والرحمة . صدور مطيكم : صدور المطايا هواديها وجرانها .

(٢) أغدو : أصبح مبكراً . القوت : الطعام . الزهيد : القليل اليسير . الأزلّ : القليل لحم الوركين : تهاداه : تتدافعه . التنائف . جمع تنوفة ، وهى الفلاة . الأطحل : الذئب فى بياضه عبرة .

(٣) طاويا : خميصا جائعا . هافيا : مسرعا . يخوت : ينقض . الشعاب : جمع شعب ، وهى المنحنيات فى الجبال . يعسل : يسرع باهتزاز .   (٤) لواه القوت : أماله البحث عن الطعام وأعجزه . أمه : قصده . دعا : عوى . نظائر : جمع نظير انداد . نحل . جمع ناحل . الهزلى .

(٥) مهلهلة : قليلة اللحم . شيب الوجوه : كناية عن بياضها . الياسر : اللاعب بسهام الميسر يحركها بين يديه ، وقداح الميسر سهامها ، مفردها قدح ، وهو أيضا للسهم قبل أن يراش .

أو الخشرمُ المبعوثُ حَثْحَثَ دَبْرَه محابيضُ أرادَهُنّ سامٍ مُعَسِّـــلُ(٦)
مُهرَّتةٌ ، فُـــوهٌ كأنَّ شُدُوقَها شـقوقُ العِصىِّ كالحاتٌ و بُسَّلُ(٧)
فضجَّ وضجّتْ بالبَرَاح ، كأنَّها وإياهُ نُوحٌ فوقَ عَلْياء ثُــكَّلُ(٨)
وأَغضَى وأغضَتْ ، واتَّسَى واتَّستْ بِهِ مَراميلُ عــزَّاها وعزَّتْهُ مُرْمِلُ(٩)
شكا وشكَتْ، ثم ارْعوَى بعدُ وارْعوتْ وللصَّبْرُ إن لم ينفعِ الشَّكْوُ أجملُ(١٠)
٤٣٢: وفاء وفاءتْ بادراتٍ ، وكُلُّها عَلَى نَكَظٍ ممّا يُكاتِمُ مُجْمِـلُ(١١)



(٦) الخشرم : رئيس النحل . المبعوث : المبعث للسير . حثحث : حث وحض . الدبر : جماعة النحل . المحابيض : جمع محبض ، وهى عيدان يتخذها مشتار العسل ، فيثير بها النحل . أرداهن مخفف أرداهن أى ثبتهن وركزهن : سام : رجل عال مرتق . معسل : مشتار العسل .

(٧) مهرتة : مشقوقة الأفواه . فوه : جمع أفوه المفتوح الفم . كالحات : عابسات الوجوه . البسل : جمع باسل وهو الكريه المنظر .

(٨) البراح : الأرض الواسعة لا نبت فيها . نوح : جمع نائحة باكيات صائحات . ثكل : جمع ثاكل ، وهى الفاقدات الأولاد .

(٩) اتسى : امتثل واقتنى . مراميل : جمع مرمل ، وهو الذى لا زاد معه . عزاها : سلاها ، وأصل التركيب : عزاها مرمل ، وعزته مراميل .

(١٠) ارعوى : رجع . الشكو : الشكوى . أجمل : أحسن وأفضل .

(١١) فاء : رجع . بادرات مسرعات النكظ : شدة الجوع . المجمل : المحسن حاله .

تحليل الأبيات :

بنى أمى : أقيموا صدور مطاياكم للرحيــل ، واستنهضوها من مناخها للسفر ، أما أنا فدعونى أبحث عن قوم سواكم أعيش بينهم ، وأقضى بقية أيامى معهم ، فإنى إلى غيركم أميل .
ثم انتقل بعد أغراض عدة إلى وصف الذئاب متخذا من تشبيه نفسه بذئب تمهيداً لوصفها .
فقال : إنى أعيش على أيسر الطعام ، وأحيا على أزهد القوت ، شأنى شأن الذئب الأزل الأطحل ، تتقاذفه التنائف ، وتتهاداه المفاوز ، يغدو طاوى المصير ، خميص البطن ، يسابق الريح ، و يعارض العاصفة ؛ ينقضّ فى مؤخرات الشعاب ، و يهوى فى طرق الجبال ، باحثا عن طعامه ، ساعيا إلى قوته ، و إذا امتنع عليه الطعام حيث قصد ، وعز عليه القوت فى مسعاه عوى بائسا ، وناح يائسا ، فأجابته ذئاب نحل ، ونظائر هزل ، ذئاب خفيفة اللحم ، هزيلة الجسم ، بيضاء الوجوه ، شيب الرءوس ، كأنها لخفتها قداح يحركها ياسر ، و يقلقها قامر ، وكأنه يعسوب النحل قد انبعث للسير ، ودعا جماعات النحل للطيران معه عيدانٌ أثارت تلك الجماعات قد ركزها مشتار العسل .

تلك الذئاب مشقوقة الأفواه ، مفتوحتها ، كأن أشداقها فى اتساعها شقوق العصى ، وهى عابسات الوجوه ، كريهة المنظر ، بشعة المرأى ، فضج الذئب البائس ، وأجابته الذئاب البائسات فى أرض واسعة لا يسمع فيها إلا الصدى ، ولا يرى إلا السراب ، فكأن الذئاب معه نساء فوق مرتفع من الأرض ، ثكلن أبناءهن ، فهن ينحن عليهم و يعولن .

وأغضى على الجوع والقذى وأغضت معــه ، وامتثل ما أريد علـيه ، وامتثلت ، واتخذت منه أسوة ، وجعلته لها قدوة ، فكلها مراميل سلاها عن فقدان زادها أخ مرمل ، وعزاها عن جوعها أخ جائع .

لقد شكا وشكون ، وانصرفنا عن العواء وانصرف ، ورأين أن الصــبر أجمل بهن ، والتجلد أحسن منهن ، ورجع إلى العدو ورجعن إليه بعد أن لم تجد صيداً تطعمه ، ولا قوتا تأكله ، وهن على شدة جوعهن يكتمن أمرهن ، و يتجملن بالصبر .

النقد .

فى هذه الأبيات جمال من وجوه عدة ، فمعانيها واضحة تدل على أن الشاعر عالم بما

يقول ، متمكنا مما يصور ، فالشاعر الذى يعيش فى البادية هو الذى تبهره صورة الذئب ، يعوى من الجوع ، ويصيح من الغرث ، فما تمضى هنيهة على عوائه وصياحه ، حتى تجاوبه ذئاب أخرى هى أيضا غرثى جياع ، فأى جمال أبدع من قوله ؟

غـدا طاويا يعارض الريح هافيا يخوت بأذناب الشعاب ويعسل

فلما لواه القوت من حيث أمه دعا فأجابته نظائر نحل

ثم من هذا الذى يستطيع وصف الذئاب ذلك الوصف الدقيق إلا رجل عاش فى التنائف وعاشر الأطالس ، ولاحظ أعضاء جسمها عن قرب ، فأعجب بها ، أو نفر منها ؟ وأى دقة وصف تعلو دقته ، إذ يقول ؟

مهلهلة ، شيب الوجوه ، كأنها قداح بكفى ياسر تتقلقل

أو الخشرم المبعوث حثحث دبره محابيض أرداهن سام معسل

مهرتة فوه كأن شدوقها شقوق العصى ، كالحات وبسل

هذه بعض معانى هذا الشاعر أفاضتها عليه حياته البدوية فأجاد عرضها ، وأبدع فى تصويرها ، فأى عرض أجود من عرضه ، وأى تصوير أبدع من تصويره إذ يقول ؟

فضج وضجت بالبراح كأنها وإياه نوح فوق علياء ثكل

وأغضى وأغضت ، واتسى واتست به مراميل عزاها وعزته مرمل

شكا وشكت، ثم ارعوى بعد وارعوت وللصبر إن لم ينفع الشكو أجمل

وفاء وفاءت بادرات ، وكلها على نكظ مما يكاتم مجمل

إن الأسلوب ليفرع أقوى الأساليب الجاهلية ، وقد كساه جمالا ذلك التنسيق والتتابع ، فضج وضجت ، وأغضى وأغضت ، واتسى واتست ... الخ .

لقد نالت القصيدة التى منها هذه الأبيات عناية الأدباء فى القديم والحديث ، فى الشرق والغرب ، وهى جديرة بتلك العناية ، وأجدرها بها تلك الأبيات التى لم يعرف الشعر العربى لها نظيرا فى وصف الذئاب ، وقد روى عن الرسول الكريم أنه خاطب أصحابه بقوله : « علموا أولادكم لامية العرب ، فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق » .

٨ — وقال المرقش الأكبر* يصف ذئباً نزل به فأطعمه :

ولمّا أضأنا النارَ عِنـد شِوائنا عرانا عليها أطلسُ اللونِ بايسُ[(١)]

نَبذْتُ إليه حَزَّةً مِنْ شِـوائنا حَياءً، وما فُحْشى عَلى مَنْ أُجالِسُ[(٢)]

٤٣٥ : فآضَ بِها جذلانَ ينفُضُ رأسَه كما آبَ بالنَّهْبِ الـكَمِيُّ المُحالِسُ[(٣)]

تحليل الأبيات :

أوقدنا ناراً ، وأرسلنا ألسنتها تطاول السماء ، وتتسامى إلى الجوزاء ، وتدعو الجياع الغرثى ، والسابلة الخماص ، ليشاركونا فى شوائنا ، ويقاسمونا زادنا ، فنزل بنا ضيف أطلس اللون ، بائس الحال ، خميص البطن ، فرقّ له قلبى ، وإن يكن هو غليظ القلب ، ورثت لبؤسه نفسى ، وإن يكن هو خبيث النفس ، فرميت إليه بقطعة من الشواء حياء أن يقال: بخل عن حيوان جائع ، وإن يكن ذلك الحيوان ذئباً ، وخشية أن يتحدث الناس عنى أنى ضننت على طارق ، وإن يكن ذلك الطارق من ضوارى الوحوش .

لست بالبذىء على الجليس ، وإن لم يكن لى بالأنيس . فرجع بهذه الحزة جذلان فرحا ، ينفض رأسه من الفرح ، ويهزه من الغبطة ، مثله فى غبطته وسروره كمثل الكمى المقاتل لايترك الميدان ؛ حتى يقضى على خصمه ، ويعود بالفئ الكثير .

النقد :

هى أبيات تصور كرم العربى ، وأنه فى سبيل حسن الأحدوثة ، وجميل السيرة ، لايفرق فى إسداء معروفه بين الإنسان والحيوان .

ولا أرى فيها من الجمال الفنى مايبهر الناظر إلا فى تصويره لجذله ، فإن ذلك التصوير يوحى بأن الشاعر من كماة الحرب ، وأحلاس الجياد .

---

* ترجمة الشاعر : هو عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة البكرى ، والمرقش لقبه ، وهو عم المرقش الأصغر ، ولكن الأصغر أشعر منه ، وهو مع ذلك شاعر فحل مجيد فى غزله وحماسته ، توفى حوالى سنة ٥٥٢ م .

التفسير اللغوى : (١) أضأنا النار : أوقدناها . عرانا : نزل بنا . أطلس اللون : أغبر ، والطلس : الغبرة إلى سواد . (٢) نبذت له : رميت إليه . الحزة . القطعة . فحشى : عيى وبذائى . (٣) فآض : فصار . جذلان : فرحان . ينفض رأسه . يهزه مظهرا جذله آب : رجع . الكمى : الفارس فى كامل عدته . المحالس : الشديد الذى لايبرح مكانه فى الميدان

٩ — وقال النابغة * يصف أثر سم الحية ، و يصف خبثها :

فبتُّ كأنّى ساوَرتْنِى ضَئيلَةٌ   مِنَ الرُّقْشِ فى أنْيابِها السّمُّ ناقِعُ(١)

يُسَهَّدُ مِنْ لَيْلِ التَّمام سَليمُها   لِحَلْى النِّساءِ فى يَدَيْهِ قَعاقِعُ(٢)

٤٣٨ :تناذرها الرّاقون منْ سُوءِ سُمِّها   تُطلِّقه طوراً وطوراً تُراجِعُ

تحليل الأبيات :

يصف النابغة مانزل به من هم وأسى، حينما علم ماتوعده به أبوقابوس، وما أنذره إياه ؛ إذ بات ليله الأطول مسهداً كأنما لدغته أفعى دقيقة الجسم، رقشاء اللون، السم الزعاف فى أنيابها.

يسهر الليل الأطول ، ليل التمام ملدوغها ، لايتقابل جفناه ، ولا تعرف طريق النوم عيناه ، قد جعل الحلى والخلاخل فى يديه ، دائمة الجرس ، مستمرة الصوت ؛ حتى لاينام لديغها ، فيسرى السم فى أجزاء جسمه ، و يدب الموت فى مفاصله .

يخاف الرفاة منها ، و يتناذرون عقباها ؛ إذ ليست لهم بمطواعة دائما ، فحينا تجيبهم ، وحينا تعصيهم ، وطوراً تطلق الراقى ، فليس له بها شأن ، وطوراً تراجعه ، فتذعن لأمره .

النقد :

أجاد النابغة تصوير حال الرجل المهدد ، ينذره من يقدر على صره ، كما أجاد فى تصوير حال السليم عند العرب ، وفى رسم تطبيبهم سليمهم ، فهم يلبسونه الحُلِى و يحكونها ؛ ليسمع جرسَها فلايغلب عليه النوم، فيدب السم فى جسمه، وتناذُر الرقاة إياها، ينبئ أنها رقشاء قتول.

أما الأسلوب ؛ فيبدو جماله فى اتساق ألفاظه ، وانتظام حروفه، وملاءمة بعضها لبعض؛ فالسين فى البيت الثانى يشعر تكرارها بوسوسة الحلى ، وجرسها ، على أن السين أكثر من سواه فى البيتين الآخرين ، وجعل خبر بات الجملة الاسمية التشبيهية قوى المعنى وجمله .

ترجمة الشاعر : انظر الترجمة فى وصف الأوابد ص ١٥٤ .

التفسير اللغوى : (١) ساورتنى: واثبتنى ، أو وثبت علىّ. ضئيلة : رقيقة الجسم. الرقش : جمع رقشاء . وهى الحية فيها نقط سود وبيض . الناقع : البالغ القاتل. (٢) يسهد : يمنع من النوم. ليل التمام : أطول ليالى الشتاء ، والتمام مثلث التاء والفتح أكثرها . السليم : اللسوع ، وسمى كذلك تفاؤلا بسلامته . القعاقع . الأصوات مفردها قعقعة .

١٠ — وقال عنترة بن عمرو بن شداد العبسي* يصف الثعبان الأسود :

أترجو حياةً يابْنَ بِشْرِ بن مِسهرٍ … وقد علِقَتْ رِجْلاكَ فى نابِ أسْودا[١]

أصَمَّ جِبالىٍّ إذا عَضَّ عضَّـةً … تزَايلَ عنه جِلْدُهُ فتبدَّدَا[٢]

بِسِلعِ صفاً لم يَبْدُ للشمسِ بدوة … إذا ماراآهُ صاحبُ اليمِّ أُرْعِدَا[٣]

له رِبقَةٌ فى عُنقِهِ من قميصِهِ … وسائرُه عن متنِه قد تَقَدَّدَا[٤]

رَقودُ ضُحَيَّاتٍ كأنَّ لسانه … إذا سَمِعَ الأجراسَ مِكحالُ أرمدَا[٥]

٤٤٤ : يُفيتُ النفوسَ قبل أن تَقع الرُّقى … وإن أبرقَ الحاوى عليه وأرعَدَا[٦]

---

* ترجمة الشاعر انظرها فى وصف الفرس ص١٢٢ .

التفسير اللغوى : (١) ابن بشر بن مسهر : لم نقع له على ترجمة ، وهو كما يبدو أحد أعداء عنترة . علقت رجلاك : قيدت . أسود : يقصد نفسه ، فهو يصف نفسه ثعبان أسود .

(٢) أصم : لا يسمع ، وهو وصف للذكر من الحيات غالبا . جبالى : نسبة للجبل ، ورواه اللسان أصم قطارى ، والقطارى: الضخم. تزيل : تساقط . تبدد : تفرق ، ورواية اللسان «تزيل أعلى جلده فتزيدا» (٣) السلع : بالكسر : الشق فى الجبل الصفا : جمع صفاة: الحجارة الصلدة. صاحب اليم : الراقى. اليم : الحية كما ورد فى لسان العرب . أرعد : أصابه الرعدة.

(٤) الربقة : بالكسر الحبل . قميصه : يعنى به جلده المنسلخ عنه . سائره : جميعه أو باقيه متنه : ظهره . تقدد : تمزق أو جف ويبس (٥) رقود ضحيات : كثير الرقاد فى الضحا . الأجراس : جمع جرس إذا فتحت الهمزة الأصوات ، وبكسر الهمزة التصويت. المكحال : ما يكتحل به ، وهو طبعا أسود من أثر الكحل . الأرمد . الموجوع العين . ومن طريف ما جاء فى وصف لسان الحية بالسواد قول الآخر :

كأنما لسانه على فيه … دخان مصباح ذكت ذواكيه

قال أبو العباس ثعلب : « يقال إنه لم يسمع فى صفة الحية أحسن من هذا البيت » .

(٦) يفيت النفوس : يميتها فجأة . تقع الرقى : تحدث الرقى التى ترقى بها جروحه . أبرق الحاوى وأرعد : تهدد وتوعد بما يتلو من العزائم .

تحليل الأبيات :

يهدد عنترة أحد أعدائه بأن حياته صارت مما يرجى ، وأن بقاءه عاد مما يتمنى ، ولكن هل يجاب الرجاء ، وتحقق الأمانى ؟ أتحقق الأمانى وقد اتصلت رجلاك بناب ثعبان أسود ؟ إنه لن يستمع إلى ندائك ، ولن يلبى دعاءك .

والشاعر يقصد بذلك الأسود نفسه ، ثم انصرف إلى وصف الثعبان شأن غيره من الشعراء ، فإذا فى أذنيه وقر ، وفى مسمعيه صمم ، وإذا هو أسود جبلى ، استمد من الجبل غلظته ، وأخذ عنه خشونة طبعه ، وإن يكن ناعم الملمس ، إذا عض مساوره عضة تساقط عنه جلده ، وتبدد منه لحمه ، يعيش ذلك الأسود فى سلوع الجبال ، وشقوق الصفا ، ينام نهاره ، ويصحو ليله ، فلا يبدو للشمس إلا قليلا ، فإذا مارآه الحاوى صديق الحيات ارتعد جسمه ، واصطكت أسنانه ، لأنه لم يرمن قبله مثله ، ولاعرف له نظيرا ، فيملأ قلبه الخوف ، ويستولى على فؤاده الرعب ، وإن كان هو الذى يخيف الأفاعى ، ويرعب الأساود .

هذا الثعبان مطوق العنق ، فكأن له فى عنقه حبلا صنع من جلده المنسلخ عنه ، وثوبه الأبيض الذى يخلعه بين الحين والحين ، لقد خلع سائر هذا الثوب عن ظهره ، ولم يبق منه إلا ما نُطِّق به عنقه ، وهو كثير الرقاد فى الضحا إذ تسطع عليه أشعة الشمس فتسرى الحرارة فى جسمه ، وتدب الحياة المتدفقة بالسم فى أجزائه ، فإذا أيقظه جرس ، أونبهه صوت أخرج لسانه الأسود الذى يشبه فى شدة حلكته مكحال الأرمد ، الذى لايفتأ يذرّ به الكحل على عينه الرمداء .

يقضى على النفوس ، ويقبض الأرواح فى مثل سرعة البرق ، أو ومضة الطرف ، قبل أن يبلغ الراقى برقيته غايته من الشفاء ، وقبل أن يبذل الطبيب لسليمه الدواء ، وسيان عنده بعدئذ أن يبرق الحاوى ويرعد ، وأن يتهدد ويوعد ، فقد قضى لبانته ، وبلغ غايته .

النقد :

ليست الأبيات من الناحية الفنية فى قوة شعر عنترة ، حينما يصف الخيل أو الحرب ، فهى أولا غير مترابطة الأجزاء إذا تجاوزنا البيت الثانى ، فالشطر الأول من البيت الثالث لاتناسب بينه و بين الشطر الآخر ، فالشطر الأول يذكر فيه أن وطن ذلك الثعبان سلع صفا ولم يبد للشمس فى حين أن الشطر الآخر « إذا مارآه صاحب اليم أرعدا » والعلاقة بين الشطرين معدومة أو تكاد ، وهذا نفسه يقال عن البيت الخامس .

أما الأسلوب فمستقيم واضح ، و إذا كان فيه جمال فإنه يستمده من البيت الثانى والرابع والسادس ، فالبيت الثانى استخدم فى الشرط إذا المفيدة لليقين، أى أنه يتبدد جلد من يلدغه إذا لدغ دون أن يرجى للملدوغ شفاء ، أو ينتظر له دواء ، وقد مهد لهذا الشرط بالوصف « أصم جبالى » .

وجمال البيت الرابع فى وصف الثوب المنسلخ عن جلد الثعبان ، وأنه يتفرق عن سائره ماعدا عنقه ، وهى ملاحظة لايتنبه إليها إلا أبناء التنائف والمفاوز .

وجمال البيت الأخير فى قوله : يفيت النفوس فهو تعبير بليغ بإيجازه ؛ وفى استخدام إن الشرطية التى تفيد الشك فقد لايبرق الحاوى ولا يرعد خشية أن تكون عاقبة الإبراق والإرعاد الثورة والعصيان ، وكذلك فى ذلك الطباق الوهمى بين أبرق وأرعد .

وعلى أى فعنترة أقدر من يصف الأساود ، فله من صفاتها حظ أى حظ .

١١ — وقال عروة بن الورد العبسى* يصف الأسد :

تَبَغَّانِيَ الأعـــداء إمَّا إلَى دَمٍ
وإمَّا عُراضُ السَّاعدَيْنِ مُصَــدَّرَا(١)

يَظَلُّ الأَباءُ ساقِطًا فــــوق مَتْنِهِ
له الْعَدْوَةُ الأُولَى إذا القِرْنُ أَصْحَرَا(٢)

٤٤٧ : كأنَّ خُوَاتَ الرَّعْـــــدِ رِزْءُ زَئِيرِه
مِنَ اللاَّءِ يَسْكُنَّ الْعَرِينَ بِعَــثَّرَا(٣)

---

* ترجمة الشاعر : هو عروة بن الورد بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن هرم العبسى ، شاعر فحل ، وفارس صنديد ، وصعلوك معدود ، وجواد معروف ، كان يلقب بعروة الصعاليك لجمعه إياهم ، وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا فى غزواتهم ، وقيل لقب بهذا اللقب لقوله :

لحى الله صعلوكا إذا جن ليله مصافى المشاش آلفا كل مجزر

قال عبد الملك بن مروان فى حديث عنه : « ما سرنى أن أحد العرب ممن ولدنى لم يلدنى إلا عروة بن الورد » .

التفسير اللغوى : (١) تبغانى الأعـداء : تبغى كابتغى : طلب وتمنى . إما إلى دم : إما إلى قوم أصبتهم بدم ، فلهم عنى ثأر . عراض الساعدين : عريض الساعدين ، وهى كناية عن موصوف هو الأسد . المصدر : من نعوت الأسد العريض الصدر .

(٢) الأباء : القصب واحدته أباءة . المتن : الظهر . العدوة الأولى : الوثبة الأولى . القرن : النظير . أصحر : خرج إلى الصحراء المبارزة .

(٣) الخوات : الصوت والدوى . الرزء : بضم الراء وكسرها : المصيبة . العرين : بيت الأسد فى الأجمة . عثر : مأسدة قبل تبالة .

تحليل الأبيات .

تمنى أعدائى أن يثأر منى سواهم ، وأن ينزل بى الحين من غيرهم ؛ لأنهم أضعف من أن يدركوا منى ثأرا ، أو ينالوا منى ترة ، فإن لم يبلغوا هذه الأمنية فأمنيتهم الأخرى أن يلقانى أسد غضنفر عريض الساعدين ، منبسط الصدر ، يسكن أجمة كثيفة الأشجار ، يغطى متنه قصبها ، ويستر ظهره أباؤها ، فلا تتحرز منه قافلة ، ولا تحترس من فتكه جماعة ، فإذا برز منها إلى الصحراء كانت له الوثبة الأولى على عدوه فيدعه مجدلا .

هذا الأسد دوى صوته كدوى الرعد ، أو أن الرعد من زئيره ، وخواته رزء يصاب به سامعه ، فهو يكاد يصم الآذان ، وهو يسكن مأسدة عثر التى عرفت أسودها بالعرامة ، وشهرت بالشراسة والفظاظة .

النقد :

البيت الأول من هذه الأبيات الثلاثة جميل بإشاراته ، رائع بكناياته ، إذ أشار الشاعر إلى أن أعداءه لايتطاولون إلى سمائه ، ولا يتسامون إلى مصاولته ومعاداته ، فغاية قوتهم أن يتمنوا أن يخلصهم الله منه بأعداء يقتلونه بعد أن قتل منهم ، أو بأسد قوى غشوم يستطيع أن يصرعه ، فالبيت يجمع بين الفخر والهجاء والوصف ، وتلك قدرة أى قدرة ، والإيجاز لم يبعث فيه غموضا ، فالقرائن الموحية بالمعنى بارزة واضحة .

وكذلك البيت الثانى جميل ، وإن لم يبلغ جمال البيت الأول ، فقد وصف خلق الأسد وأنه يكمن حتى يتمكن ، وحينئذ يثب وثبته فتكون القاضية ، والبيت الأخير أقل الأبيات جمالا ، فوصف صوته أنه كالرعد معنى تنقصه الطرافة ، وكذلك نسبته إلى مأسدة عثر ، وإن يكن أوحى بهذه النسبة إلى أنه ضيغم جبار ، فإن القارئ قد يحمله الوهم إلى أن الشاعر اختار هذه المأسدة بالذات لتستقيم له القافية فحسب .

١٢ — وقال النابغة* يصف الحية أيضا :

صِلٌّ صَفاً لاَ تَنْطَوِى مِنَ الْقِصَرْ   طَوِيلَةُ الْإِطْرَاقِ مِنْ غَيْرِ خَفَرْ (١)

دَاهِيَةٌ قَدْ صَغُرَتْ مِنَ الْكِبَرْ   كَأَنَّمَا قَدْ ذَهَبَتْ بِهَا الْفِكَرْ (٢)

٤٥٠ : مَهْرُوتَهُ الشِّدْقَيْنِ حَوْلاءُ النَّظَرْ   تَفْتَرُّ عَنْ عُوجٍ جِدَادٍ كَالْإِبَرْ (٣)

تحليل الأبيات :

وحية خبيثة عاتية تتخذ من الصخر الصلد لونا لها ؛ حتى لا يتبينها الرائى ، ولا تلتوى على نفسها ؛ لقصر جسمها ، تطيل الإطراق ، وتمعن فى التهويم دون أن يكون إطراقها لحياء أو طأطأة رأسها لخجل ، وإنما هو لاهتبال الفرصة ، والاستعداد للعدوة .

وهى داهية دهياء ، ومصيبة نكراء قد طال أجلها ، فعظم خبثها ، وإن صغر جسمها ، حتى لكأن كثرة الفكر هى سبب سقمها ، وأصل ضآلتها ، ولم لا ؟ أليست تفكر فى العدوان ، وتنطوى على الغدر والخيانة ؟

وهى واسعة الشدقين حولاء العينين ، تفتح شدقيها الأهرتين عن أسنان عوج حداد كأنها الإبر .

النقد :

أجاد النابغة وصف الحية حتى إنها لتخيف دون أن ترى ، فالصورة التى رسمها لها صورة نكراء ، وكذلك أبدع فى وصف خلقها فهى خبيثة داهية « طويلة الإطراق من غير خفر » .

وأسلوب النابغة هو أسلوبه الجميل الرائع ، العذب السائغ ؛ فالحية : « لا تنطوى من القصر» وهى «طويلة الإطراق» وهى «قد صغرت من الكبر » .

---

* ترجمة الشاعر : انظر ترجمته فى وصف الأوابد ص ١٥٤

التفسير اللغوى : (١) الصل : الحية الخبيثة جداً ، الصفا : الحجر الصلد مفرده صفاة . الإطراق : إرخاء العينين إلى الأرض . الخفر : الحياء . (٢) داهية : مصيبة . ذهبت بها الفكر : كناية عن صفة هى السقم . (٣) مهروتة الشدقين : واسعة الشدقين . تفتر : تكشف . جداد : الجداد بالفتح والكسر صرام النخل .

نظرة فى شعر الطبيعة الحية عند العرب

عرضنا فيما تقدم صورا متنوعة لوصف الطبيعة الحية فى الشعر العربى ، وقد تناولت هذه الصور أكثر ماخص الله به البيئة العربية من حيوان ، سواء فى ذلك الآنس منها والمستوحش ، وإذا كنا قد تركنا من حيوان الجزيرة العربية بعضه ، فليس ذلك لأن الشعراء أهملوه ، وإنما لأننا لم نقصد استقصاء ماقالوه ، ولو قصدناه لبلغ الأمر منا حدّ الإطالة ، ثم إن بعض ماتناولوه بالوصف عبروه عبراً ، فلم يتجاوزوا فيه البيت أو البيتين أو الثلاثة ، وقد رمينا فى هذا الكتاب إلى عرض نماذج كاملة وصور تامة ، إلى أن بعض هذا الذى تركناه ليس بذى أثر عظيم فى حياتهم ، فاستمددنا قلة عنايتنا به من ضآلة احتفالهم له ، فلم نذكر من الأوانس غير الناقة والفرس والكلاب ، وإن كنا قد ذكرنا الهرّ فقد جاء ذكره عرضا لاعمدا ، وذلك لأن الهرّ ليس له عندهم من نفع ، وإذا كان فهو قليل لايؤبه له ، وإذا كان بينهم من وصف غير الناقة والفرس ففى بيت أو بيتين ، وذلك كقول امرئ القيس يصف المعز :

إذا مالم تكن إبل فمعزى	كأن قرون جلّتها العصىّ
٤٥٢ : فتملأ بيتنا أقطا وسمنا	وحسبك من غنى شبع ورىّ

ولكننا ذكرنا من الأوابد أكثر مافى بلاد العرب ؛ وذلك لأن الشعراء أكثروا القول فى وصفها ، حسيا وعاطفيا وإن لم يرض قولنا هذا زعماء الأدب فى هذا العصر ، وإلا فبماذا نفسر وصف متمم بن نويرة حزنه حين يشبهه بوجد الأظآر الروائم فى قوله :

وما وجدُ أظآرٍ ثلاثٍ روائمُ	أصبن مجرًّا من حُوارٍ ومَصرعا
يُذكِّرنَ ذا البثِّ الحزين ببثِّه	إذا حنَّتِ الأُولى سَجعْنَ لها معَا
إذا شارِفٌ منهنّ قامت فرجّعت	حنينا فأبكى شجوُها البَرْكَ أجمَعا
٤٥٦ : بأوجدَ منى يومَ قام لمالكٍ	مُنادٍ بصيرٌ بالفراق فأسمَعا

أليس هذا الشعر من أروع مايمكن أن يكون عليه الوصف العاطفى ؟ و إن كان هذا الضرب من الوصف قليلا نادرا .

وتركنا القليل من حيوان الصحارى وأوابدها ؛ إما لأن الشعراء لم يعيروه اهتماما ، و إما لأننا لم نجد فيه الروعة التى تحملنا على اختياره وتحليله ونقده ، و إما لغير هذا وذاك ، لأننا رأينا من أوصافه مايمكن أن يندرج تحت غيره ، أو لأننا وجدنا القدر الذى قيل لايحتمل التحليل ، فلم نقف عند الضبعة لضآلة شأنها عندهم ، و إن كانوا قد وصفوها ، من هذا قول متمم بن نويرة حين تذكر أنه سيموت ، وأن الضبع ستأكله دون أن يدفع عنه سيفه :

يالهفَ مِنْ عرفاءَ ذاتِ فَليلةٍ جاءتْ إلىّ عَلَى ثلاث تخْمَعُ

ظلّت تُراصِدنى وتنظر حولَها ويُريبها رمقٌ وأنّى مُطْمِعُ

وتظلُّ تنشِطُنِى وتَلْحِمُ أجريا وسطَ العرين وليس حىٌّ يَدْفَعُ

٤٦٠ : لو كان سيفى باليمين ضربتُها عنّى ، ولم أُوكلْ وجَنْبِى الأضيعُ

ومن هذا الذى لم نذكر أوصافه لأن غيره من فصيلته يغنى عنه الوعل ، وقد أجاد وصفه فى قصيدة رثاء المرقش الأكبر فقال :

لو كان حَىٌّ ناجياً لنجَا من يَوْمِهِ المزَلَّمُ الأَعْصَمْ

فى باذخاتٍ من عماية أو يَرفعُه دُون السّماءِ خِيَمْ

مِنْ دُونه بيضُ الأَنوق وفوْ قَه طويلُ المَنْكِبَيْنِ أَشَمْ

٤٦٤ : يرقاهُ حيثُ شاء منه وَإِمْ مَا تَنْسَهُ منيّةٌ يَهْرَمْ

وسنورد بعد أن نعرض صوراً للطبيعة الساكنة صوراً للطبيعة المختلطة الجامعة بين المتحركة والساكنة ، لنكون قد بلغنا غاية ماينبغى من كمال لهذا الفنّ .

ولعل من الخير لنا أن نبدى ملاحظات عن الصور الكثيرة التى عرضناها للطبيعة الحية ، نلمّ بها إلماما لتكون مفتاحا لمغاليق هذا الفن ، فيعبره من شاء أن يتبسط فيه :

١ — أكثر الصور التى أوردها الشعراء الجاهليون صور حسية خالصة ، والقليل منها عاطفى متصل بالحسى ، وتعليل ذلك عندى هو أن كثرتهم كانت تعتمد على حواسهم أكثر مما تعتمد على إحساسهم الباطنى ، وشعورهم الداخلى ، إلا فى الرثاء فالعاطفة فيه متحكمة .

٢ — أغلب هذه الصور واضح التصوير ، كامل التكوين ، وإذا وجدنا فى خلال قراءاتنا صوراً غير واضحة أو غير كاملة حكمنا بأن رغبتهم فى الإيجاز ، وشغفهم بالإكثار من الصور والمعانى هى سبب ذلك الغموض أو القصور .

٣ — كل شعرهم خال من التكلف ، فهو فطرى كطبيعتهم ، صادق كفطرتهم ، بعيد عن الغلوّ والمبالغة إلا قليلا، ومن أولئك الذين كانوا يعمدون إلى المبالغة المحدودة النابغة ، وقد ذكرنا ذلك عنه عند تحليلنا شعره

٤ — كانوا يرسلون أنفسهم على سجيتها فلا يرعون فى أوصافهم ترتيبا ، وإنما يجىء كما يفد على خواطرهم ، فقد يبدءون بالتافه ، ويتركون الجليل الشأن ، وقد ينظرون إلى الذنب ويتركون الرأس ، لأن ذاك ورد على خواطرهم دون الآخر ، أو لأن له فى نفس أحدهم شأنا أقوى من شأن ذلك الذى أخره أو أهمله ، وعليك أن تنظر وصف طرفة لناقته لتؤمن بهذا الرأى ، فمع أنه لم يترك من دقائق أعضائها شيئا فقد أهمل وصف سنامها ، مع أن السنام من أعظم أجزاء الناقة نفعا وقيمة .

٥ — تكاد معانيهم تتفق فيما يعرضون له ، وإن اختلفت الصور ، وذلك لأنهم — كما قدمنا — يعتمدون على الحواس أعظم الاعتماد ، فإذا قال الشنفرى فى وصف أشداق الذئاب :

مُهَرَّتَةٌ فوهٌ ، كأنّ شُـــدُوقها شُقوقُ العِصِيِّ كالحاتٌ وبُسَّلُ

قال علقمة بن عبدة الفحل :

فوهٌ كشقِّ العَصَـا لأيا تَبيَّنَه أسكُّ مايسمعُ الأصواتَ مَصلوم

وإذا قال النابغة الذبيانى :

سرَتْ عليه منَ الجوزاءِ سارِيةٌ تُزجِي الشَّمالُ عليه جامِدَ البرَدِ

قال لبيد بن ربيعة :

باتَتْ وأسْبلَ وَاكِفٌ مِنْ دِيمَةٍ يُروى الخمائلَ دائمًا تَسجامُها

وما قدمناه من ذلك التشابه يغنى عن عديد الأمثلة .

٦ — لبيئتهم عليهم أعظم الفضل إذ استمدوا منها جميع صورهم وتشبيهاتهم ، وقد قدمنا الكثير من هذه الأنواع ، أليس صفاء سمائهم ، ورقابتهم نجومها وكواكبها هو الذى أوحى إلى أبى ذؤيب الهذلى قوله ؟

فورَدْنَ والعيُّوقُ مَقعدُ رابِئِ الضْ ضُرَباءِ خلْفَ النَّجْمِ لايَتَتَلَّعُ

وأليست طبيعة بلادهم ، وما فيها من نجاد ووهاد ، وصخور ورمال ، وجدب وخصب هى التى هيأت لامرئ القيس أن يقول ؟

يلوذُ بالصَّخْرِ منها بعدَ مافترَتْ مِنها ومِنْهُ عَلَى الصَّخْرِ الشآبيبُ

ثم يقول :

يَظلُّ مُنْجَحِرًا منها يُراقِبُها ويَرْقُبُ اللَّيلَ ، إنَّ اللَّيْلَ محبوبُ

وأن يقول زهير :

حتَّى اسْتغاثَتْ بِمَاءٍ لارِشاءَ له مِنَ الأباطِحِ فى حافاته البُرَكُ

مُكلَّلٍ بأصولِ النَّجْمِ تنسِجُهُ رِيحٌ خريقٌ لضاحِى مائِه حُبُكُ

٧ — كانوا حينما يصفون ينتقلون من المشبه إلى المشبه به ثم ينصرفون إليه ، ولا يعودون إلى المشبه ، وقد تقدمت لنا فى هذا الأمثلة الكثيرة فى الانتقال من وصف الناقة إلى وصف البقرة الوحشية ، ومن وصف الفرس إلى وصف الصيد والطرد أو العقاب أو سواها مما يشبهه الفرس فى عدوه وشده .

٨ — كان وصفهم لأوانس الحيوان ، أطول من وصفهم لأوابده لإلفهم إياه ، وعشرته

لهم ، ومقامه بينهم ، وعظم استفادتهم منه ، وكان نعتهم للناقة أحفل من وصفهم للفرس ، وقد عللنا ذلك قبل بأنهم كانوا ينظرون إلى القيمة النفعية للحيوان ، ولوأنهم نظروا إلى الجمال والحسن دون غيره لـكان وصفهم للفرس أكثر .

على أنهم ليسوا جميعا كذلك ، فالشعراء الفرسان احتفلوا بنعت الفرس أى احتفال ، ونظروا إليه نظرة المحب يرى فى كل حركة من معشوقه حسنا وجمالا .

٩ — للتشبيه عندهم المنزلة الأولى بين ضروب البيان ، وأكثرمايستخدمون من أدواته « كأن » فهى أول ماينظرون إليه عند إرادة التشبيه ، على أنهم لجأوا إلى المجاز والاستعارة حينا ، و إلى الـكناية الجميلة ، والإيمـاء الطريف أحيانا ، فمن الاستعارة قول الشنفرى :

فلمَّا لواه القوتُ من حيث أمَّه دَعا ، فأجابَتْه نَظائرُ نُحَّلُ

مُهلهلةٌ ، شيبُ الوجوهِ ، كأنَّها قِداحٌ بكفَّىْ ياسرٍ تَتَقَلْقَلُ

ومنها قول عنترة :

له رِبقةٌ فى عُنقه من قميصـه وسائره عن متنه قد تقـدَّدَا

ومن الـكناية البليغة قول المرقش الأكبر :

نبذتُ إليـه حَزَّةً من شوائِنا حياءً ، ومافحشى على من أُجالِسُ

فآض بها جَذلان يَنفُضُ رأسَه كما آب بالنَّهبِ الـكمىُّ المحالسُ

ومنها قول زهير :

أهوى لهـا أَسْفَعُ الخدَّين مُطَّرِقٌ رِيشَ القوادِمِ لم يُنصَب له الشَّرَكُ

لاشَىْءَ أجـودُ منها وهى طيِّبَةٌ نفسا بمـا سوف يُنْجيها وَتَتْرُكُ

١٠ — كانوا يؤثرون فى هذا الفن بالذات الألفاظ الجزلة ، والـكلمات الضخمة التى تستمد جزالتها من صخور صحاريهم ، وتنال ضخامتها من جلاميد جبالهم ، فإذا انصرفوا عن هذا الفن إلى سواه رقت الألفاظ ، ولانت الـكلمات ، فاستمع إلى هذه الأبيات من قصيدة النابغة يصف بها الناقة :

فعــدِّ عما ترى إذلا ارتجاع له   وَانمِ القُتُودَ على عَيْرَانَةٍ أُجُـد
مقذوفة بدخيس النَّحْضِ بازِلُها   له صريفٌ صريفُ القَعْوِ بالمَسَد
كأنَّ رحلِي وقد زالَ النّهارُ بنا   يومَ الجَليلِ على مُسْتأنِسٍ وَحِدِ
من وحش وجرة موشِيٍّ أكارعُهُ   طاوى المصير كسيف الصَّيْقَلِ الفَرِدِ

فإذا ماانتقل إلى غيرذلك الفن رق وعذب ، فقال :

فتلك تُبلِغُنى النعمان إن له   فضلاً على الناس فى الأدنى وفى البعد
ولا أرى فاعِلاً فى الناس يُشْبِهُهُ   ولا أُحاشِى من الأقوام من أحدِ
إلا سليمانَ إذْ قالَ الإلهُ لهُ :   قُمْ فى البَرِيَّةِ فاحْدُدْها عن الفَنَدِ
٤٦٨ : وخيِّس الجِنَّ إنى قد أذِنْتُ لهم   يبنون تدمر بالصُّــفّاح والعمد

١١ — كانوا يؤثرون مطالع القصائد وأوائلها بهذا الفن ، فهم إذا أرادوا الغزل بدءوا بوصف الأطلال ، ومنهم القليل الذى يعدو وصف الأطلال إلى النسيب ، وهذا قلما يطيل فى نسيبه ، وهاك المثال :

بانت سُعادُ فأمْسَى القلبُ معمودا   وأخْلَفَتْكَ ابنــةُ الحُرِّ المواعيدا
كأنهـــا ظبيةٌ بكرٌ أطاع لها   من حوملٍ تلعات الجوِّ أو أُودَا
قامت تريك غداةَ البَيْنِ مُنْسَدِلا   تخاله فوق متنيها العناقيـــدا
وبارداً طيِّباً عَذْبا مُقبَّـــلُه   مُخَيَّفاً نبته بالظَّـــلْمِ مَشْهُودا
٤٧٣ : وحرةٍ حرجٍ تدمَى مَناسِمُهـــا   أعملتُها بىَ حتى تقطع البـــيدا

١٢ — قلما تخلو قصيدة من الوصف بمعناه الخاص أى وصف الطبيعة الحية أوالهامدة ، وقدمنا أجزاء من الوصف فى بعض قصائد الباعث عليها الرثاء ، وفى ذلك الدليل على عنايتهم به ، والحجة على احتفالهم له ، وأنه يكاد يبلغ ثلث شعرهم ، وقد قدمنا فى الفصول مايثبت ذلك .

١٣ — كانوا يسمون الأشياء بأسمائها مهما تكن تلك الأسماء مستهجنة مستقبحة ،

ولا يعدلون إلى الكناية لأنهم لايعدون ذلك خروجا على الآداب ، ولا مجافاة للأذواق السليمة ، وليس عليهم فى ذلك عاب ، فإن الذى يحملنا الآن على الكناية والإيماء والإشارة عاملان : الدين الذى أدبنا بأدب القرآن ، وأخذنا بأسلوبه العفّ الرفيع ، والمدنية التى علمتنا التحرز فى الأقوال دون التحفظ فى الأعمال .

وقد تجنبنا عرض شعر فيه الصريح من هذه الألفاظ ، بل قد عدلنا عن نماذج بالغة الروعة تجنبا لهذه الصراحة المقيتة فى هذا العصر .

١٤ — قل الوزن القصير فى شعر العصر الجاهلى ، ولعل من أبرز الدوافع إلى اختيار البحور الطويلة من الوصف ، لتكون الصور التى يصورونها كاملة التكوين فى البيت ؛ إذ أنهم كانوا يكرهون التضمين، ولا يعمدون إليه إلا مضطرين ، ومعلقة عبيد بن الأبرص - وهى من مخلع البسيط ، و بعضها مضطرب الوزن - على الرغم من روعة بعض صورها منظورٌ فيها إلى تلازم بعض الصور لبعض ، و إن لم يكن ذلك تضمينا ، فانظر إلى قوله :

فأَدْرَكتْــــه فطرّحتْه   والصَّيْدُ مِنْ تحتِها مَكروبُ
فجدَّلَتْه فطرّحَتْـــــهُ   فكدَّحتْ وَجْهَه الجَبوبُ
يَضْـــغُو و مِخْلَبُها فِى دَفِّهِ   لاَ بُدَّ حَيْزومُـــه مَنْقُوبُ

١٥ — لم يلجئوا إلى الزخرفة اللفظية متعمدين . ولم يريدوها متكلفين ، ولكن ذلك لا ينفى أنهم جملوا أساليبهم بالطباق ، و بغير الطباق مثل قول امرئ القيس :

مِكرٍّ مفرٍّ ، مُقْبلٍ مُدْبِرٍ معاً   كجلمودِ صَخْرٍ حطّه السَّيْلُ مِنْ عَلِ

ومثل قول الشنفرى :

مُهَرَّتةٌ فوهٌ ، كأَنَّ شُدوقَها   شُقوقُ الْعِصِىِّ كالحاتٌ و بُسَّلُ

وقد لفتنا النظر إلى كثير من تقسيماتهم التى تروع بحسنها ، وتخلب بفنها ؛ مثل :

وأَغْضَى وأَغضَتْ ، واتَّسَى واتَّستْ بِهِ   مَراميـــلُ عزَّاها ، وعَزَّتْهُ مرمِلُ
شَكاَ وشكَتْ، ثم ارْعَوى بَعدُ وارْعَوتْ   و لَلصَّبْرُ إنْ لَمْ يَنفعِ الشَّكْوُ أَجْمَلُ
وفاءَ وفاءتْ بَادِراتٍ وكلُّهـــا   عَلَى نَـكَظٍ مِمَّا يُكاتِمُ مُجْمِلُ

و بعد فهذه نظرة لنا بعدها نظرة أخرى فى نهاية الكتاب إن شاء الله .

الفصل السادس

الطبيعة الساكنة

الطبيعة الساكنة تنتظم جميع الأشياء التى يجرى فيها ماء الحياة فى السماء والأرض ، فتشمل أجرام السماء وأفلاكها ، ونجومها وكواكبها ، وسحبها وغيوثها ، ورعودها وبروقها، كما تشمل صحارى الأرض ورياضها ، ووهادها ونجادها ، وجدبها وخصبها ، وبحارها وأنهارها ، وكل ما تبتكره عقول العلماء ، وتصنعه يد الإنسان .

وإذن فإنها تنقسم إلى قسمين : الظواهر الطبيعية ، والآثار الإنسانية .

الطبيعة الساكنة عند العرب :

لم يول العرب الطبيعة الساكنة العناية التى أولوها الطبيعة المتحركة ، وليس ذلك معناه أنهم قصروا فيها أو صدوا عنها ، فإن لهم فى تصويرها ونعتها ما يخلد به أدب أى أمة فى أى عصر ، ولكننا نقيس هذه بتلك فحسب .

كانت حياة العرب قائمة على الانتجاع والارتحال ، والتحمل والانتقال سعيا وراء الكلأ ، وبحثا عن الماء الذى ينبت الكلأ ، فيقيمون حيث يحلون خيامهم ، وينصبون أثافيهم ، ويوقدون نيرانهم ، ويجتمع فتيانهم بفتياتهم ؛ إذ لم يكن هناك حجاب مضروب ، ولا شرك منصوب ؛ فالقلوب ــ فى أغلب أمرها ــ نقية ؛ والنفوس سامية عن الصغائر أبية ، فتنشأ صلات ود وحب ، أكثره حب عفيف عنيف ، وبعضه حب ماجن هازل ، ثم يكون عود إلى الأوطان بعد أن جف الزرع ، وامتلأ الضرع ، واشتد القيظ ، ورمضت الأرض ، فيذكر الشعراء تلك الساعات السعيدة ، والذكرى تهيج لذى الهوى ، يذكرون ما كان بينهم من لقاء وفراق ، وقرب ونأى ، ثم يصفون الأماكن التى نزلوا بها ،

والديار التي رحلوا عنها ، والملاعب التي لعبوا فيها ، و يبكون الأطلال التي خلفوها ، والآثار التي تركوها ، يصلون هذه النعوت بالنسيب ، و يربطون الوصف بالتشبيب ، وقلّ أن تجد نسيبا ليس مسبوقا بوصف للأطلال ، ومشفوعا بوصف للظعائن .

لذلك كان وصف الأطلال أهم أوصاف الطبيعة الساكنة ، وأكثرها فى شعرهم تناولا ، وقد يدفعهم الشوق إلى الحبيب ، والوله بالمشوق إلى وصف الليل وطوله ، والسهد وأثره ، والنجوم ووقوفها ، والشهب وثباتها .

و إذن فإننا نستطيع أن نحكم بأن النسيب ، وهو من الأغراض الأولى فى الشعر العربى كان أحد بواعث وصف الطبيعة الساكنة .

والعرب يعيشون على الغيث ، فهو منبت كلئهم ، و باعث زروعهم ، وحياة ضروعهم ، بل الغيث حياة بلاد العرب ، إذ ليس فيها أنهار جارية ، ولا عيون ثرور ، فإذا ومض البرق ، أو قصف الرعد ، أو سقط الغيث ، أو كسا السحاب السماء عباءته السوداء آذنتهم السعادة ، وواتاهم رغد العيش ، ففاضت قرائح الشعراء ، وجرت خواطرهم بنعت هذه الظواهر ، فكان وصفهم لها أقوى من وصف مظاهر الأرض عدا الأطلال .

أما وصف الصحراء ، وما تشتمل عليه ، وما يظهر فيها فإنه يجىء تبعا لوصف الطبيعة الحية التي تسكن الصحارى ، وتعيش فى التنائف ، فهم يصفونها حينما يعرضون لوصف حيوانها ، فيصفون امتدادها ، أو رمالها ، أو سرابها ، وقد يصفون جوها : بردها وحرها فى أبيات قليلة ، ومعان محدودة .

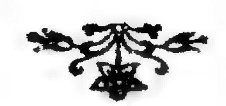
ولأن بلاد العرب ليس فيها أنهار ولا بحار ، فوصف هذين القسمين من أقسام الطبيعة الساكنة ضئيل أو يكاد يكون معدوما إلا إذا جاء عارضا ، كوصف الليل بموج البحر ، أو كوصف نهر الفرات فى شعر النابغة ، وقد كان من الشعراء الرحالين ، أو النيل فى شعر الأعشى .

فإذا ما انتقلنا إلى وصف الآثار الإنسانية ألفيناهم أو ألفينا كثرتهم أهل قصف ومجون ، ولهو وعبث ، فرأينا الخمر أهم ما عنوا به من وصف هذه الآثار ، يصفونها ، ويصفون

كئوسها ، ويصفون سقاتها ، وندمانها ، بل يصفون آثارها فى شاربيها ، ويولونها الحظ الكبير من العناية والتقدير .

والعرب شعب حربى أوتى أبناؤه صلابة وجلَدا ، وعرامة وعزما ، ومنحتهم بيئتهم شراسة ونخوة ، وحرية ومروءة ، فهم لايقيمون على ضيم ، ولا يرضون بالهون ، فلا تهدأ سوا كنهم ، ولا تخمد خواطرهم ، فحروبهم مشتعلة ، وغارات بعضهم على بعض متصلة ، وأيامهم متلاحقة ؛ وعدوانهم على جيرتهم مستمر ؛ فلا غرو أن يصفوا أسلحتهم ؛ وأن يتغنوا بعتادهم ؛ بل أن ينسبوها إلى أوطانها ؛ أو إلى صياقلتها ومثقفيها اعتزازا بها ؛ وافتخارا بصنعها .

ولا غرو كذلك أن يصفوا الجيوش وكماتها ؛ والأبطال وأيامها ؛ والحروب وآثارها ؛ سيان فى ذلك من يدعو إليها ؛ ومن ينفر منها .



صور الطبيعة الساكنة

(ا) وصف الأطلال

قال امرؤ القيس* فى مطلع معلقته :

قِفا نَبكِ مِنْ ذِكْرَى حبيبٍ ومنزِلِ ... بسقْطِ اللِّوَى بين الدَّخولِ فحَوْملِ (١)

فتُوضِحَ فالمِقْراةِ لم يَعفُ رَسْمُها ... لِمَا نسجَتْها مِنْ جَنُوبٍ وشَمْألِ (٢)

تَرَى بعَرَ الآرام فى عَرَصَاتِها ... وقِيعانِها كأنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ (٣)

كأنِّى غَداةَ الْبَينِ يَوْمَ تَحمَّلُوا ... لدَى سَمُراتِ الحَىِّ ناقِفُ حَنظَلِ (٤)

وُقوفاً بها صَحْبِى عَلَىَّ مَطيَّهُمْ ... يقولون : لا تَهلِكْ أَسًى وتَجمَّلِ (٥)

٤٧٩:وإنَّ شِفائى عَبرةٌ مُهراقَةٌ ... فهلْ عِندَ رَسْمٍ دارسٍ مِنْ مُعَوَّلِ ؟ (٦)

---

* ترجمة الشاعر : اقرأ الترجمة فى وصف الفرس ص ١٠٩ .

التفسير اللغوى : (١) قفا : يخاطب رفيقيه . ذكرى : تذكر . سقط اللوى : منقطع الرمل. الدخول وحومل : موضعان ، وكان الأصمعى يروى البيت «الدخول وحومل» ويقول : لايقال المال بين زيد فعمرو ، إنما يقال بين زيد وعمرو . (٢) توضح والمقراة : موضعان، وهذه المواضع الأربعة ما بين إمرة إلى أسود العين وأسود العين جبل ، منازل كلاب. لم يعف رسمها : لم يمح أثرها . نسجت الريح : أسفت الرمل ، الجنوب والشمأل : ريحان متضادتان تهب الأولى من الجنوب ، وتهب الأخرى من الشمال . (٣) الآرام : جمع رئم ، وهو الظبى الأبيض الخالص البياض ، والآرام مقلوب أرآم . عرصاتها : ساحاتها مفردها عرصة . القيعان : جمع قاع وهى الأرض المستوية لا ماء فيها . (٤) غداة البين : صبيحة الفراق . يوم تحملوا : يوم ارتحلوا. لدى سمرات الحى : عند أشجار الطلح التى لأهل حى ناقف حنظل: جانى حنظل ، والناقف هو الذى يستخرج الحب ، وناقف الحنظل تدمع عيناه لحرارة الحنظل . (٥) صحبى : جمع صاحب أصحابى . مطيهم : إبلهم ، مفردها مطية . أسى : حزنا. تجمل : تزين بالصبر . (٦) عبرة : دمعة . مهراقة : مراقة مسالة . ومهراقة لغة بنى أسد يقولون بدل أراق هراق . رسم دارس : أثر زائل . من معول : من معتمد أو من اعتماد .

تحليل الأبيات :

أيها الخليلان الوفيان : قفا فأسعدانى بالبكاء ، من تذكر حبيب عزيز علىّ ، ومنزل كريم لدىّ ، لقد تذكرت حبيبا تساقينا معا أفاويق الهوى ، ومنزلا تبادلنا فيه أسباب اللهو ، ذلك المنزل الكريم عند منقطع الرمل بين الدخول وحومل ، وتوضح والمقراة. تلك الدار لم يمح أثرها ، ولم يعف رسمها لنسيج الرياح السافيات فحسب ، ولكنها امحت لمرّ الدهور ، وعفت لكر الأيام ، ترى فى مكان تلك الدار بعر الظباء الصافية البياض يملأ عرصاتها ، كأنه فى سواد لونه ، واستدارة شكله ، وصغر حجمه حب الفلفل .

كأنى صبيحة احتمالهم وغداة ارتحالهم عند شجر الطلح الذى يستنبته أهل الحى أنقف الحنظل ، وأستخرج منه حبه ، فتسيل مآقىّ ، وتجرى عبراتى ، لقد وقف أخلاى مطاياهم على تلك الدار يشاركوننى فى أساى ، ويسلوننى عن وجدى، قائلين : صبرا وجلدا ، وتحملا وتجملا ، لايهلكك الأسى ، ولا يقض عليك الوجد ، وتجمل بالصبر وتحل بالجلد .

إن دوائى مما ألاقى من وجد دمعة تراق ، وشفائى مما أجد من أسى عبرة تصب ، ومع ذلك فما جدوى البكاء على الرسوم ؟ وما فائدة إراقة الدموع على الأطلال ؟ .

النقد :

عدّ النقاد هذه القصيدة أروع ماقال الجاهليون ، وعدوا مطلعها أروع المطالع فى الشعر العربى ، وكانوا صادقين ، وقالوا عن امرىء القيس : « إنه وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وذكر الحبيب والمنزل فى شطر واحد ، وهذا يعجز جميع فحول الشعر ، وقد حدد الشاعر دار المحبوبة تحديدا جغرافيا دقيقا ؛ لأن قلبه معلق بها ، فكيف ينسى دارها ؟ .

ثم جاء تصويره لآرامها وبعرها تصويراً صادقا لامبالغة فيه ولا غموض ، وتصويره لساعة الرحيل إذ وقف لدى شجرات الطلح يسفح الدمع تصوير جميل ، وقد أخذ معنى البيت الأخير الشعراء بعده ، فقال ذو الرمة :

لعل انحدار الدمع يعقب راحة   من الوجد أو يشفى شجى البلابل

وبيت امرىء القيس أجمل من وجوه : تأكيد شفاء الدمع للنفس ، ونفى المعول على الرسم الدارس فى حين أن ذا الرمة جعل انحدار الدمع مرجواً منه الراحة ، وهذا هو كل معناه .

٣ — وقال زهير بن أبى سلمى* فى مطلع معلقته :

أَمِنْ أُمِّ أَوفَى دِمنةٌ لم تَكلَّمِ	بِحومانةِ الدُّرَّاجِ فالمُتَثَلَّمِ ؟[١]
ودارٌ لها بالرقمتَيْنِ كأنَّها	مَراجِعُ وشْمٍ فى نَواشِرِ مِعصَمِ[٢]
بِها العِينُ والآرامُ يَمشينَ خِلفةً	وأطلاؤها يَنهَضْنَ مِن كلِّ مَجْثِمِ[٣]
وقفتُ بِها من بعد عشرينَ حِجَّةً	فلأْيًا عرفتُ الدَّارَ بعدَ تَوهُّمِ[٤]
أَثافِيَّ سُفْعًا فى مُعَرَّسِ مِرْجَل	ونُؤْيًا كجِذْمِ الحَوْضِ لم يتثلمِ[٥]
٤٨٥ : فلمَّا عرفتُ الدَّارَ قلتُ لِرَبْعِها	ألا انْعَمْ صباحًا أيُّها الرَّبْعُ واسْلَمِ[٦]

---

* ترجمة الشاعر : انظر ترجمته فى وصف الناقة ص ٨٨ .

التفسير اللغوى : (١) أم أوفى : زوج زهير طلقها ، وأراد مراجعتها فأبت ، فكان يذكرها فى شعره . الدمنة : ما اسود من آثار الديار . لم تكلم : لم تتكلم ، وترد على من يخاطبها . الحومانة : الأرض الغليظة . الدراج فالمتثلم : موضعان بالعالية . (٢) بالرقمتين : بين الرقمتين ، والرقمتان إحداها قرب البصرة ، والأخرى قرب المدينة ، وهما متباعدتان . مراجع : أو مراجيع جمع مرجوع وهو المجدد . الوشم : الغرز بالإبر حتى يسيل الدم ، ثم يذر عليه الكحل ليسود . النواشر : جمع ناشرة عروق المعصم . والمعصم: موضع السوار من اليد .

(٣) العين : جمع عيناء ، وهى البقرة الوحشية الواسعة العينين . الآرام : الظباء الخالصة البياض : خلفة : متتابعة يخلف بعضها بعضا . الأطلاء : جمع طلا وهو ولد الظبى . مجثم : مكان الجثوم . والجثوم : التلبد بالأرض . (٤) بها : بالدار أو يقصد بمكانها إذ هى قد زالت . حجة : سنة . فلأيا : فجهداً ومشقة . بعد توهم : بعد تفرس وطول تأمل .

(٥) أثافى : جمع أثفية ، والأثافى ثلاثة أحجار توضع عليها القدر ، ويقال : رماه الله بثالثة الأثافى أى بداهية عظيمة كالجبل ، لأنهم كانوا إذا لم يجدوا أثفية جعلوا الثالثة الجبل يسندون عليه القدر . المعرس هنا : موضع المرجل ، والأصل مكان النزول ليلا . النؤى : حاجز من تراب يرفع حول البيت لئلا يدخله الماء . الجذم : الأصل . لم يتثلم : لم يتهدم .

(٦) الربع : مكان الإقامة فى فصل الربيع ، ثم أطلق على كل منزل . انعم صباحا : طب صباحا ، ومثله عم صباحا وتقدير الماضى منه وعم يعم ولاينطق به ، وكان دعاء للملوك ، ويخص الدعاء بالصباح ، لأن الغارات كانت تبدأ صباحا . اسلم : من النكبات والنوازل .

تحليل الأبيات :

أمن دمن زوجى الغالية التى قلتنى عن حب ، وهجرتنى عن ودّ ووجد ، دمنةٌ أسألها فلا تجيب سؤلى بعد طول العهـد ، وأناجيها فلا تبادلنى النجوى مع حرقة البعد ؟ تلك الدمنة فى حومانة هذين الموضعين .

كان لأم أوفى أكثر من دار ، فلها أخرى بين الرقمتين : رقمتى البصرة والمدينة ، قد امحت أعلامها ، ودرست آياتها ، فصارت الرسوم والآثار بعد أن جرى عليها السيل والمطر كالوشم المجدد فى عروق المعصم ، بعد أن كانت تحل هذه الدار الزوجة الغالية ، والحبيبة الغانية صارت مرتع البقر الوحشى الواسع العيون ، والآرام الخالصة البياض ، يتنقلن فيها من مكان إلى مكان ، ويتبع بعضها بعضا من مناخ إلى مناخ ، وأطلاء هذه البقرات والظبيات ينهضن من مجاثمهن مرحات نشيطات . وقفت على تلك الدمن أتعرّف موطن الحبيبة ، وأتبين دار الفاتنة الغالية بعد فرقة طالت دون أن أنسى ذكراها ، إنها فرقة عشرين عاما ، فبعد جهد ومشقة ، وطول تفرس وتأمل عرفت موقع الدار ، وموطن الأحباب .

ماذا رأيت ؟ رأيت أثافى سودا ، قد اختلطت الحمرة بسوادها فى مكان المرجل منها ، وتبينت النؤى الذى كان يحجز عنها المـاء عندما يفيض السيل ، كأنه أصل الحوض لم يتهدم ، وإذ كانت هذه الأشياء هى التى دلتنى على آثار الدار ، فقد أخذت أدعو لها بالخير والسلام .

النقد :

بدأ زهير قصيدته بذلك الاستفهام التحسرى ، فكان قويا فى مطلعه ، وإن ضاقت ألفاظ البيت عن معناه ، وفى بيته الثانى أشعرنا أن أم أوفى من ذوات الثراء والسراء ، فلها أكثر من دار تتنقل فيها كلما أرادت النقلة ، وكذلك جاءت ألفاظ البيت أضيق من معناه ، وإن تكن الصورة التى صوّر بها فعل الأمطار والسيول فى ذلك المكان صورة واضحة ، دلت فيما دلت على أن عادة الوشم عادة بعيدة القدم ، وأوضح من هذه الصورة وأجمل ، الصورة فى البيت الثالث فهى صورة كاملة لاينقصها من أسباب الحسن والجمال شىء ، أما الصورة فى البيت الخامس فصورة غير دقيقة وإن حاول الشاعر أن يهب لها الدقة بذلك الاحتراس فى آخر البيت ، ولم يفت الشاعر أن يدعو للدار بالنعمى ، وأن يتمنى لها السلامة من الغارات والنكبات .

٣ — وقال لبيد بن ربيعة العامرى* فى مطلع معلقته :

عفتِ الدِّيارُ مَحلُّها فمُقامُها ... بِمنًى تأبَّدَ غولُها فرِجامُها[١]

فمدافعُ الرَّيانِ عُرِّىَ رَسمُها ... خلقاً كما ضَمِنَ الوُحِىَّ سِلامُها[٢]

دِمَنٌ تجرَّمَ بعدَ عهدِ أنيسِها ... حِججٌ خَلَوْن حلالُها وحرامُها[٣]

رُزِقت مَرابيعَ النُّجومِ وصابَها ... وَدْقُ الرَّواعِدِ جوْدُها فرِهامُها[٤]

مِن كلِّ ساريةٍ وغادٍ مُدجِنٍ ... وعشيَّةٍ مُتجاوبٍ إرزامُها[٥]

٤٩١ : فعلاَ فروعَ الأيهقانِ وأطفلت ... بِالجَلْهتين ظِباؤُها ونَعامُها[٦]

---

* **ترجمة الشاعر** : انظر الترجمة فى وصف الأوابد ص ١٤٦ .

التفسير اللغوى : (١) عفت الديار : درست وزالت معالمها . المحل : الموضع يحل به القوم أياما ، ثم يرتحلون . المقام : ما طالت الإقامة به فهو ضد المحل . منى : موضع فى ديار بنى عامر . غولها فرجامها : موضعان . تأبد : توحش .

(٢) مدافع : مجارى الماء جمع مدفع بفتح الميم . الريان : اسم جبل . الخلق : البالى . الوحى : الكتابة ، وجمعه بضم الواو . سلامها : حجارتها جمع سلمة .

(٣) دمن : جمع دمنة ما اسود من الآثار . تجرم : انقضى بتمامه . حجج : سنوات . خلون : مضين . حلالها وحرامها : أشهر الحل والحرم .

(٤) مرابيع النجوم : الأنواء الربيعية مفردها مرباع . الودق : المطر . الجود : الغزير من المطر . الرهام : المطر اللين .

(٥) السارية : السحابة الممطرة ليلا . الغادى : السحاب الممطر غدوة . المدجن : السحاب المطبق يغطى آفاق السماء . الإرزام : الصوت ، ويقصد صوت الرعد .

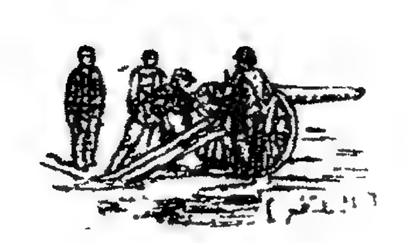
(٦) الأيهقان : نبت يطول عريض الورق أحمر الزهر يؤكل واحدته أيهقانة ، أو هو الجرجير البرى . أطفلت صارت ذوات أطفال . الجلهتان : مثنى الجلهة وهى جانب الوادى .

والعينُ ساكنةٌ عَلَى أطلائِها عُوذًا تأجّــلُ بالفضاءِ بِهامُها(٧)

وجلاَ السُّيولَ عن الطُّلولِ كأنَّها زُبُرٌ تجِدُّ مُتونَها أقلامُها(٨)

أوْ رَجعُ واشمةٍ أُسِفَّ نَئُورُها كِففًا تعرَّضَ فوقهن وشامُها(٩)

٤٩٥ : فوقفتُ أسألها ، وكيفَ سُؤالُنا صُمًّا خوالدَ ما يَبِينُ كلامُها ؟(١٠)



(٧) العين : البقر الوحشى الواسع العيون ، مفردها عيناء . الأطلاء : أولاد البقر الوحشى . العوذ : جمع عائذ الحديثة النتاج . تأجل : تصير آجالا جمع إجل ، وهو القطيع من بقر الوحش . البهام : جمع بهمة بفتح الباء ولد الضأن ، والمقصود هنا ولد البقرة الوحشية .

(٨) جلا : كشف . زبر : جمع زبور الكتاب . تجد : تجدد . المتون : الظهور جمع متن .

(٩) الرجع : الترديد . أسف نئورها : ذركحلها . الكفف : جمع كفة . تعرض : ظهر . الوشام : الوشم .

(١٠) الصم . الصلاب الواحد أصم . خوالد : بواق . الدارات .

تحليل الأبيات .

عفت ديار أحبابي ومحيت آثارها ، لافرق بين ديار يحل فيها للاستراضة والاستراحة ، ثم يرحل عنها ، و بين ديار يقام فيها ، و يطول السكن إليها ، تلك الديار بمنى قد توحشت وتوحش مايجاورها ، فتوحش غولها ورجامها ومجارى المياه فى جبـل الريان ، عرت رسمها السيول ، وكشفت آثارها الأمطار ، حتى أصبحت تلك الرسوم بالية ، وهذه الآثارخلقة ، و إن كان لايزال للرسوم بقية ضئيلة تشبه الـكتابة فوق الأحجار .

هذه الدمن السود انقضى عليها من يوم رحيل أهلها عنها حجج كثيرة ، وسنوات عدة ، اشتملت هذه وتلك على الأشهر الحل والحرم ، وهذا تأكيد للمعنى ، إذ السنة الواحدة تشتمل عليهما ، ولقد رزق الله تلك الآثار من أنواء الربيع المطر الغزير ، الذى يصحبه الرعد القاصف ، فأمرعت تلك المحلة وأعشبت ، وكيف لاتمرع وتعشب ، والأمطار تنسكب عليها بالليل والنهار ، فى المساء والصباح ، تتجاوب رعودها ، و يتسامع الناس قصفها ، فاستطال النبات ، وأطفلت الظباء ، وباض النعام فأفرخت فى جانبى الوادى ، إذ خلا المكان من السكان ، فأمنّ على أطفالهن وفراخهن ، والأبقار الوحشية ساكنة إلى أطلائها ترضعها ، إذهى حديثة عهد بالنتاج ، وأولادها تصبح قطعانا فى تلك الفلاة التى أصبحت مرتع الأوابد بعد أن كانت مرتع الأوانس .

وكان من آثار هذه الأمطار الغزيرة ، والسيول المنهمرة أن كشفت السيول عن تلك الطلول ، التى غطاها التراب ، حتى لـكأنها كتب خفيت سطورها لطول عهد كتابتها ، فجاء كاتب فجددها بأقلامه ، أو كأن هذه السيول فى كشفها الآثار امرأة واشمة عمدت إلى وشم قد وهى أثره فى اليد ، وضعف ظهوره ، فأعادته بالغرز و بذر الـكحل عليه ، فمادت داراته واضحة كما كانت .

وقفت أتفرس هذه الرسوم وأتأملها ، ثم أخذت أناجيها وأسائلها ، وكيف لى بمناجاة الصم الصلاب ؛ وكيف بمساءلة أحجار لايبين كلامها ، ولا يظهر حديثها ؟ أأسأل من لايجيب عن أولئك الأحباب ؟ أأناجى من لايبين بحديث الحب والشوق ، والوجد والهوى ؟ إن الوجد يذهل العقل ، و إن الهوى يسلب اللب .

النقد :

ألقى الشاعر الخبر دون تأكيد كأن المخاطب مؤمن بصدقه ، موقن بصحة حديثه ، لذلك كان هذا الخبر أوثق من الإنشاء حديثا ، وزاد الكلام حسنا ذلك التفصيل بعد الإجمال ، محلها فمقامها ، وغولها فرجامها ، وإذن فالبيت الأول قوى كل القوة ، وتشبيهه مابقى من الآثار بما بقى من الكتابة فوق الأحجار تشبيه بديع غريب على الشعر العربى لم نقرأه لشاعر آخر غير لبيد ، قرأنا تشبيه زهير وطرفة وهما :

ودار لها بالرقمتين كأنها　　　مراجع وشم فى نواشر معصم

* * *

لخولة أطلال ببرقة ثهمد　　　تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

وقد أورد هو هذا المعنى فى قوله .

أو رجع واشمة أسف نثورها　　　كففا تعرض فوقهن وشامها

أما البيت الثالث :

دمن تجرم بعد عهد أنيسها　　　حجج خلون حلالها وحرامها

فيشبه قول زهير :

وقفت بها من بعد عشرين حجة　　　فلأيا عرفت الدار بعد توهم

و بيت زهير أجمل ، وعندى أن « حلالها وحرامها » حشو لأن كل سنة تشتمل على هذه الأشهر ، وجميل منه ذلك الطباق « من كل سارية وغاد مدجن » أو ذلك التقسيم فى البيت نفسه :

من كل سارية وغاد مدجن　　　وعشية متجاوب إرزامها .

إن هذه الأبيات أوفى معانى ، وأكثر صورا ، وأدق تصويراً من قطعتى امرئ القيس وزهير ، ولعل ذلك أنه كان أشد منهما تأثراً بموضوعه ، ولولا بعض كلمات فيها ثقل كقوله : الأيهقان ، و بالجلهتين ، واجتماعهما فى بيت واحد لقلنا إنه بلغ غاية الكمال .

٤ — وقال النابغة الذبيانى* فى مطلع معلقته :

يادارَ ميَّــــةَ بالعلياءِ فالسَّنَدِ	أقوَتْ وطالَ عليها سالِفُ الأَمَدِ[1]
وَقفتُ فيها أُصَـــيلالاً أُسائلُها	عيَّتْ جواباً، وما بالرَّبْعِ من أحَدِ[2]
إلاَّ أَوَارِىَّ لأْياً ما أُبَيِّنُهــــا	والنُّؤْىُ كالحوْضِ بالمظلومة الجَلَدِ[3]
رَدَّتْ عليه أقاصـــيه ولبَّده	ضَربُ الوليدة بالمِسحاةِ فى الثَّأَدِ[4]
خلتْ سبيلَ أَتِىٍّ كانَ يحْبِسُــــه	وَرفَّعَتْه إلى السِّجْفَيْنِ فالنَّضَـدِ[5]
٥٠١ : أضحتْ خَلاءً ، وأضحى أهلُها احتملوا	أخْنَى عليها الَّذى أخْنَى عَلَى لُبَدِ[6]

ترجمة الشاعر : انظر ترجمته فى وصف الأوابد ص ١٥٤ .

التفسير اللغوى : (١) مية : اسم محبوبته . العلياء : مكان مرتفع من الأرض . السند : ما قابلك من الوادى ، وعلا من السفح . أقوت : أقفرت من أهلها . سالف الأمد : ماضى الدهر . (٢) أصيلالا : الأصيل الوقت قبيل المغرب ، وأصيلالا البدل ، إذ تصغيره على أصيلان ، فأبدل بالنون اللام ، وأصيلان أصلها أصلان الذى هو جمع أصيل كرغيف ورغفان ، وخطئوا من قال بهذا ؛ لأن الجمع لايصغر إلا إذا كان من جموع القلة ، وهى :

أفعلة أفعــل ثم فعــله ثمت أفعال جموع قله

وقالوا بل هو مصدر مثل التكلان والغفران . عيت : عجزت .

(٣) الأوارى : مفردها آرى ، وهو معلف الدابة ومحبسها . لأيا : جهدا ومشقة . أبينها : أستبينها . النؤى : الحاجز من التراب يجعل حول البيت والخيمة ليمنع وصول السيل . الظلم : وضع الشئ فى غير محله ، والمظلومة : الأرض التى قد حفر فيها فى غير موضع الحفر . الجلد : الأرض الغليظة الصلبة من غير حجارة . (٤) أقاصيه : جمع أقصى ، وهو مابعده ، وضده أدنى . لبده : ألصق التراب بعضه ببعض . الوليدة : الخادم الشابة . الثأد : المكان الندى التراب .

(٥) خلت : تركت . الأتى : السيل يأتى من بلد إلى بلد . يحبسه : يمنعه . السجفين : مثنى سجف ، وهو الستر يكون فى مقدم البيت . النضد : مانضد ونسق من متاع البيت .

(٦) أمست : يريد صارت . خلاء : خالية من السكان . احتملوا : ارتحلوا . أخنى عليها : غيرها وأفسد آياتها . لبد : آخر نسور لقمان بن عاد ، وهو غير لقمان الحكيم الوارد فى القرآن الكريم سماه لبدا لأنه ظن أنه أبد فلا يموت ، ولا يذهب ، وزعموا أنه حين كبر ، قال له : انهض لبد فأنت نسر الأبد .

تحليل الأبيات :

يناجى الشاعر الديار ، ويتمنى أن تشاطره المناجاة ، تلك الديار الواقعة بين العلياء فالسند ، أقفرت من أهلها ، وطال إقفارها ، و بعد العهد بسكانها ، لقد وقفت فى رسوم هذه الديار ساعة الأصيل، وقد تزاحمت فى نفسى الذكريات، وتجاوبت العواطف والأفكار، وقفت أسائلها عن الأحباب الذين كانوا يسكنونها ، والأصدقاء الذين تساقينا و إياهم كئوس الهوى ، فلم تحر جوابا ، فعجزت عن التعبير ، وكيف تعبر وقد خلت من الأنيس ؟

ليس فى رسوم هـذه الدار إلا محابس الدواب ومعالف الحيوان ، وحتى هذه لايكاد الرائى يتبينها ، و إلا النؤى الذى كانوا يقيمونه مانعا للسيل ، فهو كالحوض فى الأرض الصلبة الصماء ، لبد ترابه ، حتى يستقر بعضه على بعض .

خلت الخادم السبيل للسيل المنهمر ، والأتى المنسكب الذى كان ذلك النؤى يحبسه عن الدار ، و بلغ سجفا البيت ، بل تجاوزهما إلى متاعه المنضد ، وأساسه المنسق ، فليس مايدعو إلى حجز الماء عنها ، فقد أضحت خالية من قاطنيها الذين احتملوا عنها ورحلوا منها ؛فغيرها ، وأذهب آياتها القادرعلى تغيير كل شىء ، و إزالة آثار كل حى ، «أخنى عليها الذى أخنى على لبد»

النقد :

النابغة فى هذه الأبيات دون قدره ، وقد دفعه الإيجاز إلى تحميل شعره معانى أكثر مما تحتمل ، فقد نادى الدار ثم لم يذكر سبب النــداء ، إنه يريد أن يتحدث إليها عن حبيبته ، أين ذهبت بها الأيام ؟ وكيف كان حالها عند احتمالها ؟ إلى آخر هذه المعانى التى ترد بخاطر من يريد إلى الدار خطابا ، وكأنى بالنابغة ناقض نفسه ، فقد نادى الدار ، وأخذ يسائلها فعيت بالجواب ، وما بالربع من أحد ، فهو يعلم هذا قبل سؤالها إذ يقول :

« أقوت وطال عليها سالف الأمد» و إذن فما كان ينتظر الجواب من السكان بل من الدار ، والأبيات الثلاثة الأخيرة ليس فيها جمال إلا ذلك الذى يدل على شرفه وسرائه ، فالوليدة تضرب بالمسحاة فى الثأد ، ورفعته إلى السجفين ، وليس كل الناس لديارهم سجوف ، والشطر الأخير جماله أنه جرى مجرى المثل .

٥ — وقال المرقش الأكبر* من قصيدة أولها :

هـــلْ تعرفُ الدّارَ عفا رَسْمُها	إلاّ الأثافِيَّ ومبْــــنَى الخِيَمْ؟[1]
أعـــرِفها دارًا لِأَسماءَ فالدَّ	مْعُ عَلَى الخدَّيْنِ سَحٌّ سَجِمْ[2]
أمْست خلاءً بَعـــد سُكَّانِها	مُقفِرةً ما إنْ بِهَا مِن إرَمْ[3]
إلاَّ مِنَ الْعِـــــين تَرَعَّى بها	كالفارسيينَ مَشَوْا فِي الكُمَمْ[4]
٥٠٦ : بَعْدَ جميعٍ قـــد أَراهُمْ بها	لَهُمْ قِبابٌ وعَلَيْهِمْ نِعَمْ[5]

* ترجمة الشاعر : انظر ترجمته في وصف ذئب أطعمه ص ٢٠٩

التفسير اللغوى : (١) عفا رسمها . زال أثرها . الأثافى : جمع أثفية ، وهى ثلاثة أحجار توضع فوقها القدر . الخيم : جمع خيمة وهى بيت يبنى من عيدان الشجر ، فإذا كان من صوف أو شعر فهو بيت ، وقيل : تطلق الخيمة على جميع ذلك .

(٢) أسماء : هى معشوقته ، وكانت ابنة عمه عوف بن ضبيعة . سح : مصبوب . سجم : سائل .

(٣) أمست : صارت ويصح أن يراد بها معناها الحقيقى ؛ إذ كانوا يرحلون ليلا ؛ ليكون ذلك أطيب للسفر ، وأيسر على الظعائن . خلاء : خالية . من إرم : من أحد ، أو من إرم من علم يدل عليها .

(٤) العين : جمع عيناء البقر الوحشى ، ولقب بهذا لسعة عيونه . ترعى . ترعى ، والتشديد يزيد الفعل قوة ، فكأنه يقول ترعى كثيراً . الكمم : جمع كمة القلانس .

(٥) بعد جميع : بعد حى . قد أراهم بها : قد كنت أراهم بها . قباب : جمع قبة وهى بناء سقفه مستدير مقعر . عليهم النعم والرغد وهناءة العيش .

تحليل الأبيات :

يناجي الشاعر قلبه ويسائله : أهو يعرف الدار التي محيت آثارها ، ودرست رسومها، وطمست معالمها ، ولم يبق منها إلا الأثافي ، وما أضأل شأنها وأهون أمرها ، وإلا أصل الخيام ؟ وقد أجابه قلبه الجياش بالحب الفياض بالحس ، إنه يعرفها ؛ لأنها دار أسماء العزيزة عليه ، الأثيرة لديه ، فشعوره الباطنى يوحى إليه بمكانها ، وإن لم يبق من تلك حتى الأثافى ، ولذلك فدموعها على خديها منصبة ، وعبراتها من مقلتيها منهمرة .

وا أسفاه ! لقد أمست تلك الدار خالية من سكانها ، مقفرة من قطانها ، فليس بها من أحد ، لقد احتملوا ليلا ؛ لأنهن منعمات مرفهات لايحتملن سفر النهار ، ولا يستطعن الظعن فى حرارة الشمس .

أقفرت تلك الدار من الإنس فعمرها الوحش ، كانت تسكنها أسماء الحسناء ، فأضحت تسكنها البقرة العيناء ، ترعى عشبها ، وتمرع فى مراعيها ، فالبقر لاختيالهن بجمالهن ، ولبياضهن ، واستدارة قرونهن حول رءوسهن يشبهن الفُرس يختالون فى قلانسهم .

بعد حى أقمنا فيه حينا ثم تركناه قد أراهم يجتمعون بهذه الدار مرة أخرى ، لهم قباب مرفوعة ، وخيام منصوبة ، وعليهم نعمة سابغة ، وفيهم هناءة صافية .

النقد :

معانى المرقش فيها جدة وطرافة لم ترد فى شعر من عرضنا بعض أوصافهم للأطلال ، من ذلك مناجاته قلبه ، وادعاؤه أن قلبه هو الذى عرف دارها ، هو لم يذكر قلبه صراحة ، ولكن السياق يعينه ، ثم هذا التشبيه فى البيت الرابع فيه صورة جميلة :

إلا من العين ترعَّى بها ‏ ‏ ‏ ‏ كالفارسيين مشوا فى الكمم

فتصوير القرون تتلاقى فوق رءوس البقر بالقلانس فوق رءوس الفرس تصوير لم يقع لشاعر سواه ، وإذا كان لنا ما نأخذه عليه ، فهو الغموض فى البيت الأخير ، وقد شرحناه كما هدانا إليه فكرنا ، وشرحه غيرنا غير هذا الشرح ، ولعلنا أن نكون أقرب إلى الصواب .

٦ — وقال بشامة بن الغدير* من قصيدته التى أولها :

لِمَنِ الدِّيارُ عَفَوْنَ بالجَزْعِ ... بالدَّوْمِ بَينَ بُحارَ فالشَّرْعِ (١)

دَرَسَتْ وقد بقِيَتْ عَلَى حِجَجٍ — ... بعدَ الأنيسِ عَفَوْنَها — سَبْعِ (٢)

إلاَّ بقايا خَيْمةٍ دَرَسَتْ ... دَارَتْ قَواعِدُها عَلَى الرَّبْعِ (٣)

فوقفتُ فى دارِ الجميعِ وقَدْ ... جالتْ شئُونُ الرأسِ بالدَّمْعِ (٤)

كعُرُوضِ فيَّاضٍ عَلَى فَلَجٍ ... تَجْرِى جَداوِلُه عَلَى الزَّرْعِ (٥)

٥١٢ : فوقفتُ فيها كى أُسائلَها ... غَوْجَ اللَّبانِ كمِطْرَقِ النَّبْعِ (٦)

---

* ترجمة الشاعر : انظر ترجمته فى وصف الناقة ص ٧٤ .

التفسير اللغوى : (١) عفون : درسن وزلن . الجزع : منعطف الوادى حيث انحنى . الدوم ، وبحار ، والشرع : أسماء أمكنة .

(٢) درست : زالت . حجج : جمع حجة سنوات . بعد الأنيس : بعد السكان المؤنسين . عفوتها : محونها . سبع : صفة لحجج ، والفصل بين الموصوف والصفة قبيح .

(٣) تقدم أن قلنا:إن من رجال اللغة من يقول الخيمة بناء من شجر ، فإذا كان من صوف أو شعر سمى بيتاً ، وقد يطلق على الجميع . دارت قواعدها : مالت قوائمها وأسسها . الربع : دار الربيع ، ثم أطلقت على كل دار .

(٤) دار الجميع : الدار التى يجتمع فيها الحى . جالت : دارت واضطربت . شئون : جمع شأن ، وهو العرق الذى يجرى منه الدمع .

(٥) العروض : النواحى . الفياض : الماء الكثير الفيضان . الفلج : النهر العظيم . الجداول : النهيرات الصغيرة مفردها جدول .

(٦) غوج اللبان : اللبان الصدر ، وغوج واسع الجلد، فهو يضرب لسعته . كمطرق النبع: كالقضيب من شجر النبع .

تحليل الأبيات :

يتساءل الشاعر فى لهفة الفزع الجزع عن أصحاب هـذه الديار المقامة بمنعطف الوادى من الدوم بين بحار والشرع فقد عفون ، وزال أثرهن ، وطمست آياتهن ، درست واستمر دروسها سبع سنوات ، ليس بها أنيس تسكن النفس إليه ، وتقرّ العين به ، ويطمئن القلب له .

لم يبق من هذه الديار شيء حتى البقية الباقية من جذوعها درست وعفت ، ومالت قواعدها ، ودارت قوائمها التى كان يقوم عليها ذلك الربع ، فوقفت فى الدار التى كانت مجتمع الحى ، ومنتدى القوم ، فأخذتنى العبرات ، وجالت فى شئونى الدموع ، فإذا دموعى تجرى فى مجارى الدمع فياضة غزيرة ، فتمتدّ وتتفرق كالنهر يفيض بمائه الغزير فى نواحيه وعروضه ، فتجرى منه جداول ذات اليمين وذات الشمال فوق الزرع .

وقفت فى آثار هذه الديار أمتطى فرسا قد ضمر جسمه ، واتسع جلد صدره لأسائلها أحاديثها عن ساكنيها ، ولأبادلها النجوى عمن كان يحل بها من أولئك الذاهبين .

النقد :

لا أظن بشامة بن الغدير وهو يسأل عن أصحاب الديار العافية يجهل هؤلاء الأصحاب ، وإنما هو تجاهل العارف بعثه فى نفسه أنه لا يرى أولئك الأصحاب الأخلاء ، كما لا أظن أنه يعنى بهؤلاء الأخلاء صاحبة أو خليلة ، فقد أعفاه الله من العشق ، ولـكنه يعنى الأخلاء والخلصاء ، أولئك الذين كان يجتمع بهم فى حيهم ومنتدياتهم ، أليس قوله ؟

فوقفت فى دار الجميع وقد جالت شئون الرأس بالدمع

دليلا على هذا ؟

وليس فى الأبيات من المعانى ما يبهر ، ولا من الصور ما يسحر ، وأحسب أن تشبيهه الدمع بالنهر الـكبير يتفرع إلى جداول تسقى الزروع تشبيه ليس فيه دقة الصور ، ومراعاة أجزاء الصورة .

٧ — وقال الحارث بن حلزة اليشكري * :

لِمَنِ الدِّيارُ عفون بالْحَبْسِ ؟ آيَاتُها كمهارِقِ الفُرْسِ (١)
لاشيءَ فيها غيرُ أصْوِرَةٍ سُفْعِ الخُدُودِ يَلُحْنَ كالشَّمسِ (٢)
أوغيرُ آثارِ الجِيادِ بأعْراضِ الجِمادِ وآيةِ الدَّعْسِ (٣)
فحبستُ فيها الركبَ أحْدِسُ فى كلِّ الأمورِ وكنتُ ذا حَدْسِ (٤)
حتى إذا التفعَ الظِّباءُ بأطرافِ الظِّلالِ وقِلْنَ فى الكُنْسِ (٥)
ويئستُ مما قد شُغِفْتُ به منها ولا يُسليك كاليأسِ (٦)
٥١٩ : أَنْمِى إلى حرفٍ مُذَكَّرةٍ تَهِصُ الحصَى بعواقمٍ خُنْسِ (٧)

---

* ترجمة الشاعر : هو الحارث بن حلزة بن مكروه بن يزيد بن عبد الله بن مالك اليشكرى من شعراء العراق، وهو شاعر فحل يضرب به المثل فى الفخر، فيقال أفخر من الحارث بن حلزة، وهو من أصحاب المعلقات، وزعموا أن معلقته ارتجلها بين يدى عمرو بن هند، وقال الأصمعى إنه ارتجلها وهو ابن مائة وخمس وثلاثين سنة وقد توفى حوالى سنة ٥٧٠ م .

التفسير اللغوى : (١) عفون : درسن . الحبس : اسم موضع . آياتها : علاماتها وأعلامها . مهارق : جمع مهرق بضم الميم وفتح الراء ، قال فى اللسان وهى الصحيفة البيضاء يكتب فيها ، فارسى معرب ، والجمع المهارق قال حسان :

كم للمنازل من شهر وأحوال لآل أسماء مثل المهرق البالى

وقال الحارث بن حلزه : « آياتها كمهارق الحبش » وهو خطأ من ابن برى إذا الروى السين كما ترى . (٢) الأصورة : جمع صوار بضم الصاد وكسرها قطعان البقر . سفع : جمع أسفع وهو الأسود المشرب بالحمرة . يلحن : يظهرن .

(٣) الأعراض : جمع عرض بضم العين النواحى . الجماد : مفرده جمد مثل رمح ورماح المرتفع من الأرض ، واستشهد اللسان بقول امرىء القيس :

كأن الصوار إذ يجاهدن غدوة على جمد خيل تجول بأجلال

الدعس : الوطء . وآيته : أثره وعلامته . (٤) أحدس : أظن . (٥) قلن : من القيلولة ، وهى نوم نصف النهار . الكنس : جمع كناس ، وهى بيت الظبى يحفره فى أصل الشجرة ليستتر بها . (٦) شغفت به : أغرمت به . لا يسليك : لا يخفف عنك .

(٧) أنمى : أرتفع . الحرف : الناقة الماضية المذكرة : التى تشبه الفحل فى صلابتها . تهص الحصى : تدق الحصى فتكسره . المواقع : المطارق مفردها ميقعة . الخنس : القصار الأنوف ، مفردها خنساء .

تحليل الأبيات :

لمن هذه الديار التي عفت آثارها ، وامحت أعلامها بالحبس ؟ إن أعلامها البيض ، وآياتها الواضحات كانت تبدو كالصحف البيضاء التي تنسب إلى أبناء الفرس ، أضحت وليس فيها إلا قطعان البقر الوحشي السفع الخدود ، البيض الظهور ، التي تبدو كأشعة الشمس سطوعا ، وليس فيها غير آثار الجياد ، تبدو فى نواحى تلك الديار ، وفى جِمادها ومرتفعاتها ، فترى آثار وطئها ، ومظاهر ركضها .

لقد وقفت عند تلك الديار أحدس وأخمن ، وأتفرس وأنجم ، أين أولئك الذين عمروها ؟ أين الخنس الجوارى الكنس اللائى ملأنها جمالا وفتنة ؟ أين ملاعبهم وملاعبهن التى كنا نقضى فيها أوقات الهوى ، وسويعات اللهو ، أين وأين ؟ وماذا ينفع التساؤل ؟ إنه يجدد الحسرات ، ويبعث دفان الهموم والأحزان . وحين توسطت الشمس كبد السماء ، وفاءت الظباء إلى الظلال ، وقلن فى الكناس ، ويئستُ من بعث الذكريات التى شغفت بها ، وأيقنت أنها لا ترد ماضيا ، ولا تعيد ذاهبا ، كان ذلك اليأس سلوانتى ، « ولا يسليك كاليأس » وإذن فلأرفع رحلى فوق ناقة جمالية ترق الحصى بمناسمها .

النقد :

اتفق بشامة بن الغدير والحارث بن حلزة فى المطلع ، والتساؤل عن أصحاب الديار ، والاستفهام عمن كان يقطنها ، معنى تواردت عليه خواطر الشعراء ، فليس هناك بينهم آخذ ومأخوذ منه ، ويظهر فضل الحارث على بشامة فى أنه شبه آثار الديار وأعلامها بصحف الفرس وهو تشبيه جميل يدل على اتساع ثقافة ، وبعد خيال ، كما تظهر حكمته فى قوله :

« ولا يسليك كاليأس » . وجميل من الحارث كذلك وصف الأصورة بأنهن يلحن كالشمس ، ثمن من الشعراء منحها هذا الجمال ، والجناس قليل فى الشعر الجاهلى ؛ وقلته تضفى عليه الحسن ، وقد أبدعه الحارث فى قوله :

أو غير آثار الجياد بأعراض الجماد وآية الدعس

وكذلك حبسه الركب ليحدس ويخمن ، وتركه إياك لتحدس فيما كان يحدس به ، وتخمن ما كان يخمنه جمال أى جمال ، وبعد فالأبيات جميعها من رائع الشعر .

٨ — وقال عميرة بن جميل* من قصيدته التى أولها:

ألا يا ديارَ الحىِّ بالـــبَرَدانِ	خَلَتْ حِجَجٌ بَعْدِى لَهُنَّ ثَمانِ (١)
فلمْ يَبْقَ منها غيرُ نُؤْىٍ مُهَدَّمٍ	وغيرُ أَوَارٍ كالرَّكِىِّ دِفانِ (٢)
وغيرُ حُطوباتِ الولائدِ ذَعْذَعَتْ	بها الرِّيحُ والأمطارُ كلَّ مكانِ (٣)
قِفارٌ مَرُوراتٌ يحارُ بها القطا	يَظَلُّ بها السَّبْعانِ يعـــتركانِ (٤)
يُثيران من نَسْجِ التراب عليهما	قميصـــين أسماطًا و يرتديانِ (٥)
و بالشَّرفِ الأعلى وُحوشٌ كأنَّها	على جانب الأرجاء عوذُ هِجانِ (٦)

٥٢٥ :

---

* ترجمة الشاعر : هو عميرة بن جميل بن عمر بن مالك بن الحارث بن حبيب التغلبى شاعر جاهلى يعد من الشعراء المبرزين ، وهو فيما يظهر من الشعراء المقلين كذلك ، توفى حوالى سنة ٥٧٠ م .

التفسير اللغوى : (١) الحى : البطن من بطون العرب . البردان : اسم موضع . خلت : مضت .

(٢) النؤى : الحاجز من التراب يقام ليمنع السيل عن البيت . الأوارى : جمع آرى وهى معالف الدواب ومحابسها . الركى : جمع ركية ، وهى البئر . دفان : جمع دفين ، مندفنات .

(٣) الحطوبات : جمع حطوبة ، وهى ما احتطب الإماء وجمعنه . الولائد : جمع وليدة الإماء . ذعذعت : فرقت .

(٤) قفار : جمع قفر ، وهى الأرض القاحلة الخالية من الزرع . المرورات : التى لا تنبت شيئاً لا نعدام الماء فيها . السبعان : مثنى سبع وهو كل ما يفترس من الحيوان : يعتركان : يلتمس كل منهما أكل الآخر لما هما فيه من جدب دفع غيرهما من الحيوان إلى ترك ذلك .

(٥) أسماطاً : غير محشوة ، وهو أن يكون القميص طاقا واحداً .

(٦) الشرف : المرتفع من الأرض . الأرجاء : النواحى مفردها رجا . العوذ : الإبل أو الخيل أو الظباء الحديثة النتاج مفردها عائذ ، وجمعه عوّذ وعوذ وعوذان ، وجمع الجمع عوذات . الهجان : الكرام يستوى فيه المذكر والمؤنث ، والمفرد والجمع .

تحليل الأبيات :

ألا ياديار قومى وخيام أهلى بالبردان ، لقد مضى على تركهم إياك ونزوحهم عنك ثمانى حجج ، وهو زمن طويل يغير الأحوال ، و يبدل الأوضاع ، و إذن فليس غريبا ألا يبقى منك غير نؤى مهدم ، وحاجز مثلم ، وغير معالف الدواب ومحابسها التى صارت لطول العهد و بعد الأمد كالآبار المطمورة ، وغير الحطوبات التى جمعتها الإماء من بقايا الجذور ومتساقط الأغصان ؛ ليجعلن منها وقودهن فى قارس البرد ، لقد فرقتها الرياح السافيات ، وجرت بها الأمطار الغزيرة كل مجرى .

واحرّ قلباه ! لقد أصبحت تلك الديار التى كانت تتيه بأعز الناس ، وأكرم الأجناس قفارا لانبت فيها ولا ماء ، ولا إنس فيها ولا وحش ، فهى تنائف يضل فيها القطا ، فلو أن بها سبُعين لأخذا يقتتلان حتى يتفانيا فى سبيل الطعام .

وهما فى تقاتلهما يثيران التراب فينسج فوق ظهريهما ثوبين رقيقين ، لو هبت عليهما الريح لأزالتهما .

ولكنَّ بأعلى هذه الصحراء وحوشا ضارية كأنها لاستيحاشها فى مختلف النواحى وجوانب الأرجاء إبل هجان من خلفها سقابها ، أوظباء خنس من ورائها أطلاؤها .

النقد :

جرى الشاعر على ماجرى عليه غيره من الوقوف بالديار بعد حجج يعدها ، ثم غير الأشياء التى لاتزال دالة على أنه كان فى المكان ديار ، وكان فى هذه الديارسكان وقطان ، ولكنه ذكر فيما بقى من الآثار مالم يذكره سواه ، ذكرالحطوبات ، والحق أن بقاء الحطوبات بعد حجج ثمان أمر غير منظور ، فالوحوش التى لاتجدغذاء من حق نفوسها عليها أن تأكل كل ماتجد ، ثم إنه وقع فيما يكاد يكون تناقضا : السبعان يعتركان فيتفانيان ، لأنهما لا يجدان الغذاء ، وبالشرف الأعلى وحوش كأنهما عوذ هجان . أليس هذا تناقضا ؟ إنه كذلك .

وعلى أى فالأبيات معانيها كمعانى أى شعر آخر فى وصف الأطلال .

٩ — وقال ثعلبة بن عمرو العبدى * فى مطلع قصيدته :

لِمَنْ دِمنٌ كأنَّهنّ صحائفُ ... قِفارٌ خَلا منها الكثيبُ فواحِفُ؟(١)

فما أحدَثَتْ فيها العُهُود كأنما ... تلعَّبُ بالسَّمَّانِ فيها الزَّخارِفُ(٢)

أَكَبَّ عليها كاتبٌ بِدَواته ... يُقيمُ يديْهِ تارةً ويُخالِفُ(٣)

٥٢٩ : رَجَا صُنعَه ما كانَ يَصنَعُ ساجِياً ... ويرفعُ عينيه عنِ الصُّنْعِ طارفُ(٤)



---

* **ترجمة الشاعر** : هو ثعلبة بن حزن بن زيد مناة بن الحارث بن ثعلبة العبدى ، وهو شاعر قصير النفس فيما يبدو ، مغمور بين الشعراء ، وإن كان له من القصائد قصيدتان اختارهما المفضل الضبى . كما اختار له البحترى فى حماسته ، وشعراء الجاهلية .

التفسير اللغوى : (١) الدمن : جمع دمنة ، وهى آثار الناس وما سودوا بالرماد . صحائف : جمع صحيفة يقصد ما فيها من النقش . قفار : جمع قفر ، الأرض المجدبة . الكثيب وواحف موضعان .

(٢) العهود : جمع عهد يقصد الأمطار التى يعهد بعضها بعضا . السمان : الأصباغ التى يزخرف بها فى السقوف وغير السقوف ولا واحد لها .

(٣) أكب : أقبل . تارة : مرة .

(٤) ساجياً : ساكناً هادئاً . الطارف : ما يطرف العين .

تحليل الأبيات :

يسائل حاتم قلبه ، أتعرف هذه الأطلال الدوارس ، والآثار الطوامس ، والنؤى المهدم ، والجذم المثلم ؟ إن الأرض تبدو كالرق ، وهذه الآثار فوقه كالخط المزخرف ، والرسم المزركش ، لقد نشرت الأرواح فى هذا المكان عواصفها بعد أن فارقه قاطنوه ، وتركه ساكنوه ، تركوه أياما طوالا ، وشهوراً عدة ، هذه الأرواح تنقلت من مكان إلى مكان ، ودرجت من موضع إلى موضع ، فغيرت ظاهر تربه ، وكسته ترابا غير ترابه الذى كان له ، وأزالت الأيام معالمه ، وطمست أعلامه .

ليست الرياح فحسب هى التى غيرت المعالم والأعلام ، ولكنه طول البلى ، وقدم العهد ، حتى أصبحت لا أعرف الأطلال إلا بالوهم والظن ، ولا أتبين الآثار إلا بالحس والشعور .

النقد :

المعانى التى أوردها حاتم فى أبياته تلك معان قليلة ، وليس فيها معنى يمكن أن يقال إنه انفرد به ، ولا أحسب أن الحول يفعل فى الديار هذا الذى صوره حاتم ، فقد استقصرنا ثمانى حجج فى قصيدة عميرة بن جعل ، ورأينا أن تأثيرها لا يبلغ تصويره ، فكيف بالعام الواحد ؟ هل نقول : إنهم قلدوا زهيراً فلم يجيدوا التقليد ؟ وذلك فى قوله :

وقفت بها من بعد عشرين حجة ... فلأيا عرفت الدار بعد توهم

وكذلك قال حاتم :

وغيرها طول التقادم والبلى ... فما أعرف الأطلال إلا توهما

ولكن بعدكم كان ذلك التقادم والبلى ، إنه بعد :

أذاعت به الأرواح بعد أنيسها ... شهوراً وأياما وحولا محرما

قد يقال إنه لا يقصد حولا واحدا ، ونقول بل يقصده ، فلو أراد غير ذلك لاستبدل بأيام أعواما .

المعانى المشتركة وغير المشتركة فى وصف الأطلال

يكاد الشعراء يتفقون فى وصف الأطلال ، ولهم فى هذا عذرهم ، فالبيئة التى توحى إليهم بأفكارهم واحدة ، والمعين الذى يمتحون منه واحد ، والعصر الذى يعيشون فيه واحد ، وكل هذه عوامل توجب اتفاق الأفكار .

إذا قال امرؤ القيس محدداً دار محبوبته :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ‏ ‏ ‏ بسقط اللوى بين الدخول فحومل

قال زهير مراعيا ذلك التحديد :

أمن أم أوفى دمنـــة لم تكلم ‏ ‏ ‏ بحومانة الدراج فالمتثــــــلم ؟

وقال لبيد :

عفت الديار محلها فمقامها ‏ ‏ ‏ بمنى تأبد غولها فرجامها

وعلى هذا النمط سار أكثر الشعراء بعدهم ، لم يحيدوا عنهم إلا قليلا .

ثم إذا قال امرؤ القيس إن هذه الدور بعـد أن كانت ملعبا للأوانس أصبحت مرتعا للآرام . فى قوله :

ترى بعر الآرام فى عرصاتهـا ‏ ‏ ‏ وقيعانها كأنه حب فلفل

قال زهير :

بها العـين والآرام يمشين خلفة ‏ ‏ ‏ وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم

وقال لبيد .

والعــين ساكنة على أطلائها ‏ ‏ ‏ عوذا تأجـــل بالفضاء بهامها

وقال المرقش الأكبر قبلهم :

إلا من العين ترَعّى بهم ‏ ‏ ‏ كالفارسـين مشوا فى الـكمم

وكلهم أسكنوا هذه الدور العين والظباء والوحوش ، حتى وإن تـكن هذه الدور قد صارت إلى فناء وبلى ، وأصبحت صحارى جرداء ، كقول عميرة بن جعل :

قفار مرورات يحار بهـــا القطا يظـــل بها السبعان يعتركان
يثيران من نسج التراب عليهما قميصـــين أسماطا و يرتديان
و بالشرف الأعلى وحوش كأنها على جانب الأرجاء عوذ هجان

وأكثرهم وصف فعل الأمطار بها ، وأثر الودق والساريات فيها ، ولكنهم أوردوه في صور مختلفة ، كلها صور قوية جميلة ، و بخاصة صور لبيد والنابغة ، كما وصفوا فعل الرياح في تلك الآثار فأجادوا التصوير .

ولكن لبعض هؤلاء الشعراء معانى سبقوا إليها فاتبعوا فيها ، أو لم يتبعوا لشهرة نسبتها إلى أصحابها ، فمن هذه المعانى قول امرئ القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فكثير من الشعراء جرى فى غباره ، ولكنهم لم يبلغوا شيئا و إن أجادوا ، ومن سبقه منهم جاء بجزء من المعنى ، لم يسقه مساق امرئ القيس فى إحاطته وشموله ، وحسنه وجماله ، قال بشامة بن الغدير :

فوقفت فى دار الجميـــع وقد جالت شئون الرأس بالدمع

وقال المرقش الأكبر :

أعـــــرفها دارا لأسماء فالد مع على الخدين سح سجم

ومن المعانى التى انفرد بها الحارث بن حلزة تشبيه ظهور البقر الوحشى بالشمس فى قوله :

لا شىء فيها غـــير أصورة سفع الخدود يلحن كالشمس

حقا إنه لم يجدد هذا الذى يلوح ، ولكن التأمل يدفع إليه ، فأول ما يلوح الظهور . ومنها حبسه الركب ليحدس و يخمن ، وذلك فى قوله :

فحبست فيها الركب أحدس فى كل الأمور ، وكنت ذا حدس

وقد أجاد ثعلبة بن عمرو العبدى فى وصف المصور ، ولم يشاركه أحد فى معناه وهو قوله :

فما أحدثت فيها العهود كأنما تلعّب بالسمان فيها الزخارف
أكب عليهـا كاتب بدواته يقيـــم يديه تارة و يخالف

رجا صنعه ما كان يصنع ساجيا ويرفع عينيه عن الصنع طارف

ومنهم من دلت تشبيهاته وصوره على بيئته وثقافته ، ومن هؤلاء النابغة فى قوله :

خلت سبيل أتى كان يحبسه ورفعته إلى السجفين فالنضد

وقول المرقش الأكبر :

إلا من العين ترعى بها كالفارسيين مشوا فى الكمم

وقول الحارث بن حلزة :

لمن الديار عفون بالحبس آياتها كمهارق الفرس

وقول حاتم الطائى :

أتعرف أطلالا ونؤيا مهدما كخطك فى رق كتابا منمنما

و بعد فحسب الشعراء قدرة وتفوقا أنهم حببوا إلينا الأطلال ، و إن تكن ظاهرة فراق ، وشغفونا بالآثار ، و إن تكن رمز جدب وقحط و إقفار ، وهذه عبقرية هى الغاية عند العباقرة والنابغين .



(ب) وصف الليل

١ — قال مهلهل بن ربيعة * :

أليلتنا بذى حُسَم أنيرى	إذا أنتِ انقضيتِ فلا تحُورِى (١)
فإن يكُ بالذّنائب طالَ ليلِى	فقد أبكِى من اللّيلِ القصيرِ (٢)
وَأنقذَنى بياضُ الصُّبح منها	لقد أُنقِذتُ من شرٍّ كبيرِ (٣)
كأنَّ كواكِبَ الجَوْزاء عُوذٌ	مُعطَّفةٌ عَلَى رَبْعٍ كسيرِ (٤)
كأنَّ الفَرْقَدَيْنِ يَدَا بَغِيضٍ	ألحَّ عَلَى إفاضَتِهِ قَيرِى (٥)
أرِقْتُ وَصاحِبِي بِجَنُوب شِعْبٍ	لِبَرْقٍ فى تِهامَةَ مُسْتطيرِ (٦)

٥٣٩ :

* ترجمة الشاعر : هو أبو ليلى عدى بن ربيعة بن الحارث بن زهير بن جشم بن بكر التغلبى شاعر نجدى مجيد ، قيل عنه إنه أول من قصد القصائد وهلهل الشعر ، وحسبه فخراً أن يكون امرؤ القيس وارث شاعريته ، وقابس عبقريته ، ولقب مهلهلا لقوله :

لما توعل فى الكراع هجينهم	هلهلت أثأر مالكا أو صنبلا

وحدثوا عنه أنه كان من أصبح أهل زمانه وجها ، وأفصحهم لسانا ، وأشدهم بأسا ، وقد لقبه أخوه كليب بزير النساء لأنه كان صاحب لهو ، كثير المحادثة للنساء ، وفى هذه القصيدة يقول :

ولو نشر المقابر عن كليب	لأخبر بالذنائب أى زير

توفى حوالى سنة ٥٠٠ م

التفسير اللغوى : (١) حسم : موضع بالبادية ، ويظهر أنه أقام به فى أحد أيامه . لا تحورى : لا ترجعى . (٢) الذنائب : موضع بنجد على يسار الطريق إلى مكة .

(٤) كواكب الجوزاء : أحد أبراج السماء ، واسم نجم يعترض فى جوز السماء ، والأول هو المراد . عوذ : جمع عائذ ، وهى الناقة يعوذ بها ولدها ، وكل أنثى إذا وضعت لمدة سبعة أيام لأن ولدها يعوذ بها . معطفة : منحنية مائلة . الربع : الفصيل ينتج فى الربيع ، وهوأول النتاج ، فإذا نتج فى آخره فهو هبع ، يقال : « مالهم ربع ولا هبع » . كسير : مكسور .

(٥) الفرقدان : نجمان قريبان من القطب الشمالى يهتدى بهما ، وأحدهما أقل نورا من الآخر . بغيض : مبغض . إفاضته : دفعه إلى اللعب . قيرى : مقامر .

(٦) أرقت : سهرت . الشعب : الطريق فى الجبل ، أو مسيل الماء ، أو الحى العظيم أو الناحية ، والأول هوالمراد . تهامة : أرض منخفضة ، وبلاد جنوبى الحجاز . مستطير : منتشر .

تحليل الأبيات :

أيتها الليلة الليلاء التى قدّر علىّ أن أقضيها بذى حسم ، لينحسر ظلامك ، وليذهب سوادك ، وليسفر صبحك ، ولينفلق وضحك ، فإذا مازلت من الأفق فلا تعودى مرة أخرى . لقد طال ليلى بالذنائب حيث قتل أخى ؛ إذ جافانى النوم ، ولازمنى السهاد ، وإن يسؤنى هذا فكم من ليال بكيت من قصرها ، وشكوت سرعة كرها ، وأنقذنى من بكائى عليها بياض صبحها ، وإشراق شمسها ، لقد أنقذت من شر كبير ، وأنجيت من ألم كثير .

أما ليلتى تلك فقد وقفت نجومها ، فكأن كواكب الجوزاء متجمعات متلبثات نياقٌ عائذات ، قد كسر ربعهن ، فهن لا يرمن دونه ، ولا يتحولن عنه ، أو كأن هذين النجمين المعروفين بالفرقدين يدا رجل مكروه ، مبغوض مقامر ، فهو يلح فى إفاضته ويبالغ فى دفعاته ، فيداه لا تفتئان تتحركان فى مكان بعينه .

لقد أرقت وصاحبى الذى يشاطرنى آلامى وأوصابى بجنوب ذلك الشعب ، لبرق لمع من أرض تهامة ، وهو منتشر الضوء ، متباعد اللمعان .

النقد :

كان قتل كليب المعين الذى فاضت منه شاعرية مهلهل ، والمنبع الذى انبثق منه شعره ، فهو أول من وصف الليل بالطول هذا الوصف الذى جرى عليه الشعراء من بعده ، ومعانيه وإن كانت مكررة إلا أنها بالنسبة إليه مبتكرة ، فهو يقول من قصيدة أخرى مايشبه أبياته فى هذه القصيدة :

وصار الليل مشتملا علينا … كأن الليل ليس له نهار

وبت أراقب الجوزاء حتى … تقارب من أوائلها انحدار

ويقول فى قصيدة أخرى :

بات ليلى بالأنعمين طويلا … أرقب النجم ساهراً لن يزولا

وهكذا فتح الطريق لمن جاء بعده من الشعراء ، وعلى رأسهم امرؤ القيس وارث شعره ومعانيه .

٢ — وقال امرؤ القيس* في وصف الليل :

وليلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ ... عَلَيَّ بأَنْوَاعِ الهُمومِ لِيَبْتَلِي (١)

فقلتُ له لمَّا تمطَّى بِصُلْبِهِ ... وَأَرْدَفَ أَعجازاً وَنَاءَ بكَلْكَلِ (٢)

أَلاأَيُّها اللَّيلُ الطَّوِيلُ أَلا انجلي ... بِصُبْحٍ وَماالإصباحُ منكَ بأَمْثَلِ (٣)

٥٤٣ : فيالكَ من ليلٍ كأَنَّ نجومَهُ ... بكلِّ مُغارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بيَذْبُلِ (٤)!



---

* ترجمة الشاعر : انظر الترجمة في وصف الفرس ص١٠٩ .

التفسير اللغوى : (١) وليل : ورب ليل طويل قضيته مسهداً . أرخى : أسبل وأسدل . سدوله : جمع سدل ستوره ، ليبتلى : ليختبر ويمتحن .

(٢) لما : حين . تمطى : تمدد . بصلبه : بظهره . وأردف أعجازا : وأطال مآخيره ، من قولهم أردف الراكب غيره أركبه وراءه على مطيته ، والأعجاز جمع عجز مؤخر الدابة . ناء بكلكل : تهيأ لينهض بصدره فيثقل مقدمه .

(٣) ألا : حرف تنبيه . انجل : انكشف . الإصباح : ظهور الصباح . بأمثل : بأفضل وأحسن .

(٤) يالك : أسلوب تعجبى ، فهو يتعجب من طوله وامتداد ساعاته . مغار الفتل : محكم الفتل موثق البرم . شدت : ربطت ربطاً محكما . بيذبل بذلك الجبل الراسخ من جبال نجد .

تحليل الأبيات :

يشكو امرؤ القيس من ليله الذى طال أمده ، فزاد فيه ألمه ، فيقول :

رب ليل كموج البحر المتلاطم أسدل علىّ ظلمته ، و سط فوق وحشته ، وأرسل إلى ألواناً من الهموم ، وأسدل على أنواعا من الأحزان ، ليختبر منتى ، و يمتحن قوتى ، و يتبين جلدى وصبرى ، فقلت له وقد رأى منى صبرا وعزما ، وقوة ومنة :

أيها الليل الطويل أتمنى عليك بعد أن عرفت عزيمتى أن ينفلق صبحك ، و ينكشف ضوءك ، وأن تزول غياهبك ، وتنهتك أستارك ، و إن يكن ذلك الصبح المأمول ليس بأوضح منك وجها ، ولا بأمثل منك حسنا ، فكلا كما مبعث هم ، ومصدر غم وكرب ، ولكنه التغيير قد يشعر ببعض الراحة .

ما أعجبك ليلا ثابتاً لايتزحزح ! راسخا لايتزعزع، حتى لكأن نجومه السائرات شدت إلى راس من الجبال بمغار الفتل من الأمراس والحبال ، فليس لها مسير و إن طال بها الأمد .

النقد .

امرؤ القيس أقدر من وصف الليل ، وهذه الأبيات أروع ما قاله فى وصفه ، ومبعث روعتها تصويره الليل فى نكره ووحشته ، وهوله ورهبته ، بأمواج البحر تطوى مايصادفها ، وكذلك مناجاته الليل مناجاة تنم عن الصبر مع اليأس ، وهذه قدرة لايؤتاها إلا امرؤ القيس « وما الإصباح منك بأمثل » وتصويره الليل بالجمل يتمطى بصلبه ، و يردف بأعجازه ، و ينوء بكلكله تصوير جميل لتشبيهه المعنوى بالحسى ، وتصوره النجوم قد ثبتت فى السماء لا تريم عن مكانها بأنها مشدودة بأمراس تصور مستمد من البيئة ، أخاذ ببراعته فى التصور والتصوير .

هذا ومن القدماء من عاب على الشاعر التضمين ، بتعليق معنى البيت الثانى بالبيت الثالث ، ولا نرى فى ذلك عيبا ، و إنما العيب أن نتكلف جمع معنى فى بيت لايتحمله .

٣ — وقال النابغة الذبيانى * فى وصف الليل أيضا :

كِلِينِي لِهَمٍّ يا أُمَيْمَةُ ناصبِ ... وَلَيلٍ أُقاسِيهِ بَطِيءِ الـكواكِبِ [١]

تطاوَلَ حتى قلت : ليس بِمُنْقَضٍ ... وليسَ الذى يرعى النُّجُومَ بآئِبِ [٢]

٥٤٦ : وَصدرٍ أراح الليـلُ عازبَ هَمِّه ... تضاعفَ فيه الحُزْنُ مِن كلِّ جانِبِ [٣]



---

* **ترجمة الشاعر** : انظر الترجمة فى ص ١٥٤ .

التفسير اللغوى : (١) كلينى : اتركينى ودعينى . أميمة : ابنته ، يصح فيها الفتح والضم ، والضم أحسن ، والفتح أشهر ، قال الخليل بن أحمد : من عادة العرب أن ترخم عندما تنادى المؤنث ، فلما لم يرخم « بسبب الوزن » أجرى الترخيم على لفظها ، فأتى بالفتح . ناصب : متعب منصب ، كقوله تعالى : « فى عيشة راضية » أى عيشة مرضية ، أولهم ذى نصب . أقاسيه : أكابده . بطىء الـكواكب : كناية عن صفة هى الطول والامتداد .

(٢) تطاول : امتد وطال . ليس بمقض : ليس بمنته . يرعى النجوم : قيل أراد النجم الذى يتقدم النجوم ، فهو منها بمنزلة الراعى لها ، ويؤيد هذا المعنى رواية : « وليس الذى يهدى النجوم بآئب » وإذا غاب الراعى ضل المرعى ، وقيل : أراد براعى النجوم يقصد نفسه ، وقيل : أراد به الصبح . بآئب : براجع .

(٣) وصدر : ورب صدر ، يقصد صدر نفسه . أراح : أعاد ورد من راحت الإبل إلى مناخها عشياً إذا ارتدت . العازب : النائى البعيد . تضاعف : تكاثر . من كل جانب : من جميع النواحى .

تحليل الأبيات :

دعيني يابنيتي لهمومي وأوصابي ، دعيني لهمٍّ ناصب ، واتركيني لليــل قد طال ، حتى أملّ ، وامتد إلى أن أثقل وأسأم ، فـكواكبه بطيئة المسير ، ونجومه كأنها لاتحول .

لقد استطال ذلك الليل لمـا نزل بى من الهموم والأوجاع ، حتى حسبت أنه لن ينتهى ، وظننت أنه مقيم لايريد أن ينقضى ، وأن الراعى الذى يرعى النجوم ويهديها سواء السبيل ، ويسوقها إلى غايتها من الأفق البعيد ، قد ذهب إلى غير أوبة ، وتركها دون أن ترجى له رجعة ، وإذن فستبقى تلك النجوم حيرى لاتعرف لها قراراً .

دعيني ياأميمتى لصدرقد أثقلته الهموم ، ورد له الليل ما استطار منها فى النهار ، فتضاعف حزنه ، وتكاثف شجنه .

النقد .

هذه الأبيات من أروع مانظمه فى وصف الليل شاعر ، وهوفيها تابع لامرئ القيس ، وإن اختلف القدماء فى تفضيل أيهما على الآخر ، فبالغ امرؤ القيس على غيرعهد الأدب به ، فسوى بين النهار والليل فى الهم ، فقال أنصاره : إن المبالغة هنا أجدى وأفضل ، وقصد النابغة على غير عهد الأدب به أيضا فى قوله :

وصدر أراح الليــل عازب همه تضاعف فيه الحزن من كل جانب

واقتدى به الشعراء إيمـاناً بجمال معناه ، فقال أحدهم :

أقضى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهمَّ بالليــل جامع

وقال أنصاره فى سبب تفضيله : « إنه جعل صدره مراحا للهموم ، وجعل الهموم كالنعم السارحة تسرح نهارا ، ثم تأتى إلى مكانها ليلا ، وهو أول من استثار هذا المعنى ، ووصف أن الهموم مترادفة بالليل لتقيد الألحاظ عما هى مطلقة فيه بالنهار ، واشتغالها بتقيد اللحظ عن استعمال الفكر » .

ومناجاته فتاته من آيات جماله ، فالبنت أشد شعوراً بمصاب أبيها ، وأوفرعاطفة نحوه ، يشجيها شجوه ، ويحزنها همه ، فهى منه قلبه وكبده .

(ح) وصف السحاب والبرق والغيث

١ — قال امرؤ القيس* يصف ديمة :

دِيمةٌ هطلاء فيهـــا وَطَفٌ ... طَبَقَ الأرضِ تَحرّى وتَدُرّ (١)

تُخرِجُ الوَدَّ إذا ما أشْجَذَتْ ... وتُوارِيهِ إذا ما تَشْتَكِر (٢)

وتَرَى الضَّبَّ خفيفاً ماهِراً ... ثانياً بُرْثُنَه ما يَنْعَفِر (٣)

وتَرَى الشَّجراء في رَيِّقِها ... كرؤوسٍ قُطِعَتْ فيها خُمُر (٤)

ساعـــةً ، ثم انتحاها وابِلٌ ... ساقِطُ الأكنافِ، واهٍ، مُنهمِر (٥)

راحَ تَمريهِ الصَّبا ، ثم انتحَى ... فيهِ شؤبُوبُ جَنُوبٍ مُنفَجِر (٦)

٥٥٣ : ثجّ حـــتّى ضاقَ عَنْ آذِيِّهِ ... عَرْضُ خيمٍ ، فَخُفافٌ ، فيُسُر (٧)

---

* ترجمة الشاعر : اقرأها في وصف الفرس ص ١٠٩

التفسير اللغوى : (١) الديمة : المطر يدوم فى سكون دون رعد ولا برق . الوطف : استرخاء السحابة ، وتدلى ذيولها ، ودنوها من الارض . تحرى : تتحرى المكان وتثبت فيه . تدر : تمتلىء .

(٢) الود : اسم جبل . أو هو الوتد فى لغة أهل نجد ، كأنهم سكنوا التاء فأدغموها فى الدال ، وكلا المعنيين ذكره اللسان . أشجذت : أقلعت وسكنت . تواريه : تخفيه . تشتكر : تهطل بالمطر ، وفى رواية تعتكر .

(٣) الضب : حيوان زاحف يشبه الجرذون ذنبـــه كثير العقد ؛ حتى ضرب به المثل ، فقيل : « أعقد من ذنب الضب » . البرثن : المخلب . ما ينعفر : لايصيبه العفر ، وهوالتراب .

(٤) الشجراء : الأرض ذات الشجر . ريقها : أولها . خمر : جمع خمار ، وهو للمرأة كالعمامة للرجل .

(٥) انتحاها : قصدها . وابل : مطر شديد يصدر عنه السيل . ساقط الأكناف : ثابت النواحى . واه : ضعيف يتشقق منه الماء ، وينخرق عنه المطر . منهمر : شديد الانصباب .

(٦) راح : سار عشياً . تمريه : تستدره . وأصله من مرى الضرع إذا مسحه ليدر ، الصبا : ريح باردة تهب من الشمال . شؤبوب : دفعة من مطر . الجنوب : ريح تهب من الجنوب .

(٧) ثج : سال وصب . آذيه : موجه . عرض: ناحية أو اتساع . خيم وخفاف ويسر : أسماء أمكنة قريبة من الدهناء ، أو فى بلاد بنى يربوع .

تحليل الأبيات :

هذه مطرة دائمة التسكاب ، ومزنة ماضية الانصباب ، غايتها ملء أطباق الأرض بدموعها الغزار ، فترى أوتاد الأخبية بادية ظاهرة عند ما تقلع عن السكب ، وخافية متوارية عند مايحتفل المطر ، ويشتد الغيث ؛ فهى تبدو إذا هدأت ، وتتوارى إذا غضبت ، وترى الضب ، وقد أبرزه المطر من جحره سابحا ماهراً ، خفيفا نشيطا ، يثنى برثنه ويبسطه ، كما يثنى السابح ذراعه ويمده ، فلا ينعفر بالتراب ، فقد أذهبه طول الانسكاب ، وترى الأرض ذات الأشجار ، وقد غطاها المطر أول دفعاته ، فليس يبدو منها إلا رءوس أشجارها ، فظهرت وقد علاها الزبد كرءوس انفصلت عن أعناقها ، وغطتها خمرها ، استمر هذا الغيث ساعة ، ثم اعتمدها وابل منهمر ، وسيل منحدر ، يعم نواحيها ، ويفعم أكنافها ، فالسحاب متشقق بالماء .

راح ذلك السحاب عشيا — وقد استدرته ريح الصبا ، ومراه بردها — راح يتكاثف ويتراكم ، ثم قصدته ريح الجنوب وافدة من بحر الهند مثقلة بالقطار ، فأضافت إليه دفعة أخرى ، فإذا هو ينصب انصبابا حتى ضاق عن آذيه المضطرب وموجه المصطخب عرض هذه الجهات مع اتساع آفاقها ، وامتداد أكنافها

النقد :

فى هذه الأبيات جمال تحدّث عنه القدماء ، فقالوا : «إن هذا أشعر ماجاء فى وصف الغيث» وسأل أبوعمرو بن العلاء ذا الرمة : أىّ الشعراء الذين وصفوا الغيث أشعر ؟ فقال امرؤ القيس وأنشد الأبيات .

ولكنهم تركوا حكمهم دون تعليل شأنهم فى جميع نقدهم ، ومواطن الجمال التى أجملوها هى تلك الصور المتعاقبة ، فالديمة مسترخية الذوائب ، والأوتاد عارية حينا ، ومغطاة حينا ، والضب سابح حاذق يثنى برثنه ويبسطه شأن السباح الماهر ، إذ يبسط ذراعيه ويثنيهما ، والأرض الشجراء غطيت ، فليس يبدو منها غير رءوس أغصانها يغطيها الزبد الأبيض ، كأنه الخمر ، وهى صور فيها الكثير من مظاهر البادية ، فيها وتد الخباء ، والضب ، والبرثن والخمر .

٢ — وقال الأعشى* فى معلقته يصف السحاب والمطر :

بلْ هلْ تَرى عارِضاً قدْ بتُّ أَرْمُقُهُ ... كأنما البَرْقُ فى حافاتِهِ شُعَلُ (١)

له رِدَافٌ وجَوْزٌ مُفْأَمٌ عَمِلٌ ... مُنطَّقٌ بِسِجَالِ الماءِ مُتَّصِلُ (٢)

لَمْ يُلْهِنى اللَّهْوُ عَنْهُ حِينَ أَرْقُبُهُ ... ولاَ اللَّذاذةُ مِنْ كأسٍ ولاَ شُغُلُ (٣)

فقُلتُ للشَّرْبِ فى دُرْنَا وَقَدْ ثَمِلُوا: ... شِيمُوا،وكيْفَ يَشِيمُ الشَّارِبُ الثَّمِلُ؟ (٤)

قالُوا : نُمارٌ فبطنُ الخالِ ، جَادَهُمَا ... فالعَسْجَدِيَّةُ ، فالأَبْلاءُ ، فالرِّجَلُ (٥)

فالسَّفْحُ يجرِى ، فخنزيرٌ ، فبُرْقَتُهُ ... حتَّى تَدافَعَ مِنْهُ الرَّبْوُ ، فالحُبَلُ (٦)

حتى تحمَّلَ مِنْهُ الماءُ تكْلفَةً ... رَوْضُ القَطا،فكَثيبُ الغَيْنَةِ السَّهِلُ (٧)

٥٦١ : يَسقِى دياراً لَهَا قد أصبحتْ غَرَضاً ... زُوراً تجانف عنها القَوْدُ والرَّسَلُ (٨)

---

* **ترجمة الشاعر** : هو ميمون بن قيس بن جنـدل بن بكر بن وائل أحد أعلام الشعر فى العصر الجاهلى وأقدر الوصافين للخمر ، وكان لشعره جرس جميل فغنى به ولقب بصناجة العرب ، أدرك الرسول الكريم ، وأراد الإسلام فخدعه عنه بالمال أبو سفيان فمات على غير دين سنة ٦٢٩ م .

التفسير اللغوى : (١) العارض : السحاب يعترض الأفق . أرمقه : أنظر إليه . حافاته : جمع حافة أطرافه . شعل : جمع شعلة قطع الشرر .

(٢) رداف : سحاب قد ردفه من خلفه . جوز : جوز كل شىء وسطه . المفأم : العظيم الواسع . عمل : دائم : منطق : قد أحاط به فصار بمنزلة المنطقة . سجال : جمع سجل وهو ملء الدلو ماء . (٣) لم يلهنى : لم يشغلنى . أرقبه : ألاحظه . اللذاذة . الاشهاء . من كأس : يعنى من خمر (٤) الشرب : جماعة الشاربين كالركب والسفر . درنا : أحد منافذ فارس ، وهى دون الحيرة ، وقيل : إنها باليمامة : ثملوا : انتشوا . شيموا : انظروا إلى البرق . (٥) نمار وبطن الخال : موضعان. جادهما : أمطرهما . العسجدية ، والأبلاء : موضعان . الرجل : مسايل الماء ، واحدها رجلة . (٦) السفح . منحدر الجبل . البرقة : الأرض الغليظة فيها حجارة ورمل وطين . الربو : ما نشز من الأرض ، وهو هنا اسم موضع . الحبل : موضع باليمامة . (٧) تحمل : احتمل . تكلفة : مشقة . روض القطا : اسم مكان ، قيل : إذا خرجت تريد البصرة فأول ما تطأ السفح ثم الخربة ، ثم قارات الحبل ، ثم بطن السلى ، ثم عيان ، ثم روض القطا ، ثم العرمة ، وهذه كلها من أرض اليمامة . الغينة . الأرض الشجراء ، وهى هنا اسم موضع . (٨) غرضا : هدفا . زوراً : ميلا . تجانف : تباعد . القود : الخيل . الرسل : الإبل .

تحليل الأبيات :

أيها الخليل : هل تبصر عيناك ذلك العارض الذى يمتد فى الأفق ، لقد ملك عيناى ، فما تحولان عنه ، وأخذ قلبي فما ينصرف دونه ، فكأنه إذ يتألق برقه ، فيلتمع نوره ثم ينطفئ شعلة تومض ثم يذهب وميضها ، وشرارة تلمع وما يلبث أن يختفى لمعانها .

لذلك السحاب العارض رداف متتابع ، وركام متكاثف ، ظلمات بعضها فوق بعض ، لافرق بين أطرافه وأجوازه ، فجميع أجزائه عظيم ، وكل أقسامه مديد ، فهو دائم السح والتسكاب ، قد اتخذ من امتلائه بالماء فى أطرافه ، واتصاله فى أنحائه منطقة يتنطق بها .

لم يشغلنى عن رقبته لهو أقطع به صبحى ومسائى ، ولا لذاذة كأس أغتبق بها وأصطبح ، ولا أعباء فوادح تصرف من يرزح تحتها عن كل شىء سواها ، فكل ذلك دونه عندى منزلة وتقديرا .

لقد دعوت ندمائى فى دربا بعد أن ملك الشراب عليهم حواسهم ، واستولت الراح على ألبابهم ، دعوتهم أن ينظروا إلى ذلك العارض العريض ، وأن يتأملوا هدا السحاب المديد، وأن يشيموا برقه ، ولكن أنى للثمل أن يشيم ؟ وكيف للنشوان أن يتأمل ؟ وكأنى بهم قد أفاقوا من سكرتهم حين رأوا برق ذلك العارض ؛ فقالوا : لقد أجرى السحاب غيثه على مواضع (نمار ، وبطن الخال ، والعسجدية ، والأبلاء ، والرجل) وهو ذلك يجرى بالسفح وخنزير وبرقة ، ولقد تجاوز الحد فتدافع الماء بالربو فالحبل ، وبلغ الغاية فى روض القطا وكثيب الغينة السهل .

إن هذا المطر يسقى دياراً فى هذه الأماكن قد أصبحت له هدفا ، ولمائه غرضا ، إنها أرض خشى المسير فيها الخيل والإبل ، والقود والرسل .

النقد

وصف الأعشى السحاب وصف البصير ، وصوّره تصوير القدير ، فى بيتيه الأولين ، فعرض لنا صورة لاينقصها تحبير ، ثم انصرف إلى بيان أثره فى محلته ، وإبراز فضله على قرى اليمامة ، فبالغ فى ذكر القرى ، وكأنه عالم جغرافى يرسم لتلاميذه مسير السحاب فى تلك البلاد ، فأجاد الشرح وأحسن التفصيل . ولولا مبالغته فى ذكر البلاد لكان قد بلغ غاية الإحسان .

٣ — وقال عبيد بن الأبرص* يصف السحاب .

إِنِّي أَرِقتُ ، وَلَمْ تَأْرَقْ مَعِي صاحِ ... لِمُسْتَكِفٍّ بُعَيْدَ النَّوْمِ لَوَّاحِ (١)

يا مَنْ لِبَرْقٍ أَبِيتُ اللَّيْلَ أَرْقُبُهُ ! ... فِي عارِضٍ كَمُضِيءِ الصُّبْحِ لَمَّاحِ (٢)

دَانٍ مُسِفٍّ فُوَيقَ الأَرْضِ هَيْدبُه ... يَكادُ يُمسِكُه مَنْ قامَ بالرَّاحِ (٣)

كَأَنَّ رَيِّقَهُ لَمَّا عَلاَ شُطَباً ... أَقرابُ أَبْلَقَ يَنْفِي الخَيْلَ رَمَّاحِ (٤)

٥٦٦ : فَمَنْ بِحَوزَتِهِ ، كَمَنْ بِعَقوته ... والمُسْتَكِنُّ كَمَن يَمْشِي بِقِرْوَاحِ (٥)

---

* ترجمة الشاعر : اقرأها فى وصف العقاب ص ١٨٩ وهذه الأبيات منسوبة أيضا لأوس بن حجر .

التفسير اللغوى : (١) أرقت : سهرت . صاح : مرخم صاحب . لمستكف : لسحاب مستدير كالكفة . بعيد : تصغير بعد . لواح : شديد الوميض واللوحان .

(٢) العارض : السحاب المعترض فى الأوق . كمضىء الصبح : كناية عن الشمس لماح : لماع .

(٣) دان : قريب . مسف : مارّ على وجه الأرض . هيدبه : خيوطه . بالراح : بالكف .

(٤) ريقه : أوله . لما علا : حين ارتفع . شطبا : جمع شطبة ، وهى الطريقة أو الخط فى متن السيف ونحوه . الأقراب : جمع قرب وهى الخاصرة . الأبلق : الأبيض فيه سواد. رماح : صاحب رمح ، وينفى الخيل كناية عن سبقة إياها ، وتفوقه عليها .

(٥) الحوزة : الناحية ، وحوزة المملكة مابين تخومها ، وفى رواية بنجوته . والنجوة المكان المرتفع . العقوة : الساحة ، وما حول الدار والمحلة ، وكلها تصلح لمعنى وجمع العقوة عقاء . المستكن الساكن المختبئ فى مسكنه . بقرواح : بأرض بارزة للشمس ، قال فى اللسان : « والقرواح يكون أرضاً عريضة نحو الدعوة ولا نبت فيه ولا شجر ، بل طين وسمالق . والقرواح أيضا : البارز الذى ليس يستره من السماء شىء ، وقيل هى الأرض البارزة للشمس» ثم أورد البيت .

تحليل الأبيات :

عرف عبيد بن الأبرص بالإجادة فى وصف الطبيعة بنوعيها : حيها وهامدها ، ومن الأدباء من ينسب القصيدة التى منها هذه الأبيات إلى أوس بن حجر ، ولكنها بشعر عبيد أشبه ، إذ أنه أورد معانيها تلك فى غير هذه القصيدة . كقوله :

ودنا يضىء ربابه غابا يضرمه حريقه

حتى إذا ما ذرعه بالماء ضاق فما يطيقه

هبت له من خلفه ريح يمانية تسوقه

فاستمع إليه يقول : إنى أرقت وصاحبى السهاد ، ولكنك لم تشاركنى أيها الصاحب فى سهادى ، ولم تقاسمنى أرقى لتنظر معى ذلك السحاب الملتف ، وتشيم ذلك البرق المضىء ، ما أجمل هذا البرق الذى يهتك حواشى الظلام ، فأنا لذلك أقضى ليلى ألحظه إذ يلمع فى سحاب يعترض وجه السماء ، فكأنه الشمس تبدو من الجانب الشرقى فتبدد أسداف الظلام .

لقد دنا دنوا شديدا ، وأسفّ إلى الأرض إسفافا عظيما ، فكأن مطره حيوط تتساقط على الأرض يوشك الإنسان أن يدفعه براحتيه ، ويزيحه بكفيه ، كأن أوله حينما ارتفع فى طرائق وخطط أصولٌ لأفخاذ فرس أبلق قد غلب سواده بياضه يتقدم خيولا أخرى ، وينفى عن طريقه القود الجياد ، من فوق صهوته الفارس الرماح .

النقد :

قلنا : إن عبيداً من أقدر وصافى الطبيعة ، وشعره على قلته يزخر بوصفها ، وهو يعتبر زعيم الوصاف الواقعيين . فتصويره دقيق صادق ، لا تكلف فيه ولا مبالغة ، وصوره واضحة بارزة « يكاد يلمسها من شاء بالراح » وبيته « دان مسف . . . » رائع التصوير صادق التعبير ، وقد كرر معنى قوله : « كأن ريقه لما علا .. » فى قصيدة أخرى فقال :

كأنما بين أعلاه وأسفله ريط منشرة أو ضوء مصباح

إلا أن هذا البيت أوفر معنى ، وأدق وصفا ، وأصفى أسلوبا .

وبعد فعبيد شاعر معجب بالطبيعة ، فأولته آياتها ، ومنحت شعره محاسنها .

فالناس جميعا فى خياله سواء ، لا فرق بين من يقيم فى حوزة أو بجوة ، ومن يلزم ساحة أو عقوة ، ومن يستكنّ فى قرار مكين ، ومن يسير فى أرض تسطع عليها أشعة الشمس ، فلا يحجبها عنها حجاب .

٤ — وقال حنظلة الطائى* فى وصف القمر :

ومهما يَكُنْ من رَيْبِ دهرٍ فإننى أرى قمرَ الليلِ المُعذَّبَ كالفتى (١)
يُهِلُّ صغيراً ، ثُمَّ يَعظُمُ ضَوْءهُ وصورتُه حتى إذا ماهو استوَى (٢)
وقرَّب يَخبُو ضوءه وشعاعُه ويَمْصحُ حتى يستسِرَّ فما يُرَى (٣)
٥٧٠ : كذلكَ زيدُ الأمرِ ، ثمَّ انتِقاصُه وتكراره فى إثره بعد مامضى

تحليل الأبيات :

مهما ينزل بى من أحداث الزمان ، وصروف الحدثان ، فإننى صابر له ، راض به ، لأنى أعلم أن هذه سنة الكون حياة وموت ، وبقاء وفناء ، حتى القمر يعذب كما يعذب الفتى ، ويهنأ كما يهنأ ، فتصيبه النعماء والبأساء ، و يلقى الهناء والشقاء ، أراه يهل صغيرا لايكاد يرى ، ثم يتعاظم ضوءه ، وتتكامل استدارته شيئا فشيئا ، حتى يستوى على عرشه بدرا منيرا ، ويتألق فى سمائه نوراً وضاء ، ولكنه مايلبث أن يعود إلى حاله الأولى ، فيأخذ ضوءه فى الخبو ، وشعاعه فى الانطفاء ، ونوره فى الامحاء ، حتى يغيب عن الوجود ليلة أو ليلتين ، كما تغيب الحياة عن الإنسان فلا يرى ، ويطويه مايطوى جميع الكائنات .

ذلك شأن المرء يرتفع ثم يهوى ، ويكمل ثم ينقص ، سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

النقد :

الأبيات تصوير دقيق لحال الخلائق فى هذا الوجود ، فكل كائن يعتوره ما يعتور القمر ، وينزل به ماينزل بالإنسان ، وفى الأبيات فلسفة غريبة عن العصر الجاهلى .

---

* **ترجمة الشاعر** : هو حنظلة بن أبى عفراء بن النعمان بن حبة بن سعبة الطائى ، ويروى عنه حديث مع النعمان وأنه كان السبب فى تنصر النعمان وقومه ، وقصته طويلة ذكرتها كتب الأدب ، وهى إلى الأساطير أقرب منها إلى الحقائق التاريخية ، ولم يبق من شعره إلا القليل الذى لايبل غليلا ، وكانت وفاته حوالى سنة ٥٩٠ م .

التفسير اللغوى : (١) ريب الدهر : صرفه وحدثه .

(٢) يهل : يظهر . استوى : تكامل . (٣) يخبو : ينطفئ . يمصح : ينمحى ، يقال : مصحت الدار امحى أثرها . استسر القمر : اختفى ليلة أو ليلتين ، وهو من السرار بفتح السين .

(د) وصف الصحراء والبرد والحر

١ — قال الأعشى* من معلقته يصف الصحراء .

وبلدةٍ مثلِ ظهرِ التّرس موحِشةٍ ... لِلْجنّ باللّيلِ فى حافاتها زَجَلُ[١]

لايتنمّى لها فى القيظ يركبُها ... إلا الذين لهم فيها أتوْا مَهَلُ[٢]

٥٧٣ : قطعتُها بطليحٍ جسْرةٍ سُرُحٍ ... فى مِرْفقيها إذا استعرضْتَها فَتَلُ[٣]

تحليل الأبيات .

رب صحراء مستوية ملساء تشبه فى استوائها وملوستها ظهر الترس ، موحشة مقفرة لا نبات فيها ولا ماء ، ولا إنسان ولا حيوان ، فما يسكنها إلا الجان ، يبدون فى الليل إذ يشمل السكون ، فيلعبون ويصخبون ، ويلهون ويصيحون ، فرحا بوطنهم الذى لا يشاركهم فيه أحد ؛ لايعتمد السير فيها إبان الهجير ، ولا يسمو إلى قطعها حين القيظ إلا القوم الغطاريف ، والسادة الأشراف الذين يقدمون على الهول ، ولا يعبثون بالخطر .

قطعت هذه البلدة جريئا مقداما بناقة قد أعياها المسير ، وأضناها الرحيل ، وهى مع هذا جسرة ماضية ، لاتهن ولا تنى ، سيرها هين لين ، إذا تأملتها وجدت فيها جمالا وحسنا ، فهى بعيدة مابين المرفقين ، منفرجة الجانبين .

النقد :

تشبيه الصحراء بالترس تشبيه جميل ؛ إذ أن الترس فوق استوائه فيه لمعان يشبهه لمعان السراب فى الصحراء ، واستعارة عزيف الجن بالليل بالزجل معنى رائع .

---

* **ترجمة الشاعر** : اقرأ ترجمته فى ص ٢٦٠ .

التفسير اللغوى : (١) الترس : صفحة من الفولاذ تحمل للوقاية من السيف ونحوه ، جمعه أتراس ، وتراس ، وتروس ، وترسة . حافاتها : جوانبها جمع حافة . زجل : الزجل : الصخب واللعب والضجيج والطرب .

(٢) لايتنمى : لا يعتمد ، ولا يسمو . المهل : بالتحريك التقدم وفلان ذو مهل ذو تقدم إلى ما فيه الخير والشرف .

(٣) الطليح : المعيا الذى أضناه السفر ، ويطلق على الذكر والمؤنث . الجسرة : الناقة الضخمة الطويلة القوية . سرح : لينة فى سيرها . الفتل : تباعد ما بين المرفقين عن الجنبين .

٢ — وقال سويد بن أبى كاهل* فى وصف الصحراء :

وفلاةٍ واضحٍ أقرابُهـــا ... باليات مثلُ مُرْفَتِّ القزع[١]

يسبحُ الآلُ على أعلامها ... وعلى البيدِ إذا اليومُ مَتَعْ[٢]

٥٧٦ : فركبْناها عَلَى مجهولِها ... بِصِلابِ الأرض فيهن شَجَع[٣]

تحليل الأبيات :

رب موماة مقفرة ، وَفَلَاةٍ موحشة ، قد وضحت أقرابها ، وظهرت جوانبها وأطرافها ، فطرقها باليات لكثرة السير فيها ، فهى لبلاها تشبه المرفت المحطم مما يبقى فى الجوانب من شعر الرأس ، يجرى الآل على جبالها ، ويسبح السراب فوق أعلامها ، ويلمع فى بيدانها ، عند ماترتفع أشعة الشمس ؛ وتنتشر فى الآفاق خيوطها البيض ، فركبنا هذه الصحراء على جهلنا مسالكها دون أن نخشى فيها ضلالا ، لحسبنا بها علما أقرابها وجوانبها الظاهرة الواضحة، ركبناها بخيل صلاب الحوافر ، متوفزة النشاط ، متوافرة المراح .

النقد :

الأبيات الثلاثة فيها حسن وروعة ، وتشبيه الحصى المحطم المكسر بالشعر المتجمع فى جوانب الرأس فيه عمق فكرة ، وإن لم يستو التشبيه كل الاستواء ، وملاحظته السراب فوق الأعلام ملاحظة الرجل البدوى الذى تخلبه مناظر البادية .

---

* ترجمة الشاعر : اقرأ ترجمته فى ص ١٥٩ .

التفسير اللغوى : (١) الفلاة : الصحراء الواسعة ، وتجمع على فلوات وفلا ، وفلى . أقرابها : خواصرها ، مفردهـا قرب بضم القاف وسكون الراء وضمها ، والمقصود هنا الجوانب والأطراف . باليات : رثات خلقات . مرفت : محطم . القزع : جمع قزعة بقايا الشعر فى الرأس .

(٢) الآل : السراب . الأعلام : الجبال مفردها علم . البيد : الصحارى المقفرة مفردها بيداء . متع اليوم : ارتفعت شمسه .

(٣) صلاب الأرض : كناية عن الخيل ذات الحوافر الصلبة . الشجع : جنون النشاط .

٣ — وقال المرقش الأكبر* يصف الصحراء أيضا :

ودوِّيَّةٍ غبْرَاء قد طال عهدُها   تهالَكُ فيها الوردُ والمرء ناعسُ(١)

قطعتُ إلى معروفِها مُنكراتِها   بِعَيْهامَةٍ تنسلُّ والليلُ دامسُ(٢)

تركتُ بها ليلاً طويلاً ومنزِلاً   وموقِدَ نارٍ لم تَرُمْهُ القوابسُ(٣)

٥٨٠ : وتسمعُ تزقاء من البوم حولنا   كما ضرَبَتْ بعد الهُدُوء النواقسُ(٤)



---

* ترجمة الشاعر : اقرأ ترجمته ص ٢٠٩ .

التفسير اللغوى : (١) الدوية : الصحراء . تهالك فى مشيه : تمايل . الورد : مكان الورود، وكنى به عن الإبل . ناعس : مخالطه النعاس .

(٢) معروفها : طرقها المعهودة . منكراتها . طرقها المجهولة . العيهامة : الناقة القوية . تنسل : تسير فى هدوء . دامس : مظلم شديد الظلمة .

(٣) تركت بها ليلا طويلا : قطعت بها . منزلا وموقدا : مكان نزول السفر وإيقاد ناره . لم ترمه : لم تقصده . القوابس : طالبو القبس ، والقبس شعلة من نار .

(٤) التزقاء : الصياح . الهدوء : من الليل منتصفه . النواقس : النواقيس والأجراس .

تحليل الأبيات :

وصحراء مقفرة قد اسودّ لونها لبعد عهدها بالنبات والماء تتهالك فيها الإبل ، وتتمايل في مسيرها من الأين ، وتأخُذُ السِّنة السائر فيها ، ويخالط النعاس عابرها لهموده وخمود نفسه ، قطعت مجهولها إلى معروفها ، ومنكراتها الغامضة إلى مسالكها الواضحة بناقة قوية جريئة ، تنسل في جنباتها انسلال الأرقم ، والليل دامس ، والظلام طامس .

تركت بهذه الدوية ليلا طويلا سهرته ، ومنزلا طيبا أقمته ، وأثافي نار لم يجرؤ على اقتباس النار منها القابسون ، وكنت تسمع في تسيارك تزقاء البوم وصياحه ، كأنه دق النواقيس بعد أن هدأ كل كائن ، وسكن كل متحرك .

النقد :

اتفق المرقش مع الأعشى وسويد في بعض المعاني ، وزاد عليهم معاني أُخر ، فوصفه الإبل بالتهالك ، والسفر بالنعاس معنى استقل به ، ووصفه الليل بالطول ، والمنزل الذي نزل به والموقد الذي أوقد فيه ناره معنى آخر لم يشارك فيه ، ووصفه زقاء البوم وتشبيهه إياه بضرب النواقيس معنى ثالث ؛ وإذن فإن المرقش كان أقدر على وصف الصحراء من زميليه ، ومعانيه أجمل من معانيهما ، وصوره أكمل من صورهما ، ولا بد أنك مشاركي في الرأي . فوق أن في أسلوبه جمالا ملحوظا ، يظهر في ذلك الطباق في قوله :

« قطعت إلى معروفها منكراتها »

٤ — وقال عمرو بن قميئة * يصف البرد :

ليسَ طُعْمِي طُعْمَ الأنامل إذ قلَّـ	ـص دَرُّ اللِّقاحِ في الصِّنَّبْرِ (١)
ورأيتَ الإماءَ كالجِعْثِنِ البا	لِي عُكُوفاً عَلَى قَرارةِ قِدْرِ (٢)
ورأيْتَ الدُّخانَ كالوَدعِ الأهْـ	ـجنِ يَنْباعُ من وراءِ السِّتْرِ (٣)
٥٨٤ : حاضرٌ شرُّكم، وخيرُكُمُ دَرْ	رُ خروسٍ من الأرانب بِكْرِ (٤)

---

* ترجمة الشاعر : هو عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعد بن مالك بن ضبيعة ، شاعر جاهلى عاصر امرأ القيس وصاحبه ، ودخل معه بلاد الروم ، وفيها هلك ، فلقب بعمرو الضائع، وهو الذى يقول عنه امرؤ القيس .

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه	وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبــك عينك إنما	نحاول ملكا او نموت فنعذرا

وقد توفى حوالى سنة ٥٣٠ م .

التفسير اللغوى : (١) الأنامل : هكذا وردت ، ولعلها الأرامل . الطعم : الطعام . قلص در اللقاح : ارتفع لبن الناقة الحلوب . الصنبر : البرد الشديد .

(٢) الإماء : جمع أمة الرقيقات . الجعثن : أصل الشجر الواحدة جعثنة . البالى : القديم . عكوفا : مستديرات حولها . القرارة : ما لزق بأسفل القدر من مرق أو حطام تابل محترق ، أو سمن أو غيره .

(٣) الودع : حرز أبيض مشقوق كشق النواة . الأهجن : الأبيض . ينباع : ينثنى ويتلوى.

(٤) الدر : اللبن . الخروس : النفساء ، والبكر أول ولادتها .

تحليل الأبيات :

ليس طعامى رديئاً دنيئا كطعام الأرامل عند مايقر البرد ، و يشتد الصنبر ، وتتقلص اللقاح ، و يرتفع اللبن من الضروع، وعند ماتبدو الإماء عظاما لالحم فيهن ، فكأنهن جذوع الأشجار انقطعت من أصولها ، فنضب ماؤها ؛ وجف أصلها ، تبدوأولئك الإماء مستديرات حول القدور يستخلصن ما لزق بها ، ولصق بقراراتها وحافاتها من حطام محترق ، أو تابل ملتصق ، وعند ماترى الدخان أبيض قد زال أثر وقوده فكأنه ودع الأصداف يتثنى وراء الأستار .

إنكم قوم شركم حاضر ، وخيركم ذاهب ، مثلكم فى نضوب خيركم ، وجفاف مائكم كمثل لبن الأرنب النفساء البكر لما يدر لبنها ، و يمتلىء ضرعها .

النقد :

الأبيات فى الفخر بالكرم ، وهجاء أعدائه ووصفهم بالبخل ، ولكنه انحرف إلى وصف البرد وأثره فى الكائنات فأحسن الوصف وأجاد التصوير . ولا سيما فى وصف استدارة الإماء حول القدر ، فهو تصوير واقعى دقيق ، وتصويره الدخان بالودع الأبيض يتثنى و يتلوى تصوير جميل .



٥ — وقال النابغة الذبيانى * يصف الفرات :

فَمَا الفراتُ إذا هبَّ الرِّياحُ له ترمِى أواذيُّه العِبْرَينِ بالزَّبَدِ (١)

يُمِدُّهُ كُلُّ وادٍ مُترَعٍ لِجَبٍ فيه رُكامٌ مِنَ اليَنْبُوتِ والخَضَدِ (٢)

يظلُّ مِنْ خوفِهِ الملاّحُ مُعتصِماً بالخيزُرانَةِ بعد الأَيْنِ والنَّجَدِ (٣)

٥٨٨ : يومًا بأجودَ مِنـــه سَيْبَ نافِلَةٍ ولاَ يَحُولُ عَطاءُ اليَوْمِ دُونَ غَدِ (٤)



---

* ترجمة الشاعر : انظر ترجمته فى وصف الأوابد ص ١٥٤

التفسير اللغوى (١) الأوادى . الأمواج المفرد آذى . العبران : الشاطئان . الزبد : رغاوى الماء .

(٢) يمده : يزيد فى مائه . المترع : الممتلئ . اللجب : ذى الصوت : الركام : الحطام المتكاثف المتراكم . الينبوت : شجر الخشخاش واحدته ينبوتة . الخضد : ما خضد وتكسر .

(٣) يظل : يستمر طول يومه . الملاح : صاحب السفينة . معتصما : ممتنعاً . الخيزرانة . السكان ، وهو دفة السفينة ، ويروى الخيسفوجة ، وهو الشراع . الأين : التعب والإعياء . النجد : العرق والكرب .

(٤) بأجود منه : بأكثر منـــه عطاء . السيب : العطاء . النافلة : الزيادة . لايحول : لا يمنع .

تحليل الأبيات :

ليس نهر الفرات ، وقد هبت عليه الرياح العواصف ، فثارت أمواجه ، وترامى آذيه على شاطئه بالزبد ، تمده الوديان المترعة ، اللجبة بالماء الغزير ، يتناثر فيه الحطام ، ويتجمع من الينبوت والخضد الركام ، فيخشاه الملاح ، ويخافه النوتى ، فيتقيه بسكان سفينه ، ويعتصم منه بدفة مركبه بعد أن بلغ منه الأين والإعياء كل مبلغ ، ونال منه الكرب والشدة كل منال ، ليس الفرات وتلك حاله ، وهذا وصفه عند مايفيض فيروى ، ويطمو فيغنى ، بأجود منك يدا ، ولا بأكثر منك مدا ؛ إذ الفرات لايفيض فى كل آن ، وفيضك لايحد بزمان .

النقد :

جاء وصف الفرات عرضا حين أراد النابغة أن يصف النعمان بالكرم والسخاء ، فصور فيضان الفرات حينما تهب عليه الريح ، وتتلاطم الأمواج ، ويصطخب الآذى ، وصوّر مده ، وما يحمله معه من حطام وركام ، كل ذلك فى أسلوب قوى قوة الماء حين يثور ، والنهر عند مايفيض ، وقد اصطفى الألفاظ التى لاينوب عنها غيرهافى معانيها . فالآذى ، والعبرين ، والزبد واللجب ، والركام والينبوت كلها ألفاظ تشعرك بالروعة والقوة ، وبالغ كما كان ذلك شأنه ، فلم نشعر إلا أنه صادق فيما روى ، وهذا خير ما يرجى من شاعر .

وصف الآثار الإنسانية

(ا) وصف السفينة

١ — قال طرفة* فى وصف السفينة من معلقته :

كأنَّ حُدُوجَ المالكيَّةِ غدْوةً   خلايا سَفِينٍ بالنَّواصِفِ مِنْ دَدِ (١)

عَدُولِيَّةٍ أوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنٍ   يَجورُ بهَا المَلَّاحُ طَوراً ويَهْتَدِي (٢)

٥٩١: يَشُقُّ حَبابَ المَاءِ حَيزُومُهَا بِهَا   كمَا قسَمَ التُّرْبَ المُفَايِلُ بِاليَدِ (٣)

---

* ترجمة الشاعر : اقرأ الترجمة فى صفحة ٦١ .

التفسير اللغوى : (١) حدوج : جمع حدج وهو المركب من مراكب النساء . غدوة : صبحا . خلايا : جمع خلية ، وهى قرارة السفينة ، من خلية النحل ، وهى موضع عسلها ، أو هى السفينة العظيمة ، أو السفينة التى تسير بدون ملاح . النواصف . جمع ناصفة : وهى الرحبة الواسعة تكون فى الوادى . دد : اسم موضع .

(٢) عدولية : وصف لموصوف محذوف هو سفينة ، وعدولية نسبة إلى عدولى إحدى جزائر البحر الفارسى ، وقيل إنها نسبة إلى قوم كانوا ينزلون بهجر . ابن يامن : ملاح من أهل هجر . يجور : يميل . يهتدى : يمضى للقصد .

(٣) حباب الماء : طرائقه وأمواجه . الحيزوم : الصدر كالقيدوم . المفايل : الذى يلعب لعبة الفيال ، وهى تراب أو رمل يكومونه ، ثم يخبئون فيه خبيئاً ، ثم يشق المفايل تلك الكومة بيده ، فيقسمها قسمين ، ثم يقول : فى أى الجانبين خبأت ، فإن أصاب ظفر ، وإن أخطأ قمر .

تحليل الأبيات :

كأن مراكب تلك الخليلة الحسيبة المنسوبة إلى بنى مالك — وهى تظعن صبحا فى عظمتها وضخامتها تقطع ذلك الوادى الواسع من دد — سفائن عظيمة ، كأنها سفينة عدولية أو من سفن ذلك الملاح الماهر ابن يامن ، فهى فى مسيرها تميل إلى الشاطئين حينا ، وتهتدى فى مسيرها ، فتستقيم ولا تنحرف يمنة ولا يسرة حينا .

هذا الملاح الماهر يشق بصدرها طرائق الماء ، ويقطع أمواجه، كما يقسم لاعب الفيال الرمل براحته .

النقد :

تشبيه هوادج النساء بالسفن تشبيه دقيق ، فللهوادج كما للسفن قرارات و بطون يجلس فيها السفْر، والهوادج فى امتدادها تشبه السفن فى تتابعها ، والوادى الواسع تسير فيه مراكب النساء أشبه ما يكون بالبحر ، وانصرف عن حدوج المالكية إلى وصف السفينة العدولية ، فقال : إن ملاحها يميل بها ويقصد على حسب الريح ، وهو حينما يقصد فى مشيه فيشق حيزومها الماء يشبه المفايل عند ما يقسم الرمل ، وقد قال القدماء إن هذا التشبيه من أروع ما تخيله شاعر .



٢— وقال عنترة* يصف الروضة من معلقته :

أَوْ رَوْضَةً أُنُفًا تضمَّنَ نبتَها غيثٌ قليلُ الدِّمنِ ليسَ بمُعْلَمِ (١)

جادَتْ عليه كلُّ بِكْرٍ حُرَّةٍ فتركْنَ كلَّ قرارةٍ كالدِّرهمِ (٢)

سَحًّا وتسكابًا فكلَّ عشيةٍ يجرى عليها الماءُ لم يتصرَّمِ (٣)

وخلا الذُّبابُ بها فليس ببارحٍ غرِدًا كفعلِ الشاربِ المترنِّمِ (٤)

٥٩٦: هزِجًا يحكُّ ذراعَهُ بذراعه قدْحَ المُكِبِّ على الزِّناد الأجذمِ (٥)



---

* ترجمة الشاعر : اقرأ الترجمة فى ص ١٢٢ .

التفسير اللغوى : (١) الروضة فى الأصل : المكان المطمئن يجتمع إليه الماء فيكثر نبته . الأنف : التام من كل شىء ، وقيل هو أول كل شىء ، وروضة أنف لم يرعها أحد . الدمن : جمع دمنة السرجين ، وقيل معناه قليل اللبث لم يدمن عليها . ليس بمعلم : ليس بمعروف .

(٢) جادت : سحت . البكر : من السحاب الذى لم يمطر . الحرة : الخالصة ، وقيل الكثيرة المطر ، وفى رواية عين ثرة ، والثرة : الكثيرة الماء . القرارة : الموضع المطمئن من الأرض يجتمع فيه السيل .

(٣) السح : الصب والانصباب ، والتسكاب : السكب . لم يتصرم : لم يتقطع .

(٤) غردا : مغردا . الشارب : السكران : المترنم : المتغنى .

(٥) هزجا : مصوتا تصويتا مسرعا . المكب : المقبل على الأمر . الأجذم : المقطوع اليد .

تحليل الأبيات :

وصف عنترة فى بيت يسبق هذه الأبيات رائحة ثغر عبلة بأنه :

٥٩٧: وكأن فارة تاجـــــر بقسيمة سبقت عوارضها إليك من الفم

أو أن رائحته كرائحة روضة تامة النبات ، موفورة الأزهار ، تسقى سقيا خفيفا ، فلا يضر الماء الدائم نباتها ، ولا ينال من جمالها ، ولا يقطف الزوار الكثيرون أزهارها ، فعبيرها محبوس عليها ، وزهرها يفوح فى جنباتها .

جادت على هذا الموضع سحب بكر كثيرة الغيث ، سخية بالماء ، فتركت تلك السحب المطمئن من أرض ذلك المكان مفعما بالماء ، فإذا به فى استدارته ولمعانه كالدرهم ، وكأنى بالشاعر رجع يصف الروضة قبل أن ينجم نباتها ، فوصف الموضع بأن الماء فاض عليه ؛ حتى اشتعلت أرضه نباتا .

ينصبّ المطر عليه انصبابا ، وينسكب الغيث فى جميع نواحيه انسكابا ، ففى كل العشايا يفد عليه المزن ، فيجرى بين جنباته ، ويفيض على حواشيه وطرقاته ، فيهب لنبته النمو والزكاة .

وحينما نضرت أزهاره ، وينعت أثماره خلا الذباب بتلك الروضة ، فهو يغرد فيها تغريدا مستمراً ، مثله فى تغريده وترنمه كمثل الشارب الثمل قد أفاضت عليه النشوةُ السرور والمرح ، فأخذ فى الغناء والتنغيم ، لا يقفه عن الغناء سبب ، ولا يمنعه من الترنم مانع .

ذلك الذباب يغنى غناء متتابعا ، ويغرد تغريداً مستمرا ؛ فهو يحك ذراعا بذراع ؛ ويقدح جناحا بجناح ؛ مثله فى قدحه كمثل رجل ناقص اليد يقدح النار من الزندين .

النقد :

هذه الأبيات فى وصف الروضة وذبابها من أروع مانظم شاعر جاهلى فوصفه قرارة الماء بالدراهم تصوير رائع جميل ؛ ووصفه الذباب فى تغريده تصوير رائع جميل كذلك ؛ ولقد حكم له زعماء الأدب القديم بأنه أجاد فى تصويره كل الإجادة . ولولا الفصل بين الموصوف والصفة فى البيت الأخير لكانت الأبيات آية الجمال

٣ — وقال الأعشى* يصف روضة من معلقته:

ماروضةٌ منْ رياضِ الحزن مُعشبةٌ خضراءُ جادَ عليها مُسبلٌ هطِلُ[1]

يُضاحكُ الشمسَ منها كوكبٌ شرِقٌ مُؤزَّرٌ بعميمِ النبتِ مُكتهلُ[2]

٦٠٠ : يوما بأطيبَ منهـا نشرَ رائحةٍ ولا بأحسنَ منها إذ دنا الأُصُلُ[3]

تحليل الأبيات :

ضمن الأعشى غزله وصف الروضة فعبره عبرا كما فعل عنترة قبله ، فإنه ليصف محبوبته هريرة بطيب النشر ، فيقول :

٦٠١ : إذا تقوم يضوع المسك أصـورة والزنبق الورد من أردانها شمل

إذ يرى أن الروضة دونها نشرا ، وأقل منها عطرا ، فيقول :

ليست روضة متناف من رياض الحزن والربا قد أعشبت فنضرت ، واخضرت وأزهرت ، بما جاد عليها المطر الهطل ، والغيث المنسكب ، فزهرها المبتسم ، ونورها الريان المتفتح يضاحك الشمس وتضاحكه ، يبدو لها فى ثوب ضاف من النبت ، و إزار سابغ من الزرع . ليست روضة هـذا شأنها بأطيب من محبوبته نشراً ، ولا بأحسن منها ساعات الأصيل عطرا .

النقد :

الأعشى فى وصفه الروضة أكثر دقة من عنترة ، و يظهر أن حياته أكسبته معارف أوسع ، فعرف أن رياض الحزن أنضر من رياض الخفض ، وأن الزهر يفوح عبيره و يذكو أريجه فى ساعات الأصيل عنه فى غيرها من ساعات النهار لتباعد الشمس والفئ عنه ، كما أن تصوره الزهر يضاحك الشمس تصور يدل على حضارة ومدنية .

---

* **ترجمة الشاعر** : اقرأ الترجمة فى ص ٢٦٠ .

التفسير اللغوى . (١) الحزن : الأرض المرتفعة . وضدها الخفض . معشبة : منبتة . مسبل : منسكب . هطل : كثير الانسكاب .

(٢) الكوكب : نور الروضـة . الشرق : الريان : مؤزر : مؤتزر بالنبات . مكتهل : متكامل .

(٣) النشر: الرائحة الطيبة. دنا: قرب. الأصل· جمع أصيل، وهو من العصر إلى العشاء .

(ح) وصف الخمر وسقاتها وندمانها

١ — قال الأعشى * يصف المنادمة :

وأبيضَ مُختلطٍ بالكرا م لا يتغطّى لإنفادِها[١]
أتانى يُؤامرُنى فى الشمو لِ لَيْلاً ، فقلت لهُ : غادِها[٢]
فرُحنا نباكِرُ جِدَّ الصبو حِ قبلَ النفوسِ وحُسَّادِها[٣]
فقمنا ولمَّا يصحْ ديكُنا إلى جوْنةٍ عند حَدَّادِها[٤]
تنخَّلها من بِكارِ القطا فِ أُزَيرِقُ آمنُ أَكسادِها[٥]
فقلنا له : هذه هاتِها بأدماءَ فى حبلِ مُقتادِها[٦]
فقام ، فصبَّ لنا قهوةً تسكّننا بعد إرعادِها[٧]
٦٠٩: كُميتاً تكشَّفُ عنْ حمرةٍ إذا صرَّحتْ بعد إزبادها[٨]

---

* ترجمة الشاعر : اقرأ ترجمته فى ص ٢٦٠ .

التفسير اللغوى : (١) مختلط بالكرام: مصادق لهم. لايتغطى : لايتساكر. لإنفادها: لإنهائها.

(٢) يؤامرنى : يشاورنى . الشمول : الخمر الباردة . غادها : باكرها .

(٣) الصبوح : الخمر تشرب صبحاً ، وضدها الغبوق .

(٤) لما : لم . ديكنا . أى ديك الفجر الذى يؤذن بالصبح . الجونة : الخابية المطلية توضع فيها الخمر . حدادها : سمى الخمار حدادا لمنعه الخمر وحفظه إياها وإمساكه لها حتى يبذل له ثمنها الذى يرضيه ، وفى بعض الكتب جدادها بالجيم ، قال الأزهرى : هذا حاق التصحيف الذى يستحيي من مثله من ضعفت معرفته، فكيف بمن يدعى للعرفة الثاقبة ، وصوابه بالحاء .

(٥) تنخلها : تخيرها. بكار القطاف : مباكرة القطف والجنى . أزيرق : تصغير أزرق وهوصاحبها ، ويكنى به الرومى لأنه أزرق العينين ... أكسادها: بوارها .

(٦) بأدماء : بناقة يخالط بياضها سمرة . مقتادها : صاحب قيادها .

(٧) قهوة : خمرة. تسكننا : تهدئنا . إرعادها : يقصد إزبادها وفورانها .

(٨) كميتا : خمرة يغطى حمرتها سواد . صرحت : صفت . إزبادها : فورانها وانتشار الحبب فوقها .

فجالَ علينا بإبريقـــه ُمخضبُ كفٍ بفرصادِهَا(٩)
فرُحنَا تنعِّمنَا نشــوةٌ تخورُ بنا بعــدَ قُصَّادِهَا(١٠)
فقالَ: تزيدونني تسعــةً وليستْ بِعَدْلٍ لأندادِهَا(١١)
فقلتُ لِمُنْصِفِنا: أعطــهِ فلمَّا رأى حِرصَ شُهادِها(١٢)
أضاءَ مِظلّتَــه بالسرا جِ، والليل غامِرُ جُدَّادِها(١٣)
دَراهمُنا كلُّها جيِّــدٌ فلا تحبِسَنَّا بتَنقادِهــا(١٤)
٦١٦: فباتَتْ ركابٌ بأكوارها لدينَا، وخيــلٌ بألبادها(١٥)

---

(٩) فجال: فطاف. مخضب كف: مصبوغ الكف بخضاب الحناء. بفرصادها: بصبغها الأحمر، ويطلق على التوت الأحمر، وهو شديد التأثير فيما يمسه.

(١٠) تنعمنا: تبعث فينا الشعور بالنعماء. نشوة: أول السكر. تخور بنا: تذهب بقوانا.

(١١) تسعة: أي تسعة أباريق. بعدل: بمعادلة. لأندادها: لنظرائها.

(١٢) لمنصفنا: لساقينا وخادمنا.

(١٣) المظلة: الخيمة. غامر: مغط وشامل. الجداد: الأهداب.

(١٤) تحبسنا: تؤخرنا فى انتظار التنقاد: التنقاد النقد، وتبين الجوهر السليم من البهرج الزيف.

(١٥) ركاب: جمع ركب الإبل. الأكوار: جمع كور القطيع منها أو أداتها. الألباد: جمع لبد وهو الحلس تحت السرج.

تحليل الأبيات :

كان الأعشى زعيم المدمنين ، فلا غرو أن يكون للخمر زعيم الوصافين ، ولقد تأثره من جاء بعده من الشعراء فى جميع العصور : العصر الجاهلى والأموى والعباسى ، وأبياته هذه قصة شَرْب كاملة ، فهذا صديقه المشرق الوجه ، النبيل الأصل ، المصادق للكرام الذى لايتساكر حتى إذا نفدت الخمرة ، قد أقبل يشاوره فى الشراب ، ويؤامره على الراح ، أيعاقرها فى المساء أم يعاقرها فى الصباح ؟ فيشير عليه بأن يغاديها ، وحينئذ يذهبان لمباكرة الصبوح قبل أن يصحو النيام ، ويستيقظ العذال والحساد . قبل أن يصيح الديك مؤذنا بانفلاق الفجر وتنفس الصبح ، يذهبان إلى خابية مترعة يحفظها من الشرب راع أمين ، وخمار حريص ، فهو لا يقدمها إلا لمن يثق من وفائه ، ويطمئن إلى سرائه وثرائه ، ومن حقه أن يفعل هذا فقد تخير كرمها ، واصطفى قطفها رجل رومى خبير بصناعته ، فهو آمن كسادها ، مطمئن إلى سرعة نفادها .

فقلنا له : هات كئوسك ، وأترع أباريقك ، ثمنها تلك الناقة الأدماء يسوقها لك راعيها إذا لم ترض ثمنها دراهم جيادا ، فقام إلى جونته فصب لنا منها قهوة معتقة ، تهدئ النفوس الثائرة ، وتسكن الأجسام المرعدة ، صب لنا خمرة كميتا تبدو حمرتها عند ما تزول رغوتها ، ويتكشف صريحها عن زبدها ، وأخذ يجول علينا بإبريقه ، ويطوف بكئوسه فتى مخضب الكف ، مصبوغ الراحة ، كأنما قد خضبها بالفرصاد ، فصرنا ننعم بالنشوة ، ونهنأ بأول السكرة ، حتى خارت منا القوى ، وهمدت الأجسام بعد أن كثر فى طلبها القاصدون ، ولكن ذلك الصديق لم تكن قواه قد خارت ، ولا جسمه قد همد ، فقال : تزيدوننى تسعة أباريق وليست بمعادلة لمثيلاتها ، بل هى أعظم امتلاء ؛ وكأنه يخاطر ويراهن أنه أقدر الشرب على الشراب ، فراهناه على احتسائها . وقلت لساقينا : أعطه إياها ، وحين رأى حرص الشاهدين على هزيمته أضاء خيمته ، وأشعل سراجه ، فقد أقبل الليل شاملا السكون بظلامه ، مغطيا الدنيا بستاره ، فقلنا للخمار هاك دراهمك ، وكلها جيد ، فلا تحبسنا حتى تنقدها فما بها من زيف ، وما فيها من بهرج ، فباتت ركابنا من فوقها أكوارها ، وأمست خيولنا تعلوها ألبادها ، فقدشغلنا الشراب النهار ووهنا من الليل.

النقد :

هذه قصة شراب لا يستطيع ترتيب فصولها ، وتنسيق مناظرها إلا رجل عاقر الخمر ، وعشق الشراب ، فهو القدير على تأليف المناظر ، وتنظيم المشاهد ، فصديقه يؤامره فى الشمول ، فيشير عليه بأن يشربها صبوحا ، ويرسم لك بعدئذ يوما كاملا للمدمنين ، فيحسن رسمه ، ويجيد الحوار ، ويصور لك أحاديث النشاوى ، حينما تتحكم فيهم الراح :

فقال تزيدوننى تسعـــة ... وليست بعـــدل لأندادها
فقلت لمنصفنا : أعطـــه ... فلما رأى حرص شهادها
أضاء مظلتـــه بالسرا ... ج ، والليل غامر جدادها

لقد ذهبت السكرة ، وجاءت الفكرة ، فحسبه مااحتسى ، وكافيه ما استقى؛ والأبيات مفعمة بالمعانى ، مترعة بالصور ، زاخرة بالجمال ، جمال الأسلوب ، وجمال النغم ، وجمال القافية ، فأى صورة يستطيع أن يصورها فنان قدير أصدق من تصوير الأعشى الخمر إذ يحتسيها المحتسى فتخور قواه بعد أن يعلوها الزبد ، وذلك فى قوله :

فقام فصب لنـــا قهوة ... تسكننا بعـــد إرعادها
كميتا تكشف عن حمرة ... إذا صرحت بعد إزبادها

وأى جمال فى الطباق أوضح من « تسكننا بعد إرعادها » ؟

وأليس يروق القارئ ذلك الوزن الراقص الذى اختاره الشاعر لخمريته ؟ .

ولا غرو فناظمها هو صناجة العرب ، وزعيم المدمنين .

٢ — وقال عمرو بن كلثوم * فى مطلع معلقته:

ألا هُبِّى بصَحنكِ فاصبَحِينَا ولا تُبقى خمورَ الأندرينا[١]

مُشعشعةً كأنَّ الحُصَّ فيها إذا ما الماءُ خالطهاَ سخِينا[٢]

تجورُ بذِى اللُّبانةِ عن هواهُ إذا ماذاقها حتى يَلينا[٣]

٦٢٠ : ترَى اللَّحِزَ الشَّحيحَ إذا أُمِرَّت عليه لماله فيها مُهينا[٤]

---

* ترجمة الشاعر : هو أبو عباد عمرو بن كلثوم بن عمرو بن مالك بن عتاب التغلبى ، كان أبوه من سادات قومه ، فتزوج ليلى بنت مهلهل بن ربيعة ، فولدت له عمرا ، فهو شريف من ناحيتيه ، فشب عمرو مزهوًّا بنفسه ، مختالا بقومه ؛ حتى قيل إنه سادهم وسنه خمس عشرة سنة ، ولا يعرف الأدب له من الشعر غير هذه القصيدة إلا أبياتا قليلة ولكنه عد بها من فحول الشعراء توفى حوالى سنة ٥٧٠ م .

التفسير اللغوى : (١) هبى : استيقظى . بصحنك : بقدحك الكبير . اصبحينا : اسقينا الصبوح ، وهو شراب الصباح . الأندرين : قرية فى جنوبى حلب على مسيرة يوم للراكب .

(٢) مشعشعة : ممزوجة ، يقال شعشع الشراب إذا مزجه بالماء . الحص : نبت له زهر أحمر يميل إلى الصفرة يشبه الزعفران . سخينا : حال من الماء أى حارا ، وهناك من يرى أن سخينا فعل وفاعل بمعنى جدنا ، والأول أولى لوجهين الأول أن أندرين كانت للروم حينئذ ومن عادتهم أن يشربوا الخمر ممزوجة بالماء السخين ، والآخر أنهما فعلا وفاعلا تعيب الشعر بالسناد ، وهو اختلاف الحركة قبل الروى .

(٣) تجور : تميل . بذى اللبانة : بصاحب الحاجة . عن هواه : عن حاجته ولبانته .

(٤) اللحز : الضيق الصدر السيء الخلق . الشحيح : البخيل . أمرت : أديرت . مهينا : محتقرا .

تحليل الأبيات :

ألا استيقظى أيتها الساقية من غفوتك ، واصحى من سنتك ، فأديرى علينا الراح ، وطوفى بالصبوح ، ولا تدخرى من خمر أندرين كأسا ، ولا تبقى من قهوتها صحنا ، أديريها علينا مشعشعة ممزوجة ، فكأنها إذا ما مزجت بالماء السخين قد خلطت بالزعفران ، فهى حمراء صفراء ، هذه الخمر تنسى صاحب اللبانات لبانته ، وتصرف ذا المهامّ عن مهامه ، فهو ينصرف عند مايذوقها إليها ، ولا يفكر فيما سواها .

وهى القديرة على تغيير الشمائل ، وتبديل الطبائع ، فتجعل الرجل الضيق الصدر ، السيئ الخلق سمحا وديعا ، سهلا لينا ، وتصير من الرجل الـكز الشحيح ، الضنين البخيل ، سخيا كريما ، لا يبقى على مال ، فإذا أديرت عليه كئوسها أسرف فى إنفاق دراهمه ودنانيره ، ولم يقم لهـا وزنا ، ولا عرف لها صونا .

النقد :

عمرو بن كلثوم هو الشاعر الأوحد الذى افتتح معلقته بوصف الخمر ، وخالف بذلك سنة الشعراء فى عصره ، ولعله فيما صنع كان متأثرا بها ، مشغوفا بشرابها ، ومن الأدباء من يرى أن خلطا أصاب نظم القصيدة ، فقدم متأخرا ، وأخر متقدما ، ويزعم أن مفتتح القصيدة هو :

٦٢١ : قفى قبـــل التفرق ياظعينا نخبرك اليقين وتخبرينا

وأيا كان الأمر فقد وصف عمرو الخمر فى إيجاز وصفا بارعا فى بيته :

مشعشة كأن الحص فيها إذا ما المـاء خالطها سخينا

ووصف أثرها فى النفوس ، وفعلها فى الندامى وصفا لانهاية لجماله ، ولا غاية لحسن تصويره :

تجور بذى اللبانة عن هواه إذا ماذاقها حتى يلينا

ترى اللحز الشحيح إذا أمرت عليه لمـاله فيها مهينا

وقد كشف لنا عن بعض عادات أهل الروم فى معاقرتهم الخمر ، وأنهم لا يشربونها شمولا ، بل يشربونها حارة كما ذكر ذلك أبو العلاء فى رسالة الغفران .

٣ — وقال علقمة الفحل* يصف مجلس شراب:

قَدْ أشهدُ الشَّربَ فيهم مِزهرٌ رَنِمٌ	والقومَ تصرعُهم صهباءُ خُرطومُ (١)
كأسُ عزيزٍ من الأعنابِ عتَّقها	لبعضِ أحيانها حانيَّةٌ حوُمُ (٢)
تشفى الصُّداعَ ولا يؤذيكَ صالبُها	ولا يخالِطُها فى الرأسِ تدويمُ (٣)
عانيةٌ قرقفٌ لم تطَّلعْ سنــةً	يجنُّها مُدمجٌ بالطين مختومُ (٤)
ظلَّت ترقرقُ فى الناجودِ يصفقها	وليدُ أعجمَ بالـكَتانِ مفدومُ (٥)
كأنَّ إبريقهم ظبىٌ على شرَفٍ	مُفدَّمٌ بسبا الـكتانِ مرثومُ (٦)
أبيضُ أبرزَه للضِّحِ راقبهُ	مُقلدٌ قضُبَ الرَّيحان مفغومُ (٧)

٦٢٨:

---

* ترجمة الشاعر . انظر الترجمة فى ص ٩٨ .

التفسير اللغوى : (١) الشرب : جماعة الشاربين . المزهر الرنم : العود المترنم الصهباء : خمر من عصير العنب الأبيض . الخرطوم : أول ما ينزل منها صافية .

(٢) العزيز : الملك . عتقها : جعلها قديمة معتقة . حانية : قوم خمارون نسبوا إلى الحانة الواحد حانى . الحوم : الطائفون حولها من حام يحوم كدار يدور وزنا ومعنى .

(٣) الصداع . وجع الرأس ، ومثله الصالب . التدويم : الدوران .

(٤) العانية : المنسوبة إلى عانة ، وهى إحدى قرى الجزيرة . القرقف : الخمر ترعد الشارب. لم تطلع سنة : مكثت فى خابيتها سنة دون أن يكشف عنها. يجنها : يسترها . المدمج : الدن طين بالطين . مختوم . معلم عليه .

(٥) ترقرق : تضطرب وتهتز . الناجود : الباطية العظيمة . يصفقها : ينقلها من ناجود إلى ناجود . مفدوم : مغطى فمه عند السقى . وكان الأعاجم يغطون فم الساقى ، ومثلها مفدم .

(٦) شرف : مرتفع من الأرض . مفدم : مغطى فم الإبريق . بسبا الـكتان : بسبائب الـكتان ، فحذف جزءا من الـكلمة ، والسبائب الشقق . مرثوم : المـكسور أنفه .

(٧) أبرزه : أخرجه لتصيبه الريح . الضح : الشمس . راقبه : مراقبه وحافظه . مقلد : معلق . مفغوم : مسدود بالريحان .

تحليل الأبيات :

يفخر علقمة بالخمر ويزهو بشربها ، فيقول : إنه قد يشهد جماعة الندامى ومجلس الشراب والغناء ؛ إذ تصرع القوم الصهباء ، وتستولى على عقولهم الراح ، فتدار علينا كأس العزيز ، قد عصرت عقارها من الأعناب ، وعتقها خمارون ماهرون ، فهم يطوفون حولها ، كأنها معبودهم ، ويدورون على بواطيها ، كأنهم يقدسونها ، هذه الخمر المعتقة تشفى الصداع ، وتزيل الدوار ، وإن يكن شأن الخمر غير ذلك ، فتأثيرها لنفاستها غير تأثير سواها ، وكيف لا يكون ذلك أثرها ؟ وهى المنسوبة إلى عانة ، وهى إن أرعدت الجسم فإنها تزن الرأس ، فقد بقيت فى دنها سنة كاملة ، لم يفضّ ختامها ، ولا رفع غطاؤها ، فهى مدمجة بالطين ، تضطرب فى جونتها ، وتترقرق فى ناجودها ، ينقلها من باطية إلى أخرى فتى أعجمى ، ووليد رومى برع فى صناعة الخمر ؛ لأنه يسقى الملوك ، فهو يسقيهم مغطى الفم ، حتى لا يشاركهم فى استنشاق عبيرها ، وهو أدب تأدب به فى قصور الأمراء والملوك ، إبريق أولئك الشرب يشبه فى بياضه وصفائه وطوله وامتداده ظبيا مستشرفا من أعلى ، مغطى بشقق من الكتان ، وقد كسر أنف ذلك الظبي .

أبرز الوليد الإبريق الأبيض ليرى أشعة الشمس ، وتصيبه ريح الشمال ، وهو يراقبه ويحافظ عليه ، فله عنده الإكبار والإعزاز ، فهو كالمغطى بأغصان الريحان ، وذلك لطيب ريحه ، وأرج عبيره ، يفعم الأنوف برائحته العبقة .

النقد :

وصف علقمة الشرب وقد صرعتهم الصهباء فأحسن وصفهم ، كما أنه صوّر تعتيق الخمر فأحسن التصوير ، ونفى عن الخمر أبرز ما تعاب به وهو أنها تصدع الرأس ، وتذهب العقل ، ولكنه لم يوفق إلى دليل يقيمه على ذلك الأثر ، ثم إنه وصفها بأنها قرقف ، وهذه ترعد الجسم فوق أن اللفظ قبيح ثقيل ، ويظهر أن عانة كانت معروفة بالخمر فى العصر الجاهلى إلى جانب بابل .

٤ — وقال الأسود بن يعفر النهشلي* يصفها و يصف ساقيها وندمانها :

ولقدْ لهوتُ وللشباب لذاذةٌ ... بسُلافةٍ مُزِجتْ بماء غوادِي (١)

مِن خمرِ ذى نَطَفٍ أغنَّ مُنطَّقٍ ... وافَى بها لدراهمِ الإسجادِ (٢)

يسعَى بها ذو تومتينِ مُشمّرٌ ... قنأتْ أنامله منَ الفِرصادِ (٣)

والبيضُ تمشى كالبدورِ وكالدُّمى ... ونواعمٌ يمشين بالأرفادِ (٤)

والبيضُ يرمينَ القلوبَ كأنها ... أُدحىُّ بين صَريمةٍ وجمادِ (٥)

٦٣٤ : ينطقْنَ معروفا ، وهنَّ نواعمٌ ... بيضُ الوجوهِ رقيقةُ الأكبادِ (٦)

---

* ترجمة الشاعر : هوالأسود بن يعفر بن عبد الأسود بن جندل بن نهشل، أحد شعراء الجاهلية الفحول كان من ندماء النعمان بن المنذر ، قال عنه ابن سلام الجمحى : « كان يكثر التنقل فى العرب يجاورهم فيذم ويحمد . وله فى ذلك أشعار ، وله واحدة طويلة رائعة لاحقة بأول الشعر لو كان شفعها بمثلها قدمناه على أهل مرتبته ، وهو يريد القصيدة التى منها هذه الأبيات . توفى حوالى سنة ٦٠٠ م .

التفسير اللغوى : (١) اللذاذة : اللذة . السلافة : خالص الشراب وأوله . الغوادى : جمع غادية السحب تنشأغدوة .

(٢) النطف : الأقراط مفردها نطفة . الأغنّ : الذى يخرج صوته من خياشيمه . منطق : لابس المنطقة. وافى بها : أقبل بها . دراهم الإسجاد: دراهم الأكاسرة كانت عليهاصور يكفرون لها ويسجدون .

(٣) التومتان : اللؤلؤتان . قنأت أنامله : اشتدت حمرة أنامله فضربت إلى السواد . الفرصاد : صبغ أحمر أو هو التوت الأحمر .

(٤) البيض وصف لموصوف محذوف يقصد الغانيات . الدمى : جمع دمية التماثيل المصنوعة من الرخام ونحوه . الأرفاد : جمع رفد الأقداح العظيمة .

(٥) الأدحى : المكان تبيض فيه النعامة . الصريمة : القطعة من الرمل . الجماد : ما غلظ من الأرض وارتفع .

(٦) معروفا : قولا لينا . رقيقة الأكباد : كناية عن حسن الخلق ولين الجانب .

تحليل الأبيات :

يصف الشاعر نفسه بأنه من أهل اللهو والمجون ، فكم قد لها ومجن ، وللهو شهوة ، وللمجون لذة ، ومن أدوات لهوه سلافة ممزوجة بماء الغوادى، وشمول مشعشعة بابن السحاب يديرها فتى اتخذ من الحسن كساء ، ومن الجمال لباسا ، فأذناه مشنفتان بالنطف ، وصوته محلى بالغنة ، وخصره مزين بالمنطقة ، فهو يضم إلى جماله الطبيعى جميع أسباب الحسن والزينة ، أقبل هذا الفتى على جماعة أثرياء يدفعون ثمن الراح من دراهم الأكاسرة التى نقشت عليها صور آلهتهم ، وزينت برسم معبوداتهم .

يطوف ذلك الساقى على الندامى وقد زين بلؤلؤتين ثمينتين ، مشمرا عن ساعدين كأنهما صيغا من العاج أو سويا من البلور ، وكأن أنامله وقد صبغتها الخمر مخضبة بالفرصاد .

يدع الفتى دنه لتملأ منه الكؤوس قيان روائع يدرن كأنهن البدور جمالا ، والدمى قواما ، وفى أيديهن الأقداح المترعة ، والكؤوس المفعمة يدرنها على الشرب ، فيرمينهم بمحاجرهن ، ويصبنهم بعيونهن ، فيشققن قلوبهم ، فكأنها وقد نقبتها هذه النظرات أداحى نعام بين صريم وجماد ، فهن ينطقن كلاما لينا ، ويسقن حديثا عذبا ، فى نعومة ورقة ، إلى أنهن « بيض الوجوه رقيقة الأكباد » .

النقد :

أجاد الشاعر وصف الساقى والساقيات ، وأحسن تصوير مجلس الشراب ، وصوره تصويرا كامل الأجزاء ، تام العناصر ؛ حتى إنه ليحبب إلى أولى الزهد والعبادة أن يشهدوا ذلك المجلس الذى يظهر فيه ذلك الساقى ذو التومتين و :

والبيض تمشى كالبدور وكالدمى ونواعم يمشـــين بالأرفاد

والبيض يرمين القـــلوب كأنها أدحى بين صريمة وجماد

وأسلوب الشاعر رقيق عذب ، وكأنه اقتبس رقته من راحه ، وأخذ عذوبته من رحيقه ، لا بل من بيضه ونواعمه .

٥ — وقال عدى بن زيد * يصفها ويصف الساقية من قصيدة أولها :

بَكَرَ الْعاذِلُونَ فى وَضَحِ الصبْحِ يقولُونَ لِى أما تَسْتَفِيقُ ؟[١]
وَدَعَوْا بالصَّبوحِ يومًا ، فجاءتْ قَيْنَةٌ فى يمينها إبْرِيقُ[٢]
فدَّمته عَلَى عُقارٍ كعينِ الدِّيكِ صفَّى سُلافهَا الرَّاوُوقُ[٣]
مُرَّةٌ قبلَ مَزجِها ، فإذَا مَا مُزِجَتْ لذَّ طعمهَا مَنْ يَذُوقُ[٤]
وطفَا فوقهَا فقاقيعُ كاليَا قُوتِ حمرٌ ، يَزِينها التَّصْفيقُ[٥]
٦٤٠: ثُمَّ كان المِزاجُ ماءَ سحابٍ لاَ صَدًى آجِنٌ ولا مَطروقُ[٦]

---

* ترجمة الشاعر : هو عدى بن زيد بن حماد بن زيد بن أيوب « وأيوب هذا أول من سمى بهذا الاسم من العرب » شاعر تميمى فصيح ، عاش أجداده بالحيرة وكان أبوه زيد أحذق العرب فى الكتابة فتولاها لكسرى أنو شروان ، وتعلم عدى العربية والفارسية والكتابة بهما، وبعد أن شب صار مقدما عند النعمان الثالث، ونديما له ، ثم صار كاتبا فى ديوان كسرى أنو شروان ، ورحل إلى الشام فأقام بدمشق زمنا ، ثم عاد إلى كسرى ، وخرج من عند كسرى إلى الحيرة، فزوج هند بنت النعمان بن المنذر، فبقيت زوجة له حتى قتله النعمان، فترهبت فى دير عرف باسمها حتى ماتت ، وكان قتل النعمان لعدى حوالى سنة ٥٨٧ م .

التفسير اللغوى : (١) بكر: قاموا بكرة. العاذلون: اللائمون. تستفيق: تفيق من غيك .
(٢) الصبوح : الخمر تشرب فى الصباح . القينة : الجارية المغنية .
(٣) فدمته : صفته بالفدام ؛ وهو مصفاة أو نحوها توضع فوق الإناء ليصفى مافيه. العقار الخمر . السلاف : خالص الشراب وأوله . الراووق : المصفاة .
(٤) مزجها : خلطها بالماء . لذ طعمها : التذ بطعمها .
(٥) طفا فوقها : علا فوقها. التصفيق : نقل الشراب من إناء لآخر ليصفو .
(٦) صدى : متغير . آجن : راكد فاسد . مطروق : مباح للناس .

تحليل الأبيات :

بدأ عدى قصيدته بالغزل ، فذكر أن عاذليه بكروا يعذلونه على وجده ، ويلومونه على جواه ، ويدعونه إلى أن يستفيق من هواه ، وليس هؤلاء العاذلون من الحساد المبغضين ، ولكنهم من الندامى المحبين ، فما إن انتهوا من عذلهم إياه فى ابنة عبد الله حتى دعوا بالخمر ليصطبحوا ، فأقبلت ساقية فاتنة ، وقينة ساحرة فى يمينها الإبريق مترعا بالمدام ، ممتلئا بينت الحان ، فوقه فدامه على عقارٍ مصفى ، كعين الديك صفاء ولمعانا ، هى قبل أن نمزجها بابن السحاب مرة ، فلما مزجناها به راقنا ذوقها ، ولذنا طعمها ، راقنا جميعا ، ولذنا طرا ، لا فرق بين حديث الشراب ومدمنه ، وإذا هى بعد أن مزجناها تطفو فوقها الفقاعات كاللآلئ ، ويعلوها الحبب كالدرر ، هذه الفقاعات لها حمرة كحمرة الياقوت يزيد حسنها ، ويضاعف جمالها تنقلها بين الأكواب ، وتداولها فى الأباريق والكؤوس .

ثم كان مزاجها ماء صافيا مسكوبا من المزن ، ومصبوبا من السحاب ، لا راكدا ولا فاسدا ، فهو غير متغير اللون أو الرائحة أو الطعم ، وليس كذلك مطروقا لكل وارد ، ولا مباحا لكل قاصد ، فيعكره كثرة الواردين ، ويغيره تعدد القاصدين .

النقد :

عدى بن زيد أرق شعراء العصر الجاهلى ؛ لأنه عاش عيشة حضرية ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: « من بدا جفا » .

وعدى فى هذه القصيدة أرق من الشعراء العباسيين ، تبدو رقته فى أسلوبه ، وفى ألفاظه ، وتبدو الرقة فى كثرة تداول الحرف الذى اختاره قافية لقصيدته وهو القاف ، فانظر إلى هذا البيت :

فدمته على عقار كعين الديك صفى سلافها الراووق

وقد أخذ بعض معانيه كثير من شعراء الخمر كالأخطل وأبى نواس وشوقى ، وأخذهم إياها دليل إعجابهم بها .

نظرة فى وصف الخمر ومجالسها

كانت الخمر فى العصر الجاهلى من مظاهر السراء والثراء ومن دلائل المروءة والنبالة ، ومن أسباب العزة والفتوة ، فأقبل عليها كل من يريد أن يتسامع الناس عنه أنه سرى ثرى ، كريم نبيل ، ولم ينحرف عن معاقرتها إلا قلة ضئيلة رأت فيها غير مايراه الآخرون ، ولعل أولئك الذين انحرفوا عنها قد شاركوا الآخرين فى وصفها ، وأسهموا معهم فى نعتها .

وها قد عرضنا خمسة نماذج لوصفها ، وهى وإن تكن قليلة إلا أنها تشعرنا باحتفالهم لها ، واحتفائهم بها ، وجميعهم من ذوى المراكز الخطيرة فى الجزيرة العربية سواء كان خطرهم ذاك مؤثلا أو مستحدثا ، وقد تفرعت بينهم أساليب الوصف ، فهذا الأعشى يصور لنا مجلسا تبارى فيه الشرب ، فى حوار ممتع ، ونجوى رائعة . وفى تصوير بارع ، وتلوين دقيق ، من مثل قوله :

فقام فصب لنا قهــوة تسكننا بعد إرعادها
كميتا تكشف عن حمرة إذا صرحت بعـد إزبادها

وهذا عمرو بن كلثوم يتحدث عنها حديث الأشراف النبلاء ، فلا يصف أثرها فى الجسم ، أو فعلها فى الرأس ، وإنما يصف أثرها فى الأخلاق ، وفعلها فى الخلال ، فهى :

تجور بذى اللبانة عن هواه إذا ماذاقها حـتى يلينا
ترى اللحز الشحيح إذا أمرت عليه لمـاله فيها مهينا

أما علقمة الفحل فيصف مجلس الشراب تدار فيه الراح على نغمات المزهر الرنم ، « والقوم تصرعهم صهباء خرطوم » وينسب الكأس إلى أنها « كأس عزيز من الأعناب عتقها » ويصف الإبريق ويصوره تصويرا غير واضح فهو كالظبى المستشرف ، وقد وضحنا وجه الشبه فى التحليل على النحو الذى ارتضيناه ، وعلى أىّ فالخمر معتقة قد :

ظلت ترقرق فى الناجود يصفقها وليـد أعجم بالكتان مفدوم
كأن إبريقهم ظبى على شرف مفدم بسبا الكتان مرثوم

وإذا كان للناقد ما يأخذه على علقمة فهو صلابة لفظه ، وجزالة كلمه التى لا تلائم الخمر الرقيقة السلسة ، ونعتها بما لم يعهد فيها ؛ إذ لم يعرف إلا المدمنون — إن كانوا — أن الخمر تشفى الصداع ، « ولا يخالطها فى الرأس تدويم » .

أما الأسود بن يعفر فقد انصرف عن الحديث فى الخمر إلى الحديث عن سقاتها ، فأبدع فى وصفهم ، وأجاد فى تصويرهم ، فيقول :

والبيض تمشى كالبدور وكالدمى ... ونواعم يمشين بالأرفاد

والبيض يرمين القلوب كأنها ... أدحى بين صريمة وجماد

ينطقن معروفا وهن نواعم ... بيض الوجوه رقيقة الأكباد

أى تصوير للجمال أوضح من ذلك التصوير ؟

أما عدى بن زيد فقد وصف الخمر بالصفاء ، فالساقية قد صفت الخمر بالفدام فقال :

قدمته على عقار كعين الديك صفى سلافها الراووق

ولعل قائلا أن يقول : ما العقار وما السلاف ؟ فنقول : إن العقار غير السلاف فى المعنى الدقيق . فقد سميت الخمر عقارا لأنها عاقرت الدن ، أما السلاف فالخمر لأول عهدها ، وهنا تبدو دقة عدى فى استعمال الألفاظ . وكأنى بشوقى بك قد نظر إلى قول عدى :

وطفا فوقها فقاقيع كاليا ... قوت حمر يزينها التصفيق

فتدارك مافيه من نقص ؛ إذ قال :

حف كأسها الحبب ... فهى فضة ذهب

فالفقاقيع لا تكون كالياقوت ، وأحسب أن قوله « حمر » هذه حشو فالياقوت لا يكون إلا أحمر ، فأما صدى فى قوله : « لا صدى آجن ولا مطروق » : فلم نعثر لها على معنى صريح يلائم البيت ، فمعانى الصدى الصريح لا يؤدى المعنى المراد ، ففسرناها بتابعه ،

وعلى كل فعدى من زعماء وصف الخمر، وأسلوبه آية الرقة والسلاسة ، ولعل حياته فى فارس والحيرة والشام منحته من المعانى مالم يمنحه شاعر سواه .

(د) وصف الأسلحة

١ — قال أوس بن حجر* من قصيدة أولها :

صحا قلبُه عن سكرةٍ وتأمَّلا وكانَ بذكرى أمِّ عمرٍو مُوَكَّلا[١]

وإنّى امرُؤٌ أعددتُ للحربِ بعدَما رأيتُ لها نابًا منَ الشرِّ أعصلا[٢]

أصمَّ رُدَيْنيًّا كأنَّ كُعوبَه نوَى القَسْبِ عرّاصاً مُزَجًّا مُنصَّلا[٣]

عليهِ كمصباحِ العزيزِ يَشُبُّه لفِصْحٍ ويَحشُوه الذُّبالَ المُفتَّلا[٤]

وأملسَ حوليًّا كنِهْيٍ ، قرارُه أحسَّ بقاعٍ نفحَ ريحٍ فأجْفلا[٥]

٦٤٦ : كأنَّ قرونَ الشَّمسِ عِندَ ارْتفاعِها وقد صادفتْ طَلْعًا منَ النَّجْمِ أعزَلا[٦]

---

* ترجمة الشاعر : هو أوس بن حجر بن أسيد بن عمرو بن تميم ، كان شاعر مضر حتى أسقطه النابغة وزهير ، واستقرت له شاعرية تميم ، ومن النقاد من يقدم عليه عدى بن زيد ولسنا على رأيهم . توفى سنة ٦١٠ م .

التفسير اللغوى : (١) تأمل : تدبر . بذكرى : بتذكر . أم عمرو : خليلته . موكلا : مشغولا . (٢) أعددت : جهزت . أعصل : ملتويا معوجا .

(٣) أصم : صلداً متينا . ردينيا : منسوبا إلى ردينة المعروفة بتثقيف الرماح مع زوجها سمهر . القسب : التمر اليابس . عراصا . كثير اللمعان . مزجا : موضوعا له الزج . منصلا : مركبا له النصل . والزج : الحديدة فى أسفل الرمح ، والنصل الحديدة فى أعلاه .

(٤) العزيز : الملك . يشبه : يشعله . لفصح : بكسر الفاء من أعياد النصارى ، وبالفتح الصبح ، والأول هو المراد . الذبال : فتيل السراج . المفتل : المفتول فتلا محكما .

(٥) أملس حوليا : درعا ملساء قد مضى على نسجها حول ، والدرع تؤنث وتذكر النهى : الغدير . القرار : القعر . بقاع : بأرض سهلة مطمئنة . فأجفل : خاف وفزع .

(٦) قرون الشمس : أشعتها ، وقرن الشمس أول ما يبدو منها عند شروقها . الطلع المكان المشرف . النجم : النبات الصغير . أعزل : منفردا .

تردَّدَ فيــــه ضَوءها وشُعاعُها فأحْصِنْ وأزْيِنْ لامرئٍ إنْ تَسربَلاَ ! (٧)

وأبيضَ هِندياً كأنَّ غِــراره تلألُؤُ برقٍ فى حَــــبِيٍّ تكلَّلاَ (٨)

إذا سُلَّ مِن غِمدٍ تأكَّل أثْرُه عَلَى مِثل مِصحاةِ اللُّجَيْنِ تأكُّلاَ (٩)

كأنْ مَدَبَّ النَّمْلِ يَتَّبِـعُ الرُّبَا ومَدْرَجَ ذَرٍّ خافَ بَرْداً فأسْهلاَ (١٠)

عَلَى صَفْحتَيهِ مِنْ مُتونِ جَلاَئِهِ كَــفَى بالَّذِى أُبْلِى وأنْعتُ مُنْصُلاَ (١١)

وَمبضوعةٍ مِنْ رأسِ فَرْعٍ شظِيَّةٍ بِطَودٍ تَراه بالسَّـــحَابِ مُجلَّلاَ (١٢)

عَلَى ظَهرِ صَــفوانٍ كأنَّ مُتُونَه عُلِلْنَ بِدُهْنٍ يُزلِقُ المُتَــنزِّلاَ (١٣)

٦٥٤ : يُطِيفُ بِها رَاعٍ يُجَشِّمُ نَفْسَه لِيكْلأَ فِيها طرْفَهُ مُتأمِّــلا (١٤)

---

(٧) فأحصن : أفعل تعجب من حصن ، أى فما أحصنه . تسربل : لبس السربال .

(٨) غراره : حده . حبى . سحاب . تكلل : لبس الإكليل ، وهو شبه عصابة تزين بالجواهر .

(٩) تأكل : توهج واشتد لمعانه . أثره : فرنده وجوهره . المصحاة : إناء للشرب ، وفى رواية مسحاة ، وهى أداة تشبه المبرد ، ولعلها أنسب . اللجين : الفضة .

(١٠) مدب : مصدر ميمى ، دبيب . يتبع الربا : يقصد المرتفعات . مدرج : درج . الذر : صغار النمل أو هو الهباء المنتشر فى الهواء . فأسهل : فنزل من الجبل إلى السهل .

(١١) على صفحتيه : على جانبيه . متون : جمع متن ظهور . أنعت : حسن . المنصل : السيف .

(١٢) المبضوعة : المقطوعة ويعنى بها القوس . الشظية الفلقة من الغصن أو نحوه . الطود : الجبل . مجللا : ملتفا بالسحاب .

(١٣) الصفوان : الصخر الصلد . عللن : سقين مرة بعد مرة ، والعلل السقى للمرة الثانية ، وضده النهل . المتنزل : النازل ببطء وحذر .

(١٤) يطيف بها : يدور حولها . يجشم : يكلف . ليكلأ : ليردد . طرفه : عينه متأملا : متدبرا متمعنا .

فَلاَقى امرأً مِنْ مَيْدَعانَ وَأَسْمَحتْ قَرونَتُه باليَأسِ مِنْها وَعَجَّلاَ [١٥]

فقالَ له : هل تذكُرَنَّ مُخَبِّراً يَدُلُّ عَلَى غُنْمٍ ويَقْصُرُ مُعْجِلاً ؟ [١٦]

عَلَى خَيْرِ ما أبصرتَهَا مِنْ بِضاعَةٍ لِمُلْتَمِسٍ بَيْعاً لَها أَوْ تَبَكُّلاَ [١٧]

فُوَيقَ جُبَيْلٍ شامخ الرَّأس لم تَكُنْ لِتَبْلُغَه حتَّى تَكِلَّ وتَعمَلاَ [١٨]

فأبصرَ أَلْهابًا مِنَ الطَّوْدِ دُونَه يَرَى بَيْنَ رَأْسَىْ كُلِّ نِيقَينِ مِهْبَلاَ [١٩]

فأَشْرَطَ فيهَا نَفْسَه وهْوَ مُعصِمٌ وألْقَى بأسباب لَهُ وتوكَّلاَ [٢٠]

وقدْ أَكلتْ أظفارَه الصَّخْرُ، كُلَّما تعيَّا عليه طولُ مَرْقًى تَسهَّلاَ [٢١]

فما زالَ حتَّى نالها وهْوَ مُشْفِقٌ عَلَى موطِنٍ لَو زلَّ عنه تفصَّلاَ [٢٢]

٦٦٣ : فأقبلَ لايرجُو الَّذى صعدت به ولا نفسَه إلا رجاءً مُؤَمَّلاَ [٢٣]

---

(١٥) ميدعان : عين . أسمحت : سمحت . قرونته : نفسه ، اليأس : انقطاع الأمل .

(١٦) غنم : ربح . يقصر : يقصر ويعيا .

(١٧) لملتمس : لطالب . تبكلا : غنيمة .

(١٨) جبيل : تصغير جبل ، والتصغير للتعظيم . تكل : تتعب وتعيا . تعمل : تجهد ومتصب .

(١٩) الألهاب : جمع لهب وهو الصدع فى جانب الجبل . نيقين : تثنية نيق ، وهو المكان المرتفع . مهبلا : الهوة الذاهبة فى الأرض .

(٢٠) فأشرط : فأعد وألزم نفسه . معصم : ممسك . أسباب : وسائل . توكل : اعتمد على الله .

(٢١) تعيا : أعجزه . مرقى : رقى . تسهل : طلب السهل ، وفى رواية توصل .

(٢٢) مشفق : خائف . زل عنه : سقط عنه : تفصل : تقطع وتفرق جسمه .

(٢٣) لا يرجو : لاينتظر نفسه التى صعدت به . رجاء مؤملا : رجاء متمنى منتظرا .

فلمَّا قَضَى مِمَّـا يُرِيدُ قَضاءه ... وحلَّ بها حِرصاً عليها فأَطْوَلاَ[٢٤]

أمرَّ عليها ذاتَ حـدٍّ ، غُرابُها ... رقيقٌ بأخذٍ بالمداوسِ صَيْقلاَ[٢٥]

على فخذيْه من بُرايةِ عُودِها ... شبيهُ سفا البُهمَى إذَا مَا تَفَتَّلاَ[٢٦]

فجرَّدها صفراء ، لا الطولُ عابَها ... ولا قِصرٌ أزرَى بها فتعطَّلاَ[٢٧]

إذَا ما تعاطَوْها سَمِعتَ لِصوتِها ... إذَا أنبَضُوا عنهَا نَئِيماً وأزمَلا[٢٨]

وإن شدَّ فيها النَّزع أدبرَ سَهمُها ... إلَى مُنتهًى مِنْ مَجسِها ثم أقْبلاَ[٢٩]

وحَشْوِ جفيرٍ من فروعِ غَرائبٍ ... تنطَّعَ فيهـــا صانعٌ وتنبَّلاَ[٣٠]

٦٧١ : تُخيِّرْنَ أنضاءً ، ورُكِّبْنَ أنْصُلاً ... كجَمرِ الغَضَا في يوم ريحٍ تَزيَّلاَ[٣١]

---

(٢٤) حل بها : نزل بها . فأطول : فأطال المقام والحلول .

(٢٥) ذات حد : كناية عن السكين . غرابها : حدها . المداوس : جمع مدوس كمنبر آلة الصيقل يثقف بها القسى .

(٢٦) براية . بقايا البرى . السفا : من السنبل حسكه . البهمى : نبات يشبه الشعير . تفتل : التف بعضه على بعض .

(٢٧) فجردها : خلصها من قشرها . أزرى بها : عابها . فتعطل : فلا تعمل .

(٢٨) تعاطوها : تناولوها . أنبضوا عنها : حركوا وترها . نئيا : صوتا ؛ والنئيم صوت القوس والأسد والظبي . أزملا : رنينا .

(٢٩) أدبر : تحول . مجسها : مقبضها ومثله معجسها .

(٣٠) الجفير : الكنانة توضع فيها السهام . تنطع . تأنق ، ومثلها تنبل .

(٣١) أنضاء : جمع نضو هزالا ، ويقصد به السهم قبل أن يراش . الأنصل : جمع نصل، وهو الحد . الغضا : شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب ، وجمره يبقى زمنا طويلا لاينطفئ ، تزيل : تفرق وتوزع .

فلمَّا قضَى فى الصُّنْع ِ فيهنَّ فَهْمَه فلم يبقَ إلاَّ أن تُراشَ وتُصقَلاَ(٣٢)

كَساهُنَّ مِن ريشٍ يمانٍ ظَواهراً
سُخاما ، لُؤاماً ، لـيِّنَ الْمَسِّ ، أطْحَلاَ(٣٣)

٦٧٤ : فذاكَ عتادِى فى الحـــروبِ إذا التظَتْ
وأردفَ بأسٌ مِنْ خطوبٍ وأَعْجَلاَ(٣٤)



---

(٣٢) فهمه : حذقه ، وفى رواية همــه . تراش : يركب فيها الريش . تصقل : تجدد .

(٣٣) يمان : منسوب إلى اليمن . سخاما : ريشا ظاهرا . لؤاما : ريشا يلائم بعضه بعضا أطحل : أغبر يميل إلى السواد .

(٣٤) التظت : اشتعلت وتلظت . أردف : تبع . بأس : شدة .

تحليل الأبيات :

صحا القلب عن سكرته ، وأفاق الفؤاد من غوايته ، وكان من قبل مشغوفا بمحبو بته ، صحا ومن حقه أن يصحو ، فالعزة تنسي الإنسان ملاذه ، والمجد يصرف المرء عن هواه ، وهذه الحرب التى هى من أقوى أسباب العزة والمجد قد تكشفت ، فلنأخذ لها أهبتها ، ولنعد ليومها عتادها .

قد أعددت لها رمحاً صلباً ثقفته ردينة فأحسنت ثقافه ، فكعوبه كنوى التمر اليابس نعومة وملاسة ، ثم أزجته وأنصلته ، فبدا كأن عليه مصباح ملك يشعله فى يوم عيد ، فيحشوه الذبال المفتل ، والفتيل المحكم ؛ ليكون ضوءه أسطع ، ونوره ألمع .

وأعددت لها درعا ملساء نسجها ناسجها فى عام كامل ، فهى فى تماوج نسيجها ، وبريق قتيرها كالغدير تلعب بمائه الريح الهادئة ، ويداعبه النسيم العليل ، فيلمع موجه ، ويظهر فوقه دوائر بيض ، أو كأن لمعانها أشعة الشمس صادفت مستشرفا من نبت ناجم ، فضوءها يتردد عليه ، ونورها ينبسط فوقه ، فكأنه الثوب يتردى به ذلك النجم الأعزل ، فما أعظم حصانته ، وما أجمل زينته !

وأعددت لها سيفا مهندا ، وأبيض مرهفا كأن حده برق يتلألأ وسط سحاب مستدير ؛ إذا سل من غمده توهج فرنده ، وتأكل رونقه ، وصار فى توهجه ولمعانه كمسحاة من اللجين ، وكأن رونقه فى التماع صفحتيه دبيب نمال تصعد فى الربا يقابله درج هباء يسقطه إلى الأرض خشية البرد ، وكفى هذا الذى أبلى غمده ، وأحسن نعته منصلا !

وأعددت لها قوسا قد بضعت من فرع شجرة نبتت فى جبل جلل بالسحاب ، فوق ظهر صخر أصم ، كأنه قد نهل وعلّ من دهن يزل منه الحذِر ، ويزلق من مسيره على صخره البطىء ، فاكتسب من ذلك الصخر صلابته وملاسته ، يدور حول هذه الشجرة راع يكلف نفسه مالا يطيق ، ويجشمها مالا تستطيع ؛ ليمتع بمرآها طرفه ويردد فيها بصره ، وإذ هو يتأملها ، ويتمعن فيها لاقى امرأ من « ميدعان » وقد يئست نفسه من

الوصول إليها ، وعجلت عن بلوغها ، فقال له ذلك « الميدعانى » أتعرف من يخبر بالخير و يقصر منه ؛ و يأمر بالبر ولا يفعله ؟ إنه أنا ذلك المخبر الآمر ، إنها خير ما يبصر به المرء الذى لتمس بيعا أو يرجو ربحا ، إنها فوق جبل شامخ القمة ، مستطيل القنة ، ولن تبلغه حتى تتعب وتنصب ، وتعمل فتجهد ، فرأى شقًّا يستطيع أن ينفذ منه ، ومخرما قد يقدر أن يصعد فيه ، ولكنه يرى بين مرتفعين هوة قد يسقط منها فتودى به ، فألزم نفسه أن يبلغ قمته ممسكا بأسباب الحياة ، معتصما بالتوكل على الله ، لقد ناله فى مرقاه الضر ، فأكل أظفاره التى يتسلق بها الصخر ، فكلما أعياه المرقى ابتغى مرتقى أيسر ، فما زال يعالج أمره : حتى بلغه وهو خائف وجل من موطن لو زلت فيه قدمه لتفرقت أوصاله ، فلما قطع مبضوعته ، وقضى لبانته ، وحل بالقمة أطال المقام حرصا على نيل بغيته .

و بعدئذ أمرّ على الفرع شفرته ، وأرسل فوقه غراب سكينه ، يصقل به ما قد شق فى الوصول إليه ، و إنك لتجد فوق فخذيه براية غصنها ، ونفاية عودها تشبه شفا البهمى إذا التف بعضه على بعض .

فجردها قوسا صفراء لا يعيبها طول ، ولا يزرى بها قصر ، فهى معدة لحينها ، مؤدية أعظم ما يرجى منها ؛ إذا ما تناولها قواسوها ، وأنبضوا وترها سمعت لها صوتا حنونا ، ونئيما ورنينا ، وهى لينة صلبة متى شد النازع فيها السهم عاد إلى مقبضها ، ثم ما يلبث أن يتركه فيذهب بعيداً لقوة دفعها ، وصلابة عودها .

وأعددت كنانة محشوة بالسهام المصقولة من فروع أشجار غرائب فى صلابتها ، قد تأنق فيها صانعها ، وتمهل فى صقلها صاقلها ، فاختيرت ، ثم ركبت فيها النصال حمراً محددة كأنها جمر الغضا فى يوم ريح ، فتفرق فى اليمين والشمال ، ثم تطاير فى كل مكان .

فلما أتم صنعها ، وأولاها جميع فهمه وحذقه كساهن ريشا يمانيا سخاما ولؤاما ، لينا مُغبرا . ذلك عتادى عند تأجج الحرب ، وترادف البأس ، واشتداد الخطب .

النقد :

بلغ أوس بن حجر فى قصيدته تلك من وصف المعتاد عند العرب مالم يبلغه شاعر ، وجاء فى تصويرها وتحديد آثارها بمـا لم يجئ به كمىّ محارب ، فهو قد استقصى هذه الأسلحة لم يغادر منها سلاحا ، فهى : أصم رديني ، وأملس حولى ، وأبيض هندى ، ومبضوعة من رأس فرع ، وحشو جفير من فروع غرائب .

وقد منح كل سلاح من هذه الأسلحة عنايته ، فوصفه أدق وصف ، وصوره أروع تصوير ، وشبهها بمـا يلائمها أجمل تشبيه ، فـكان فارس الحلبة فى هذا الميدان ، وأنا معيد جميع أبياته لو أردت أن أعرض جميل صوره ، و بديع رسمه ، فأى صورة أروع من تصوير درعه وقد لمع قتيرها ، وتلألأت فى أشعة الشمس مساميرها ، فبدت مهتزة مضطربة كأنها غدير تهز ماءه نسائم رقاق ، أو كأنها قرون الشمس ساطعة مرتفعة فصادفها نبت ناجم ، فضوءها يسطع فيه ، وأشعتها تتردد فوقه ، ما أجمل هذا المنظر ! وما أزينه ! وما أقدر من رسمه وما أحسنه ! هل أقول لقد أوفيته حقه إذ عرضت صورته ؟ لا ، ولـكنى أكاد أوفيه ذلك إذا عرضت الأبيات التى تشتمل على الصورة لترى فيها الأجزاء واضحة القسمات ، بادية المحاسن ، مقسمة الظلال ، متلائمة الأجواء ، وها هى ذى :

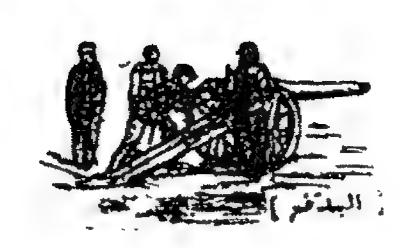
وأملس حوليا كنهى ، قراره	أحس بقاع نفح ريح فأجفـلا
كأن قرون الشمس عند ارتفاعها	وقد صادفت طلعا من النجم أعزلا
تردد فيه ضـــوءها وشعاعها	فأحصن وأزين لامرئ إن تسربلا!

ومع أنه وهب لـكل سلاح عنايته إلا أنه آثر القوس إيثارا عظيما ، ولعله كان ذا تأثير فى حياته أكثر من سائر عتاده ، فقد وصفها فى ثمانية عشر بيتا ، ذكر فيها منبتها الذى نبتت فيه ، و بضمت منه ، و باضعها الذى عرف أصلها ، فأطاف بها ، وصاحبه الذى شجعه على قطعها . . . وهكذا ما يزال يرسم خطواته ؛ حتى يصل إلى صوتها عند نزعها فيقول :

إذا ما تعاطوها سمعت لصوتها إذا أنبضوا عنها نئيما وأزملا
وإن شد فيها النزع أدبر سهمها إلى منتهى من عجسها ثم أقبلا

ولست مبالغا إن قلت إن الشعراء الكماة أخذوا جلّ معانيهم من ذلك الشاعر الذى لم يكن فارسا من الطراز الأول ، فقد كان يقع فى الأسر كثيراً ، ويفر من ذلك الأسر ، وكأنى به كان يحمس الفرسان والأبطال بوصف العتاد ، وتلك الطريقة إحدى طرق النصر ، فلو لم يكن له من أسبابه إلا وصف عتاده لكان قد أدى واجب قبيلته عليه ، فكيف وقد كان مشاركا فيه ؟

أوس بهذه الأبيات أقدر من وصف القوس ، ومنه اقتبس من وصفها بعده ، وعلى رأسهم الشماخ بن ضرار .



٢ — وقال الشماخ بن ضرار * يصف قوساً :

تَخَيَّرَها القَوَّاسُ مِنْ فَرْعِ ضَالَةٍ ... لَهَا شَذَبٌ مِنْ دُونِهَا وَحَزَائِزُ(١)

نَمَتْ فى مكانٍ كَنَّهَا فَاسْتَوَتْ بِهِ ... وَمَا دُونَهَا مِنْ غَيْلِهَا مُتَلاحِزُ(٢)

فَمَا زَالَ يَنْحُو كُلَّ رَطْبٍ وَيَابِسٍ ... وَيَنْغَلُ حَتَّى نَالَهَا وَهوَ بَارِزُ(٣)

فَأَنْحَى عَلَيها ذاتَ حَدٍّ ، غِرَابُهَا ... عَدُوٌّ لأَوْسَاطِ العِضَاهِ مُشَاوِزُ(٤)

فلمَّا اطْمَأَنَّتْ فى يديه رَأَى غِنًى ... أَحاطَ بِهِ ، وَازْوَرَّ عَمَّنْ يُحَاوِزُ(٥)

فَأَمْسَكَهَا عامَيْنِ يَطْلُبُ دَرْأَهَا ... وَيَنْظُرُ منها مَا الذى هوَ غَامِزُ ؟(٦)

أَقامَ الثِّقَافُ والطَّرِيدَةُ مَتْنَهَا ... كَمَا أَخْرَجَتْ ضِغْنَ الشَّمُوسِ المَهَامِزُ(٧)

٦٨٢ : فوافَى بها أَهلَ المواسمِ فَانْبَرَى ... لَهَا بَيِّعٌ يُغْلِى بها السَّوْمَ رَائِزُ(٨)

---

* ترجمة الشاعر : هو الشماخ بن ضرار التغلبى من ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، والشماخ لقبه واسمه معقل أدرك الإسلام ، وقال عنه الحطيئة : إنه أشعر غطفان ، ذكروا عنه أنه أوصف الناس للحمر الوحشية وللقوس ، وأرجز الشعراء على البديهة . توفى سنة ١٨ هـ .

التفسير اللغوى :(١) الضالة : شجرة السدر البرية . الشذب : العيدان المشذبة المقطوعة. الحزائز : لم نجد هذا الجمع فى القواميس ، وقد فسر فى الجمهرة بأنها أصول الشجر العظام ، ولعلها الجزائز . وهى جمع جزة . ومن شأن الصوف التفرق .

(٢) كنها : سترها . الغيل : الشجر الملتف . متلاحز : متضايق .

(٣) ينحو : يقصد . ينغل : يدخل تحت الشجر ليتخير أقواها جذرا . بارز : ظاهر .

(٤) فأنحى عليها : فاعتمد عليها . ذات حد : كناية عن موصوف هو الفأس أو السكين . غرابها : حدها . مشاوز : محارب .

(٥) اطمأنت : سكنت يعنى القوس . ازور : مال وصد . يحاوز : يخالط .

(٦) درأها : بسطها . الغامز : المكان المطمئن فيها ، يعنى الشق .

(٧) الثقاف : خشبة تقوم بها الرماح . الطريدة : القصبة التى يعرف بها اعتدالها . الشموس : الفرس الجموح . المهامز : جمع مهمز أو مهماز ، وهى حديدة فى مؤخر خف الرائض .

(٨) فوافى بها : جاء بها . انبرى : اعترض . بيع : مبتاع . السوم : البيع . رائز : مجرب .

فقال له : بايعْ أخاكَ ولاَ يكُنْ لكَ اليومَ عَنْ رِبْحٍ مِنَ البَيْعِ لاَهِزُ (٩)

فظلَّ يُناجِى نفسَـــــه وَأميرَها أَيأْبَى الّذى يُعطَى بهاأمْ يُجاوِزُ ؟ (١٠)

فلمَّا شَراها فاضتِ العينُ عَــبْرَةً وَفى الصَّدْرِ حَزَّازٌ منَ الوجْدِ حامِزُ (١١)

فَذاقَ ، فأَعْطَتْهُ مِنَ اللِّينِ جَانباً كَفَى ، وَلهاأَنْ يغْرقَ السَّهْمَ حَاجزُ (١٢)

إِذا أنبض الرَّامون فيها ترنَّمتْ ترنمَ ثَـكلَى أَوْجعتها الجنائزُ (١٣)

هَتوفٌ إِذا ما خالطَ الظَّبيَ سَهمُها وَ إِنْ رِيعَ منها أَسْلَمته النَّوَاقِزُ (١٤)

كأَنْ عليهاَ زعفراناً تَميرُه خَوازنُ عَطَّارٍ يمانٍ كَوانِزُ (١٥)

٦٩٠ : إذا سقطَ الأَنْداء صِينتْ وَأُشعِرَتْ حَبيرًا ، ولم تُدْرَجْ عليها المَعاوِزُ (١٦)

---

(٩) بايع أخاك : بعه . لاهز : الجبل ويقصد لايكن لك مانع أو صاد . :

(١٠) يناجي نفسه : يسارها . يجاوز : يقبل متجاوزا . أميرها : قلبه .

(١١) شراها : باعها . حزاز : حزن يحز فى قلبه . حامز : ممض محرق .

(١٢) فذاق : جربها . يغرق السهم : يضيع بإدباره.

(١٣) أنبض الرامون : حركوا الأوتار . ترنمت : تغنت . ثـكلى : فاقدة ولدها .

(١٤) هتوف : ذات صوت . ريع : أفزعه الرامى النواقز : قوائم الظبى الواثبة .

(١٥) الزعفران : صبغ أصفر . تميره : تحركه فتطلى به . خوازن : جمع خازنة ، وكوانز كذلك جمع كانزة .

(١٦) الأنداء : جمع ندى . صينت : حفظت . أشعرت : ألبست الشعار . حبيرا : بردا موشى . المعاوز : الأخلاق .

تحليل الأبيات :

تخير هذه القوس قوّاس عليم بجيادها ، بصير بأعوادها ، فاتخذها من فرع ضالة قد شذبت زوائدها ، وقطعت أطرافها ، فطالت وزكت ، ونمت فى مكان سترها عن العيون ، فاستوت دون أن تمتد إليها يد ، أو يمتص غذاءها جذر ، إذ تباعدت عنها الأشجار التى يمكن أن تسهم معها فى الغذاء ، فى حين أن غيرها قد التف بعضه على بعض ، فغذاؤه ضئيل ، وشرابه قليل .

ما زال هذا القواس يجس الأشجار ، ويتحسس نبعها : رطبها ويابسها ، صلبها ولينها ، وكلها لا ترضيه حينما يتبين جذرها ويتعرف أسها ؛ حتى نالها وهو ظاهر ، فقصدها بفأسه المرهفة الحد ، العدوّة لكل عضهة ، المحاربة لكل ضالة ، فلما سكنت فى يديه توسم غنى ، قد نزل به ، فصد عمن يخالطه .

وأمسكها عامين كاملين يقومها ويبسطها ، وينظر أثر الشق فيها ؛ حتى أقام الثقاف ميلها ، وسوّت الطريدة متنها ؛ مثل الثقاف والطريدة فى صقلها وتقويمها كمثل المهامز تخرج ضغن الفرس الشموس .

وأقبل القواس على الموسم مزهوّا بها ، فخورا بثقافها ، فاعترضه رجل يحسن المساومة ، فأدرك ما فيها من حسن ، فبايعه إياها ، وأغلى له فى ثمنها ، وأغراه الربح فهو يناجى نفسه ، ويؤامر قلبه ، أيأبى البيع أم يتجاوز عنها وقد ضمن الربح الكثير ؟

فباعها وعينه تفيض بالعبرات ، وقلبه يتقطع حسرات ، فاختبرها شاريها ، فأعطته الليان دون أن تضيع سهمه ، فلها من صلابتها عن إغراقه حاجز ، فإذا حرك الرامون وترها ترنمت كترنم الثكلى التى أكل قلبها الحزن ، تصوت صوتا حزينا عند مايخترق سهمها الظبى ، كأنها تواسيه وتناجيه ، وإن أجفل منها وفزع تحاول البعد عن سهمها لم تطاوعه النوافز .

كأن هذه القوس قد خضبت بالزعفران ، تحركه فيصيبها طلاؤه المخزون عند عطار ،

و يلحقها خضابه المكنوز عند يمانى ، إذا سقط الندى صينت منه ، وألبست شعارا من الحبير الموشى ولم تغط بالخلق من الثياب .

النفر :

قصد الشماخ إلى وصف القوس قصدا ، فلم يشرك معها سواها فى وصفه إياها كما فعل أوس بن حجر ، ولكنه مع هذا كان أقصر من سلفه نفسا ، وكانت معانيه أقل من معانى أوس بداعة وحسنا ، وذلك أنهما كليهما وصفا منبت قوسه ، فقال أوس :

ومبضوعة من رأس فرع شظية بطود تراه بالسحاب مجللا
على ظهر صفوان كأن متونه عللن بدهن يزلق المتنزلا
يطيف بها راع يجشم نفسه ليكلأ فيها طرفه متأملا

فقوسه من رأس فرع شظية بطود مجلل بالسحاب على ظهر صفوان ناعم أملس ، فالوصول إليها يجشم باغيها ، ويؤلم قاصدها ، وهى معان بالغة الروعة فى إعلاء شأن القوس ؛ أما الشماخ فقال :

تخيرها القواس من فرع ضالة لها شذب من دونها وحزائز
نمت فى مكان كنها فاستوت به وما دونها من غيلها متلاحز
فما زال ينحو كل رطب ويابس وينغل حتى نالها وهو بارز

فأين هذا من ذاك ؟ لقد كان عليه أن يستفيد من سلفه ، ولكنه قصر فحق عليه العتب ، وكلاهما وصف قطعها وتثقيفها، فبالغ أوس فى وصف شقاء قواسها وعلى قدر المشقة يكون الأجر ، فكان فضله على خلفه أكثر ، فعاود أبيات كل منهما لتحكم بما نحكم به

٣ — وقال راشد بن شهاب اليشكرى* يصف سلاحه :

فهلاَ أَبا الخنساء لاَ تَشْتُمَنَّنِى   فتَقرع بعْدَ اليَوْمِ سِنَّكَ مِنْ ندَمْ(١)

وَلاَ توعِدَنِّى إنَّنى إنْ تلاَقِنِى   مَعِى مَشرفِىٌّ فى مَضارِبِهِ قضَمْ(٢)

وَنبلٌ قِرانٌ كالسُّيورِ سَلاَجِمٌ   وَفَرْعٌ هَتوفٌ، لاسَقِىٌّ وَلانَشَمْ(٣)

ومُطَّرِدُ الـكَعبينِ أسمرُ عاتِرٌ   وَذاتُ قتيرٍ فى مَواصِلِهاَ وَرَمْ(٤)

مُضاعَفةٌ جَـــدلاء ، أوْ حُطَمِيَّةٌ   تُغشِّى بنَانَ المَرْءِ والـكفَّ وَالقدَمْ(٥)

٦٩٧ : لعاديةٍ من السِّلاحِ اشْتعرتُها   وكانَ بكُمْ فقرٌ إلى الغَدْرِ أوْ عَدَمْ(٦)

---

* ترجمة الشاعر : هو راشد بن شهاب بن عبدة بن عصم بن ربيعة اليشكرى ، شاعر جاهلى مقل ، لم نقع له على ترجمة واسعة ، وقصيدته هذه يخاطب بها قيس بن مسعود بن قيس ابن خالد الشيبانى .

التفسير اللغوى : (١) فهلا : فتريثا وانتظارا ، وفيها معنى الوعيد والتهديد . أبا الخنساء : يعنى قيس بن مسعود . تقرع سنك : كناية عن صفة هى الندم .

(٢) توعدنى : تتوعدنى وتتهددنى . المشرفى : السيف المنسوب إلى مشارف الشام . فى مضاربه : فى ظبته وحده . قضم : تكسر من كثرة ما أعملته .

(٣) القران : المتشابه . السلاجم : الطوال ، الواحد سلجم : فرع هتوف : كناية عن القوس المصوتة . السقى : ما شرب الماء من الأنهار . النشم : الشجر الخوار الضعيف .

(٤) المطرد : كناية عن الرمح المصقول الذى اطرد كعباه ، وزال أثرهما ، وقال الـكعبين لأن اطراد كعبين دليل اطراد الباقى : العاتر : الصلب . ذات قتير : كناية عن الدرع ، والقتير رءوس مسامير الدرع . مواصلها : ما يتصل بالحلق . الورم : الاستواء .

(٥) مضاعفة : منسوجة حلقتين . جدلاء : مجدولة محكمة الجدل . حطمية : منسوبة إلى حطمة بن محارب ، وكان صانع دروع ، أو حطمية لأنها تحطم السيوف . تغشى : تغطى ، كناية عن أنها سابغة .

(٦) العادية : المنسوبة إلى عاد ، كناية عن قدمها .

تحليل الأبيات :

توعد قيس بن مسعود الشيبانى شهابا اليشكرى ، فأنشأ القصيدة التى منها هذه الأبيات ينذره حربه ، ويتوعده بطشه ، ويصف له سلاحه ، ويستوهن روحه المعنوية ، فقال :

تريث ياأبا الخنساء ، فلا تشتمنى ، ولا تلغ فى عرضى ، فإنك إذا دأبت على شتمى ، واستمرأت أكل عرضى لم تلبث أن تقرع من الندم سنك ، وحذار أن تتهددنى ، فإنك حين تلقانى سترى فارسا يقهر الفرسان، قد استكمل أهبته ، وأتم عتاده وعدته .

إن معى سيفا مشرفيا ثلمته كثرة الضراب، ولكنه قاطع حاسم، ونبلا يشبه بعضه بعضا؛ لأنه معدّ لقوس واحدة تنزعها كف واحدة ، وهى طويلة لتنفذ إلى الأكباد ، وتصل إلى شغاف الفؤاد ، وقوسا ذات صوت حنون عند ما أنزع عنها سهمها ، صدقة النبع ، صلدة الغرب ، لم يرطبها أن سقيت من ماء الأنهار ، فنبعها لم يسق بغير ماء السماء ، فليس فيها ضعف ولا خوار ، ورمحا قد اطردت كعوبه ، واستوت عقده ، واسمر لونه ، لشدة صلابته . ولدى درع يلمع قتيرها ، وتبرق مساميرها ، قد استوت مواصلها ، وتضاعف نسجها ، وأحكم جدلها ، فهى من صناعة حطمة الذى وهب لها فنه ، ومنحها إحكامه ، فهى إذ يلبسها الفارس تغطى جميع أطرافه ، فتضفى عليه السلامة .

هذه أسلحة استعرتها من الزمن عند مارأيتكم تفتقرون إلى الغدر ، وتحتاجون إلى العدم .

النقد :

مع أن الشاعر أوجز فى وصف عتاده ، إلا أنه استطاع أن يصف كل قطعة منه وصفا دقيقا ، فجاء قديراً فى إيجازه ، قديراً فى دقة أوصافه ، فأى وصف أدق وأبلغ من قوله فى وصف الدرع ؟

مضاعفة جـــدلاء أو حطمية   تغشى بنان المرء والكف والقدم

لقد وصفها بالثخانة والإحكام ، ونسبها إلى صانعها ، وأنها سابغة لاتترك جزءا من صاحبها دون أن تغطيه ، وأو فى البيت بمعنى الواو ، وهذا سائغ شائع .

ثم أى جمال فى الوصف للرمح يبذ قوله : « ومطرد الكعبين أسمر عاتر » إنه وصفه فى هذا الشطر بثلاث صفات هى :جودة الثقاف ، والملاسة ، والصلابة .

٤ — وقال ثعلبة بن عمرو العبدى * يصف عتاده :

وَشوهاءَ لَمْ تُوشَمْ يَدَاها ولَمْ تُذَلْ فَقاظَتْ وَفيها بالوليدِ تَقاذُفُ(١)
وتُعطيكَ قبلَ السَّوطِ مِلْءَ عِنانِهاَ وَإِحْضَارَ ظَبيٍ أخطأَتْهُ المَجَادِفُ(٢)
بَلَلْتُ بها يومَ الصُّرَاخِ ، وبَعضُهُمْ يَخُبُّ بِهِ فى الحىِّ أورقُ شارِفُ(٣)
بِبيضاءَ مِثْلِ النِّهْىِ رِيحَ ، وَمَدَّهُ شآبيبُ غيثٍ يحفِشُ الأُكْمَ صائِفُ(٤)
ومُطَّرِدٍ يُرْضِيكَ عِنْدَ ذَوَاقِهِ وَيَمضِي وَلا ينآدُ فِيما يُصَادِفُ(٥)
وصفراءَ مِنْ نَبْعٍ ، سِلاحٌ أُعِدُّها وأبيضُ قصَّالُ الضَّرِيبَةِ جَائِفُ(٦)
٧٠٤ : عَتادَ امرِئٍ فى الحربِ لاواهنُ القُوى وَلا هوَ عمَّا يقدُرُ اللهُ صَارِفُ(٧)

---

* ترجمة الشاعر : انظر ترجمته فى ص ٢٤٥ .

التفسير اللغوى : (١) الشوهاء : القبيحة والجميلة ، فالكلمة تجمع فى معناها بين الضدين ، والآخر هو المراد . لم تذل : لم تهن. فقاظت : فأتى عليها القيظ . الوليد : العبد . التقاذف : التدافع .

(٢) ملء عنانها : عدوا ملء عنانها . الإحضار : العدو . المجادف : ما يجدف به ويرمى .

(٣) بللت بها : ملكتها وكانت فى قبضتى . يوم الصراخ : يوم الاستنجاد بى . يخب : يسير به خببا ، والخبب ضرب من العدو . والأورق : الرمادى ، والورق ألأم الإبل . الشارف : الهرم .

(٤) البيضاء : كناية عن الدرع . النهى : الغدير . ريح :أصابته ريح . الشآبيب : جمع شؤبوب دفعات المطر . يحفش : يقشر . الأكم : جمع أكمة : صائف : فى الصيف .

(٥) مطرد : كناية عن الرمح لاطراد كعوبه بالتثقيف . ذواقه : اختباره . ينآد : يعوج .

(٦) وصفراء : كناية عن القوس . النبع : شجر تتخذ منه القسى والسهام ، وهو ينبت فى أعالى الجبال . وأبيض : كناية عن السيف. قصال: قطاع . جائف : يبلغ الجوف .

(٧) عتاد امرئ : عدة رجل . واهن : ضعيف . يقدر : يقضى . صارف : منصرف .

تحليل الأبيات .

رب فرس حسناء ليس فيها ما يشينها ، فلم توشم يداها لداء أصابها فيهما ، ولم تضعف لمرض نزل بها، وهى – إذ يحل بها القيظ – النشيطة المرحة شأنها فى الشتاءتقذف بسائسها ، وتتلعب بالوليد .

تهب لك كل قوتها ، وتعطيك مايتسع له عنانها، فتعدو بك عدو الظبى أخطأه الرامى، ملكت عنانها يوم الاستنجاد بى ، و بعض الأبطال تسير بهم النياق الورق خببا ، وتسعى بهم الإبل الهرمة وئيدا .

ملكت عنانها فى كامل عتادى ، فقد تسربلت بدرع محكمة يلمع قتيرها ؛ كأنه النهى هبت عليه أرواح النسيم ، وأمدته دفعات المطر، فأزالت عن الأكم الرمل والتراب ، وكانت تلك الشآبيب فى يوم صائف .

وفى يدى رمح قد اطردت كمابه ، فهو يرضيك عند ماتجر به فى الطعان ؛ إذ يمضى إلى رميته دون انحناء أو انحراف ، ومعى قوس من نبع نبت فوق الربا ، فهو صدق عند النزع ، صلب لدى الرمى ، و إلى كل هذا العتاد سيف صقيل يفصل الضريبة ، و يبلغ جوف المضروب .

ذلك عتاد رجل ليس واهن القوة ، ولا ضعيف المنة ، وهو إلى هذا مؤمن بقدر الله ، عالم أنه لايصرفه صارف ، ولا يدفعه دافع .

النقد :

أوجز الشاعر فى وصفه إيجازاً بليغا ، و إن كان وصف العتاد ركنا من أركان الفخر ، والفخر يستأهل الإطناب والاحتفال ، إذ الغرض منه بعث الرهبة فى نفوس الأعداء ، والإشادة بالعزة والمجد والكبرياء .

على أن الشاعر مع هذا الإيجاز قد أودع أبياته بعض الصور كاملا رائعا، وذلك كقوله :
ببيضاء مثل النهى ريح ... ... ، وكقوله : ومطرد يرضيك ... ...

وترضينا منه تلك النزعة الحكيمة التى ختم بها أبياته ، و إن لم ترض أنداده من رجال الحرب والميدان ، « ولاهو عما يقدر الله صارف » إذ أولئك يحسبون أن الآجال فى ظبات سيوفهم، وأن الحياة طى بلائهم وجهادهم ، وما أبعدها دعوى لايقام لها فى غير الشعر ميزان !

نظرة فاحصة عن معانى الشعراء فى وصف السلاح

يكاد الشعراء يتفقون فى المعانى التى تناولوها فى وصف عتادهم ، ولهم فى ذلك عذر ، فعتادهم محدود ، وسلاحهم معدود ، لا يعدو السيف والرمح ، والقوس والدرع ، والسهم والنبل ، وحتى أصول هذا العتاد وأجزاؤه متشابهة بل متماثلة ، فهى لا تزيد على الحديد والشجر ، وصياقلتها ومثقفوها معروفون منسوبون ، وإذن فلا عليهم أن يتفقوا ، وللمبدع منهم حينئذ الفضل كل الفضل .

ولعلنى لم أتجاوز الحق حين حكمت لأوس بن حجر بالفضل ؛ لأنى حين حكمت له بهذا الحكم استعرضت كثيرا مما قاله الشعراء ممن لم أختر لهم ، لقصر نفسهم فحسب ، كما استعرضت ما اخترته وأثبته للشماخ بن ضرار ، ولراشد بن شهاب اليشكرى ، ولثعلبة ابن عمرو العبدى ، فمما تجاوزته لقصر نفس الشاعر قول الجميح بن الطماح ، وكان من الفرسان يصف نفسه :

فى كفِّهِ لَدْنَةٌ مُثَقَّفَةٌ   فيها سِنانٌ مُحَرَّبٌ لَحِمُ

* * *

مُدَّرِعًا رَيطةً مُضاعفةً   كالنِّهْىِ وَفى سَرَارهُ الرِّهَمُ

ولبشامة بن الغدير يحض قومه على الاستعداد للحرب :

وَحُشُّوا الحروبَ إذَا أُوقِدَتْ   رِمَاحًا طِوالاً وَخَيْلاً فُحُولاَ

وَمِنْ نسجِ دَاودَ مَوضونَةً   تَرَى لِلْقَوَاضِبِ فيها صَليلاَ

ولعبد قيس بن خفاف البرجمى :

فأصبحتُ أعددتُ لِلنَّائِبا   تِ عِرْضاً بَرِيئًا وَعَضْبًا صَقِيلاَ

وَوقْعَ لِسانٍ كحدِّ السِّنانِ   وَرُمْحًا طَوِيلَ القَنَاةِ عَسولاَ

وَسابغةً مِنْ جِيـادِ الدُّرو   عِ تسمعُ للسَّيفِ فِيها صَليلاَ

٧١٢ : كماءِ الغديرِ زَفَتهُ الدَّبُورُ   يجرُّ المُدَجَّجُ مِنها فُضُولاَ

ولربيعة بن مقروم الضبى :

وبالكفِّ زوراء حِرميّةٌ منَ القضْبِ تعقِبُ عزْفا نَئِيما

٧١٤ : وأعجفُ حَشْرٌ تَرَى بالرِّصا فِ مِمّا يُخَالِطُ مِنها عَصِيما

فنحن نرى أن المعانى التى تداولها من عرضنا بعض شعرهم هى المعانى التى تناولها من لم نعرض لهم ، ولا فرق بينهم إلا فى اعتماد بعضهم على الصور الشعرية دون بعض ، وفى هذا المجال يتفاضلون ، فأوس بن حجر يصف رمحه بقوله :

أصم ردينيا كأن كعوبه نوى القسب عراصا مزجا منصلا

عليه كمصباح العزيز يشبّه لفصح ويحشوه الذبال المفتلا

ويصفه الجميح بن الطماح فلا يزيد على أن يقول :

فى كفه لدنة مثقفة فيها سنان محرب لحم

ويصف الشماخ بن ضرار صوت قوسه فيقول :

إذا أنبض الرامون فيها ترنمت ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز

فى حين يقول ربيعة بن مقروم :

وبالكف زَوراء حِرْمِيّةٌ من القضب تعقب عزفا نئيما

ويصف ثعلبة بن عمرو الدرع ، فيقول :

ببيضاء مثل النهى ريح ومده شآبيب غيث يحفش الأكم صائف

ولا يبلغ عبد القيس بن خفاف غايته إذ يقول :

وسابغة من جياد الدرو ع تسمع للسيف فيها صليلا

كماء الغدير زفته الدبور يجر المدجج منها فضولا

وهو يشبه إلى حد كبير قول بشامة بن الغدير ، وقول بشامة أكثر معنى :

وحُشُّوا الحروب إذا أوقدت رماحا طوالا ، وخيلا فحولا

ومن نسج داود موضونة ترى للقواضب فيها صليلا

وبعد فلا أحسب إلا أن العرب لم تكن لهم بالآثار الإنسانية العناية العظيمة ، ودليلنا على هذا قلة ماقالوه فى نعت عتادهم مع أنهم شعب حرب وجلاد ، ولعل تقديرهم لآثار الخالق أصغرَ فى نظرهم آثار المخلوق ، وصرفهم عنها إلى ماملك أحاسيسهم ، وأسر مشاعرهم .

نظرة شاملة فى معانى الشعراء

فى وصف الطبيعة الساكنة

موضوعات الطبيعة الساكنة أكثر كثيرا من موضوعات الطبيعة المتحركة ، وإن يكن الشعراء قد احتفلوا بالطبيعة المتحركة أكثر من احتفالهم بالطبيعة الساكنة ، وهم فيما صنعوا لم يكونوا بدعا من الناس ، ولكنهم نهجوا النهج الذى نهجه سواهم ، وكأنى بهم قد احتفلوا أعظم احتفال بما يتصل بالطبيعة المتحركة ، فأكثروا من وصف الأطلال ، وذكر الديار ؛ لأن الأحباب كانوا يقطنونها فحق عليهم أن يطيلوا الوقوف بها ، ويكثروا من رسمها وتصويرها ، وقل أن تجد شاعرا جاهليا لم يبك دارا ولم يندب على طلل ، وهم — وإن يكونوا متقاربين فى تناول المعانى — متباعدون فى الدوافع إلى هذه المعانى ، فمنهم من يبكيها كما بكى ابن خذام ، ومنهم من يبكيها عن وجد وحرقة ، وأسى ولهفة ، وأنت تشعر كامل الشعور بحال الرجلين حتى وإن تماثلت المعانى وتساوت الصور ، تشعر به من اصطفاء اللفظ ، وتخير الموقف ، فأين من قول امرىء القيس :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

قول ثعلبة بن عمرو العبدى ؟

لمن دمن كأنهن صحائف   قفار خلا منها الكثيب فواحف؟

فثعلبة يسأل عن أصحاب الدمن التى صارت كالصحائف ، قد خلا منها الكثيب فواحف ، ولو كان واجداً لشعر فى طريقه إليها باللوعة ، ولهداه لها قلبه بالخفقان والحرقة ، وإذن فلا يمكن أن يكون تقارب المعانى ، بل تماثلها دليلا على تقارب الشعر أو تماثله ، بل لابد أن يكون هناك عامل آخر هو الإحساس الباطنى بأن هذا الشاعر يتدفق عن شعور .

ويجىء بعد هذا الغرض من وصف الطبيعة الساكنة وصف الليل وطوله ، وقد تناوله الكثير من الشعراء ، وأتوا فيه من المعانى بالغريب البديع ؛ حتى لقد صار له فى النقد قواعد راسية ، وقد مر بك اختلاف النقاد فى المفاضلة بين أبيات امرىء القيس ، وأبيات

النابغة ، وهناك غيرهما وغير من اخترنا لهم لا يقلون عنهم فى الإجادة والإبداع ، وهذا سويد بن أبى كاهل يجيد فى وصف طوله ، فيقول :

فأبِيتُ اللَّيـلَ ما أرْقُدُهُ ... وبِعَيْنَىَّ إذَا نجمٌ طَلَعْ
وَإذَا ما قُلْتُ لَيلٌ قَدْ مَضَى ... عَطَفَ الأَوَّلُ منه فَرَجَعْ
يَسْحَبُ اللَّيْلُ نُجُومًا ظُلَّعًا ... فَتَوالِيهـا بَطِيئاتُ التَّبَعْ
وَيُزَجِّيهـا عَلَى إبْطائها ... مُغرَبُ اللَّوْنِ إذَا اللَّوْنُ انقشعْ

وهذا المرقش الأصغر يتصور أن ليلته تكررت ، ويتخيل أنها تعددت ، فيقول :

وَلَيْـلَةٍ بِتُّهَا مُسْهِرَةٍ ... قَدْ كَرَّرَتْهَا عَلَى عَيْنِى الْهُمُومْ
لَمْ أَغْتمضْ طُولَهَا حتَّى انقضَتْ ... أَكْلَؤُهَا بَعْدَ مَا نَامَ السَّلِيمْ

فوجده تركه يقظا فى حين أن اللديغ قد أوى إلى فراشه ، فما أشد هذا الوجد ! ، وما أروع ذلك الوصف !

ثم هم قد نظروا فى السماء نظرة الرجاء ، فهى لهم معين الحياة وأصل البقاء ، فوصفوا سحبها وبروقها ، ونعتوا شهبها ونجومها ، ولم ينسوا أن يذكروا رياحها : صباها ودبورها ، كما وصفوا آثار الطبيعة من حر لافح ، وبرد قارس ، مما يدل على طول تأمل ، وإن لم يطيلوا فى آثار هذا التأمل ، وإذا كنا لم نذكر صوراً لجميع ما قالوه فى الظواهر السماوية فلأن هذه الصور لا تعدو أن تكون لفتات عابرة ، أو أبياتا سائرة من مثل قول بشر ابن أبى خازم يصف كواكب بنات نعش فى بيت واحد بأنها تدور وتنعطف ، كما تدور جماعة البقر الوحشى وتنعطف إذا أدركها ما يخيفها :

فَبِتُّ مُسَهَّدًا أرِقًا كأَنِّى ... تَمَشَّتْ فى مَفاصِـلِىَ العُقَارُ
أراقِبُ فى السَّماءِ بَنَاتِ نَعْشٍ ... وَقَدْ دَارَتْ كما عُطِفَ الصُّوارُ

ومن مثل قول علقمة الفحل يصف الحر وأثر الجوزاء فيه :

٧٢٣ : وقد علوتُ قُتودَ الرَّحلِ يَسْفَعُنِى ... يَوْمٌ تَجِىءُ به الجوزاء مَسْمُومُ

حامٍ كأنَّ أُوارَ النَّار شامِلَه   دُونَ الثِّيابِ، ورأسُ المَرْءِ معمُومُ

ومن مثل قول المسيب بن علس يصف أثر البرد وقد ساقه فى المدح :

وَإِذَا تَهِيجُ الرِّيحُ مِنْ صُرَّادِها   ثَلْجًا يُنِيخُ النِّيبَ بالجَعْجَاعِ

أحللتَ بيتَكَ بالجميعِ ، و بعضُهُمْ   مُتفرِّقٌ لِيَحُلَّ بالأوزاعِ

وقد كانوا فى تأملهم مبالغين حتى عرفوا جميع صور السماء والكواكب عند ماتغضب الطبيعة أو تتغير ظواهرها ، فانظر إلى الصورة التى صوروا بها الشمس عند الجدب والبرد ، لقد صوروها بالورس خضب بالزعفران ، وذلك فى قول متمم بن نويرة مادحا :

لَعَمْرِى لَنِعْمَ المَرْءُ يَطْرُقُ ضَيْفُهُ   إِذَا بَانَ مِنْ لَيْلِ التَّمامِ هَزِيعُ

بَذُولٌ لِمَا فِي رَحْلِهِ غيْرُ زُمَّحٍ   إِذَا أَبْرَزَ الْحُورَ الرَّوَائعَ جُوعُ

إِذَا الشَّمْسُ أَضْحَتْ فى السَّماءِ كأَنَّها   مِنَ المَحْلِ حُصٌّ قَدْ عَلاَهُ رُدُوعُ

وانظر إلى تلك الصورة الرائعة التى رسمها سبيع بن الخطيم التيمى للمطر يسقط فى غدير ، وقد ساقت تلك المطرة ريح الجنوب التى تسير مبطئة متثاقلة ، فى حين تكف الصبا سحابة ثقيلة :

وَمُسَيَّبٍ خَصِرٍ ثَوَى بِعَضِلَةٍ   وإذا تُحَرِّكُهُ الرِّيَاحُ يَزِيفُ

حلَّتْ به بعد الهُدُوِّ نِطاقَها   مِسْعٌ مُسَهَّلَةُ النِّتَاجِ زَحوفُ

تَزَعُ الصَّبَا رَيعانَه وَدَنَتْ له   دُلُحٌ يَنُؤْنَ عِظَامُهُنَّ ضَعِيفُ

٧٣٣ : تَنْفِي الحَصَى حَجَرَاتُهُ ، وكأنَّه   بِرِحالِ حِمْيَرَ بالضُّحَى مَحْفُوف

و إذا جاوزنا السماء وأجرامها ، والرياح وأنواءها ، والسحب وأمطارها إلى الأرض ألفيناهم وصفوا الصحراء فأطالوا وصفها ، ورسموها وما تشتمل عليه فأجادوا رسمها ، فى أبيات قليلة ولكنها جامعة ، وفى نظرات قصيرة و إن تكن ممعنة ، وألموا فى خلال تصويرهم إياها بالسراب فأكثروا من ذكره ، وأطالوا فى وصفه ، وقد مر فيما عرضناه بعض رسمه ،

وهذه صور أخرى له ، قال المرقش الأكبر مصوراً الجبال يغطيها السراب حينا ، ويبرزها حينا ، فكأنها تطفو وتغرق فى خليج من المـاء :

وأعرضَ أعلامٌ كأنَّ رُءُوسَهَا رُءوسُ جبالٍ فى خَليج تغَامَسُ

إذَا عَلمٌ خلَّفتُهُ يُهْتَدَى بِهِ بدَا عَلمٌ فى الآلِ أغْبرُ طامِسُ

وهى صورة رائعة لا يتصورها إلا من عبر الصحراء ، وتأمل جريان الآل فيها . وقال بشر بن أبى خازم يفخر بقطعه فلاة تعزف فيها الجن ، وتحن بها رياح السّهام ، ويصور الآكام متخذة من اللوامع دروعا :

وخَرْقٍ تَعْزِفُ الجِنَّانُ فيه فيَافِيــهِ تحِنُّ بها السَّهامُ

ذعرتُ ظِباءها مُتغوِّراتٍ إذَا ادَّرعَتْ لَوَامِعَهَا الإكامُ

وقال المثقب العبدى يفخر بقطعه البلاد إبان اشتداد الحر ، والتهاب الهجير ، وقد شبه السراب ببيض الثياب ، كما أنه فى تقلبه يشبهها فى طيها :

أجِدَّكَ ما يُدرِيكَ أنْ رُبَّ بَلْدَةٍ إذَا الشَّمْسُ فى الأيَّامِ طَالَ رُكُودُها

وَصاحَتْ صَوَادِيحُ النَّهارِ وأعْرَضَتْ لَوَامِعُ يُطْوَى رَيْطُهَا وَبُرُودُها

قَطَعْتُ بِفتْلَاءِ الْيَدَيْنِ ذَرِيعةٍ يَغُولُ الْبِلَادَ سَوْمُهَا وَبَرِيدُهَا

أما الآثار الإنسانية فكانت عندهم جد قليلة ، فلم تكن لهم قصور عالية ، ولا حصون منيعة ، ولا قلاع حصينة ؛ كما لم يكن لهم أثاث ولا رياش يستولى على مشاعرهم ، ويستبد بعواطفهم ، فعذرهم واضح ، إذ كيف أصف شيئا لا أجده ؟ وأنى لى أن أصور متاعا لا أعرفه ؛ على أن منهم من دفعته معارفه إلى وصف أشياء رآها فى غير محيطه ، من ذلك قول راشد بن شهاب اليشكرى يفخر :

بَنَيتُ بِتَاجٍ مجْدَ لاَ مِنْ حِجَارَةٍ لِأَجْعَلَهُ عِزًّا عَلَى رَغْمِ مَنْ رَغِمْ

أشَمَّ طُوَالاً يدحَضُ الطَّيرَ دُونهُ له جَنْدَلٌ مِمَّا أعدَّتْ لَهُ إرَمْ

٧٤٣ : وَيَأْوِى إلَيْهِ الْمُسْتَجيرُ مِنَ الرَّدَى وَيَأْوِى إلَيْهِ الْمُسْتَمِيضُ مِنَ الْعَدَمْ

والأبيات التى تنسب إلى السموءل بن عاديا يفخر بقصره الأبلق عند ما لجأ إليه امرؤ القيس واستودعه أدرعه ، فضرب به المثل فى الوفاء إذ أسلم ابنه للقتل دون أن يخون أمانته ، فيسلم أدرع من لجأ إليه :

وفيتُ بأدْرُعِ الكِنْدِىِّ إنِّى ... إذَا مَا ذُمَّ أقْوَامٌ وَفَيْتُ
وَأوْصَى عَادِيَا يَوْمًا بألاَّ ... تُهدِّمْ يَا سَمَوْءلُ مَا بَنَيْتُ
بَنَى لِى عَادِيَا حِصْنًا حَصِينًا ... وَمَاءٍ كُلَّمَا شِئْتُ اسْتَقَيْتُ

ولكنهم وصفوا من الآثار الإنسانية الخمر ، وأكثروا من القول فيها ؛ لأنها كانت عندهم مَظهراً لكثير من أخلاق الفتوة كالشجاعة والسخاء والإئتلاف ، وقد دفعهم شغفهم بشرابها وولعهم بمعاقرتها إلى الافتنان فى المعانى ، والابتداع فى الصور ، وقد مر بنا الكثير من تلك المعانى المفتنة المبتدعة ، وكلها يشهد بأنهم سامو الخيال ، ماهرو التصوير ، وما مر بنا ليس بأفضل ما قيل ، ولكنه من أفضله ، وإلا فأى حسن يفوق هذا الذى نسوقه للمرقش الأصغر يصف ريقَ محبوبته ؟ وأن الخمر التى من صفاتها أنها صهباء كالمسك ريحا ، المصفاة بالناجود ، أو المكيلة بالأقداح التى بقيت فى دنها عشرين عاما يطان عليها القرمد ، وتبرز للريح لتبرد ، قد اشتريت من قوم يهود لهم بمصرها خبرة ، وبيننا وبينهم شقة ؛ إلا أن حبنا لها قرب منا سوقها،فسعينا إليها حتى حصلنا عليها ؟ وهاهى ذى الأبيات:

وماقهوةٌ صَهْباءُ كَالمِسْكِ رِيحُهَا ... تُعَلّى عَلَى النَّاجُورِ طَوْرًا وَتُقدَحُ
ثَوَتْ فى سِبَاءِ الدَّنِّ عِشْرِينَ حِجَّةً ... يُطَانُ عليهاَ قَرْمَدٌ وَتُرَوَّحُ
سَبَاها رجالٌ مِنْ يَهُودَ تَبَاعَدُوا ... لِجيْلاَنَ يُدْنيهاَ مِنَ الشّوقِ مُرْبِحُ
٧٥٠ : بأطْيَبَ مِنْ فِيهاَ إذَا جِئْتُ طَارِقاً ... مِنَ اللّيْلِ ، بَلْ فُوهَا ألَذ وَأنْصَحُ

وهذا عبدة بن الطبيب يغدو وقرن الشمس منفتق ، وكأنه مجلل بسواد الليل ؛ إذ الديك يدعو أعضاء أسرته ، يغدو إلى التجار فأعداه شاب معجب بنفسه يجر من خلفه إزاره ، كأنه فى حسنه صدر السيف ، له شمائل كريمة ، وأفانين فى الخير ، هو رجل جد عند ما يجدّ الأمر ويشتد ، ورجل لهو ومجون عند ما يحلو اللهو والمجون ، فاتكأنا عند

تاجرها على فراش مرقومة ، ونمارق منقوشة ، عليها زخارف وتهاويل ، فيها صور الدجاج والأسود ، بل فيها تماثيل لكل شيء ، فى بيت يشبه الكعبة فى شكله أو فى قداسته ، شادها بان ماهر ، فزين أركانها وجمّل مبانيها ، يضيئها ذبال مفتول ، لنا أصيص كأنه أصل الحوض هدمه تزاحم الإبل عليه ، لدى ذلك الأصيص الزق مغلول مقيد ، والكوب أبيض ، فى جيده إكليل من الزهر ، قد برد ذلك الكوب بالماء ، فبينه و بين الأصيص جرة ضخمة كأنها فى شكلها وسط حمار وحشى قد ثقب جانبه ، والكوب مترع قد علاه الزبد ، وقد أعدت لنا قطعة عظيمة من لحم كبش ، مشكوكة فى السفود ، يطوف بها علينا خادم عجل ، تنطق بمنطقته ، و بين يدينا صحفة فيها الأبازير ، ثم شربت صباحا خمرا حمراء ، لها فى شاربها رعدة ، وهى خمر لم يسبقنى إلى معاقرتها إنسان، شربتها صرفا و إن بدت لرقتها ممزوجة ، وقد يعللنا مغنّ بشعر كأنه الأصباغ المذهبة للسقوف يتناقله الرواة ، و يحملونه فى الآفاق ، ترفع حواشى ذلك الشعر المذهب قينة طويلة الجيد ، تؤنس جليسها، كأن صوتها للشار بين ترتيل ومزامير ، تمر علينا غدوة تلهينا بغنائها ، فنهب لها البرود والسرابيل ، وهذه هى الأبيات :

وقدْ غَدَوتُ وقَرْنُ الشّمْسِ مُنْفَتِقٌ	ودُونَهُ مِنْ سَوَادِ اللّيْلِ تجْليلُ
إذْأشْرَفَ الدِّيكُ يَدْعُو بَعْضَ أسْرَتِهِ	لَدَى الصَّبَاحِ ، وهُمْ قَوْمٌ مَعَازِيلُ
إلى التِّجار فأعْــدَانى بلذّتِه	رِخْوُ الإزَارِ كصَدْرِ السَّيْفِ مشمولُ
خِرْقٌ يَجِدُّ إذَا مَا الأَمْرُ جَدَّ بِهِ	مُخَالِطُ اللّهْوِ وَاللّذَّاتِ ضِلّيلُ
حتّى اتّكَأْنَا عَلَى فُرْشٍ يُزَيِّنُهَا	مِنْ جَيِّدِ الرَّقْمِ أَزْوَاجٌ تَهَاوِيلُ
فِيها الدَّجاجُ ، وفيها الأُسْدُ مُخْدِرَةً	مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُرَى فيها تماثِيلُ
فى كَعْبَةٍ شادَها بانٍ وزَيَّنَها	فِيهَا ذُبَالٌ يُضِيءُ اللّيْلَ مَفتُولُ
لنَا أُصيصٌ كجِذْمِ الحَوْضِ هَدَّمَهُ	وَطْءُ العِرَاكِ ، لَدَيْهِ الزّقُّ مَغْلُولُ
٧٥٩ : والكوبُ أزهرُ مَعصوبٌ بِقُلّتِهِ	فَوْقَ السِّيَاعِ من الرَّيحانِ إكليلُ

مُبَرَّدٌ بمزَاجِ المَاءِ بَيْنَهما حُبٌّ كجَوْزِ حِمَارِ الوَحْشِ مَبْزُولُ

والكُوبُ ملآنُ طافٍ فَوْقَهُ زَبدٌ وطابقُ الكبشِ فى السَّفُّودِ مَخْلُولُ

يَسْعَى بهِ مُنْصِفٌ عَجْلاَنُ مُنْتَطِقٌ فَوْقَ الخِوَانِ ، وفى الصَّاعِ التَّوَابِيلُ

ثمَّ اصطَبَحْتُ كُمَيْتًا قَرْقَفًا أُنُفًا مِنْ طَيِّبِ الرَّاحِ ، وَاللَّذَّاتُ تَعْلِيلُ

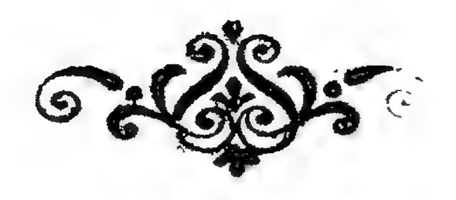
صِرْفًا مِزَاجًا ، وأَحْيانًا يعَلِّلُنَا شِعْرٌ كمُذْهَبَةِ السَّمَّانِ مَحْمُولُ

تُذْرِى حَوَاشِيَهُ جَيْدَاءُ آنِسَةٌ فى صَوْتِها لِسماعِ الشَّرْبِ تَرْتِيلُ

٧٦٦ : تَغْدُو عَلَيْنا تُلَهِّينَا وَنُصْفِدُها تُلْقَى البُرُودُ عَليها والسَّرَابِيلُ

أى مجلس شراب آنق من ذلك المجلس ؟ وأى مجلس أحفل بأسباب الأنس والمرح من مجلس عبدة بن الطبيب ؟ شراب وطمام وغناء ، لقد عز عليه أن يقترح فيه مايمكن أن يزيده جمالا .

أما النوع الآخر من الآثار الإنسانية التى عنوا بها ، وشغفوا بوصفها فهى عتاد القتال ، وأسلحة الحروب ، وقد أوفيناها حقها عرضا و بسطا ، ولا يزال حديثنا عنها جد قريب وحسبنا ما قدمناه .



الفصل السابع

صور لمظاهر مؤتلفة من الطبيعتين المتحركة والساكنة

(ا) وصف الظعائن

١ — قال المثقب العبدى * من قصيدة أولها :

أفاطِمُ قَبـلَ بَيْنِكِ مَتّعيني ... وَمنعُكِ ما سألتُكِ أنْ تَبيني [1]

لِمَنْ ظُعُنٌ تُطالِعُ من ضُبَيْبٍ ... فَمَاخرجَتْ مِنَ الْوَادِي لحِينِ ؟ [2]

مَرَرْنَ عَلَى شَرَافِ فذاتِ رجلٍ ... ونكّبْنَ الذَّرَائِحَ باليمينِ [3]

وهُنَّ كذاكَ حِينَ قَطَعْنَ فَلْجًا ... كأنَّ حُمولَهُنَّ عَلَى سَفِينِ [4]

يُشبّهْنَ السَّفينَ ، وَهُنَّ بُخْتٌ ... عُرَاضَاتُ الأَبَاهِرِ والشُّؤُونِ [5]

٧٧٢ : وهُنَّ على الرّجائزِ وَاكِناتٌ ... قَوَاتِلُ كلِّ أَشْجَعَ مُسْتَكِينِ [6]

---

* ترجمة الشاعر : اقرأ الترجمة فى ص ٨٢ .

التفسير اللغوى : (١) متعيني : بالوصل . أن تبيني : أن تبعدى .

(٢) الظعن : جمع ظعينة ، وهو الهودج فيه النساء . ضبيب : بالضاد أو الصاد موضع لحين : بعد حين وإبطاء .

(٣) شراف ، وذات رجل ، والذرائح : أمكنة . نكبن : عدلن .

(٤) الفلج : الطريق او الوادى . الحمول : جمع حمل الهوادج كان فيها النساء أو لم يكن . السفين : جمع سفينة .

(٥) البخت : الجمال طوال الأعناق . عراضات : جمع عراضة ، والعراض المفرط فى العرض كطوال . الأباهر : جمع أبهر عرق فى الظهر . الشؤون : جمع شأن ، وهى شعب قبائل الرأس التى تجرى منها الدموع إلى العينين .

(٦) الرجائز جمع رجازة بكسر الراء مراكب النساء . واكنات : مطمئنات . الأشجع : الطويل . مستكين : خاضع .

كغزلانٍ خُذِلْنَ بذاتِ ضَالٍ ... تنُوشُ الدَّانياتِ مِنَ الغُصُونِ (٧)
ظَهرْنَ بِكِلَّةٍ ، وَسَدَلْنَ رَقْمًا ... وَثقَّبْنَ الوَصَاوِصَ لِلعُيُونِ (٨)
وهُنَّ عَلَى الظِّلاَّمِ مُطَلَّباتٌ ... طَويلاتُ الذَّوائِبِ وَالقُرُونِ (٩)
أرَيْنَ مَحاسِنًا ، وكَنَنَّ أخرَى ... مِنَ الأَجْيادِ وَالبَشَرِ المَصُونِ (١٠)
ومِنْ ذَهَبٍ يَلوحُ عَلَى تَرِيبٍ ... كَلَوْنِ العاجِ لَيْسَ بِذِي غُضُونِ (١١)
بِتَلْهيةٍ أرِيشُ بِهَا سِهامِي ... تَبذُّ المُرْشِقاتِ مِنَ القَطِينِ (١٢)
عَلَوْنَ رَباوةً ، وهَبطن غَيْبًا ... فَلَمْ يَرْجِعْنَ قائلةً لِحِينِ (١٣)
فقلتُ لبعضهن ، وشُدَّ رَحْلي ... لِهاجِرَةٍ نَصَبْتُ لَهَا جَبِينِي : (١٤)
٧٨١ : لَعلَّكِ إنْ صَرمْتِ الحَبْلَ مِنِّي ... كذاكِ أكونُ مُصْحَبَتي قَرُونِي (١٥)

---

(٧) خذلن : تخلفن . ذات ضال : اسم مكان يكثر فيه شجر الضال . تنوش : تتناول الدانيات : القريبات .

(٨) الكلة : الستر الرقيق . سدلن : أرسلن . الرقم : ضرب مخطط من الوشى أو البرود. الوصاوص : البراقع الصغار ، واحدها وصواص .

(٩) الظلام : بكسر الظاء الظلم . مطلبات : مطلوبات . الذوائب : جمع ذؤابة ضفائر الشعر . القرون : خصل الشعر .

(١٠) كنن : سترن . الأجياد . جمع جيد الأعناق . البشر : ظاهر الجلد. المصون : المستور.

(١١) التريب : جمع تريبة ، وهى عظام الصدر موضع القلادة . الغضون : تثنى الجلد من الكبر .

(١٢) التلهية : التسلية . أريش بها سهامى : ألزق فيها الريش لتكون أفتك . تبذ : بالذال والزاى تسبق وتغلب . المرشقات : المتشرفات للنظر . القطين : الخدم والتباع والجيران .

(١٣) الرباوة : ما ارتفع من الأرض . الغيب : ما اطمأن منها . القائلة : القيلولة وهى نصف النهار . لحين : لوقت قصير .

(١٤) لهاجرة : عند هاجرة النهار وهو منتصفه نصبت : رفعت . جبينى : أعلى وجهى .

(١٥) صرمت الحبل : قطعت الوصل . مصحبتى : تابعتى . قرونى : نفسى .

تحليل الأبيات :

بدأ الشاعر قصيدته بمناجاة حبيبته ، فقال :

متعيني قبل الفراق بنظرة تكون لى أسعد الذكريات ، فتخف اللوعة ، ويهون الوجد ، فإن لم تفعلى شعرت عندئذ بألم الفراق ، ووجد البين .

ثم انتقل بعد أبيات إلى وصف الظعن ، فتساءل تساؤل المتلهف عمن فيها ، فقال : لمن هذه الظعن تظهر من ضبيب؟ فإنها لم تخرج من ذلك الوادى من حين ، لكأنها كانت تستريح من سفر غير قاصد ، ومرحلة ليست بالقصيرة ، وكيف لا ؟ وقد مررن بأمكنة كثر : بشراف وذات رجل ، بعد أن انحرفن عن الذرائح إلى اليمين ، وهن إذ قطعن فلجا تشبه هوادجهن السفائن ، تشبهها فى امتدادها ، وتمايلها فى سيرها ، واستواء ماتجرى فوقه ، ونفاسة ماتحمله ، تشبهها مع أنها إبل طوال الأعناق ، عراض الأباهر ومجارى الدموع .

أولئك النسوة فى هوادجهن ساكنات مطمئنات ، يقتلن بسحر جمالهن العشاق من الشجعان ، ما أشبههن بغزلان تخلفن بأرض يكثر فيها الضال ، فهن يمددن أجيادهن يتلقفن أوراق الأشجار ، ظهرن بوجوههن الوضاءة الوضاحة من الأستار الرقيقة المرفوعة ، وسدلن رقما مطرزا بالديباج ، موشى بالدمقس ، وثقبن البراقع الصغار بالعيون الناعسات ، وهن مع ظلمهن لنا ، ودلهن علينا ، مطلبات منا ، مرغوبات إلينا ، قد تعددت أسباب حبهن ، أدناها أنهن طوال الذوائب ، مرسلات الغدائر ، أبدين من محاسنهن مايصح أن يظهر من عيون نواعس ، وخدود نواعم ، وغدائر مرسلة ، وسترن أخرى كالجياد الناصعة ، والبشر المصون ، والترائب حليت بقلائد الذهب التى تشبه العاج فى صفاء لونها ، وملاسة بشرتها ، فهن شواب ناعمات .

أتلهى بفاطمة تلك حين أريش سهامى استعدادا للحرب ، فذكراها تبعث فىّ النجدة ، فهى تفوق الفتيات الشاخصات ، وتنير بجمالها الغوانى المرشقات من القطين والجارات . علت تلك الظعائن ربا وهبطن وهدا دون أن يسترحن ، فهن يصلن صباحهن بأصيلهن

و إن شق ذلك عليهن ، فقلت لإحداهن ، وهى محبو بتى التى أتتبع خطاها بشد رحلى معها فى الهاجرة ، يستقبل أوارها جبينى : أخشى إن قطعت وصلى، وصرمت حبل ودى أن تقطع نفسى وصلك ، وتصرم حبل ودك .

النقد :

بدأ وصف الظعن بالاستفهام التحسرى ، فأحسن فى البدء ، و برع فى الاستهلال ، ولولا أنه أكثر من ذكر المواضع والأمكنة لكان قد بلغ الغاية ، كما بلغها فى تشبيهه البخت بالسفن ، فهو تشبيه رائع جميل ، و بيته :

وهن على الرجائز واكنات قواتل كل أشجع مستكين

بيت فارع الحسن بتصو يره و بتخيرلفظه ، وما أجمل أن يجمع بين الشجاعة والاستكانة ، فهو شجاع عند ملاقاة الأقران ، خاضع لدولة الحسن والجمال ، وليس أقل منه تصو يرا ذلك البيت الذى استمد لقبه منه ، وهو :

ظهرن بكلة وسدلن رقما وثقبن الوصاوص للعيون

فهو بيت فيه من التصوير الحسى والنفسى مالا يمكن الغض منه، هذا إلى مافى الأسلوب من جمال رائع يبدو فى تلك المقابلات التى لاتكلف فيها من مثل قوله :

أرين محاسنا وكنن أخرى من الأجياد والبشر المصون

وقوله :

علون رباوة وهبطن غيبا فلم يرجعن قائلة لحين

و إذا كان هنالك مايمكن أن يؤخذ عليه فهو خشية القطيعة إن صرمت حبله ، فالعاشق لايملك زمام قلبه ، ولايدفع جماح نفسه وكذلك مما يمكن أن يأخذه عليه نقدة الأساليب تكرير القافية فى البيتين الثانى والثالث عشر ، وهم يقولون صادقين إن التكرار قد يكون مبعثه نضوب معين القافية .

٢ — وقال زهير بن أبى سلمى* من معلقته يصف الظعائن كذلك :

تبصَّرْ خليلى هلْ ترَى مِنْ ظعائنٍ تحمَّلْنَ بالعلْياءِ منْ فوقِ جُرثُمِ؟ (١)

علونَ بأنماطٍ عِتاقٍ وكِلَّةٍ وِرَادٍ حواشيها مُشاكِهَةِ الدَّمِ (٢)

وفيهنَّ مَلْهًى لِلَّطيفِ ومَنْظَرٌ أنيقٌ لِعيْنِ النَّاظِرِ المُتَوَسِّمِ (٣)

بكرْنَ بُكورًا، واستحرْنَ بِسُحْرةٍ فهُنَّ وَوَادِى الرَّسِّ كاليدِ للفَمِ (٤)

جعَلْنَ القَنانَ عَنْ يمينٍ وحَزْنَهُ وكمْ بالقَنانِ مِنْ مُحِلٍّ ومُحْرِمِ (٥)

ظَهرْنَ مِنَ السُّوبَانِ، ثمَّ جزَعْنَه عَلى كُلِّ قَيْنِيٍّ قَشِيبٍ مُفَأَّمِ (٦)

وَورَّكْنَ فى السُّوبَانِ يعلُونَ مَتْنَه عليهِنَّ دَلُّ النَّاعِمِ المُتنعِّمِ (٧)

كأنَّ فُتَاتَ العِهْنِ فى كلِّ مَنزِلٍ نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الفَنَا لمْ يُحَطَّمِ (٨)

٧٩٠ : فلمَّا وَرَدْنَ المَاءَ زُرْقًا جِمَامُه وَضَعْنَ عِصِىَّ الحَاضِرِ المُتَخَيِّمِ (٩)

---

* ترجمة الشاعر : اقرأها فى ص ٨٨ .

التفسير اللغوى : (١) تبصر خليلى : تأمل يا صاحبى . ظعائن : جمع ظعينة ، وهى الإبل فوقها الهوادج فيها النساء . العلياء : بلد . جرثم : ماء من مياه بنى أسد .

(٢) بأنماط . أنماط جمع نمط ، وهو ثوب من الصوف يطرح على الهودج . عتاق : كرام . الكلة ثوب رقيق يكون تحت الأنماط . وراد : تشبه لون الورد . حواشيها : نواحيها . مشاكهة : مشابهة . (٣) ملهى : لهو . اللطيف : الرقيق لا جفاء فيه . أنيق : معجب . المتوسم : المتفرس . (٤) استحرن : خرجن سحرة . وادى الرس : الرس ماء لبنى أسد .

(٥) القنان : جبل لبنى أسد . الحزن : الموضع الغليظ : محل ومحرم : ذى عهد وغير ذى عهد ، أو عدو وغير عدو . (٦) السوبان : واد . جزعنه : قطعنه . قينى : صفة لموصوف محذوف؛ أى على كل غبيط قينى ، وهو المنسوب إلى بلقين ، وهم حى من اليمن تنسب إليهم الرحال، وهو قتب طويل يكون تحت الهودج . قشيب : جديد . مفأم : موسع .

(٧) وركن : ملن . متنه : أعلاه ؛ والمتن ما ارتفع من الأرض وغلظ . عليهن : على الظعائن . دل الناعم : دلال الرقيق واختيال المرفه . (٨) فتات العهن : منتثر الصوف ما صبغ منه ومالم يصبغ . منزل : مكان نزول . الفنا . شجر ثمره حب أحمر فيه نقطة سوداء . لم يحطم : لم يكسر . (٩) الجمام : ما اجتمع من الماء . وضعن عصى الحاضر : كناية عن الإقامة . المتخيم : المقيم للخيام .

تحليل الأبيات :

تأمل أيها الصديق هل ترى ظعائن سائرات ؟ قد تحملن من العلياء محاذيات فى مسيرهن ماء جرثم ، رفعن فوق الأمتعة الأنماط والكلل ذات اللون الوردى من نواحيها ، المشاكلة للدم فى حواشيها ، فى رؤية أولئك الظعائن ملهى الرجل الرقيق الذى لاجفاء فيه ، والمنظر الأنيق المعجب للسيد المتأمل الذى يعرف الجمال فيصفه و يطربه .

خرجن إلى رحيلهن بكرة ، وسرن سحرة ، فهن فى مسيرهن بوادى الرس ، عالمات بطرقه ، كما تعرف اليد الطريق إلى الفم ، لاتجور عنه ولا تنحرف دونه .

جعلن جبل القنان وحزنه فى مسيرهن عن يمينهن اتقاء لمخاطره ، فكم به من أقوام لهم ذمة وعهود ، وأقوام لاذمة لهم ولا عهود ، خرجن من وادى السوبان ، ثم عرضن له مرة أخرى ، فقطعنه على كل غبيط منسوب إلى بلقين ، لايزال قشيبا جديداموسعا من جانبيه ، وملن فى وادى السوبان عاليات ماغلظ منه وارتفع ، يبدو على الظعائن دلال المتنعم، ورفاهية المترفه ، كأن حتات الصوف فى كل مكان ينزلن به حب الفنا قبل أن يحطم ، فحين وردن الماء أزرق لتجمعه ، وضمن عصى المتخيم ، ونصبن أخبية المقيم .

النقد :

بدأ زهير أبياته على نحو مابدأ به المثقب أبياته ، فكلاهما يستفهم فى حسرة عن الظعائن ، و إن كان المثقب قد تجاهل أن هذه الظعائن هى التى فيها مالكة لبه تخفيفا من وجده، وكلاهما رسم طريق سير هذه الظعائن ، وصور الوديان التى سرن فيها إلا أن زهيرا كان أقدر على رسم خط السير ، ولكنه قصر فى الحديث عن جمالهن ومجدهن، و إن يكن كثير عزة حكم له بالتفوق فى النسيب ، إذ سئل أى بيت أنسب ؟ فأنشد :

فلما وردن الماء زرقا جمامه ... وضعن عصى الحاضر المتخيم

أما نحن فلا نرى فى هذا البيت مايراه كثير ، وخير منه عندنا قول المثقب :

وهن على الرجائز واكنات ... قواتل كل أشجع مستكين

كغزلان خذلن بذات ضال ... تنوش الدانيات من الغصون

(ب) فى وصف الفرسان وعتادهم عند الحرب

١ — قال ضمرة بن ضمرة * يصف نفسه فى قتال عدوه :

وَمُشْعَلةٍ كالطَّيْرِ نَهْنَهْتُ وِرْدَها ... إذا مَا الجبانُ يَدَّعِى، وهوعاندُ[1]

عليها السُّكاةُ والحديدُ ، فمنهمُ ... مَصيدٌ لِأطرافِ العَوالى وصائدُ[2]

شَماطيطُ تَهْوِى للسَّوامِ ، كأنَّها ... إذاهبَطَتْ غُوطاً كِلابٌ طَواردُ[3]

وَقِرْنٍ تركتُ الطَّيْرَ تَحْجُلُ حَوْلَهُ ... عليهِ نَجيعٌ مِنْ دَمِ الجوفِ جَاسِدُ[4]

٧٩٥ : حَشَاهُ السِّنانُ ، ثمَّ خرَّ لِأَنْفِهِ ... كما قَطَّرَ الكعبَ المؤرَّبَ ناهِدُ[5]

---

* ترجمة الشاعر : هو ضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطش بن نهشل التميمى ، كان لسنا فصيحا ، كان اسمه (شقا) فدخل على النعمان بن المنذر فعاب دمامته ، فقال له : أبيت اللعن إن الرجال لا تكال بالقفزان ، ولا توزن بميزان ، وإنما المرء بأصغريه ، بقلبه ولسانه ، إن صال صال بجنان ، وإن قال قال ببيان ، فقال له النعمان : أنت ضمرة بن ضمرة يريد أنه كأبيه ، فصار اسمه ضمرة . توفى حوالى سنة ٦٠٠ م .

التفسير اللغوى : (١) المشعلة : الكتيبة تشعل للحرب ، شبهها بالنار المشعله . نهنهت : كففت . وردها : الورد القطعة من الجيش . يدعى : ينتسب . عاند : منحرف .
(٢) السكاة : جمع كمى الفرسان فى أتم سلاحهم . العوالى : جمع عالية وهى أعالى الرماح .
(٣) شماطيط : جمع شمطاط أوشمطوط ، أو الشمطيط الفرقة من الجيش . تهوى : تسقط . السوام : الإبل الراعية . الغوط : جمع غائط ، وهى الأرض الواسعة المطمئنة ، ومنها غوطة دمشق ، وهى أجمل قطعة فيها . طوارد : قوانص . (٤) القرن : النظير فى النجدة والفروسية . تحجل : تسير على رجل واحدة من الفرح . النجيع : الدم الشديد الحمرة . الجاسد : اللازق . (٥) حشاه السنان : دخل فى أحشائه . خر : سقط . قطره : رماه على قطريه ، وهما جانباه . الكعب : عظم يلعب به . المؤرب من الكعاب : الحاد الأطراف . الناهد : الصبى المرتفع .

تحليل الأبيات :

يصف ضمرة شجاعة قومه فى قتال عدوهم ، فيقول : رب كتيبة كثيفة منتشرة انتشار الطير كفكفت جموعها ، ونهنهت جحافلها ؛ حين يدعى الجبان الدعاوى ، وينسب إلى نفسه البأس والقوة ، وهو عاند عن الجمع ، منحرف عند ملاقاة الحشد ، خشية أن يصيبه الحتف ، يتزعم هذه الكتيبة الكماة الأبطال يغطيهم الحديد ، ويتسربلون بالبيض والدروع . ولكن جديدهم لم يغن عن أكثرهم شيئا ، وبيضهم ودروعهم لم تدفع عن جموعهم قضاء ، فمن هؤلاء المصيد والصائد ، والأسير والآسر .

فرق هذه الكتيبة تنقض على الغنائم انقضاض الكلاب الطوارد ، وتهوى على الفئ هوىّ الطيور الجوارح ؛ لأنها لاتبالى عدوها ، فقد ألجمته السنان ، وكسته الهزيمة العار .

تلك الكتيبة لاتثبت لى فى ضراب ، ولاتنى أن تنهزم أمامى عند تبادل الطعان .

ورب قرن جدلته وتركته نهش السباع ونهب الطيور ، فهى تحجل حوله تنتاش لحمه ، وتمتص عظمه ، فوق أجزاء جسمه الدم المتجمد ، وعلى أطرافه النجيع المتجسد ، فقد أوجأت شباة السيف فى أحشائه ، فسقط على وجهه ، كما يرمى الفتى الناهد الكعب المحدد ، فيلصق فيما يسقط عليه ، ويستقر فى أحشاء ما يرمى به .

النقد :

فى هذه الأبيات تصوير للحرب ، فكم من الناس يقول ويدعى ، حتى إذا دارت رحاها انحرف عنها ، وخاف ميدانها « إذا ما الجبان يدعى وهو عاند » فى هذه الحرب تتصاول الفرسان ، ففيها الصائد والمصيد ، والآسر والأسير ، « مصيد لأطراف العوالى وصائد » .

وفيها تصوير للجند وقد انتهت المعركة ، فهم ينصرفون إلى جمع الغنائم واقتسام الأسلاب ، وحينئذ تقبل الطيور « عصائب طير تهتدى بعصائب » لتجد طعاما ميسرا موفورا .

وفيها وصف للقتلى يخرون على حر أنوفهم ، وأم رءوسهم ، إذ سددت إليهم الأسنة تسديد اللاعب بالكعب المؤرب ، وهى صور لامبالغة فيها ولا غلو .

٢ — وقال دريد بن الصمة* يصف حرباً قتل فيها أخوه عبد الله :

دَعانى أخى والخيلُ بينى وبينَه ... فلمَّا دَعانى لم يَجِدْنى بِمُقعَدِ (١)

أخِى أرْضَعَتْنِي أُمُّـــه بلبانها ... بِثَدْيَيْ صفاء بَيْننا لمْ يُجَدَّدِ (٢)

تَنادَوْا، فقالوا: أرْدَتِ الخيلُ فارسًا ... فقلتُ: أعَبْدُ اللهِ ذلكمُ الرَّدِى؟ (٣)

فجئتُ إليهِ والرِّماحُ تنوشُه ... كوقعِ الصَّياصِى فى النَّسيجِ المُمَدَّدِ (٤)

وكنتُ كذاتِ البوِّ ريعتْ فأقبلتْ ... إلى جلَدٍ من مَسْكِ سَقْبٍ مُقَدَّدِ (٥)

فمارُحتُ حتى طَرَّقَتْنى رِماحُهُمْ ... وغُودِرْتُ أكْبُو فى القَنا المُتَقَصِّدِ (٦)

فطاعنتُ عنهُ الخيلَ حتَّى تنفَّسَتْ ... وحتى علانى حالكُ اللَّوْنِ أسْوَدِى (٧)

٨٠٣ : قِتالَ امرىءٍ آسَى أخاهُ بِنفسِهِ ... وَيَعلَمُ أنَّ المرْءَ غيرُ مُخَلَّدِ (٨)

---

* ترجمة الشاعر : هو دريد بن الصمة . واسم الصمة معاوية الأصغر بن الحارث بن معاوية الأكبر شاعر فحل ، وفارس شجاع ، كان أطول الفرسان الشعراء غزوا ، وأبعدهم أثراً ، وأكثرهم ظفراً ، وأيمنهم نقيبة ؛ أدرك الإسلام فلم يسلم ، وقتل يوم حنين ، وهو هنا يبكى أخاه عبد الله الذى قتل فى حربه مع غطفان .

التفسير اللغوى : (١) أخى : يعنى عبد الله . الخيل : يقصد الفرسان . بمقعد : بمتخلف عن القتال ، وفى رواية بقعدد . (٢) اللبان : اللبن . لم يجدد : لم يجف لبانه ، وفيه كناية عن دوام الصفاء . (٣) تنادوا : نادى بعضهم بعضاً . أردت : أهلكت .

(٤) تنوشه : تتناوله . الصياصى : جمع صيصية ، وهى شوكة يمرها الحائك على الثوب حين ينسجه . الممدد : المطول الممتد . (٥) ذات البو : الناقة يذبح ولدها أو يموت ، فيحشى لها جلده فترأمه . ريعت : فزعت . الجلد : ما جلد من المسلوخ وألبس غيره لتشمه أم المسلوخ فتدر عليه . المسك : الجلد لأنه يمسك ما وراءه من اللحم والعظم . السقب: ولد الناقة الصغيرة . المقدد : المشقق (٦) طرقتنى : شققت جسدى وجلت فيه طرقا . أكبو : أسقط . القنا : الرماح . المتقصد : المميت . (٧) تنفست : تفرقت . حالك اللون : يقصد الغبار الكثيف من وقع حوافر الخيول حوله . أسودى : يريد أسودى ، كما قيل فى الأحمر أحمرى ، وفى الدوار دوارى ثم خففت ياء النسب بحذف إحداهما ، وهى الأولى ، وجعلت الثانية صلة . (٨) آسى : سوى ، مخلد : خالد .

تحليل الأبيات :

هذه الأبيات من قصيدة فى الرثاء من جياد الشعر الجاهلى ، لا فى الرثاء فحسب ، بل فى جميع ماتناولته فنون الشعر .

وقد كان دريد بارعا فى وصف القتال ، فبعد أن ذكر دعوة أخيه إياه ، وأنه كان سريع التلبية ، إذ لم يكن عند مادعاه إلى الموت بمقعد ، فهو أخوه رضيعا ثديين جمعا على صفاء ، لم ييبس لبنهما ، فلم يجفّ عطف أمهما ، وصف القتال فقال :

لقد تنادى الأعداء ، وتجاوبت الأصداء ، أَرْدَتِ الفرسان فارس الميدان ، ومن يكون ذلك الفارس غير عبد الله ، فهو وحده الذى يستحق هذا اللقب؟

أقبلت عليه والرماح تنتاشه من كل جانب ، والعوالى تتناوله من جميع أقطاره ، فتقع على جسمه الطاهر وقوع الشوكة يمرها على الثوب الناسج ، فهو لم يغلب عن ضعف ، وإنما غلبته الكثرة الكثيرة .

حينئذ كنت كالناقة يذبح سقبها فتراع وتفزع ، فتبعث فيها الروعةُ والفزع النظر إلى ذلك البوّ تشمه وتتحسسه ، فأنا أتأمله تأمل الأم المنكوبة فى وليدها ، فما نزلت إلى الميدان حتى خرقت جسمى رماحهم ، وجعلته طرائق وخطوطا ، وتركت أكبو فى الرماح الطاعنة .

لقد طاعنت عن جثته الفرسان حتى تفرقت جموعها ، وحتى علا النقع رأسى ، فصرت منه حالك اللون ، أسود البشرة ، لقد قاتلت قتلة أخى قتال أخ صادق فى أخوته ، فهو يسوى بينه وبين أخيه حتى فى طلب البقاء ، ويحب لأخيه الحياة كما يحبها لنفسه ، قاتلت عنه قتال من يعلم أن كل حى إلى فناء ، « وأن المرء غير مخلد » .

النقد :

الأبيات تسيل بصورها العبرات ، فهو يصور تنادى الفرسان فى غبطة بقتل أخيه ، وليس أبلغ فى إظهار الغبطة من كلمة « تنادوا » ثم إن شعر الرأس ليقف من الهول عند مايتصور تناوش الرماح لأخيه ، وهى « كوقع الصياصى فى النسيج الممدد » ثم أى تصوير أجمع لذهاب العقل من التسوية بينه وبين الناقة ترأم بوها ؟ لقد بلغ دريد بقصيدته آية الوصف الحسى والعاطفى .

٣ — وقال عنترة * يصف كتيبة هزمها :

وكتيبةٍ لبَّستُها بكتيبـــةٍ شَهباءَ باسِلةٍ يُخافُ رَدَاها(١)
خرساء ظاهرةِ الأداةِ كأنها نَارٌ يُشَبُّ وَقودُها بلَظاها(٢)
فيها الـكماةُ بَنُو الـكماةِ كأنَّهُمْ والخيلُ تَعثُرُ فى الوغى بقَناها(٤)
شُهُبٌ بأيدى القابسين إذا بدَتْ بأكفِّهِمْ بَهرَ الظَّلامَ سَنَاها(٤)
صُبُرٌ أعدُّوا كلَّ أجردَ سابحٍ ونَجيبةٍ ذَبُلَتْ وجفَّ حَشَاها(٥)
يَعـدُونَ بالمُستَلئِمِينَ عَوَابساً قُوداً تشكَّى أيْنَها وَوَجَاها(٦)
يَحمِلْنَ فِتياناً مَداعِسَ بالقَنا وُقُراً إذا ماالحربُ خَفَّ لِوَاها(٧)
٨١١ : من كلِّ أروعَ ماجدٍ ذى صَوْلَةٍ مَرْسٍ إذا لَحِقتْ خُصًى بكُلاها(٨)

---

* ترجمة الشاعر : اقرأها فى ص ١٢٢ .

التفسير اللغوى : (١) الـكتيبة : الفرقة من الجيش . لبستها : خلطتها . شهباء : العظيمة الـكثيرة السلاح . رداها : هلاكها .

(٢) خرساء : لا صوت لها . الأداة : العتاد . يشب : يشعل . بلظاها : بلهبها .

(٣) الـكماة : جمع كمى،وهوالفارس المدجج بالسلاح . الوغى : الحرب . بقناها : برماحها .

(٤) شهب : وصف لموصوف محذوف هو أسنة . بهر : كشف . سناها : نورها .

(٥) صبر : صابرون . أجرد : وصف للفرس خف شعره لسمنه . سابح : يعدو بأقدامه الأربعة ،كما يعمل السابح بيديه ورجليه . نجيبة : ناقة كريمة . ذبلت : ضمرت . حشاها : ما انضمت عليه الضلوع .

(٦) يعدون : يجرون . المستلئمين : اللابسى اللأمة ، وهى الدرع . عوابس : غضابا . قودا : جمع أقود الذلول المنقاد . أينها : تعبها . وجاها : حفاها .

(٧) مداعس : جمع مدعس ، وهو الفارس الطعان . وقرا : جمع وقور الساكنون . خف : اضطرب .

(٨) الأروع الماجد : الذكى الـكريم النسب . مرس : ثابت . خصى : جمع خصية بالضم والـكسر . الكلى : جمع كلية وكلوة .

وَصحابةٍ شُمِّ الأنوفِ بَعثتهُمْ — لَيلاً وقد مالَ الكَرَى بِطُلاها(٩)

وسريْتُ في وعثِ الظَّلامِ أقودُها — حتَّى رأيْتُ الشَّمسَ زالَ ضحاها(١٠)

ولَقِيتُ في قُبُلِ الهجيرِ كتيبةً — فطَعَنْتُ أوَّلَ فارسٍ أولاهَا(١١)

وضربتُ قَرْنَيْ كبشِهَا فتجدَّلا — وحملتُ مُهْرِي وَسْطها فمضاها(١٢)

حتى رأيْتُ الخيْلَ بعْدَ سَوادِها — حُمْرَ الجُلودِ خُضِبْنَ مِنْ جَرْحاها(١٣)

يَعثُرْنَ في نَقْعِ النَّجيعِ جوافِلاً — ويَطأْنَ مِنْ حَمْي الوَغَى صَرعاها(١٤)

٨١٨ : فرجعتُ محموداً برأسِ عظيمِها — وتركتُها جُزُرًا لِمَنْ ناوَاها(١٥)

---

(٩) شم الأنوف : مرتفعى الأنوف ، وهى كناية عن العلا والرفعة . الكرى : النوم . الطلى : جمع طلية وطلاة العنق ، أو أصلها .

(١٠) وعث الظلام : اختلاط الظلام وشدته . زال : تحرك ، ومصدره زول . ضحاها : وقت ارتفاع الشمس .

(١١) قبل الهجير : فى أول اشتداد الحر . أولاها : أولى طعناتى .

(١٢) تجدلا : تكسرا . فمضاها : فقطعها .

(١٤) نقع النجيع . النقيع : المستنقع والغبار ، والأول هو المراد . النجيع الدم الأسود المتجمد . حمى الوغى : شدة الحرب . صرعاها . قتلاها .

(١٥) محموداً : مشكوراً ، جزراً : جمع جزور ، وهى الناقة تجزر . ناواها : مخفف ناوأها عاداها .

تحليل الأبيات :

رب فرقة كثيفة من الجند دهمتها بفرقة عظيمة العدد ، موفورة العتاد ، يخشى فتكها ، ويخاف رداها ، يسير أفرادها فى سكون لا من خوف بل عن غضب ، فعتادها ظاهر ، وسلاحها لامع ، كأنه نار مشبوبة .

فى هذه الفرقة فرسان ورثوا الفروسية عن آبائهم ، يشبهون — إذ تتعثر الخيل عند ما تحمى الوغى فى الرماح المتساقطة ، والقنا المتهاوية — يشبهون فى أيديهم سيوفهم ورماحهم شهبا بأيديهم أقباس من النار ، فيكشفون الظلام ، ويزيحون القتام ، كماة أجلاد ، أعدوا للجلاد الجرد السوابح ، والنجب الذوابل الأخلاف ، الجواف الأحشاء ، الضوامر البطون ، تعدو تلك الخيول عوابس غواضب ذللا ، تشكو مايلحقها من نصب ، ومايصيبها من أين وتعب . بفرسان قد استلأموا . إنهن يحملن فتيانا فرسانا يحسنون الطعن ، رُزُنا عند مايخف عقل الحليم ، ويضيع رشد الوقور ؛ إذا خف لواء الحرب ، فحمل أثناء الرجوع بالفشل ، من كل ندب ماجد ، وأروع ذكى ، ذى جولة وصولة ، وحول وطول ، ثبت عند النزال إذ تبلغ الحصى كلى الفرسان .

ورب صحب عزيزى النفوس ، شم الأنوف بعثت بهم ليلا فى غارة بعد أن لعب السكرى بأعنة الفرسان ، فسريت فى شدة الظلام أقود تلك السرية ، فلم أنفك فى غارتى حتى تحركت أشعة الشمس ، ولقيت فى أول الهجير فرقة ضخمة ، فجعلت أولى طعناتى لأول فرسانها ، وضربت قائدها فخرا مجدلين ، ثم حملت مهرى على قلبها ففرقتها كل مفرق ، ومزقتها شر ممزق ، وما زلت كذلك حتى رأيت الخيول الدهم قد صارت كمتا ، كأنما خضبت من دماء فرسانها ، وحتى رأيتها تتعثر فى مجتمعات من الدماء ومستنقعات من النجيع ، فتذعر مما ترى ، وتجفل مما تسير عليه ، فهى لم تر طرقا كتلك التى تتعثر فيها ، فهن إما سائرات فى مستنقعات ، وإما سائرات عند احتدام الحرب فوق رءوس الصرعى ، ثم عدت مظفرا منصوراً ، محموداً أحمل رأس عظيمها ، وتركت الكتيبة كالجزور ينهشها من عاداها من الكواسر والجوارح .

النقد .

لعنترة في شعره شخصية ، فإنك مستطيع أن تحكم دون تعثر في حكمك عندما تسمع شعر عنترة أنه لعنترة دون سواه ، فهو يهول من قوة عدوه ليكون الغلب بعدئذ عظيما قهارا ، وهو في هذه الأبيات يسير على نمطه الذي اختاره سمة له ، وقد صور لنا الموقعة تصويراً واقعيا

فكتيبته : شهباء باسلة يخاف رداها

خرساء ظاهرة الأداة كأنها نار يشب وقودها بلظاها

والخيول :

يعدون بالمستلئمين عوابسا قودا تشكى أينها ووجاها

و يصور الحرب أدق تصوير فيقول :

ولقيت في قبل الهجير كتيبة فطعنت أول فارس أولاها

وضربت قرنى كبشها فتجدلا وحملت مهرى وسطها فمضاها

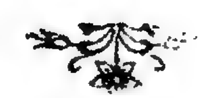
حتى رأيت الخيل بعد سوادها حمر الجلود خضبن من جرحاها

أما الأسلوب فهو أسلوب عنترة القوى الواضح لولا غموض يعتور البيت الثانى من البيتين :

فيها الكماة بنو الكماة كأنهم والخيل تعثر في الوغى بقناها

شهب بأيدى القابسين إذا بدت بأكفهم بهر الظلام سناها

فوجه الشبه لا يستقيم إذا كان المشبه الكماة والمشبه به الشهب ، و إنما يستقيم إذا كان المشبه السلاح على أن الأبيات فيها قوة الكتيبة الشهباء .



٤ — وقال سلامة بن جندل* يصف نجدة قومه فى حربهم من قصيدة أولها :

أَودَى الشَّبابُ حميدًا ذُو التَّعاجِيب أَوْدَى وذلكَ شَأْوٌ غيرُ مَطلوبِ[1]

كنَّا إذا ما أتانا صَارِخ فَزِعٌ كان الصُّراخُ له قرعَ الظَّنَابِيبِ[2]

وَشدَّ كُورٍ عَلَى وَجْنَاءَ ناجيـةٍ وشدُّ سَرْجٍ على جرداءَ سُرْحُوبِ[3]

والعادياتُ أَسـابِيُّ الدِّماءِ بِهَا كأَنَّ أعناقَها أنصابُ تَرْجِيبِ[4]

مِنْ كلِّ حَتٍّ إذا ما ابْتَلَّ مُلبَدُه صافى الأَديمِ ،أَسيلِ الخدِّ، يَعبوبِ[5]

لَيْسَ بأَسْفَى ، ولا أَقْنَى ، ولا سَغِلٍ يُعْطَى دواءَ قَفِيِّ السَّكْنِ مَرْبُوبِ[6]

٨٢٥ : تظَاهرَ النِّيُّ فيـهِ فهو مُحتفلٌ يُعْطِى أَساهِيَّ مِنْ جَرْيٍ وَتَقْرِيبِ[7]

---

* ترجمة الشاعر : هو سلامة بن جندل بن عمرو بن عبيد بن الحارث ، من شعراء تميم الفحول ومن فرسانهم الأبطال ، ومن وصاف الخيل البارعين ، وهذه القصيدة ــ فيما يقول الرواة ــ أجود شعره ، توفى حوالى سنة ٥٢٠ م

التفسير اللغوى : (١) أودى : ذهب . التعاجيب : الأعاجيب ، وهو جمع لا واحد له . الشأو : الغاية والسبق . (٢) صارخ مستنجد . فزع : خائف . الصراخ : الإغاثة الظنابيب : جمع ظنبوب حرف عظم الساق ، والجملة كناية عن الاستعداد .

(٣) الكور : رحل الناقة بأداته . الوجناء : الناقة العليظة الوجنتين . الناجية : السريعة . الجرداء : الفرس القصيرة الشعر . السرحوب : الفرس الطويلة . (٤) العاديات : الخيل السريعات . الأسابى : الطرائق ، مفردها إسباءة . أنصاب : جمع نصب حجارة كانت تنصب حول الكعبة . ترجيب . تعظيم . (٥) الحت : السريع . ملبده : موضع اللبد . صافى الأديم : صافى الجلد . أسيل الخد : ناعم الخد . يعبوب : كثير الجرى .

(٦) الأسفى : الخفيف شعر الناصية . الأقنى : الذى فى أنفه احديداب . السغل : المضطرب الأعضاء . الدواء : يقصد اللبن . قفى السكن : الضيف الكريم عند السكن ، وهم الساكنون . المربوب . الذى يغذى فى البيوت ، ولا يترك يرود الطعام عند غير أهله .

(٧) تظاهر النى : تراكم الشحم بعضه على بعض . المحتفل : الكثير المجتمع . الأساهى : الضروب والفنون لا واحد له . التقريب نوع من السير دون الجرى .

يَرْقَى الدَّسِيعُ إلى هَادٍ لهُ بَتِعٍ ... فى جُؤْجُؤٍ كمداكِ الطيبِ مخضُوبِ (٩)

فى كلِّ قائمةٍ مِنه إذا اندفَعَتْ ... شُؤْبُوبُ شدٍّ كفرغِ الدَّلوِ أثْعُوب (١٠)

كأنَّه يرفئٌّ نامَ عَنْ غَنَمٍ ... مُسْتنفرٌ فى سَوادِ الليلِ مَذْءوبِ (١١)

يُحاضِرُ الجُونَ مُخْضَرًّا جَحَافِلُها ... وَيَسْبِقُ الألفَ عَفواً غيرَ مَضْروبِ (١٢)

مِمَّا يُقدِّمُ فى الهيْجَا إذا كُرِهَتْ ... عِندَ الطِّعانِ وَيُنْجِى كلَّ مكروبِ (١٣)

همَّتْ معدٌّ بنَا همًّا فنَهْنَهَهَا ... عنَّا طِعانٌ وضربٌ غيرُ تَذْرِيبِ (١٤)

بالمشرَفىِّ ومصقولٍ أسِنَّتُها ... صُمٌّ العَوامِلِ صدْقاتِ الأنابيبِ (١٥)

٨٣٣ : سَوَّى الثِّقافُ قَنَاها فهى مُحكمةٌ ... قليلةُ الزَّيْغِ مِنْ سَنٍّ وتركيبِ (١٦)

---

(٩) الدسيع : معرز العنق فى الكاهل . الهادى : العنق أو مقدمه. البتع : الطويل . الجؤجؤ : الصدر . المداك : الصلاية مخصوب : مضرج بدماء العدو.

(١٠) الأساوى : دفعات الجرى . فرغ الدلو : مخرج الماء منها . أثعوب : سائل منشعب .

(١١) اليرفئى : راعى الغنم . مستنفر : مستثار . مذءوب : هجم عليه ذئب .

(١٢) يحاضرها : يطاولها الحضر ، وهو شدة الجرى . الجون : بالضم جمع جون بالفتح يقال للأبيض والأسود ، يريد بها الحمر الوحشية . الجحافل : جمع جحفلة ، وهى للخيل والحمير بمنزلة الشفة بالإنسان . عفوا : هادئا .

(١٣) الهيجاء : الحرب . إذا كرهت : إذا خيفت . مكروب : نازل به وشدة .

(١٤) همت : عزمت . فنهنها : فزجرها . تذريب : تحديد . وفى رواية غير تذبيب وهى مبالغة من الذب .

(١٥) المشرفى : السيف المنسوب إلى مشارف الشام . مصقول : محدد . العوامل : جمع عاملة أعالى الرماح ،كعوال . صدقات : صلبات . الأنابيب : مابين عقد الرماح .

(١٦) سوى : عدل . الثقاف : مثقف الرماح ، وهى خشبة فيها ثقب تقوم بها الرماح . الزيغ : الاعوجاج . تركيب : يعنى تركيب النصال .

زُرْقًا أَسِنَّتُهَا ، حُمْرًا مُثَقَّفَةً أطرافُهُنَّ مَقيـلٌ لِليَعاسِيبِ [١٧]

تجلو أسِنَّتَها فِتيانُ عاديةٍ لامُقْرِفِينَ وَلَيْسُوا بالجَعَابِيبِ [١٨]

٨٣٦ : كأَنَّهَا بأَكُفِّ القَوْمِ إذْ لحِقُوا مَوَاتِحُ البِئْرِ أوْأَشْطانُ مَطلوبِ [١٩]



(١٧) زرقا أسنتها: لشدة صفائها . حمرا : اشتداد الصفاء يبعث حمرة . مقيل : مكان قضاء القيلولة . اليعاسيب : جمع يعسوب ملوك النحل .

(١٨) عادية : حرب . القرف : الذى يكاد يكون هجينا ، والهجين من أمه رقيقة . الجعابيب : القصار الضعاف .

(١٩) مواتح البئر : الحبال التى ينزح بها الماء من البئر . الأشطان : الحبال الطوال مطلوب : بئر بعيدة القرار بين المدينة والشام .

تحليل الأبيات :

ذهب الشباب محمودة عواقبه ، كثيرة أعاجيبه ، ذهب وتلك غاية ما كنا نطلبها ، وشأو لم نكن نأمله .

ببكاء الشباب والتحسر على أيامه الذاهبات بدأ الشاعر قصيدته ، ثم انتقل إلى الفخر بالكرم والنجدة والشجاعة ، فقال :

كنا ـ وما زلنا ـ إذا استنجد بنا مستنجد ، أو استصرخ بقومنا مستصرخ كان الاستعداد للدفع عنه جواب استصراخه ، فنشد الأكوار على الوجناوات النجائب ، والسروج على الجرد السراحيب ، تلك العاديات التى ترى فوق أعناقها طرائق الدم من طعننا الأعداء ، فكأن هذه الأعناق أنصاب نذبح فوقها المدى لها ، من كل فرس جواد سريع عند ما يبتل موضع اللبد منه ، صافى الجلد ، ناعم الخد ، سريع الجرى ، وذلك لحسن القيام عليه ، ولكرمه وعتقه ، ليس فيه ما يمكن أن يعاب به ، فليس خفيف شعر الناصية ، وليس محدودب الأنف ، وليس مضطرب الأعضاء ، بل هو كامل الحسن ، بالغ الجمال ، فنحن لذلك نكرمه غاية الإكرام ، فنسقيه مما نسقى منه أكرم الضيوف ، ونغذيه ما نغذى به أعز الأرباب ، فهو سمين مكتنز ، ضخم محتفل ، له أفانين فى العدو والجرى ، وأساهى فى الحضر والتقريب ، يعتلى كاهله عنق بتع طويل ، فوق صدر ناعم أملس ، كأنه لنعومته وملاسته وكتنته مداك الطيب ، فى كل قائمة من قوائمه الأربع عند ما يندفع عاديا دفعات من الجرى ، كأنها فى شدة وقعها انصباب الماء من الدلو .

كأن ذلك الفرس راعى غنم نام عنها ، فعثت فيها الذئاب ، فنهض من سباته فزعا مضطربا يحاول بأسرع عدوه ، وأشد جريه إنقاذها من مخالب مفترسها ، وهو يبارى الحمر الوحشية حضرها ، وقداخضرت شفاهها ؛ لما هى فيه من رعى كثير ، ويسبق الألف من الخيل دون أن يضرب بسوط ، أو يركل بقدم .

ذلك الفرس من الجياد التى تختار لاقتحام الهيجاء إذا خيف اقتحامها ؛ لاشتداد الضرب والطعن فيها ، فينجى فارسه بكره وفره ، فيسبق مطلوبا ويدرك طالبا .

همت معدّ بنا همًّا ، وقصدت حربنا قصدا ، فكفها عن الهم بنا ماتعرفه عنا من طعن

مسدد ، وذب عن حرماتنا قوى شديد بالسيوف المشرفية ، و بالرماح المصقولة الأسنة ، الصم العوامل ، الصلبة الأنابيب ، قد سوى الثقاف قناتها ، فهى محكمة ، عديمة الاعوجاج ، شديدة التحديد ، صافية الحديد ، فأسنتها زرق يخالطها حمرة لشدة صفائها ، مقومة أتم تقويم ، فأسنتها تقيل فيها رءوس قواد الجيش و يعاسيب الجند .

تصقل أسنتها وتجلو أطرافها فتيان حرب ، كلهم نسيب كريم ، ليس فيهم هجين ولا ضعيف ، كأن هذه الرماح بأكف المحار بين إذ لحقوا أعداءهم الفارين حبال يمتح بها ماء البئر ، أو أشطان بئر بعيدة الغور ، فهى لا بد مدركة رؤوس أولئك الفارين .

النقد .

الأصل فى هذه الأبيات أنها للفخر ، ولكن الشاعر وصف فيها الاستعداد للقتال وصفا بارعا فى قوله :

وشد كور على وجناء ناجبة	وشد سرج على جرداء سرحوب

ثم سار يصف الخيل فى حضرها وتقريبها ، وأجزاء جسمها ، وما تقدمه لفارسها من جهد محمود فى قتاله فأجاد الوصف ، ثم وصف الرماح فوفق فى وصفه إياها ، و إن يكن كرر بعض المعانى ، ولعل هذا التكرير مما يلائم الفخر الذى هو الأصل فى قصيدته ، وذلك من مثل قوله :

سوى الثقاف قناها ، فهى محكمة	قليلة الزيغ من سن وتركيب

زرقا أسنتها حمرا مثقفة	أطرافهن مقيل لليعاسيب

تجلو أسنتها فتيان عادية	لا مقرفين ، وليسوا بالجعابيب

و يعجبنا ذلك المعنى فى قوله : « أطرافهن مقيل لليعاسيب » فهو قد صور لنا الرءوس تقيل فى أطراف الرماح ، وهو معنى لم يسبق إليه فيما نعلم .

٥ — وقال بشر بن أبي خازم* يصف نجدة قومه من قصيدة أولها :

عَفتْ من سُلَيْمَى رامةٌ فكَثيبها وشطّتْ بها عنكَ النّوَى وشُعوبُها[١]

وكنّا إذا قلْنا : هَوازنُ : أَقبِلي إلى الرُّشْدِ لم يَأْتِ السَّدادَ خَطيبُها[٢]

عطَفنا لهم عَطفَ الضَّرُوسِ من المَلاَ بِشَهْباء لا يَمْشِي الضَّرَاء رَقيبُها[٣]

فلمّا رأَوْنَا بالنِّسَارِ كأنَّنا نَشاصُ الثُّرَيّا هَيَّجَتْها جَنوبُها[٤]

فكانُوا كذاتِ القِدرِ لمَ تَدْرِ إذْ غلَتْ أَتُنْزِلُها مَذمومةً أَمْ تَذِيبُها ؟[٥]

قطَعناهُمُ ، فباليمامةِ فِرقةٌ وأُخرَى بأوطاسٍ تَهِرُّ كَليبُها[٦]

نَقلناهمُ نَقلَ الكلابِ جِراءَها عَلَى كلِّ مَعْلُوبٍ يَثُورُ عَكوبُها[٧]

٨٤٤: لَحَوْناهمُ لحوَ العِصِيِّ ، فأصبَحوا عَلَى آلةٍ يَشكو الهوانَ حَريبها[٨]

---

* ترجمة الشاعر : اقرأ ترجمته فى ص ١١٦ .

التفسير اللغوى : (١) عفت : درست . رامة : بلد . الكثيب : الرمل . شطت : نأت وبعدت . النوى : نية السفر . شعوبها : جمع شعب يقصد أهلها .

(٢) هوازن : قبيلة وهى منادى . الرشد : الحلم والسداد . السداد : الإصابة .

(٣) عطفنا لهم : ملنا عليهم . الضروس : صفة لموصوف محذوف هو الحرب ، وإنما توصف بالضروس لأنها تضرس المقاتلين كما تعض الناقة السيئة الخلق حالبها . الملا : الصحراء . الشهباء : الكتيبة علاها الحديد فلمع . الضراء : مايوارى الإنسان من الشجر . الرقيب : الناظر .

(٤) النسار : اسم مكان . نشاص الثريا : ماارتفع من السحاب بنوئها ، وفيه كناية عن الكثرة . جنوبها : ريح شديدة تهب من الجنوب . (٥) ذات القدر : صاحبة القدر فيها السمن . مذمومة : أى من الضيف . تذيبها : تذيب سمنها .

(٦) قطعناهم : مزقناهم فى حربنا إياهم . اليمامة وأوطاس : موضعان كانا ميدان قتال . تهر : تصيح من خوف . كليبها : كلابها . (٧) نقلناهم : حملناهم على الانتقال من بلدهم . الجراء : جمع جرو . معلوب : وصف لموصوف محذوف أى طريق معلوب ، وهو المهد . عكوبها : غبارها ، والهاء تعود على الطريق ، وهو يذكر ويؤنث .

(٨) لحوناهم : أخذنا جميع عتادهم ، وهو من لحا الشجرة إذا قشر عودها . الآلة : الحال . الهوان : الذل . حريبها : الحريب المسلوب المال .

لَدُنْ غُدوةٍ حتى أتى الليلُ دُونهم ... وأدركَ جَرْىَ المُبقياتِ لُغُوبُهاَ[٩]

جَعلنَ قُشَيْرًا غايةً يُهتدَى بهاَ ... كما مدَّ أشطانَ الدِّلاءِ قَليبُهاَ[١٠]

إذَا ما لحِقْنَا منهمُ بكَتيبةٍ ... تُذكِّرُ منها ذَحلُهاَ وَذنوبُهاَ[١١]

بنى عامرٍ : إنَّا تركْناَ نِساءَكُمُ ... منَ الشَّلِّ والإيجافِ تَدمى عُجُوبُهاَ[١٢]

غَضاريطُنا مُستبطِنُو البيْض كالدُّمى ... مُضَرَّجةً بالزّعْفَرانِ جُيُوبُهاَ[١٣]

تَبيتُ النِّساءُ المُرْضِعاتُ برَهوَةٍ ... تَفزَّعُ مِنْ خَوفِ الجَنانِ قلوبُهاَ[١٤]

٨٥١: دَعُوا مُنْبِتَ السِّيفَيْنِ إنهُمَا لنَاَ ... إذا مُضَرُ الحمراءُ شُبَّتْ حُرُوبُهاَ[١٥]

---

(٩) لدن : عند ، وهو ظرف يصلح للزمان والمكان ، وهو للمكان أقرب وأخص . الغدوة : أول الصباح . المبقيات : الخيل تدخر بعض جريها . اللغوب : الإعياء .

(١٠) قشيرا : يعنى قبيلة بنى قشير ، والمقصود أن خيل بنى أسد جعلت همها بنى قشير . الأشطان : الحبال الطويلة . القليب : البئر . الدلاء : جمع دلو .

(١١) الكتيبة : الفرقة من الجيش . الذحل : الثأر .

(١٢) بنى عامر : منادى حذف حرف ندائه . الشل : الطرد . الإيجاف : السير الشديد تدمى : يسيل دمها . العجوب : جمع عجب بسكون الجيم ، وهو نهاية العصعص .

(١٣) غضاريطنا : خدمنا وأتباعنا مفرده غضريط . مستبطنون : داخلون فى بطونهن كناية عن أنهم فى أحضانهن . الدمى : جمع دمية التماثيل من الرخام أو الشمع أو غيرهما مضرجة : مخضبة . الزعفران : نبت أصفر طيب الرائحة .

(١٤) برهوة : بأرض منخفضة أو مرتفعة . الجنان : القلب .

(١٥) دعوا : اتركوا . السيفين : الشاطئين . مضر الحمراء : لقبت بالحمراء لقبة من جلد أحمر وهبها نزار لمضر .

تحليل الأبيات :

درست لفراق سليمى بلدتها و إن تكن ماتزال عامرة ، وأوحشت كثبانها التى كانت تُسحِر فيها ، و إن كانت ماتنفك آنسة ، و بعدت بمحبو بتك عنك نية سفرها مع قبيلها .

بهذا المعنى الحزين بدأ الشاعر قصيدته ، ثم سار فيها متفجعا من الفراق ، موجعاً من النوى ؛ حتى انتقل إلى وصف ناقته ، ومنها فخر بنجدة قومه فقال :

٨٥٢ : أجبنا بنى سعد بن ضبة إذ دعوا ولله مولى دعـــــوة لايجيبها

وكنا إذا قلنا : هوازن أقبـــلى إلى الرشد لم يأت السداد خطيبها

ثم أخذ يصف عاقبة هوازن بعد أن حاد عن السداد خطيبها ، ومال عن الجادة حاديها ، فقال: إننا ملنا عليهم ميل الحرب الشديدة تقبل عليهم من الصحارى بكتيبة كثيفة العَدد ، كثيرة المُدد ، لايختبئ رقيبها فى الأشجار ، ولـكنه يبدو للعيان والأنظار ، فلما رأتنا هوازن فى النسار كأننا السحاب الركام كثرة وهولا هيجته الجنوب صاروا فى حيرة واضطراب ، فمثلهم كمثل المرأة تسلأ سمناً ، وقد نزل بها ضيف ، فهى فى حيرة أتتم سلاءه،فيسأم الضيف و يظن بها البخل ، أم تنزله و لَمَّا ينضج فيذم طعامها ؟ فهى فى الحالين مذمومة ، وذلك حال هوازن إن حاربوا هزموا وذموا ، و إن أعرضوا لحقهم العار.

مزقناهم فرقا ، وقطعناهم قطعا ، ففرقة باليمامة ، وأخرى بأوطاس تهر كلابها هرير الخوف، وتنبح نباح الفزع ، وحملناهم على أن ينتقلوا فى الأحياء كما تنقل الكلاب جراءها خشية الاعتداء ، فذهبوا فى طرق مطروقة يثور الغبار فى وجوههم ، سلبناهم أموالهم كما يسلب العود لحاءه ، فأصبحوا فى حال تشكو ذلها وهوانها شكوى الضعيف السليب .

حاربناهم من الغدوة إلى العشى ، فلم نترك فيهم رمقا ، ولم يدخروا فى الدفاع عن أنفسهم جهداً ، فمثلهم كمثل الفرس تُبقى بعض جريها ، ثم تضطر فلاتدخر شيئا ، حتى يدركها الأين و يصيبها الكلال .

جعلنا نحن — بنى أسد — بنى قشير غايتنا التى نبغيها ، وهدايتنا التى نهتدى بها ، فلم نحد عن حربهم يمنة ولا يسرة ، كما تمد حبال الدلاء نحو القليب ، فمتى أدركنا منهم فرقة تذكرنا ما بيننا من ذحول وذنوب ، فاشتد القتال ، واحتدم الضراب .

بنى عامر : اذكروا لنا شجاعتنا ، فقد تركنا نساءكم تدمى عجوبهن ؛ إذ حملن على غير وطاء ، وأسرع بهن فى السير حتى لايقعن فى الإسار ، واذكروا إذ تركتم بعض نسائكم ، فاستبطنها خدمنا ، وهن فى جمالهن كالدمى المطيبة بالزعفران ، أما المرضعات منهن فإنهن يستعصمن بالنجاد أو يستترن فى الوهاد ، وهن فى فزع تطير له القلوب .

فدعوا لنا شاطئى البحر فإنهما ملكنا إذا مضر الحمراء شبت حروبها .

النقد :

قال بشر هذه القصيدة يشيد بانتصار قومه بنى أسد وحلفائهم على بنى عامر ، فغضبت تميم لقتل بنى عامر ، فتجمعوا وقاتلوا طيئا وحلفاءها ، فهزمت تميم ، فقال بشر قصيدة أخرى منها :

٨٥٣ : غضبت تميم أن تقتل عامر يوم النسار فأعتبوا بالصيلم

والقطعة قوية المعانى ، زاخرة بالصور ، ولا نأخذ عليه إلا إسرافه فى دعاواه ، وطرحه الخلق العربى الكريم فى معاملة السباء من الحرائر ، فما زعمه لايقره الخلق العربى النبيل .

ويعجبنا منه تشبيه تنقل أعدائه هروبا من قومه بنقل الكلاب جراءها ، كما يعجبنا ذلك التشبيه الذى جعلهم فيه مذمومين على أى حال .

فكانوا كذات القدر لم تدر إذ غلت أتنزلها مذمومة أم تذيبها ؟

(ح) وصف سوءات الحرب

١ — وقال زهير بن أبى سلمى* يصف سوءات الحرب من معلقته :

وما الحَرْبُ إلاَّ ماعَلِمتُمْ وَذُقتمُ   وماهُوَ عنها بالحديثِ المُرَجَّمِ (١)

متى تبعثُوها تبعثوها ذَميمةً   وتَضْرَ إذاضرَّيتمُوهافتضْرَمِ (٢)

فتعرُككُمُ عَرْكَ الرَّحَى بثِفَالِها   وَتَلْقَحْ كِشافاثمَّ تحمِلْ فتُتْئِمِ (٣)

فتُنْتِجْ لكم غِلْمانَ ، أشْأَمَ كُلُّهمْ   كأحمرِ عادٍ،ثمَّ تُرْضِعْ فتَفطِمِ (٤)

٨٥٨ : فتُغْلِلْ لكُمُ مالاَ تُغلُّ لأَهْلِها   قُرًى بالعراقِ مِنْ قَفيزٍ وَدِرْهَمِ (٥)

---

* ترجمة الشاعر : اقرأها فى ص ٨٨ .

التفسير اللغوى : (١) يخاطب الشاعر بأبياته هذه حى عبس وذبيان ، ويذكرهم بالأحداث الجسام التى نزلت بهم أثناء حروبهم . المرجم : المظنون من الرجم بمعنى الرمى بالرجام وهى الحجارة ، فالمعنى مجازى ، قال الزمخشرى : رجمه قذفه وشتمه ، ورجم بالظن ، ورجم به رمى به . (٢) تضرى : تعود وتدرب . فتضرم : فتشتعل .

(٣) تعرككم : تدلككم كناية عن الطحن . بثفالها : الثفال خرقة أو جلدة تبسط تحت الرحى ليسقط عليها الطحين ، والباء فى بثفالها بمعنى مع . تلقح : تحمل . كشافا : متتابعا . تنتج : تلد . فتتئم : فتجىء بتوءمين . (٤) الشؤم : ضد اليمن ، ورجل مشئوم ، ورجال مشائيم كرجل ميمون ورجال ميامين والاشأم أفعل تفضيل من الشؤم ، وجمعه الأشائم وأراد بأحمر عاد أحمر ثمود ، وهو عاقر الناقة ، واسمه قدار ، وقد تجوز ، إذ ثمود يقال لها عاد الأخيرة ، والدليل قوله تعالى : « وأنه أهلك عادا الأولى » يعنى قوم هود .

(٥) تغلل : تخرج الأرض الغلة . القفيز : مكيال . درهم : ميزان ، وخص العراق لشهرتها بالغلات .

تحليل الأبيات :

صور الشاعر ويلات الحرب ونكباتها فى صور متعددة متجددة ، كل صورة منها كفيلة بدفع الناس عن ركوبها ، وحملهم على الابتعاد عن امتطاء أسبابها ، فقال :

ليست الحرب أيها المتحاربون شيئاً تجهلونه فأعرّفكم به ، فقد خبرتموها وخبرتكم ، وذقتم ويلها ، وأذاقتكم صابها ، وليس حديثى عنها بالحديث الذى يظن فيه الرمى بالغيب ، أو الرجم بالظن ، وإنما هو حديث الحق المشاهد .

إنكم إن تثيروها تثيروها دميمة ذميمة ، كريهة قبيحة ، فهى كالوحش المدرب على الفتك ، المغرى على النهش والقتل ، أو هى كالنار المشتعلة لا تبقى ولا تذر ، لواحة للبشر ، أو هى كالرحى لا تفتأ تطحن كل ما يقع بين شقيها ، أو كالناقة الشوهاء الولود تلد أشأم مولود ، أو هى أرض ذات غلة مرة المذاق ، لا تعقب الغنى وإنما تعقب الإملاق ، وتثمر رزايا تفوق فى كثرتها ماتثمره أرض العراق ، مما يكال أو يوزن ، فبئس هى من عدو للحياة والأحياء .

النقد :

هذه الأبيات فى وصف الحرب من أروع ما قال زهير ، وليس لشاعر جاهلى أو غير جاهلى فى وصف سوءاتها ما لزهير ، فقد جاء فيها بصور هى آية الروعة ورمز الإبداع ، ولعل ذلك لأن زهيراً كان يقول عن إيمان ، ويتحدث عن عقيدة ويقين ، فبلغ مابلغ من الإجادة والافتنان ، ذلك الذى لا يحتاج إلى الإيماء إليه ، والتدليل عليه ، ففى كل بيت صورة أو صورتان ، متكاملة الظلال والألوان كقوله :

فتعرككم عرك الرحى بثفالها ‏ ‏ ‏ ‏ وتلقح كشافا ثم تحمل فتتئم

٢ — وقال امرؤ القيس* يصف الحرب وسوء عواقبها .

الحربُ أولَ ماتكونُ فَتَيَّــــةٌ تَبدُو بزينتها لكلِّ جَهولِ

حتى إذا حَمِيتْ وشبَّ ضِرامُها عادتْ عجوزاً غيرَ ذاتِ خليلِ

شمطاءَ جزَّتْ شعرَهَا وتَنكَّرَتْ مَكرُوهةً لِلَّثمِ والتَّقبيــــلِ ٨٦١ :

تحليل الأبيات :

الحرب فى أول أمرها شابة فتية، فيها حسن وخلابة وفتنة ؛ لأنها توحى بالظفر والنصر وطيب الأحدوثة ؛ حتى إذا وقع الناس فى لهيبها ، وحمى وطيسها ، واشتعل ضرامها ظهرت على حقيقتها عجوزا نكراء لا تبقى على حليل ، ولا تحتفظ بخليل ، وكيف ذاك ؟ وهى تتخذ منهم غذاءها ، فدماؤهم شرابها ، ولحومهم طعامها ، إنها تبدو شمطاء شوهاء ، قبيحة المنظر ، دميمة المرأى ، قد جزت شعرها فزادها ذلك نكرا ، وتنكرت لمن كانت تزعمهم أصدقاءها ، فعادت مكروهة للثم والتقبيل .

النقد :

مارس امرؤ القيس الحرب أعواما ، فعرفها على حقيقتها ، فهى تغرى وتغوى ؛ تغرى بالنصر ، وتغوى بالظفر والغنيمة ، تبدو فى زينة فاتنة ، وصورة ساحرة ، ولكنها ماتلبث أن تظهر على حقيقتها ؛ تنال من الغالب والمغلوب ، وتأخذ من الطالب والمطلوب ، فهى كالداهية العجوز توقع فى الشباك بعد أن تنصب الأشراك .

والجميل فى هذه الأبيات أن امرأ القيس استمد صوره من المرأة شابة وعجوزا ، والمرأة هى أول من أثار الشرور ، وحمّل الأوزار ، وما أشبه قول امرئ القيس بقول سيدنا سليمان عليه السلام : الشر حلو أوله ، مر آخره .

ترجمة الشاعر : انظر ترجمته فى ص ١٠٩

التفسير اللغوى : (١) فتية : شابة . (٢) شب ضرامها : اشتعل لهيبها . خليل : صديق . (٣) شمطاء : اختلط بياض شعرها بأسوده . تنكرت : تغيرت .

خاتمة عن خصائص الوصف فى العصر الجاهلى

الآن وقد عرضنا الوصف فى العصر الجاهلى بجميع صوره عرضا مبسوطا ، سواء من ناحية فنونه ، أم من ناحية أخيلته وأفكاره، أم من ناحية نظمه وتنسيقه نستطيع أن نحكم عليه بما يأتى :

١ — الوصف هو أقدم فنون الشعر على الإطلاق ، لا نستثنى منها فنا ؛ وذلك لأن العربى شديد الحساسية بالجمال ، قوى الشعور بالحسن ، فهو مدفوع إلى التعبير عن حسه بالوصف ، مضطر إلى تصوير شعوره بالشعر ، وليس من اللازم اللازب أن يكون الشعر مستقيما فى أوزانه ، فهذا عبيد بن الأبرص ، وهو من أبرز شعراء ذلك العصر يبدو الاضطراب فى شعره أحيانا .

٢ — يلتزمون الصدق فى أوصافهم ، والحقيقة فى أوضح صورهم ، وليس معنى هذا أن الوصف يتجافى مع الخيال ؛ فهو يعتمد على الخيال إلى حد بعيد ، إذ الصدق لا ينافى الخيال ؛ فعنترة حين يقول مثلا :

يَدعونَ عنترَ ، والرِّماحُ كأنَّها　　أشطانُ بئرٍ فى لَبَانِ الْأَدْهَمِ
مازِلْتُ أَرْمِيهمْ بِغُرَّةِ وَجْهِهِ　　ولَبَـــانهِ حتَّى تَسرْبلَ بالدَّمِ
فازْوَرَّ مِنْ وَقعِ القَنَا بلَبانِهِ　　وشكا إلَىَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمْحُمِ
لوْ كانَ يَدرى ماالمحاورةُ اشْتَكى　　ولَكانَ لوْ عَلِمَ الْكلامَ مُكلِّمى　　: ٨٦٥

صادق كل الصدق فى تصويره ، فإن الرماح تبدو مصوبة مستطيلة ؛ كأنها فى استطالتها أشطان البئر ، والدم قد يتطاير فيغطى وجه الجواد ، فكأنه متخذ منه سربالا ، والفرس الجواد يشارك فارسه فى حربه ، فليس بدعا أن يقول أرميهم بغرة وجهه ، وقد يتغير الفرس مما يلاقى ، ويشعر فارسه بازوراره وتغيره ، وقد يشكو بالحمحمة والعبرة فيثير فى نفس فارسه الأسى والأسف لشكواه ، ولو استطاع المحاورة والمجادلة لاشتكى وحاور وجادل .

كل هذا صدق خالص ، وهو مع ذلك خيال سامق .

إنهم صادقون فى وصفهم ؛ لأن وصفهم لا تكلف فيه ، و إنما هو صادر عن عاطفة وشعور ، وهذان هما مبعث الصدق ، يرى امرؤ القيس البرق يومض و يهتز بين الجبال والوديان ، فيشبهه بحركة اليدين فى سحاب مستدير كأنه الإكليل ، أو هو فى وميضه ولمعانه كمصابيح الراهب السخى على معبده ، فهو يهين سليطه و يضاعف زيته ، و يرفع ذباله المفتل ، والبيتان هما :

أصاحِ : ترى بَرْقاً أُرِيكَ وَميضَهُ   كلمعِ اليدَيْنِ فى حَبِيٍّ مُكلَّلِ
يُضِيء سَناه أوْ مصابيحُ راهبٍ   أهانَ السَّلِيطَ بالذُّبالِ المُفَتَّلِ

٣ — جميع شعراء هذا العصر لهم فى الوصف الفكرة الواضحة ، والمعنى القوى الناصع ، ولا يمنع ذلك أنهم يتفاضلون فى وضوح فكرهم ، ويتمايزون فى قوة معانيهم ، ونصاعة أخيلتهم ، إذ كيف لا نحكم بفضل عبيد بن الأبرص على الأعشى مثلا ، وقد جاء فى بيت واحد بمعنى فصله الأعشى فى بيتين ، فقال عبيد يصف المرأة بحرارة جسمها شتاء ، وخصره صيفا :

تُدْفِى الضَّجِيعَ إذا يَشْتُو وَتَخْصِرُهُ   فى الصيْفِ حِينَ يَطِيبُ البرْدُ لِلصَّاحِى

وقال الأعشى ، وقد يكون آخذا المعنى من عبيد :

وتبرُدُ بَرْدَ رِدَاءِ العَرُو   سِ رَقْرَقْتَ بالصَّيْفِ فيه العَبيرَا
وتسخنُ ليــــلةَ لا يَستطيعُ   نُباحًا بها الكلبُ إلاَّ هرِيرَا

٨٧٠ :

وقد مر بنا بعض الصور الغامضة التى عالجناها على نحو قد لا تحتمله ألفاظ البيت كقول عنترة :

فيها الكماةُ بنو الكماة كأنَّهُمْ   والخيلُ تَعثُرُ فى الوَغَى بِقَناها
شُهُبٌ بأيدِى القابِسينَ إذَا بَدَتْ   بأكُفِّهِمْ بهرَ الظَّلاَمَ سَناها

ولـكن الغامض من صورهم قليل لا يعتدّ به .

٤ — على الرغم من أن صورهم بسيطة غير مركبة ، فإنها رائقة الحسن رائعة الجمال ، فإن التركيب قد يكون صادرا عن تكلف وتصنع ، وليس شيء يفسد الشعر كهذين ، وقد مر بنا من الصور الجميلة فى بساطتها ، الرائعة فى سهولة مأخذها مافيه غنية عن الأمثلة.

٥ — بيئتهم معين وصفهم ، والعين الثرة لصورهم ، منها يستمدون تشبيهاتهم ، و يمتحون استعاراتهم ، وعليها يعتمدون فى كناياتهم ، لا فرق فى كل ذلك بين السيد الشريف ، والعبد الوضيع ، فكل مظاهر البيئة ملكهم جميعا ، وقد مر بك الكثير من المعانى المتشابهة التى اعتمدوا فيها على البيئة .

٦ — أكثر صورهم حسية ، إن لم نقل إنها جميعها حسية ، أخذوها مما يقع تحت سمعهم و بصرهم من أحداث الطبيعة ، وتقلبات الكون ، وتطورات الأيام ، ومن صور الإنسان والحيوان والجماد والنبات ، وهم شديدو التأمل لما يرون ، بعيدو التدبر لما يسمعون، وأى تأمل وتدبر أكثر من قول عنترة يصف ذباب الروض ؟

وخَلاَ الذُّبابُ بها فلَيْسَ بِبارحٍ غرِدًا كفعْل الشَّاربِ المترنِّمِ
هَزِجًا يَحُكُّ ذِرَاعَهُ بِذِراعِهِ قَدْحَ المُكِبِّ عَلَى الزِّنَادِ الأَجْذَمِ

وأى تأمل وتدبر أكثر من قول امرئ القيس يصف عيون الوحش وهو ينظر إليه حذرا ؛ لأنه يدرك أنه يسعى لصيده ؟

٨٧١ : كَأَنَّ عُيُونَ الوَحْشِ حَوْلَ خِبَائِنَا وَأَرْحُلِنا الجَزْعُ الَّذِى لَمْ يُثَقَّبِ

٧ — كان الوصف سجلا لكثير من عاداتهم وأخلاقهم وسياستهم ، وقد مر بنا الكثير من الصور الدالة على هذه العناصر الثلاثة ، فليس هناك ما يدعو إلى التكرار أو الإفاضة فيما هو فى متناول أيدى الجميع .

٨ — يميلون فى الوصف ـ بالذات ـ إلى الإطناب ، فقد يبدءون و يعيدون ، وقد عللنا ذلك بأن المعنى أطربهم ، فأرادوا إيراده فى أكثر من صورة واحدة ، وهم بذلك مخالفون لما كانوا يلتزمونه فى غير الوصف من الإيجاز البليغ .

فن الإطناب قول النابغة يصف سيوف آل جفنة :

ولا عَيْبَ فِيهِمْ غَيرَ أَنَّ سُيوفَهُمْ ... بِهِنَّ فُلولٌ مِن قِراعِ الكَتائِبِ
تُخُيِّرْنَ مِنْ أَزْمانِ يَوْمِ حَليمةٍ ... إلى اليَوْمِ قَدْ جُرِّبْنَ كُلَّ التَّجارِبِ
تَقُدُّ السَّلوقِيَّ المُضاعَفَ نَسْجُهُ ... وتُوقِدُ بالصُّفَّاحِ نارَ الحُباحِبِ

٩ — صورهم فى وصف الطبيعة المتحركة والساكنة تجمع بين الحركة والسكون ، والجلبة والهدوء ، وكأنى بهم يلائمون بين الصور وأسبابها ، و بين الحقيقة وخيالها ، وقد مرت بنا صور متنوعة ، ولكن ذلك لا يمنعنا أن نعرض صورا أخرى فيها حركة وجلبة ، وسكون وهدوء ، وملاءمة بين الصور ومصوراتها ، ومناسبة بين الأوصاف وموصوفاتها ، ألست تحس الصخب والضجيج ، والجلبة والاضطراب فى قول الحارث ابن حلزة اليشكرى ؟

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عِشاءً فلَمَّا ... أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لهمْ ضَوْضاءُ
مِنْ مُنادٍ ، ومن مُجيبٍ ، ومِنْ ... تَصْهالِ خَيْلٍ خِلالَ ذاكَ رُغاءُ

تشعر بهذا الصخب من المعنى ومن اللفظ ، ومن الأسلوب ، وهذه أبيات لعمرو بن كلثوم تحس فيها الصلابة والقوة لأن الموقف يقتضيهما :

بأيِّ مَشيئةٍ عمْرَو بنَ هِنْدٍ ... تُطيعُ بنا الوُشاةَ وتَزْدَرِينا ؟
بأيِّ مَشيئةٍ عمْرَو بنَ هِنْدٍ ... نَكونُ لِقَيْنِكُمْ فِيها قَطِينا ؟
تهدَّدُنا وتوعِدُنا . رُوَيْدًا ! ! ... متى كنَّا لِأُمِّكَ مُقْتَوِينا ؟
فإنَّ قَناتَنا يا عمْرُو أَعْيَتْ ... على الأعداءِ قَبلَكَ أَنْ تَلِينا
إذا عَضَّ الثِّقافُ بِها اشْمأَزَّتْ ... وَوَلَّتْهُ عَشَوْزَنَةً زَبُونا
عَشَوْزَنَةً إذا انقلبَتْ أَرَنَّتْ ... تَشُجُّ قَفا المُثَقِّفِ والجَبِينا : ٨٨٢

أليس خيالك سيصور لك ذلك الموقف وقد وقف عمرو متنكباً قوسه ، متقلداً سيفه ، مربد الوجه ، مختلج النفس ، يتخير الألفاظ تخيراً ، و يقذف بها عمرو بن هند كأنها قطع الصخر؟ إن خيالك لابد سابح بك فمريك هذا المنظر .

وانظر إلى الأعشى يصف كرم آل المحلق ، فيتخير أوسع الألفاظ معانى ، وأضخمها حروفا ، فيقول :

نَفَى الذَّمَّ عن آلِ المُحلَّقِ جَفْنَةٌ   كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ العِرَاقِيِّ تَفْهَقُ

يَرُوحُ فتَى صِدْقٍ وَيَغْدُو عَلَيْهِمُ   بِمَلْءِ جِفَانٍ من سَدِيفٍ يُدَفَّقُ

تَرَى القَوْمَ فِيهَا شَارِعِينَ وَدُونَهُمْ   من القَوْمِ وِلْدَانٌ من النَّسْلِ دَرْدَقُ

فإذا ذكر الخمر رق وعذب ، وأسمعنا لفظا كأنه مقتبس من رقتها ، وعرض علينا صوراً توحى بمجلس أنس لجماعة من فتيان هذا العصر ، كقوله :

نَازَعْتُهُمْ قُضُبَ الرَّيْحَانِ مُتَّكِئاً   وَقَهْوَةً مُزَّةً رَاوُوقُهَا خَضِلُ

لا يَسْتَفِيقُونَ مِنْهَا وَهْيَ دَائِرَةٌ   إِلَّا بِهَاتِ ، وَإِنْ عَلُّوا وَإِنْ نَهِلُوا

وهذا عنترة الرجل الغليظ القلب ، يسيل رقة عند مايناجي عبلة فيقول :

أَعَبْلَةُ قَدْ زَادَ شَوْقِي وَمَا   أَرَى الدَّهْرَ يُدْنِي إِلَيَّ الأَحِبَّهْ

وكم جَهْدِ نائبةٍ قد لَقِيتُ   لِأَجْلِكِ يابنتَ عمِّي وَنَكْبَهْ

فَلَوْ أَنَّ عَيْنَكِ يومَ اللِّقَاءِ   تَرَى مَوْقِفِي زِدْتِ لِي فى المَحَبَّهْ : ٨٩٠

١٠ — لم يكونوا فى أوصافهم للطبيعة الساكنة يطيلون ، وقد عللنا ذلك قبل ، وإذا كان منهم من أطال فإن إطالتهم فى موضوعات خاصة كوصف الخمر ومجالسها فى شعر الأعشى وأضرابه ، ووصف الحرب وأسلحتها فى وصف الشعراء الفرسان ، ونحن إذا ضممنا هذه الخصائص إلى ماسقناه عن الطبيعة المتحركة والساكنة بدت لنا خصائص الوصف كاملة تامة .

وبعد فأرجو أن أكون قد بلغت الغاية التى رميت إليها من عرض صورة واضحة للوصف فى العصر الجاهلى تتيح للدارس الحكم السليم على منزلة الشعر العربى وبخاصة الوصف بين آداب الأمم عامة .

وأرجو أن يهب لى الله القوة لإظهار بقية أجزاء هذا الكتاب لتتم بإظهارها حلقة لامعة فى سلسلة الأدب العربى .

وعلى الله قصد السبيل .

أهم المراجع التي اعتمدنا عليها في هذا الكتاب

(ا) كتب أدبية :

الأغانى : لأبى الفرج الأصفهانى .
الأمالى : لأبى على القالى .
البيان والتبيين : للجاحظ .
الحماسة : للبحترى .
الحيوان : للجاحظ .
الروائع : لفؤاد البستانى .
الشعر والشعراء : لابن قتيبة .
الصناعتين : لأبى هلال العسكرى .
العقد الفريد : لابن عبد ربه .
العمدة : لابن رشيق .
المثل السائر : لابن الأثير .
المفضليات : للضبى .
المعلقات السبع : للزوزنى .
المعلقات العشر : للتبريزى .
المعلقات العشر : للشنقيطى .
النثر الفنى : للدكتور زكى مبارك .
الوسيط : للأستاذين السكندرى وعنانى .
تاريخ آداب اللغة العربية : للأستاذ السباعى بيومى .
» » » » : » جورجى زيدان .
» » » » : » محمد هاشم عطية .
جمهرة أشعار العرب : لأبى زيد القرشى .

دواوين الشعراء :

ديوان امرئ القيس .
» الأعشى .
» النابغة .
» زهير .
ديوان طرفة .
» علقمة .
» الحماسة : لأبى تمام .
ساعات بين الكتب : للأستاذ العقاد .
شعراء النصرانية : للآباء اليسوعيين .
طبقات الشعراء : لابن سلام الجمحى .
فى الأدب الجاهلى : للدكتور طه حسين بك .
مجمع الأمثال : للميدانى .
مختار الشعر الجاهلى : للأعلم الشنتمرى .
مختارات البارودى .
مهذب الأغانى .
نقد الشعر : لقدامة بن جعفر .
نقد النثر : » » » .
نهاية الأرب : للنويرى .

(ب) كتب تاريخية وجغرافية :

تاريخ الأمم والملوك : للطبرى .
سيرة ابن هشام .
مروج الذهب : للمسعودى .
جزيرة بلاد العرب : لحافظ وهبه .
الرحلة الحجازية : للبتانونى .

(ح) كتب لغوية :

أساس البلاغة : للزمخشرى .
القاموس المحيط : للفيروزابادى .
المصباح المنير : للفيومى .
لسان العرب : لابن منظور .
المنجد : للأب لويس معلوف اليسوعى .
مختار الصحاح : للرازى .
نهاية ابن الأثير .

فهـــرس تراجم الشعراء حسب الحروف الأبجدية

فهـــــرس القوافى

فهـــرس الموضوعات

(تابع) فهرس الموضوعات

(تابع) فهرس الموضوعات

ندت أخطاء هينة على القارىء أن يتفضل بتصحيحها قبل القراءة

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٥	١٢	أ كبر	أ كثر
٦	٦	الحصا	الحصاد
٦	١٧	عهَدهم	عهد كم
٣٨	١٥	مقامة	مُقامُه
٨٨	٧	تُرده	تَرده
١٣١	١٠	ذو	ذات
١٥٩	٦	الشَّرَعْ	الشّرَعْ
١٧٠	٣	حِسكَل	حِسكِل
١٩٦	٦	النقل	النفل
٢٠٧	٢٠	وانصرفنا	وانصرفن
٢٠٨	١	متمكنا	متمكن
٢١٧	١٨	روائمٌ	روائمٍ
٢٣١	٦	إرازامُها	إرزامُها
٢٤٠	٢١	الدفع	الدمع
٢٤٦	١٧	ثعلبة ابن عمرو	ثعلبة بن عمرو
٢٤٩	٢٠	بهم	بها
٢٥٨	٥	بُرْثنه	بُرْثنه
٢٧٥	٦	يحكٌ	يحكٌ
٢٧٩	٤	شُّهادها	شُهادها
٢٩١	٢٠	فعانى	فعنى

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

بحمد الله تعالى قد تم طبع

الجزء الأول من

الوصف في الشعر العربي

(العصر الجاهلي)

القاهرة في { ٢٧ شـــوال سنة ١٣٦٨ هـ
{ ٢٢ أغسطس سنة ١٩٤٩ م

ملاحظ المطبعة | مدير المطبعة
محمد أمين عمران | رستم مصطفى الحلبي